

مَجْلَدُ الْإِسْلَامِ

فِي

الْقُرْآنِ وَالْإِسْلَامِ وَالْأَحْكَامِ

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

دار الأمل الدولية
للنشر والتوزيع

(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د/ فرحان بن عبيد الشمري

falaslmi@gmail.com

فرع الجبراء: مجمع جديع المخيال - الدور الأول مقابل جمعية الجبراء

هاتف: ٢٤٥٥٧٥٥٩ - ٩٦٩٩٩١٨٢ / ٠٠٩٦٥

فرع حولي: شارع المثني - بجوار مجمع البدري

هاتف: ٢٢٦٤١٧٩٧ - ٩٨٨٥٦٥٠٥ / ٠٠٩٦٥

مَجْلِسُ الْإِسْلَامِ

فِي

الْقُرْآنِ وَالْإِسْلَامِ وَالْأَحْكَامِ

إِشْرَافَ

أَحْمَدَ بْنَ سُلَيْمَانَ الْيُوسُفِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعد،

فمنذ ما يزيد على خمسة وعشرين عاماً وقع في يدي رسالة للعلامة الأمين الشنقيطي بعنوان "محاسن الإسلام"؛ مستلة من تفسيره "أضواء البيان" وقرأتها وتأثرت بها تأثراً شديداً، وعجبت من عرضه لأمر عدها البعض مثالب ومعايب على الدين؛ فإذا بها في هذه الرسالة من المحاسن التي يتحلى بها ديننا، وكنت حينها صغيراً تختلط عليّ الأمور، وربما تمر الشبهة علي فأظل حبيساً بها في مكتبي أدفعها بقلبي وأجاهد بها فكري حتى تزول وتتلاشى كلما ازددت علماً وتأصيلاً، ومن حينها تراودني الكتابة والجمع في مسألة إبراز محاسن الشريعة وما في الملة المحمدية من الخصائص الحميدة والمناقب الفريدة، ولن تراها في أي قانون أو ملة أخرى قديمة أو حديثة.

ومن عشر سنوات خلت أثرت شبّهات حول الشريعة الغراء؛ فشمرت عن ساعد الجد للرد على السفهاء، فكانت موسوعتنا المباركة الموسومة بـ **"محاسن الإسلام والرد على شبّهات اللئام"** وطبعت بحمد الله أكثر من طبعة لدار إيلاف المباركة، وقد جهدت فيها لبيان مناقب الدين في كل ما أثير حوله من خرافات المشككين، والرد على أهل الزيغ المارقين.

ولكن كان اهتمامي على جوانب الشبّهات والرد عليها من خلال بيان الحُكْم والحِكم من الأحكام؛ فلم أتبع كل جوانب العقيدة والأحكام لبيان ما فيها من المزايا وما ينير الأفهام، فكانت هذه الرسالة باقورة الأعمال لبيان أهمية الشرع للأنام، وأن كل أحكامها لا يختلجه خطأ أو تناقض أو نسيان؛ فهي متناسقة البنيان، قوية الأركان، صالحة لكل مكان وزمان،

وإن قضية إبراز محاسن شريعة الإسلام أضحت قضية محورية في حياتنا، لما لهذه القضية من أهمية قصوى في هذه الأزمان نظراً لعدة أسباب، منها:

- ❁ جهل بعض أبناء المسلمين بمزايا الشريعة.
- ❁ كثرة الشبهات المثارة حول أحكام الدين.
- ❁ طغيان المناهج الغربية على مجتمعات المسلمين بما جعلهم ينظرون إلى التراث بأنه تاريخ وليس منهج نجاة.
- ❁ تثبيت أفئدة المؤمنين ببيان مزايا هذا الدين العظيم.
- ❁ كثرة الفتن التي تعصف بثوابت الشريعة وتأثر البعض بها، ووضعها تحت الاختبار للقبول أو الرد.
- ❁ إظهار جانب سمو الإسلام بصورة عصرية تتناسب مع العرض للمسلمين ولغير المسلمين، مع وضع اعتبار إمكانية ترجمة الكتاب إلى عدة لغات ليعظم النفع به.
- ❁ عرض قضية محاسن الدين في قالب ذكر الشيء وضده وبضدها تمييز الأشياء.
- ❁ الدفاع عن الشريعة بصورة نقية بعيدة عن ذكر الشبهات، لإبراز جمال ما في دين الإسلام من الشمول والكمال في تشريعاته.
- ❁ وهذا المشروع هو عبارة عن بيان مقاصد جزئيات الشريعة وليس المقاصد العامة.

فغالب من كتب في المقاصد كتب في الأصول والكلديات الجامعة، أما مبحثنا فيتعلق بجزئيات الشريعة في العقائد والأحكام والفضائل والأخلاق، وهو مبحثٌ عزيزٌ قل من تكلم فيه إلا ما يذكره العلماء في ثنايا كتب الفقه والأحكام، فيذكرون محاسن الباب الذي يشرحونه، وقد تميز بعض أهل العلم بهذا الجانب، ولذا سنهتم بإبراز ما كتبوه في مصنفاتهم مثل: شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن

القيم، والشاطبي، وأبو حامد الغزالي في الإحياء، وولي الدين الدهلوي في حجة الله البالغة، والقفال في محاسن الشريعة له، وابن رشد، والشنقيطي، والسعدي، والسلمان، والبسام، وغيرهم.

ولا شك أن الاستفادة من كتابات السابقين والراسخين من أهل العلم وعرضها بطريقة يسيرة مرتبة ومختصرة؛ له نفع كبير، وفائدة عزيزة.

ولم أستقص في كتابات القوم، وإنما أشرت إلى أظهر ما كتبوه، فهذا العمل أنا أعدته نواة لمشروع علمي كبير جامع لكل تفاصيل محاسن الشريعة في جزئيات العقائد والأحكام، فإن أمد الله في الأجل ويسر لنا سبل العمل نهضنا مشمرين ومجتهدين لتحقيق هذا الأمل.

هذا؛ وأسأل الله أن يتقبل سعينا، ويحفظ علينا إيماننا وعقيدتنا، ويثبت على الطريق قلوبنا.

وإني أشكر إخواني الباحثين في دار العلم على جهدهم في المشاركة لجمع مادة الكتاب؛ فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله.

هذا وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه

كتبه

أحمد بن يوسف الأيوبي

في جمادى الأولى لعام ١٤٤٣ هـ

بمسكني بمدينة بليس

الباب الأول: محاسن الإسلام عمومًا

لا بد أن نتعرف أولاً على معنى الإسلام لغة واصطلاحاً، الذي هو محور قضيتنا وغاية شغلنا

الإسلام لغة: الاستسلام لأمر الله تعالى، والانقياد لطاعته، والقبول لأمره. ^(١)

والإسلام في الاصطلاح الشرعي: هو الانقياد والخضوع والإذعان لله تعالى، بامثال أمره واجتناب نهيه من جميع الجهات الثلاث: إذعان القلب وانقياده بالاعتقاد والقصد، وإذعان اللسان وانقياده بالإقرار، وإذعان الجوارح وانقيادها بالعمل. ^(٢)

❁ بيان معنى الإسلام:

يجيء لفظ الإسلام في لسان الشرع مراداً به الدين كله الذي جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العقائد والأعمال والأحكام، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ولقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بني الإسلام على خمس... الخ" ^(٣).

❁ وبمعنى الانقياد والإخلاص:

الإسلام الذي سمي به الدين معناه: الانقياد لله تعالى ظاهراً وباطناً، والإخلاص له فيهما، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ

(١) العين (٧/ ٢٦٦)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ١٩٥٠).

(٢) منهج التشريع الإسلامي وحكمته (ص: ٥١)، تعرف على الإسلام (ص: ٤).

(٣) البخاري (٨)، ومسلم (١٦) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا به.

إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ [النساء: ١٢٥] ولقوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ [البقرة: ١١٢]، ولقوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَطَعْتُ اللَّهَ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

❁ تسمية الدين بالإسلام:

الدين كله انقياد لله وإخلاص له، ولذلك سمي إسلامًا، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥]

❁ والإسلام يأتي أيضًا بمعنى الأعمال الظاهرة:

ويجيء الإسلام في لسان الشرع أيضًا بمعنى الأعمال الظاهرة الدالة بحسب الظاهر على الانقياد والإذعان المبنية على التصديق التام، لما جاء في حديث سؤال جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، قال: "يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال جبريل: صدقت." ^(١)

ويجيء الإسلام بمعنى الاستسلام في الظاهر دون إيمان في القلب، وهذا لا ينفع صاحبه، لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. ^(٢)

والإسلام بمعناه العام هو إسلام الوجه لله والخلوص من الشرك وأهله، أي: التوجه الكامل إلى الله، والخضوع الكامل لأوامر الله.

يقول الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ سورة البقرة: ١١٢.

(١) مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، والترمذي (٢٦١٠).

(٢) العقائد الإسلامية لابن باديس (ص: ٤٧).

ويقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ﴿١٢٥﴾ سورة النساء: ١٢٥.

وإسلام الوجه لله، بمعنى إسلام النفس كلها لله، هو الأمر الذي يطلبه الله من البشر كافة بما أنه هو خالقهم سبحانه وخالق هذا الكون كله والمتصرف فيه وحده. فهو حق الإله على الخلق، وهو كذلك مقتضى عبودية الخلق لربهم وخالقهم.

وهذا الإسلام هو الذي كان عليه آدم ونوح والنبيون من بعده إلى محمد صلى الله عليه وسلم، حيث كان الاعتقاد واحدًا وإن اختلفت الشرائع في الأحكام الفرعية؛ وكان عليه كذلك كل من اتبع الأنبياء منذ مولد البشرية.

جاء في القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١].

ويقول الله عن التوراة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ [المائدة: ٤٤].

ويقول عن يعقوب وبنيه: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٣٣﴾ [سورة البقرة (١٣٣)]

وجاء على لسان يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٠١﴾ سورة يوسف (١٠١)

فالإسلام بهذا المعنى العام هو دين الأنبياء جميعًا ودين المؤمنين بالله

ورسله من لدن آدم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ولكن الله تفضل على أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخصها باسم الأمة المسلمة، وباسم المسلمين، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]

وقد تحقق معنى الإسلام في هذه الأمة بأكثر مما تحقق في أي أمة من قبل حتى استحقت أن يصفها الله بقوله سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠].^(١)

وقد سمى الله الدين الحق الإسلام لأنه طاعة لله وانقياد لأمره بلا اعتراض، وإخلاص العبادة له سبحانه وتصديق خبره والإيمان به، وأصبح اسم الإسلام علماً على الدين الذي جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.^(٢)

قال الله تعالى: ﴿إِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].^(٣)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده، فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً، ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته والمشارك به والمستكبر عن عبادته كافر، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده، وهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره، وذلك إنما

(١) ركائز الإيمان (ص: ٨).

(٢) الإسلام أصوله ومبادئه (٢/ ١٠٥).

(٣) شرح كتاب فضل الإسلام (ص: ٤).

يكون بأن يُطاع في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت. ^(١)

ولحسن هذه الشريعة وكمالها أوجب الله على كل مكلف الدخول فيها ولم يقبل دينًا سواها:

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: من الآية ١٩)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: من الآية ١٥٣). قال مجاهد: "السبل: البدع والشبهات"

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى قَالَ مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى" ^(٢)

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَلَبٌ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيَهْرِيْقَ دَمَهُ" ^(٣)

فقوله: "وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ" أن الواجب على العبد التمسك بالإسلام والحذر من سنن الجاهلية. فالعمل في الإسلام ولو قل هو الذي ينفع، وأما الاجتهاد في غير إسلام وفي غير سنة يضر ولا ينفع، فالواجب على جميع المكلفين التمسك بالإسلام والتقييد بدين الله والسير عليه في كل شيء إخلاصًا لله ومتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ^(٤)

(١) تحكيم الشريعة وصلته بأصل الدين (ص: ١١).

(٢) البخاري (٧٢٨٠).

(٣) البخاري (٦٨٨٢).

(٤) شرح كتاب فضل الإسلام (ص: ٣).

❁ والإسلام بالإطلاق العام لا يتم إلا بالقول والعمل والمتابعة.

الإيمان والعمل، أو العقيدة والشريعة كلاهما مرتبط بالآخر ارتباطاً وثيقاً بالأشجار، أو ارتباطاً بالمسببات بالأسباب، والنتائج بالمقدمات.

ومن أجل هذا الترابط الوثيق يأتي العمل مقترناً بالإيمان في أكثر آيات القرآن الكريم.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

(سورة البقرة: ٢٥).

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة النحل: ٩٧). (١)

وإذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم والملة الحنيفة والشريعة المحمدية التي لا تنال العبارة كمالها ولا يدرك الوصف حسناتها ولا تقترح عقول العقلاء ولو اجتمعت وكانت على أكمل عقل رجل منهم فوقها، وحسب العقول الكاملة الفاضلة أن أدركت حسناتها وشهدت بفضلها، وأنه ما طرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها، فهي نفسها الشاهد والمشهود له، والحجة والمحتج له والدعوى والبرهان، ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهاناً وآية، وشاهدًا على أنها من عند الله وكلها شاهدة له بكمال العلم وكمال الحكمة وسعة الرحمة والبر والإحسان والإحاطة بالغيب والشهادة والعلم بالمبادئ والعواقب، وأنها من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده، فما أنعم عليهم بنعمة أجل من أن هداهم لها، وجعلهم من أهلها، وممن ارتضاهم لها؛ فلهذا امتن على عباده بأن هداهم لها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال معرّفًا لعباده ومذكراً لهم عظيم نعمته عليهم مستدعيًا منهم شكره على أن جعلهم من أهلها

﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] الآية، وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام، إيدانًا في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجًا عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووصف النعمة بالتمام إيدانًا بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار، وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة وحسن اقتران الكمال بالدين وإضافة الدين إليهم إذ هم القائمون به المقيمون له، وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم، فهي نعمته حقًا وهم قابلوها، وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص وأنه شيء خصوا به دون الأمم وفي إتمام النعمة بعلى المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والاحاطة فجاء أتممت في مقابلة أكملت وعليكم في مقابلة لكم ونعمتي في مقابلة دينكم، وأكد ذلك وزاده تقريرًا وكمالًا وإتمامًا للنعمة بقوله ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وكان بعض السلف الصالح يقول: ياله من دين لو أن له رجالًا. ^(١)

✽ فالشريعة جامعة لكل خصال الحق والعدل.

قال ابن القيم: ومن له ذوق في الشريعة وإطلاع على كمالها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد ومجيئها بغاية العدل الذي يسع الخلائق، وأنه عدل فوق عدلها ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح؛ تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها وفرع من فروعها، وأن من أحاط علمًا بمقاصدها ووضعها موضعها وحسن فهمه فيها؛ لم يحتج معها إلى سياسة غيرها ألبتة، فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها، وسياسة عادلة تخرج الحق من

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠٣).

الظالم الفاجر، فهي من الشريعة علمها من علمها وجهلها من جهلها. ^(١)

❁ فالإسلام هو أفضل الملل التي أنزلها الله على العباد.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أَجْرَاءَ فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدُوَّةٍ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ، فَعَمِلْتُ الْيَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ فَعَمِلْتُ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ فَأَنْتُمْ هُمْ، فَغَضِبْتُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا وَأَقَلَّ عَطَاءً؟! قَالَ: هَلْ نَقَصْتُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيَهُ مَنْ أَشَاءَ". ^(٢)

فالإسلام هو دين الله الذي به السعادة والنجاة، وأن العبد إذا استقام عليه وتمسك به له الجنة والكرامة، وأن اجتهادات العبد في صلاة وصوم أو غير ذلك على غير السنة لا تنفعه، ﴿أَيُّومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: من الآية ٣)، ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (آل عمران: من الآية ٨٥). فالواجب على جميع المكلفين التمسك بالإسلام والاجتهاد في طاعة الله تعالى، هذا هو طريق النجاة وهذا هو طريق السعادة، فالاعتقاد في الإسلام والسير عليه بالقليل خير من الاجتهاد الكثير على غير إسلام وسنة، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ^(٣)

١ - أنه ليس ديناً فقط بل هو دين ودولة.

إن الإسلام في حقيقته العليا الشاملة "دينٌ ودولة"، ومن المعلوم أن الدين يقوم - أولاً - على الإيمان بالله، ثم الإيمان برسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه خاتم

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية (٣ / ٣).

(٢) البخاري (٢٢٦٨).

(٣) شرح كتاب فضل الإسلام (ص: ٣).

الأنبياء والمرسلين، وأن الدين قد استقرت أسسه، وكُمِّلَ بنيانه على قواعده التشريعية الثابتة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان والأشخاص والأشياء.

وأما أن الإسلام دولة، فهذا هو الجانب العملي الذي يقوم على تنظيم الأوضاع لسلطات التنفيذ لتشريعات الإسلام وقواعده العملية التي جاء بها. فهذان الجانبان مرتبطان ببعضهما أشد الارتباط، بل هما ممتزجان امتزاجًا يُكوِّنُ حقيقة الإسلام الكاملة الشاملة. ^(١)

٢- مراعاتها لمقاصد المكلفين ومصالحهم.

قال سلطان العلماء العز: وقد علمنا من موارد الشرع ومصادره أن مطلوب الشرع إنما هو مصالح العباد في دينهم ودنياهم، وليست المشقة مصلحة. ^(٢)

وقد وقع بسبب الجهل بهذه المسألة الهامة غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به، فإن الشريعة مبناه وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أتم دلالة وأصدقها، وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهداه الذي به اهتدى المهتدون، وشفأؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل، فهي قرة العيون وحياة القلوب ولذة الأرواح، فهي بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة، وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد

(١) أسس الحكم في الشريعة الإسلامية للسدлан (ص: ٨).

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنعام (١/ ٣٧).

منها وحاصل بها، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها، ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا وطوي العالم، وهي العصمة للناس وقوام العالم وبها يمسك الله السماوات والأرض أن تزولا، فإذا أراد الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** خراب الدنيا وطى العالم رفع إليه ما بقى من رسومها، فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة. ^(١)

ولقد نزل الإسلام لتنظيم علاقة الإنسان بربه، وبأخيه الإنسان مسلماً أو غير مسلم، وبالكون الذي حوله، ووضع لذلك منهجاً متكاملًا، ومبادئ عامة، وقواعد كلية صالحة لكل زمان ومكان، لما لها من قابلية للتطوير والمعاصرة مع الحفاظ على الأصالة والثوابت. ^(٢)

قال الشاطبي: قد اتفقت الأمة بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس: وهي: الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وعلمها عند الأمة كالضروري، ولم يثبت لنا ذلك بدليل معين، ولا شهد لنا أصل معين يمتاز برجوعها إليه بل علمت ملاءمتها للشريعة بمجموعة أدلة لا تنحصر في باب واحد. ^(٣)

وقد لخص الشاطبي مقاصد الشريعة في كلمات فقال: "إنها - الشريعة - وضعت لمصالح العباد ^(٤)

٣- اعتبار المقاصد الثلاث التي بها صلاح معيشة الإنسان.

فالمقاصد الشرعية التي جاءت الشريعة بحفظها ثلاثة أقسام:

مقاصد ضرورية، ومقاصد حاجية، ومقاصد تحسينية.

(١) إعلام الموقعين (٣ / ٣).

(٢) الأسس والمبادئ الإسلامية للعلاقات الدولية (ص: ٢).

(٣) الموافقات (١ / ٣١).

(٤) الموافقات (٢ / ٥٣٨).

الضروريات: هي المصالح التي تتضمن حفظ مقصود من المقاصد الخمسة وهي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والمال، والنسب.

وهناك ضرورة سادسة، اعتبرت في الشرائع السماوية، وعند الأمم التي احتفظت ببقية من فطرة، وهي: حفظ العرض. ^(١)

وعرفها الشاطبي بأنها: ما لا بدّ منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين. ^(٢)

وأما الحاجة فهي: كل ما هو مفتقر إليها من حيث التوسعة، ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب، فإذا لم تراع دخل على المكلفين على الجملة الحرج والمشقة ولكنه لا يبلغ مبلغ الفساد العادي المتوقع في المصالح العامة وهي جارية في العبادات والعادات والمعاملات والجنايات

وأما التحسينية: فهي الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب الأحوال المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق وهي جارية في العبادات والعادات والمعاملات والجنايات، فهي أمورٌ راجعة إلى محاسن زائدة على أصل المصالح الضرورية والحاجية، إذ ليس فقدانها بمخل بأمر ضروري ولا حاجي، وإنما جرت مجرى التحسين والتزيين. ^(٣)

فمن أجل محاسن الشريعة؛ مراعاتها للضروريات التي بها قوام الناس وهي:

❁ **أولاً: حفظ الدين.**

الدين وضعه إلهي سائقٌ لذوي العقول السليمة إلى ما فيه خيرٍ الدنيا والآخرة. ^(٤)

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية (ص: ١٥٢)، الإسلام وضرورات الحياة (ص: ١٠).

(٢) الموافقات (٢/ ١٨).

(٣) الموافقات (٢/ ٢١-٢٢).

(٤) كشف الأسرار شرح أصول البزدوي (١/ ٥)، شرح كتاب الموافقات للشاطبي (١/ ٢٣١).

وحاصله في ثلاثة معان، وهي: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وهي: الدعاء إليه بالترغيب والترهيب. وجهاد من عانده أو رام إفساده. وتلافي النقصان الطارئ في أصله. (١)

فإن من أجل نعم الله على عباده أن حباهم بدينه القويم الذي لا حياة لهم بدونه في الدنيا ولا سعادة يوم الدين، يحل رضوانه على أتباعه الغر الميامين، وينزل سخطه بمن حاد عن صراطه المستقيم.

لذلك كان حفظ هذا الدين الضرورة الأولى التي لا حياة بدونها للبشر إلا إذا كانت حياة ضنك وشقاء.

وقد تعددت وسائل حفظ هذا الدين في كتاب الله، فمنها حفظ أصوله من التغيير والتبديل - أي حفظ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقد تكفل الله بحفظهما فحفظ كتابه المنزل من تحريف المبطلين وكيد الكائدين.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

وهيأ الله لسنة رسوله ﷺ علماء الملة من أهل الحديث الذين عنوا بتدوينه وحفظ أسانيده وتمحيص الصحيح من الضعيف، والصدق من الكذب. كما هيأ علماء أصول الفقه وأئمة لتأصيل الأصول وتقعيد القواعد ليؤخذ كل فرع من أصله، ويعود كل حكم إلى قاعدته.

ووفق أئمة الفقه في الدين لاستنباط الأحكام من أدلتها والتوفيق بين ما قد يظهر لأول وهلة من تعارض بينها

وفتح لهم باب الاجتهاد ليبينوا لكل حادثة تحدث حكمها، إما أخذاً له من النصوص العامة والمطلقة، وإما إعطاءً للنظير حكم نظيره.

وتوعد سبحانه وتعالى من كتم شيئاً من بيان هذا الدين للناس بأعظم الوعيد،

ليبقى الدين معلومًا عند الناس محفوظًا بالعلم والعمل في كل عصر وجيل
 قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَيِّنَتِهِ
 لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا
 فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

ومن وسائل حفظ هذا الدين، أمر الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** كل فرد من أفراد البشر
 أن يقوم بعبادة ربه التي فرضها عليه فرض عين وتوعد تعالى من توانى عنها
 بالوعيد الشديد.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ
 تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي
 سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

ومن وسائل حفظ هذا الدين أن فرض على القادرين الجهاد في سبيل الله
 لحفظه بالدعوة إليه والدفاع عنه، ورفع رايته في الأرض كلها.

كما قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ
 مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا
 الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا
 أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة: ٣٦].

وتوعد من لم يحفظ هذا الدين بالجهاد في سبيل الله.

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَقَاتِلْتُمْ
 إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي
 الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ

وَلَا تَصْرُوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ [التوبة: ٣٨ - ٣٩].

ومن وسائل حفظ هذا الدين أن فرض الله على الحكام أن يحكموا بما أنزل الله في كل شيء من حياة البشر وحكم على من لم يحكم به بالكفر والظلم والفسق.

ومن وسائل حفظه تبيين أحكامه: أصوله وفروعه، حلاله وحرامه، وواجبه ومندوبه ومكروهه، وقد بين ذلك كله رسول الله ﷺ قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى بأمر من ربه وذلك مقتضى الرسالة. (١)

وبحفظ هذا الدين الذي هو الضرورة الأولى من ضرورات الحياة تحفظ بقية الضرورات تبعاً لحفظه، لأنه يقتضى حفظها.

❁ ثانياً: حفظ النفس.

حاصله في ثلاثة معان، وهي: إقامة أصله بشرعية التناسل، وحفظ بقائه بعد خروجه من العدم إلى الوجود من جهة المأكل والمشرب، وذلك ما يحفظه من داخل، والملبس والمسكن، وذلك ما يحفظه من خارج. (٢)

قد جاءت نصوص الكتاب والسنة بتحريم الاعتداء على النفس وعد ذلك من كبائر الذنوب، إذ ليس بعد الإشراف بالله ذنب أعظم من القتل.

قال تعالى ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ﴿٩٣﴾ [النساء: ٩٣]

وأخبر سبحانه أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القتل من الكفر العملي، وذكر هنا وعيد القاتل عمداً، وعيداً ترجف له القلوب وتنصدع له الأفئدة، وتنزع منه أولو العقول.

(١) الإسلام وضرورات الحياة (ص: ٥)، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية (ص: ١٦٦).

(٢) الموافقات (٤/ ٣٤٧).

فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاء جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار، وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار. فعيادًا بالله من كل سبب يبعد عن رحمته.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد، على بعض الكبائر والمعاصي بالخلود في النار، أو حرمان الجنة. ^(١)

وقد وردت أحاديث كثيرة في تحريم الاعتداء على النفس والوعيد عليه، من ذلك: حديث عبد الله بن مسعود، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: "لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة". ^(٢)

فقد حرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دم المسلم إلا إذا أتى إحدى هذه الثلاث، ومنها قتل النفس بغير حق، ففيه تحريم الاعتداء على النفس بغير حق، وفيه أن جزاء من قتل نفسًا بغير حق القتل.

وقال ابن عمر: "إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها؛ سفك الدم الحرام بغير حله". ^(٣)

ولقد حرصت الشريعة على سد الذرائع المفضية إلى جلب المفسد وتفويت المصالح، فحرمت الاعتداء على المسلمين وحمل السلاح عليهم.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا" ^(٤)، وذلك لما يلزم من حمل السلاح من فتن، وقتل للمسلمين.

(١) تفسير السعدي (ص: ١٩٣).

(٢) البخاري (٣٨/٨) ومسلم (١٣٠٢/٣).

(٣) البخاري (٣٥/٨)، وانظر: الإسلام وضرورات الحياة (ص: ٤٣)، مقاصد التشريع الإسلامي (ص: ٣٧).

(٤) أخرجه البخاري (٧٠٧١)، مسلم (١٦٣).

وكثيراً ما تركز الشريعة الإسلامية على غرسِ المثل العليا، والأخلاق الفاضلة في النفوس، وتربي المسلمين عليها، وتحذر من ضد ذلك.

ولا تلجأ إلى العقوبات إلا في أضيق الحالات حفظاً لنظام المجتمع، ولدرء الفساد عنه.

ومن الوسائل التي شرعت لحفظ الأنفس إباحة المحظورات في حالة الضرورة إنقاذاً للأنفس من الهلاك. ^(١)

❁ ثالثاً: حفظ النسل، والنسب.

إن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** خلق الحياة الدنيا لعمارة الأرض على أساس منهجه ووفقاً لشريعته التي أرسل بها أنبياءه، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وخلق هذا الانسان فيها ليعمرها ويستغل فيها ما منحه الله من خيراتها، من بركات السماء وكنوز الأرض.

فكانت عمارتها تقتضي وجود هذا الانسان إلى يوم القيامة، وحيث إن مشيئة الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** اقتضت أن تكون الأعمار محدودة، حيث لا يمر -في الغالب- مائة عام قبل انقضاء الجيل الذي يعيش على الأرض؛ لهذا كان حفظ النسل ضرورة من ضرورات الحياة.

فقد امتن الله تعالى على عباده برزقه لهم بالبنين وبأولاد البنين الذين هم جميعاً امتداد لنسلهم، الذي يقومون بخدمتهم وينصرونهم على من يعتدي عليهم، كما امتن عليهم بأطياب الأرزاق الأخرى، من المال والطعام والشراب واللباس وغيرها، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢]

لقد علم رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أن لهذا الدين أعداءً يقفون له ولأهله

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية (ص: ١٩٨).

بالمرصاد، وأنه لا بد له من حملة يقومون بأمره وتكليفاته، يؤمنون به، ويعملون بشريعته، ويدعون إليه، ويجاهدون لرفع رايته.

كما علم **صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أن الله أعدّ لمن آمن به واتبعه في الجنة، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وعلم **صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أنه سينال مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة.

لذلك كله أحب **صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أن يكثر نسل أمته ليكاثر به ويباهي يوم القيامة إخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكره **صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أن يتزوج المسلم عقيمًا ولو كانت ذات حسب ومنصب.

كما روى معقل بن يسار، **رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ**، قال: جاء رجل إلى رسول الله **صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب ونسب إلا أنها لا تلد، أفأتزوجها؟ فنهاه، ثم أتاه الثانية، فنهاه، ثم أتاه الثالثة، فنهاه، وقال: "تزوجوا الولود الودود، فإني مكاثركم".^(١) فالمسلم يحافظ على النسل ويسعى في أسباب استمراره عبادةً لربه وطاعةً له، ورغبة في ثوابه، ولذلك لا يتردد في طلب النكاح والإكثار من الولد طمعًا في أن ينال ذلك الفضل العظيم في الدنيا والآخرة.

لا يخاف من انقطاع رزق، لأن الرزق قد تكفل به الخالق، ولا يثنيه تعب الكد على أولاده، لأنه مثاب على كده وتعبه.

إن حفظ النسل أعم من حفظ النسب، وحفظ النسب أخص، ولكن حفظ النسل معرض للخطر إذا ضيع حفظ النسب.

ولما كان حفظ النسل في دين الله لا طريق له إلا النكاح المشروع، أطلق كل منهما على الآخر، فتجد علماء المسلمين يطلقون هذا مرة، وذاك أخرى.

فحفظ النسب في الإسلام هو حفظ النسل، وحفظ النسل هو حفظ النسب.

(١) أبو داود (٥٤٢/٢) والنسائي (٥٤/٦)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٧٨٤)

وإن حفظ النسب في الإسلام ليس المقصود به التفاخر والتعالي من شريف الآباء والأجداد على وضيعها، فذلك أمر قد نفاه القرآن، ونفته السنة، وجعلا ميزان التكریم هو التقوى والتقرب إلى الله سبحانه، ونفع عباده.

وإنما قصد بالنسب في الدنيا تمييز شخص عن آخر، وتمييز أسرة عن أسرة، وشعب عن شعب لما يترتب على ذلك من المصالح.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

قال ابن كثير: فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء، وإنما يتفاضلون بالأمر الدينية، وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسول الله ﷺ. (١)

فالمقصود بالنسب التعارف، ويترتب على التعارف أحكام شرعية، فصلها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتضمنت ذلك كتب الفقه الإسلامي بالتفصيل. (٢)

❁ رابعاً: حفظ العرض.

وإن ألحق بالضروريات حفظ العرض فله في الكتاب أصل شرحته السنة في اللعان والقذف، هذا وجه في الاعتبار في الضروريات، وقد كملت قواعد الشريعة في القرآن وفي السنة فلم يتخلف عنها شيء. (٣)

المراد بالعرض الشرف، والأصل أن المؤمن مصون شرفه لا يجوز تناوله بما يقدح فيه. فلا يجوز سب المؤمن أخاه المؤمن، بل يجب تنزيه لسانه عن السب واللعن والشتيم، حتى لغير المسلم، كما تدل على ذلك عموم الأدلة.

روى أبو هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: "لا ينبغي لصديق أن

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٢٧).

(٢) الإسلام وضرورات الحياة (ص: ٧٥) مقاصد التشريع الإسلامي (ص: ٥٥).

(٣) الموافقات (٤/ ٣٤٧).

يكون لعاناً". (١)

وفي حديث عبد الله بن مسعود، **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أن رسول الله، **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قال: "ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء". (٢)

ولذلك نهى الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عن التنازع بالألقاب والسخرية والغيبة والنميمة.

كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا مِن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ١١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَبُوا أَنَّ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ أَحَبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ١٢﴾ [الحجرات ١١ - ١٢].

وقد حرّم الله سبحانه الأعراض كما حرم الدماء والأموال، وخطب بذلك الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في آخر حياته والمسلمون في أعظم اجتماع لهم في حجة الوداع.

ومما قال في خطبته تلك: "فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، فليبلغ الشاهد الغائب". (٣)

ومن أشد السب ما يمس العرض من القذف بالزنا الذي هو من كبائر الذنوب، حرّمه الله تعالى وحرّمه رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وفرض الله على متعاطيه عقوبة زاجرة في الدنيا.

وهى جلد القاذف ثمانين جلدة، إذا لم يأت بأربعة شهود عدل يشهدون على صدق ما يقول، وإهانته بين الأمة بالحكم عليه بالفسق وعدم قبول شهادته

(١) مسلم (٤/٢٠٠٥).

(٢) الترمذي (٤/٣٥٠) وقال هذا حديث حسن غريب، وأخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين (٥٧/١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين؛ فقد احتجوا بهؤلاء الرواة عن آخرهم ثم لم يخرجوا.

(٣) البخاري (١/٣٧) ومسلم (٣/١٣٠٦).

لسقوط عدالته.

فأصبح هو فاقداً للشرف، بدلاً ممن أراد الطعن في شرفه، جزاءً وفاقاً.

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور: ٤].

وحذر الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** المؤمنين من الوقوع في عرض المسلم ورميه بما ليس فيه، وبين أن مرتكب ذلك ينال جزاءه في الآخرة وليس في الدنيا فقط.

فقال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١٥-١٩].

والقذف فيه جناية على الرجل والمرأة المتهمين، وعلى أسرتهما وأقاربهما وعلى المجتمع بأسره. وفيه طعن في نسب الولد الذي اتهمت أمه بالزنا، ولذلك ناسب ذكر هذا المبحث في نهاية هذا الفصل بعد إثبات أن حفظ العرض ضروري يجب حفظه، كما يجب حفظ النسل.

قال ابن قدامة: "القذف هو الرمي بالزنا، وهو محرم بإجماع الأمة. والأصل في تحريمه الكتاب والسنة.

أما الكتاب فقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: ٢٣].

وأما السنة فقول النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله، وأكل

الربا، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات". (١)

بل إن الشريعة أجازت بذل النفوس لحماية الأعراس؛ بدليل قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**:
"من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه
فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد". (٢)

❁ خامساً: حفظ العقل.

حفظ العقل يتناول ما لا يفسده وهو في القرآن ومُكَمِّلُه، شرعية الحد أو
الزجر، وليس في القرآن له أصل على الخصوص، فلم يكن له في السنة حكم
على الخصوص أيضاً فبقي الحكم فيه إلى اجتهاد الأمة. (٣)

جاءت الشريعة لحفظ العقل من جانبيين:

أ- من جانب الوجود:

أولاً: أن الله أكثر من ذكر العقل في كتابه، فقد ختم الله أكثر من أربعين آية
بمثل قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ونحو ذلك وما ذاك إلا للعناية
والاهتمام به، وتعظيم شأنه.

ثانياً: أن الله أمر بالتدبر والتفكير ولا يكون إلا بالعقل.

ثالثاً: أن الله جعل العقل مناط التكليف، قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**:
"رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْطِفْلِ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ
الْمَجْنُونِ حَتَّى يَبْرَأَ - أَوْ يَعْقِلَ -". (٤)

(١) المغني (٨٣/٩) والحديث في البخاري (١٩٥/٣) ومسلم (٩٢/١).

(٢) أبو داود (٤٧٧٢)، والترمذي (١٤٢١)، والنسائي (٧/١١٦ - ١١٧). وصححه الألباني في صحيح
الترمذي (١١٤٨). وانظر مقاصد التشريع الإسلامي (ص: ٥٥)، الإسلام وضرورات الحياة (ص: ٨٩).

(٣) الموافقات (٣٤٧/٤).

(٤) أخرجه أحمد (١١٨٣)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٩٧).

رابعاً: أن كل أمر جاء بالمحافظة على النفس يتضمن الأمر بالمحافظة على العقل لأنه جزء منها.

ب- من جانب العدم:

أولاً: تحريم الخمر:

وهذا يشمل كل مسكر لقوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "كل مسكر خمر وكل خمر حرام" ^(١)

ثانياً: تحريم المخدرات:

ويدخل في ذلك الحشيشة والأفيون، فهذه كلها مسكرة كما صرح به النووي وغيره، وإذا ثبت أن هذه كلها مسكرة أو مخدرة فاستعمالها كبيرة وفسق كالخمر، فكل ما جاء في وعيد شاربها يأتي في مستعمل شيء من هذه المذكورات لاشتراكهما في إزالة العقل المقصود للشارع بقاؤه، لأنه الآلة للفهم عن الله تعالى وعن رسوله والتميز به الإنسان عن الحيوان والوسيلة إلى إيثار الكمالات عن النقائص، فكان في تعاطي ما يزيله وعيد الخمر. ^(٢)

فالعقل من أعظم نعم الله على العبد، جعله الله فرقاً بينه وبين الحيوان بما أودع فيه من طاقة للحكم على الأمور، واستخلاص النتائج من مقدماتها، والغوص إلى معرفة الحقائق الكونية والاستدلال بها على عظمة الخالق سبحانه، وكمال قدرته وحكمته من خلال رؤية إتقان المخلوقات وإحكامها، وتمكينه من استغلال ما أودع الله في الكون من المصالح وفق مراد الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

والواجب أن يشكر الإنسان ربه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** على تلك النعمة العظيمة، التي لولاها لكان نوعاً من أنواع الحيوانات.

ولقد أكثر الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** من ذكر العقل أو ما يدل عليه كالأفئدة والقلوب،

(١) مسلم (٢٠٠٣).

(٢) مقاصد التشريع الإسلامي (ص: ٤٨)

أو ما هو من صفاته، كالتفكير للدلالة على ضرورته.

وأنه هو الأداة التي يستفيد بها الإنسان من فضل الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** الذي منحه أهل الأرض، سواء كان ذلك الفضل متعلقًا بمعيشته المادية بما يجنيه من بركات السماء وكنوز الأرض، أم بنشاطه الإنساني المستند إلى المنهج الإلهي الذي أنزله الله في كتابه أو بعث به رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

وأن الذي لا يهتدي بهذا المنهج، لا يستفيد بعقله في هذا الكون وما فيه من آيات، إلا كما يستفيد الحيوان من طعامه وشرابه، دون أن يدري من أين جاءه ذلك الطعام والشراب، ومن صانعهما، وما الحكمة التي اشتمل عليها وجود الإنسان نفسه، والفرق بينهما - أي الإنسان الذي لم يهتد بمنهج الله والحيوان - أن الإنسان خلق الله له عقلاً وكلفه وظيفتين:

وظيفة معاشه في الدنيا، من طعام وشراب ولباس ومسكن ومركب وغيرها.

ووظيفة القيام بعبادة الله طبقاً لمنهجه الإلهي.

فقام الإنسان بوظيفته الأولى التي تشبه وظيفة الحيوان، في كونها وظيفة حسية تفي بحاجته، مهما تطورت فإنها إلى زوال.

وترك وظيفته الأخرى التي تميزه عن الحيوان وتكسبه رضا الله ومثوبته في دار كرامته. ^(١)

❁ سادساً: حفظ المال.

قال الطاهر بن عاشور: وأما حفظ المال فطريقه التأدب بآداب الإسلام فيه، وذلك بالإمساك عن الإتيان المنهي عنه شرعاً، وحفظ أجزاء المال المعتبرة من التلف بدون عوض.

ولا يكون من هذا إلغاء بعض الأعواض من الاعتبار، ولا حفظ الأموال من الخروج من يد مالكيها إلى يد أخرى من أيدي الأمة بدون رضا؛ فإن تلك من الحاجي

(١) الإسلام وضرورات الحياة (ص: ٩١)، العقل عند الأصوليين (ص: ٢٠).

لا من الضروري. وحفظ الأموال الفردية يؤول إلى حفظ مال الأمة وبه يحصل. ^(١)

قال الشاطبي: وحفظ المال راجع إلى مراعاة دخوله في الأملاك وكنميته أن لا يف، ومكمله دفع العوارض، وتلافي الأصل بالزجر والحد والضمان، وهو في القرآن والسنة. ^(٢)

فالمال من الضروريات التي لا تستقيم مصالح العباد إلا بها المال، لأن به قيام مصالحهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥]

وقد حافظت الشريعة على المال بوسائل متعددة، فمن تلك الوسائل:

أ - من جانب الوجود:

أولاً: الحث على التكسب:

إذ فتح الله لعباده طرق التكسب المشروعة، ورغب العباد بسلوكها حتى يستغني المرء نفسه عن الناس، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]

ثانياً: كما رغب الله عباده في المال بذكر ما يحصل بسببه من المنافع:

فقد جاءت نصوص لا حصر لها في الكتاب والسنة في الحث على التصدق والترغيب فيه وبيان الأجر المترتب عليه، والسييل إلى ذلك بجمع المال.

ثالثاً: ومن حفظ الشريعة للمال أن بينت الغاية منه وهي تحقيق العبودية لله:

فالغاية من المال في الإسلام هو تحقيق العبودية لله تعالى، والتمتع بالطيبات للاستعانة بها على طاعة الله، فإذا لم يكن جمع المال محققاً لتلك الغاية فهو مذموم.

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر بن عاشور (٢/١٤٠).

(٢) الموافقات (٤/٣٤٩).

من جانب العدم:

أولاً: تحريم أكل الأموال بالباطل:

مثل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

ثانياً: تحريم إضاعة المال وتبذيره:

كما قال تعالى: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذِرْ بَذِيرًا﴾ (٢٦) ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (٢٧) [الإسراء: ٢٦ - ٢٧]

ثالثاً: مشروعية الدفاع عن المال والقتال من أجله:

كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ" (١)

رابعاً: مشروعية الحدود لحفظ المال:

فشرع الله تعالى حد السرقة على السارق، وهو قطع اليد، وحد الحرابة على المحاربين، وهو القتل أو الصلب أو القطع من خلاف أو النفي من الأرض. (٢)

والمقصود أن الذي يقع بيده المال، وهو يعلم أن المالك في الأصل هو الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وأنه مستخلف فيه، فلا ينفقه إلا فما يرضيه، ولا يجمعه إلا من حيث يرضيه، وأن أي تصرف يخرج عما يرضي الله في المال يكون تصرفاً غير مشروع.

إن الذي يعلم ذلك ويلتزم بإذن الله في جمع المال وإنفاقه، هو الجدير بحفظه، بخلاف الذي يغنيه الله، ولا يشعر بهذه القاعدة، فانه يتصرف في المال تصرف السفيه، وهو جدير بإضاعة المال، وإن زعم أنه يحفظه. (٣)

(١) البخاري (٢٤٨٠).

(٢) مقاصد التشريع الإسلامي (ص: ٥٨).

(٣) الإسلام وضرورات الحياة (ص: ١١٥).

فحفظ المال في الشريعة الإسلامية مبني على أربع قواعد عامة.

القاعدة الأولى: أن المال هو مال الله وماله، استخلف فيه الإنسان ليعمر به الأرض - كغيره من الوسائل التي منحها الله إياها ليقوم بعمارته.
وأن على الإنسان أن يسعى لتحصيل المال وكسبه، ليستغني به عن غيره من المخلوقين، وأن الأمة الفقيرة لا أمن لها ولا استقرار.

القاعدة الثانية: وجوب التزام السعي المشروع في طلب المال وكسبه واجتناب المكاسب المحرمة.

القاعدة الثالثة: وجوب التزام الطرق المشروعة في إنفاق المال.

القاعدة الرابعة: وجوب أداء الحقوق إلى أهلها.

وقد تضمن هذه القواعد كلها حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ينهي عن قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ".^(١)

٤- التيسير والترخيص ورفع الحرج عن المكلفين.

من المقاصد العامة في الشريعة التيسير: يعني التخفيف في الأحكام الشرعية بما لا يشق على المكلفين.

ويختلف الترخيص عن التيسير من وجهين:

- إن التيسير أعم من الترخيص، فقد يكون الحكم الشرعي ميسراً أصلاً.

- إن الترخيص سبب للتيسير، فإذا وقع الإنسان في مشقة فإن الشريعة ترخص له ليحصل له التيسير.

والتوسط، هو أن لا يذهب في الأمر إلى أحد طرفيه، فالتيسير والتوسط بمعنى واحد، وليس المراد بالتوسط، التوسط بين التشديد والتيسير ولكن بين التشديد

(١) البخاري (١٤٢/٨-١٤٣) ومسلم (١٣٤١/٣).

(الغلو، أو الإفراط) والتقصير (الإهمال أو، التفريط) فالعلاقة بين التوسط والتيسير علاقة ترادف.

قال تعالى ﴿هُوَ أَجْتَبَنَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]

قال ابن عباس: إنما ذلك سعة الإسلام وما جعل الله فيه من التوبة والكفارات.

وقال تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]

وقول النبي ﷺ: "أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفَةُ السَّمْحَةُ" (١)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْعَدَاةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ" (٢)

واليسر في الشريعة أقسام ثلاثة:

- ١ - تيسير معرفة الشريعة وسهولة إدراك أحكامها ومراميها.
- ٢ - تيسير التكاليف الشرعية من حيث سهولة تنفيذها والعمل بها.
- ٣ - أمر الشريعة للمكلفين بالتيسير على أنفسهم وعلى غيرهم. (٣)

٥- رفع الحرج في حال الضرورة:

وهي عند الفقهاء: بلوغ الإنسان حدًا إن لم يتناول الممنوع هلك أو قارب، كالمضطر للأكل واللبس بحيث لو بقي جائعًا أو عريانًا لمات، أو تلف منه عضو، وهذا يبيح تناول المحرم.

والدليل على هذا الضابط قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ

(١) صحيح البخاري (١/ ١٦).

(٢) صحيح البخاري (٣٩).

(٣) الإسلام وضرورات الحياة (ص: ١٧٢).

لَا تَمُرُّ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ [المائدة: ٣] فقوله: في مخمصة، أي: مجاعة شديدة تخمض فيها البطون أي: تضمض وتضيق، فقيد الله الضرورة بأنها حالة المخمصة وهي التي تؤدي إلى الهلاك. ^(١)

إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وسائر ما يدل على هذا المعنى؛ كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

وقوله: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقد سمي هذا الدين الحنيفية السمحة؛ لما فيها من التسهيل والتيسير. ^(٢)

٦- الحكم بالشورى.

قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

كما كان النبي ﷺ على عظيم قدره، ومنزلته وتأييده بوحى السماء، كان كثير المشاورة لأصحابه في كثير من الشؤون التي لم يُنصَّ عليها في القرآن. وكان النبي ﷺ يعمل بما يظهر له أنه صواب.

(١) مقاصد التشريع الإسلامي (ص: ٨٤).

(٢) الموافقات (١/٥٢٠).

كما ثبت أنه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** استشار المسلمين قبل أن يخرج لغزوة أحد، وأنهم أشاروا عليه بأن يخرج لقتال أعدائهم، وكان من رأيه أن يبقى في المدينة مدافعًا، ولكنه نفَّذ ما أشاروا عليه به، وخرج وانتهى الأمر بمحنة المسلمين، وفي هذا برهان على أن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يريد أن تكون سياسة المسلمين قائمة على مبدأ الشورى، فإذا كان النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** مأمورًا بالشورى، وهو الذي يمتاز بكماله العقلي والروحي واتصاله بالوحي الإلهي؛ فغيره أولى بالأمر بالأخذ بهذا الأساس العظيم.

قال ابن عطية: "الشورى بركة، وقد جعل عمر بن الخطاب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** الخلافة - وهي من أعظم النوازل - شورى.

وقال الحسن: والله ما تشاور قوم بينهم إلاّ هداهم الله لأفضل ما بحضرتهم.

وبوب البخاري في "صحيحه" باب المشاورة في الأمر لأهل العلم والأمانة والرأي لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] والمشاورة قبل العزم، ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد شاور النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أصحابه يوم بدر، وكان الأئمة بعد النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يستشيرون الأئمة من أهل العلم في الأمور المباحة؛ ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب والسنة؛ لم يتعدّوه إلى غيره اقتداءً بالنبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.^(١)

إن مهمة الشورى هي: تقليب أوجه الرأي واختيار اتجاه مناسب من الاتجاهات المعروضة، وهي خير وسيلة لتربية الأمم، وإعدادها للقيادة الرشيدة، وتدريبها على تحمل التبعات، وهي الدُعامة الأولى التي يقوم عليها نظام الحكم في الإسلام؛ فلا يجوز لحاكم، ولا لمجتمع أن يلغي الشورى من حياته السياسية والاجتماعية، ولا يحل لسلطان أن يقود الناس رغم أنوفهم إلى ما يكرهون بالتسلط والجبروت، كما هو حال كثير من القادة والرؤساء الذين يعميهم التعصب الممقوت والاستبداد بالرأي؛ فينزلقون إلى الشر ويجرّون وراءهم الأمم والشعوب إلى مهاوي الهلكة والدمار!!

(١) صحيح البخاري (١١٢/٩).

ولكن الشورى في الإسلام ربانية المصدر؛ فلا يجوز لحاكم أن يعطيها ليسيظ سلطان طغيانه على الناس. ^(١)

فليست الشورى في المجتمع الإسلامي على غرار الشورى في المجتمعات الديمقراطية؛ فهذه شورى ابتدعها الإنسان للتشاور في صيغة حكمه نفسه بنفسه؛ ولكن الشورى في الإسلام شرعت للتداول بين أصحاب العقول الراجحة من أهل الحل والعقد؛ للتوصل إلى الصورة المثلى في تطبيق حكم الله على البشر؛ كذلك فإن قاعدة الشورى تمثل أجلى مظاهر اليسر، والسماحة، والتوازن، بين الثبات والمرونة في الشريعة الإسلامية، فإذا كانت الشورى واجبة على المسلمين بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَبْنِيهِمْ﴾، وهذا يمثل عنصر الثبات والدوام، فإن تفصيل النظم الشورية والطرق التي تكون بها - مما يختلف باختلاف الأحوال والزمان والمكان - قد تُرِكَت لكل أمة تُنظِّمُهَا حسب الظروف والأحوال، حسبما يتفق ومصلحتها؛ فيستطيع المسلمون في كل عصر أن يُنَفِّذُوا ما أمر الله به من الشورى بالصورة التي تناسب حالهم وأوضاعهم، وتلائم موقعهم من التطور؛ دون تحديد شكل معين أو قيد يلزمهم بذلك، وهذا يمثل عنصر السعة والمرونة، واليسر والسماحة، والسبيل الأقوم للشورى في الإسلام. ^(٢)

٧- الحكم بالعدل.

العدل شعار الدين، إذا كان لكل دين شعار خاص به، وسمة تميزه عن غيره، فإن شعار ديننا الإسلامي الذي يميزه ويعين حقيقته: العدل، وهو الدُعاة الوطيدة والمزية الحقيقية للشريعة الإسلامية، ومن القيم الأصيلة الراسخة في المجتمع الإسلامي، وهو ميزان الاجتماع في الإسلام، يقوم به أبناء الجماعة، وإنه لعدل

(١) أسس الحكم في الشريعة الإسلامية للسدلان (ص: ١٦).

(٢) روح الدين الإسلامي عفيف عبد الفتاح طيارة (ص ٢٧٨)، من محاسن الدين الإسلامي (ص: ١٩)

فد فريد في تاريخ الأمم والشعوب، شهد بذلك كل من سمع به من سيرة الحكام والقضاة المسلمين، أو اطلع على النصوص القاطعة التي أمرت به أمرًا لا مجال للترخيص أو الاجتهاد فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [سورة النساء: ٥٨].

وهو عدل مجرد دقيق خالص، لا يميل ميزانه بالود والشنان، ولا يؤثر في نصاعته ميل إلى قرابة، أو نسب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة المائدة: ٨].

ولقد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في العدل حينما جاءه أسامة بن زيد يستشفع في المرأة المخزومية التي سرقت، فعن عائشة: أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِ يَةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ حُبِّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ ﷺ: "أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنْهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا" (١).

فالعدل في الإسلام عدلٌ مطلق، يطبق على الكبير والصغير، والشریف والوضيع، والأمير والسوقة، والمسلم وغير المسلم، ولا يفلت من قبضته أحد، وهذا مفرق الطريق بين العدل في المجتمع الإسلامي عن غيره من المجتمعات. (٢)

(١) البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

(٢) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (ص ٥٦).

وكما أن من مقاصد الإسلام رفع الحرج ودفع المشقة ورعاية مصالح الناس وأحوالهم، فإن من أهم مقاصده أيضاً تحقيق العدالة، ومنع الظلم بين الأفراد، والتزام العدل، والتوسط في الأمور كلها، وبحسب العادات: قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [سورة البقرة: ١٤٣].

قال القرطبي: المعنى، وكما أن الكعبة وسط الأرض، كذلك جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم، والوسط: العدل، وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها. ولما كان الوسط مجانباً للغلو والتقصير، كان محموداً: أي هذه الأمة لم تغل غلو النصراني في أنبيائهم، ولا قصرُوا تقصير اليهود في أنبيائهم.^(١)

قال الشاطبي: الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخِل تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال، بل هو تكليف جارٍ على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال؛ كتكاليف: الصيام، والصلاة، والحج والزكاة، وغير ذلك مما شرع على غير سبب أو لسبب.^(٢)

فالعدل في الإسلام من صميم التطبيق لأحكام الشريعة، وليس مبدأً مستقلاً عنها؛ لأن مصدره الوحي الإلهي من قرآن أو سنة نبوية أو اجتهاد المجتهدين الذين يستنبطون الأحكام من المصدرين السابقين بالقياس؛ بخلاف القانون الوضعي الذي يعتبر فكرة العدالة مصدراً مستقلاً خارجاً عنه، يلجأ إليه القاضي أخيراً ليستوحي القاعدة القانونية؛ ثم إن الشريعة مقاصدها تتصف بقوة الإلزام الذي تستمد من الشارع الحكيم بخلاف القانون الوضعي الذي يستمد مقاصده من سمو المبادئ التي تحتوي عليها والتي تختلف بسبب الزمان والمكان.^(٣)

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/ ١٥٥).

(٢) الموافقات للشاطبي (٢/ ١٦٣).

(٣) الضرورة الشرعية لوهابه الزحيلي (٤٧، ٤٨).

هذا وإذا كان العدل من السمات الأخلاقية المتميزة للدولة الإسلامية وشريعته، فإنه لا يقتصر على أفراد الدولة فقط - أعني المسلمين فحسب - بل إن عدالة الإسلام للإنسان بإطلاق أيًا كان أصله العرقي أو اللغوي أو طبقته أو عقيدته دون تمييز أو محاباة أو تحامل أو استعلاء. ^(١)

العدل صفة لازمة للرب في أوامره وتشريعاته وجزائه، ومظاهر عدل الله في شرائعه كثيرة، من أولها: أنه تعالى لا يحاسب الإنسان على ما لا يقدر عليه، بل لم يكلفه أصلاً بما يعجزه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

ومن عدله تبارك وتعالى أنه رفع التكليف بأحكام الشريعة عن الأطفال الذين لم يحوزوا كمال العقل الذي يجيز محاسبتهم، كما أسقطه عمن حُرِمَ نعمة العقل ابتداءً، يقول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يشبَّ، وعن المعتوه حتى يعقل." ^(٢)

كما يعفو الله عمَّن وقع في الخطأ من غير إرادته لذلك أو من وقع فيه مكرهاً أو ناسياً تحريمه، فقد قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه." ^(٣)

وإذا كانت الشريعة لا تحاسب من هو دون التكليف على خطئه؛ فإنه يعلم أنها - من باب أولى - لا تحاسبه على ذنب غيره، فالمرء مسؤول عن عمله الشخصي ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ

(١) أسس الحكم في الشريعة الإسلامية (ص: ٢٤)

(٢) أخرجه الترمذي ح (١٤٢٣)، وابن ماجه (٣٠٤٢)، وأحمد (٩٤٠) من حديث علي بن أبي طالب وصححه الألباني.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٠٤٣). عن أبي ذر الغفاري وصححه الألباني.

إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ (الأنعام: ١٦٤).

وأيضاً فإن شرائع الله تبارك وتعالى راعت - لعدالتها - الفروق بين الذكر والأنثى، فلم تكلف المرأة بما لا يلائم طبيعتها: كالجهاد والخروج من المنزل للتكسب والإنفاق وغيرهما مما لا يتناسب وأنوثتها، أو يخالف رونق حياتها وصفاء أحاسيسها. ^(١)

٨- المساواة بين البشر في التعامل ونبذ العصبية الجاهلية.

ومن أول الأشياء التي تنشأ عن عموم الشريعة، ويتوقف النظر فيها على تحقيق معرفة عمومها ومواقع ذلك العموم وكيفيته، المساواة بين الأمة في تناول الشريعة أفرادها، وتحقيق مقدار اعتبار تلك المساواة ومقدار إلغائها.

فالمساواة في التشريع أصل لا يتخلف إلا عند وجود مانع، فلا يحتاج إثبات التساوي في التشريع بين الأفراد أو الأصناف إلى البحث عن موجب المساواة، بل يكفي بعدم وجود مانع من اعتبار التساوي. ^(٢)

والمساواة هي الأساس للتفاضل بين البشر:

إن المساواة بين الناس تعد نتيجة حتمية لسيادة العدل بينهم، وهي ليست وليدة اجتهاد فردي، أو نتاج تفكير فلسفي، وإنما هي مبدأ أصيل، قرره الذي برأ الخلق والكون والحياة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمْ﴾ (سورة الحجرات: ١٣).

وهي قيمة وحيدة يرجح بها وزن الناس، أو يخف، وهي قيمة سماوية بحتة، يستمد منها الناس في الأرض قيمهم وموازينهم، ويضربون صفحاً عن القيم الأخرى من نسب وقوة وجاه ومال وغير ذلك من القيم التي يتعاملون بها،

(١) تعرف على الإسلام (ص: ٤٣).

(٢) مقاصد الشريعة الإسلامية (٣/ ٢٨١).

ويتفاوتون فيما بينهم في الأرض بسببها.

هذا هو الأساس الذي ولد قبل أربعة عشر قرنًا على يد الإسلام في بلاد العرب التي كانت تعد أشد الأمم تباهيًا بالأنساب. ^(١)

الإسلام انتشل الناس من وحل التفرقة العنصرية، والنعرات الجنسية، فإذا نظرنا إلى ما شرعه الإسلام من المساواة، فسنجد أنه لم يصل أي تشريع سماوي - فضلًا عن وضعي - في مبدأ الحرص على المساواة - إلى ما وصل إليه الإسلام؛ فالأمم قبل الإسلام وبعده إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، كانت تضع فروقًا عظيمة بين طبقات الأمة.

يقول صاحب كتاب "روح الدين الإسلامي": جاء في موسوعة لاروس في سنة (١٧٩٨م): كان يوجد عدم مساواة في توزيع المناصب العمومية وعدم رقابة عليها، فبذل وزراء لويس السادس عشر جهدهم لإجراء الإصلاحات التي تتطلبها الأمة، فلم ينجحوا ضد المقاومة العنيفة لرجال الدين والنبلاء، فرأت الأمة أنه لا يجدي في هذا الأمر غير ثورة تضع مكان جماعة قائمة على اعتبار الامتيازات، جماعة أخرى يسودها قانون المساواة بين الجميع، وبعض الأديان تقرر نظام الطبقة كالديانة البراهمية التي تقسم الأمة إلى طوائف أربع، ويجعل على هذه الطبقات البراهمية أو الكهنة، وأدناها السفلة، والبراهمي يجب احترامه بسبب نسبه وحده، وأحكامه هي وحدها الحجة، وله يد حين الحاجة أن يمتلك مال الواحد من السفلة؛ لأن العبد وما ملكت يده لسيده، وكان محرمًا على هذه الطبقة المنكودة أن يتصل أحدهم بشيء من الدين أو العلم، وإلا حل به عذاب غليظ، مثل صب الرصاص المصهور في أذنيه، وشق لسانه، وتقطيع جسمه، واليهود الذين يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه دون غيرهم - ساء ما يفترون - فرقوا في تشريعاتهم بين اليهود وغيرهم، فحرموا الربا بشدة بينهم، وجعلوه تجارتهم الرباحة الحلال بالنسبة لمن لم يكن منهم، والأمم الديمقراطية التي تدعي - كذبًا

(١) الشباب والحضارة (ص ٥٨).

- أن العالم الإنساني مدين لها بمبادئ المساواة، لا تزال في قوانينها وسياساتها تأتي بما يخالف هذا المبدأ كما في بعض الولايات الأمريكية، وجنوب أفريقيا، وكثير من المناطق الخاضعة للاستعمار الأوروبي، توجد الفوارق بين الطبقات والفرقة العنصرية بينهم، ويُجرد السود هناك من أبسط الحقوق الإنسانية. ^(١)

كان أول تطبيق عملي لحقيقة هذه الآية العليا ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ (سورة الحجرات: ١٣). في الوجود الإنساني، هو ما صنعه في الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ أنموذج الإنسانية الأعلى في حجة الوداع: "يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ". ^(٢)

وجعل ﷺ نفسه الكريمة وأقرب الناس إليه مثلاً أعلى لتطبيق دعامة المساواة الإنسانية تطبيقاً عملياً، ليبين عن معقد الفضل بالعمل الصالح، ليتنافس فيه المتنافسون، فقد زوج مولاه زيد بن حارثة ابنة عمته زينب بنت جحش، ثم تزوجها ﷺ بعد أن طلقها زيد؛ ليكون ذلك أساساً لتشريع المساواة في أعلى ذروتها، وأفضل صورها، وليقتلع به جذور الجاهلية من أصلها. ^(٣)

وليذهب الفوارق الطارئة على حقيقة الإنسانية، ولم يُبقِ إلا على ميزة العمل الصالح يقوم به المسلم فيسدي إلى مجتمعه الذي يعيش فيه خيراً وبراً وإصلاحاً؛ جاعلاً هذه الميزة هي مناط التفاضل والكفاءة نحو الأنساب والمصاهرة.

وهذا السمو الذي تحلى به الإسلام يزداد ظهوراً إذا قورن بما يجري بين الأمم اليوم من المعاملات التي تنافي الكرامة الإنسانية، بعد أن طغت الجاهلية،

(١) روح الدين الإسلامي (ص ٢٨٧ - ٢٨٨).

(٢) أحمد (٢٣٤٨٩). من حديث جابر بن عبد الله، وصححه الألباني في الصَّحِيحَة (٢٧٠٠).

(٣) المستدرك على الصحيحين (٦٧٧٥).

وأصبح الإنسان كله لا يساوي شيئًا من المذهب المادي المسيطر في روسيا زعيمة الدول الشرقية، ولا يقوم له وزن إلا برصيده من الدولارات في أمريكا زعيمة الدول الغربية!! وغيرهما من الدول التي لم تهتد بهدي الإسلام، وعانت ولا تزال تعاني من مشكلة الطبقات، ومعضلة الملونين!! ولكن الإسلام جاء بالمساواة الصحيحة المستقيمة، التي روحها العدل والرحمة، والتكافل في الحقوق. (١)

٩- أنه الدين الذي ارتضاه الله للعباد.

إن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لنفسه، وبعث به رسله، وأذن لخلقه بأن يعبدوه من خلاله، فكما لا يشابه الخالق المخلوق، فكذلك لا يشابه دينه - وهو الإسلام - قوانين الخلق وتشريعاتهم، وكما اتصف سبحانه بالكمال المطلق فكذلك دينه له الكمال المطلق في الوفاء بالشرائع التي تصلح معاش الناس ومعادهم، والإحاطة بحقوق الخالق سبحانه وواجبات العباد نحوه، وحقوق بعضهم على بعض، وواجبات بعضهم لبعض. (٢)

قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١١) [آل عمران: ١٩]

- وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

- وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ

(١) أسس الحكم في الشريعة الإسلامية (ص: ٣٣)، من محاسن الدين الإسلامي (ص: ١٩).

(٢) الإسلام أصوله ومبادئه (٢/ ١٤٩).

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢] الضمير لليهود والنصارى. والأمانى هي المتمنيات الباطلة.

والبرهان: الحجة والدليل. بلى: حرف تصديق، يختص بالإيجاب سواء كان ما قبله مثبتاً أو منفيّاً.

وأسلم: سلم وانقاد وتدين بالإسلام، وأسلم وجهه لله: أخلص له نفسه وقصده وعبادته. (١)

فأول خصيصة للشريعة الإسلامية أنها ربانية المصدر والغاية، فهي من الله، وتهدف إلى بلوغ رضاه، فالمسلم يستمد شرائعه المختلفة من مصدرين أصيلين، هما القرآن الكريم الذي أوحاه الله بحروفه، ثم السنة النبوية، وهي أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته التي أمر الله بالتأسي بها بقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧)، فالنبي يحمل رسالة الله إلى الناس، وما يقرره بقوله وفعله إنما هو بوحى الله وأمره: ﴿وَمَا يَطُّقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٣) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٤) (النجم: ٣ - ٤).

ومن هذين المصدرين وتأسيساً على قواعدهما اشتق العلماء عدداً من المصادر الفرعية للشريعة كالإجماع والقياس والاستصحاب والاستحسان والعرف وغيرها.

والخروج عن هذه المصادر إلى أحكام البشر إنما هو تحاكم إلى الهوى ومشاركة لغير الله في إحدى خصائصه تبارك وتعالى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٤) (الأعراف: ٥٤)، فكما خلق وحده فإنه يشرع وحده.

ومشاركة غيره له في التشريع اعتداء على حق الله بالتشريع، وهو استعباد لخلق الله، لذلك لما دخل عدي بن حاتم على النبي ﷺ سمعه يقرأ قوله تعالى:

(١) العقائد الإسلامية لابن باديس (ص: ٢٦).

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣١)، فاستغرب عدي، حتى فسره النبي ﷺ بقوله: "أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه" (١).

فعبادتهم لأحبارهم، ليس سجودهم وركوعهم لهم، بل الإذعان لما أحدثوه في الدين في مجامعهم التي جعلت من رجال الدين مشرعين مع الله.

وتهدف الشريعة إلى تحقيق رضا الله الذي شرع بحكمته البالغة للإنسانية ما يسعدها في دنياها وأخرها: ﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: ١)، وشريعته خير كلها، لأنها صدرت عن الله العليم بما يصلح أحوالنا وبما يناسب فطرتنا وتكويننا ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤)، وهي بهذه المثابة تسمو على غيرها من الشرائع البشرية التي يتلبسها قصور الإنسان وجهله وما يكتنف تشريعه من الهوى الذي يجعل المشرع البشري يميل بتشريعاته إلى حراسة مصالحه الشخصية والفئوية، كما هو الحال في تشريعات النظم العلمانية.

أما حين تكون الشريعة إلهية؛ فإنها لا تحابي في أحكامها جنسًا أو عرقًا أو لونًا، فالجميع عبيد لله متساوون أمام أحكامه: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَكُمْ فَاسْتَفِهُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (٤٨) وَأِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة: ٤٨ - ٥٠).

إن كون هذه الشريعة من الله يعطيها هيبة وسلطانًا في النفوس والضمائر

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣).

لا تجده في قانون ما، فالناس منقادون إليها بسلطة الإيمان الذي يملأ قلوبهم، منقادون إليها ظاهراً وباطناً، سرّاً وعلانية، يرقبون في ذلك كله جزاء الله الذي لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء.

وتتميز الشريعة في مسألة الجزاء عن غيرها من القوانين في أنها القانون الوحيد الذي يجازي في الدنيا والآخرة، فالمؤمن يلتزم حدودها، طمعاً في سعادة الدنيا التي يعيشها في جنات الطاعة والفضيلة، ثم هو موعود بحسن الجزاء في الآخرة، بالجنة التي أعدها الله للأتقياء من عباده، فلاجلهما معاً يمثل المؤمن قانون الشريعة ويلتزم به. ^(١)

١٠ - أنه دين الفطرة.

قال الله تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ أَلَيْسَ أَلَدِيماً وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: قَالَ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيَنْصَرَانِهِ وَيَمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟" ثُمَّ يَقُولُ: أَبُو هُرَيْرَةَ وَأَفْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ﴾ [الروم: ٣٠]. ^(٢)

يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الذي شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها، وكملمها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره.

والمراد بالدين دين الإسلام لا محالة، لأن الخطاب لمحمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فهو

(١) تعرف على الإسلام (ص: ٤١).

(٢) البخاري (١٣٥٨)، مسلم (٢٦٥٨).

مأمور بإقامة وجهه للدين المرسل به.

ومعنى إقامة الوجه للدين: القصد إليه والجدّ فيه، والمراد بوجهه جميع ذاته، فخصّ الوجه بالذكر لأنّه جامع الحواس وآلات الإدراك، والمراد من الدين: مجموع ما يسمى بالدين من عقائد وأحكام. ^(١)

فأله تعالى فطر خلقه على الإسلام، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية. ^(٢)

وفي الحديث عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: "إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حَنَفَاءَ كُلِّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَلَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا. ^(٣)

وإذ قد أراد الله بحكمته أن يكون الإسلام آخر الأديان التي خاطب الله بها عباده؛ تَعَيَّنَ أن يكون أصله الذي ينبنى عليه وصفًا مشتركًا بين سائر البشر، ومستقرًا في نفوسهم، ومرتاضةً عليه العقول السليمة منهم، ألا وهو وصف الفطرة، حتى تكون أحكام الشريعة مقبولة عند أهل الآراء الراجحة من الناس، الذين يستطيعون فهم مغزاها، فيتقبلوا ما يأتيهم منها بنفوس مطمئنة، وصدور مثلجة، فيتبعوها دون تردد ولا انقطاع، وحتى يتسنى لأرفعهم قدرًا في الفهم محاذاة نظائرها وتفرعات فروعها، وحتى يكون تلقّي بقية طبقات الأمة الذين لم يبلغوا مستوى أهل الآراء الراجحة إياها تلقّيًا عن طيب نفس، ويسهل امتثالهم لما يؤمرون به منها. ^(٤)

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية (٣/ ١٧٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٣١٤).

(٣) صحيح مسلم (٢١٩٧).

(٤) مقاصد الشريعة الإسلامية (٣/ ٢٦٠).

١١ - كمالها ودوامها فهي لا نقص فيها ولا خلل.

قال الإمام الشاطبي: "إن الشريعة جاءت كاملة لا تحتل الزيادة، ولا النقصان لأن الله تعالى قال فيها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة: ٣].^(١)

وهذا النص قاطع في كمال الشريعة ودوامها، بعد أن قطعت نصوص الشريعة بأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٠].

ومن يراجع أحكام الشريعة يجد أنها جاءت كاملة لا نقص فيها، شاملة لأُمُور الأفراد والجماعات والدول، فهي تنظم الأحوال الشخصية والمعاملات وكل ما يتعلق بالأفراد، وتنظيم شؤون الحكم والإدارة والسياسة، وغير ذلك مما يتعلق بالجماعة، كما تنظم علاقة الدول بعضها ببعض في الحرب والسلام.^(٢)

قال ابن حزم: صح يقيناً بخبر الله تعالى الذي لا يكذبه مؤمن، أنه لم يفرط في الكتاب شيئاً، وأنه قد بين فيه كل شيء، وأن الدين قد كمل، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد بين للناس ما نزل إليهم.^(٣)

فسبحان الله الذي فرض الفرائض وحرم المحارم وأوجب الحقوق رعاية لمصالح العباد في المعاش والمعاد، وجعل شريعته الكاملة قياماً للناس وغذاء لحفظ حياتهم، ودواء لدفع أدوائهم، وظله الظليل الذي من استظل به أمن من الحرور، وحصنه الحصين الذي من دخله نجا من الشرور، ولا إله إلا الله الذي في شرعه أعظم آية تدل على تفرده بالإلهية وتوحده بالربوبية، وأنه الموصوف بصفات الكمال، المستحق لنعوت الجلال، الذي له الأسماء الحسنى والصفات

(١) الاعتصام (١/ ٤٨).

(٢) الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه (ص: ١٦).

(٣) النبذة الكافية في أحكام أصول الدين (ص ٦١).

العلی، وله المثل الأعلى، فلا يدخل السوء في أسمائه ولا النقص والعیب في صفاته، ولا العیث ولا الجور في أفعاله، بل هو منزّه في ذاته وأوصافه وأفعاله وأسمائه عما یضاد كماله بوجه من الوجوه، تبارك اسمه، وتعالی جده، وبهرت حکمته، وتمت نعمته، وقامت علی عبادہ حجته، واللّه أكبر كبيراً أن یكون في شرعه تناقض واختلاف، فلو كان من عند غیر الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً

بل هي شريعة مؤتلفة النظام، متعادلة الأقسام، مبرأة من كل نقص، مطهرة من كل دنس مسلمة لا شية فيها، مؤسسة على العدل والحكمة، والمصلحة والرحمة، قواعدها ومبانيها، إذا حرمت فساداً حرمت ما هو أولى منه أو نظيره، وإذا رعت صلاحاً رعت ما هو فوقه أو شبهه؛ فهي صراطه المستقيم الذي لا أمت فيه ولا عوج، وملته الحنيفية السمحة التي لا ضيق فيها ولا حرج، بل هي حنيفية التوحيد سمحة العمل، لم تأمر بشيء فيقول العقل لو نهت عنه لكان أوفق، ولم تنه عن شيء فيقول الحجا لو أباحت لكان أرفق، بل أمرت بكل صلاح، ونهت عن كل فساد، وأباحت كل طيب، وحرمت كل خبيث، فأوامرها غذاء ودواء، ونواهيها حمية وصيانة، وظاهرها زينة لباطنها، وباطنها أجمل من ظاهرها، شعارها الصدق، وقوامها الحق، وميزانها العدل، وحكمها الفصل، لا حاجة بها ألّبتة إلى أن تكمل بسياسة ملك أو رأي ذي رأي أو قياس فقيه أو ذوق ذي رياضة أو منام ذي دين وصلاح، بل لهؤلاء كلهم أعظم الحاجة إليها، ومن وفق للصواب فلاعماده وتعويله عليها. ^(١)

١٢- الثبات والشمول.

معلومٌ بالضرورة من الدين أن شريعة الإسلام جاءت شريعة عامة داعيةً جميع البشر إلى اتباعها، لأنها لما كانت خاتمة الشرائع استلزم ذلك عمومها - لا محالة - سائر أقطار المعمورة، وفي سائر أزمنة هذا العالم.

(١) إعلام الموقعين (٣/ ١٦١).

والأدلة على ذلك كثيرة من نصوص القرآن والسنة الصحيحة، بحيث بلغت مبلغ التواتر المعنوي. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥١).

وفي الحديث عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: "أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَبِيبَةً وَطَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ عَلَى الْعَدُوِّ بَيْنَ يَدَيَّ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ".^(١)

ومما يؤكد عموم الشريعة وثبات أحكامها؛ قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

قال الإمام ابن كثير: "صدقاً فيما قال وعدلاً فيما حكم، يقول: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الطلب، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة، كما قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ أي ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لأقوال عباده ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحركاتهم وسكناتهم الذي يجازي كل عامل بعمله.

وهذا الحق والصدق والعدل الثابت التام الذي لا مبدل له والذي تمثله هذه "الشريعة الربانية" يقابله الضلال والظنون والباطل الذي تحمله شرائع البشر وأهوائهم. فبعد أن قرر الله سبحانه أن كتابه هو الحق الثابت الذي لا مبدل له؛ بين سبحانه أن أكثر أهل الأرض لا يتبعون إلا الظن والأوهام والباطل والضلال.

(١) البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١). مقاصد الشريعة الإسلامية (٣/ ٢٥٩).

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة النحل: ٨٩).

ومعنى هذه الآية، أن الله سبحانه لم يترك شيئًا إلا وبينه للناس، وجعل في هذا الكتاب دلالة عليه: "إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو من الإجماع أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب".^(١)

قال الشافعي: فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها.^(٢)

وقال ابن سريج: ليس شيء إلا ولله عَزَّجَلَّ فيه حكم؛ لأنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦] ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيمًا﴾ [النساء: ٨٥]

وليس في الدنيا شيء يخلو من إطلاق أو حظر أو إيجاب؛ لأن جميع ما على الأرض من مطعم أو مشرب أو ملبس أو منكح أو حكم بين متشاجرين أو غيره لا يخلو من حكم، ويستحيل في العقول غير ذلك، وهذا مما لا خلاف فيه أعلمه، وإنما الخلاف كيف دلائل حلاله وحرامه؟.^(٣)

ولم تأت الشريعة الإسلامية لوقت دون وقت، أو لعصر دون عصر، أو لزمن دون زمن، وإنما هي شريعة كل وقت، وشريعة كل عصر، وشريعة الزمن كله، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد صيغت نصوص الشريعة بحيث لا يؤثر على نصوصها مرور الزمن، ولا يبلى جدتها، ولا يقتضي تغيير قواعدها العامة، ونظرياتها الأساسية، فجاءت نصوصها من العموم والمرونة بحيث تحكم كل حالة جديدة، ولو لم يكن في الإمكان توقعها، ومن ثم كانت نصوص الشريعة غير قابلة للتغيير والتبديل، كما

(١) الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية (ص: ١١١، ص: ١٣١).

(٢) الرسالة (ص ٢٠).

(٣) البحر المحيط في أصول الفقه (١/ ١٢٩).

تتغير نصوص القوانين وتبديل. ^(١)

فالإسلام ببيان شمولي يغطي مناحي الحياة المختلفة، فهو دين عبادة، وهو أيضاً منظومة من الشرائع الأخلاقية والاجتماعية، والاقتصادية والسياسية التي تحقق سعادة الفرد والمجتمع في الدنيا ثم الآخرة.

إن الإسلام ينظم علاقات الإنسان المختلفة من لدن ميلاده إلى وفاته، وهو يحرس حقوقه حتى فيما قبل الميلاد وما بعد الوفاة، وأما ما بينهما فإنه يتناول بأحكامه تفاصيل سلوكه الشخصي بما يتضمنه من عادات وآداب، وهو يرشد أيضاً علاقة الإنسان مع أسرته ومجتمعه، لا بل يتناول حاله مع الكون كله بما فيه من حيوان وجماد.

أما على الصعيد الجماعي، فإن شرائع الإسلام تنظم المجتمع وتضبط حقوق من فيه وواجباتهم، وتنظم علاقة الدولة والأمة المسلمة مع القريب من الناس والبعيد: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩).

وتلبي هذه الشرائع حاجات الإنسان المختلفة، فهي تعنى بجسده، ولا تهمل روحه، تبتغي الآخرة، ولا تفرط في الدنيا، تربط المجتمع ولا تغفل مصالحه، وهي في نفس الوقت تحقق ذاتية الفرد وتحرس مصالحه وحقوقه، توازن عجيب، لا إفراط فيه ولا تفريط، وأي عجب، فذلك تقدير اللطيف الخبير.

إن هذه الثنائيات عبرت عنها نصوص عدة في القرآن والسنة، منها قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٧٧) (القصص: ٧٧) ^(٢)

(١) الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه (ص: ١٦).

(٢) تعرف على الإسلام (ص: ٤٥).

١٣ - أنه دين التسامح ومن ذلك.

❁ حرية الاعتقاد لغير المسلم:

إن الإسلام ضمن حرية الاعتقاد للمسلمين أولاً، ومنع الإكراه على الدين ثانياً، وقرر التسامح الديني مع سائر الأديان، مما لا يعرف التاريخ له مثيلاً، ويظهر ذلك في المبادئ التالية:

١ - حرية الاعتقاد لغير المسلم:

٢ - احترام بيوت العبادة:

إن الإسلام لا يلزم الإنسان البالغ العاقل على الدخول في الإسلام، مع القناعة واليقين أن الإسلام هو الدين الحق المبين، وأن عقيدته هي الصواب والصراط المستقيم، وأنها المتفقة مع العقل، ومع ذلك يترك للإنسان البالغ حرية الاعتقاد، واختيار الدين الذي يريده، على أن يتحمل نتيجة هذا الاختيار، لما ورد في الآية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وأكد القرآن هذه المعاني في عدة آيات، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. فالهداية من الله تعالى. والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والدعاة والعلماء من بعده، مجرد مبلغين وناصحين ومذكرين، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (الغاشية: ٢١ - ٢٢).

وبالتالي، فإن الإسلام يترك للإنسان حريته واختياره في العقيدة؛ لأن الإيمان أساسه إقرار القلب وتسليمه، وليس مجرد كلمة تلفظ باللسان، أو طقوس وحركات تؤدي بالأبدان.

ولكن القرآن دعا إلى إعمال العقل، وإجهااد الفكر لمعرفة الحق، والوصول

إلى الخالق الواحد الأحد، وحث لذلك على معرفة الحقائق، واكتشاف أسرار الكون، وخزائن الأرض، مما يجعل التفكير ليس مجرد حق، بل هو فريضة إسلامية وعقلية. (١)

وإن منهج الإسلام في المعاملة الإنسانية لا يفرق بين الناس في الدين والعقيدة، لذلك أوجب إقامة العدل بين جميع الناس، ومنع الظلم عامة، وحمى الدماء والأبدان والأموال والأعراض للمسلمين ولغير المسلمين، وأمر بالإنصاف ولو مع العداوة واختلاف الدين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى ءَلَّا تَعْدِلُوْا أَعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى وَاتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ يسأل القادمين من الأقاليم عن حال أهل الذمة، كما يسأل عن المسلمين والولاة والقضاة، وكان علي بن أبي طالب رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ يقول: "إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا"، وسار على هذا المنهج الخلفاء والولاة.

وكانت هذه المعاملة الأدبية الإنسانية مع غير المسلمين سبباً رئيساً في ترغيب الناس في الإسلام، ودخولهم في العقيدة، ومشاركتهم في الدين، وانضوائهم تحت راية الإسلام. (٢)

٢- احترام بيوت العبادة:

وهذا فرع من حرية الاعتقاد واحترام للعقيدة التي يختارها الإنسان، لذلك يترك الإسلام لغير المسلم حرية ممارسة العبادات التي تتفق مع عقيدته، ثم يأمر بالمحافظة على بيوت العبادة التي يمارس فيها شعائره، ويحرم على المسلمين

(١) حقوق الانسان محور مقاصد الشريعة (ص: ٦٢).

(٢) حقوق الانسان محور مقاصد الشريعة (ص: ٦٣)، وانظر الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية، لابن القيم (ص ٢٣٧).

الاعتداء على بيوت العبادة أو هدمها أو تخريبها، أو الاعتداء على القائمين فيها، سواء في حالي السلم والحرب. والوثائق التاريخية كثيرة في وصية الخلفاء لقادة الجيوش، وفي المعاهدات التي أبرمت في التاريخ الإسلامي، وعند الفتوحات ومنها الوثيقة العمرية مع أهل بيت المقدس، والدليل المادي الملموس شاهد على ذلك ببقاء أماكن العبادة التاريخية القديمة لليهود والنصارى وغيرهم في معظم ديار الإسلام والمسلمين. ^(١)

١٤ - شريعة عالمية لا تحد بزمن ولا مكان.

وتمتاز الشريعة الإسلامية بأنها شريعة عالمية، أنزلها الله **جَلَّ جَلَالُهُ** على رسوله محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، لِيُبَلِّغَهَا إِلَى النَّاسِ كافة من عرب وعجم، شرقيين وغربيين على اختلاف مشاربهم، وتباين عاداتهم وتقاليدهم وتاريخهم، فهي شريعة كل أسرة، وشريعة كل قبيلة، وشريعة كل جماعة، وشريعة كل دولة بل هي الشريعة العالمية التي استطاع علماء القانون أن يَتَخَيَّلُوا، ولكنهم لم يستطيعوا أن يوجودوها، وأقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٥٨]. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣٣]. ^(٢)

١٥ - المثالية الواقعية.

الإسلام دين واقعي مثالي، فواقعيته مبنية على أنه سلوك إنساني يعيشه الناس يوميًا، وأما مثاليته فيحققها أنه يهدف إلى إصلاح المجتمع، ولا يرضى بالتعايش والمهادنة مع الخطأ والرديلة.

واقعيته يوضحها تلاؤم تشريعاته مع فطرة الإنسان وتحقيقها لحاجاته ورغباته التي علمها الله فشرع ما يناسبها: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ^(١٤)

(١) حقوق الانسان محور مقاصد الشريعة (ص: ٦٤).

(٢) الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه (ص: ١٥).

(الملك: ١٤)، فلم يأمر الإسلام بالتعفف عن النكاح، ولا منع من استحات عليهم الحياة الزوجية من الافتراق بالطلاق: ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً﴾ (النساء: ١٣٠).

ولم يأمر الإسلام بإعطاء الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن، بل شرع ما يرد الإساءة ويردع الجاني ويمنعه من التماذي، ولكنه رغب أيضاً في العفو والمسامحة والصفح، قال تعالى: ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠) وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَاعَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ (٤١) (الشورى: ٤٠ - ٤١).

وتسطع هذه المزاجية بين الواقع والمثال في تدرج الإسلام في معالجة الأمراض والآثام المستفحلة في المجتمع، فعندما بعث النبي ﷺ في أمة تشرب الخمر شربها للماء؛ تدرج في تحريم الخمر، فأشار أولاً إلى ما فيها من السوء، ليهجرها أصحاب العزائم والأحلام: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكَبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢١٩)، فالخمر فيها منافع محدودة كالتجارة لكن ما فيها من الإثم والضرر أعظم.

ثم في مرحلة أخرى منع المسلمين من تناولها سائر النهار، لأنها تشغل عن الصلاة وتفسدها، فتضايق عليهم وقت شربها: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء: ٤٣).

لما نزلت هذه الآية أحس الصحابة أن الله يشدد عليهم في الخمر، فدعا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاء، فنزل قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) (المائدة: ٩٠ - ٩١)، فدعى عمر، فقرئت عليه، فقال: (انتهينا انتهينا). (١)

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٥٥٤٠).

تقول أم المؤمنين عائشة: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدًا. (١)

١٦ - دعوته إلى تعلم العلم.

ويكفي في هذا المقام دليلاً على حرص الإسلام على التعلم، أن أول ما نزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] فهي دعوة دعى إليها الإسلام للتزود من القراءة والمعرفة والعلم.

وقد قضى الله أن يحمل الدين الخاتم الإسلام للبشرية كل ما ييسر لها مهمة الحياة على الأرض، طريقاً إلى حياة أخرى يرتبط نعيمها بعمل الإنسان في حياته الأولى، ولما كان للعلم أثره في حياة الناس من حيث إنه وسيلة لكشف أسرار الكون، وطريق إلى تنوير الحياة وترقيتها، ومن حيث إنه غذاء للعقل الذي ميز الله به الإنسان وطريق من أهم طرق الوصول إلى الله سبحانه، ولما كان للعلم هذا الأثر حفل الإسلام في نصوصه بالحث على العلم وبيان قدره تشجيعاً على تعلمه وتعليمه وتطبيقه، كما اهتم الإسلام بمناهج التفكير، وبيان الروافد التي ترفد الإنسان بالمعرفة.

وحسبنا في مجال دعوة الإسلام إلى العلم أن نراجع المواد اللغوية للجذور (قرأ - علم - فكر - ذكر - عقل) وما في معناها من فقه - نظر، وغيرها في معجم ألفاظ القرآن الكريم لنفهم حقيقة هذه الدعوة، وعلينا كذلك للغرض ذاته أن نراجع أبواب العلم في كتب الصحاح.

ونذكر هنا بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقوله: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

(١) أخرجه البخاري (٤٩٩٣).

ولعل في هذه المكانة الرفيعة للعلم ما يُغري الناس ويسهل عليهم تجشّم الصعاب في سبيله، وبخاصة إذا أدركوا عون الله لطالب العلم تشجيعاً وتقديراً، فالرسول ﷺ يقول: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا؛ سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ".^(١)

١٧- أن الله جعله الصبغة التي ينبغي الاصطباغ بها.

قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

جاءت هذه الآية مع غيرها جواباً لمن قالوا: ﴿وَقَالُوا كُفُّوا﴾ [البقرة: ١٣٥]. فكانت صبغة الله: هي ملة إبراهيم حنيفاً، ودين الله الذي ارتضاه تبارك وتعالى لعباده، وفطرته التي فطر الناس عليها. وسمى ربنا تبارك وتعالى دينه صبغة لأنه والله أعلم ظهر أثره على المتدينين به ظهور الصبغ على المصبوغ وتداخل في قلوبهم تداخل الصبغ للشوب. ظهر أثره ظهور الصبغ على المصبوغ في سمتهم وهدْيهم. في أخلاقهم وسلوكهم. في تجارتهم وتعاملاتهم. في صناعتهم وزراعتهم. بل في كل سلوك إنساني يصدر منهم حتى كانت هذه الصبغة الربانية وذاك اللون الإلهي دينهم.^(٢)

قال السعدي: الزموا صبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة، وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعاً واختياراً ومحبةً، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للشوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٩٩)، وانظر: دراسات في الفكر الإسلامي (ص: ١٨).

(٢) الطريق إلى الجنة (٥١ / ١).

لحث الدين على مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ومعالي الأمور، فلهذا قال - على سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية -: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي: لا أحسن صبغة من صبغته، وإذا أردت أن تعرف نموذجًا يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ، فقس الشيء بضده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيمانًا صحيحًا، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل، ويتحلى من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب، فوصفه: الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القولي والفعلي، ومحبة الله وخشيته، وخوفه، ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبيده، فقسه بعبد كفر بربه، وشرده عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين فاتصف بالصفات القبيحة، من الكفر، والشرك، والكذب، والخيانة، والمكر، والخداع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق، في أقواله وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبيده. ^(١)

١٨- أن أحكامه لا تتجزؤ.

أحكام الشريعة لا تتجزأ ولا تقبل الانفصال، وليس ذلك فقط لما ذكرناه من أن التجزئة تخالف الغرض من الشريعة، وإنما لأن نصوص الشريعة نفسها تمنع من العمل ببعضها، وإهمال البعض الآخر كما تمنع من الإيمان ببعضها والكفر ببعض، وتوجب العمل بكل أحكامها والإيمان إيمانًا تامًا بكل ما جاءت به، فمن لم يؤمن بهذا ويعمل به دخل تحت قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ (سورة البقرة، الآية: ٨٥).

والنصوص الواردة بتحريم العمل ببعض الشريعة دون بعضها كثيرة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ ^(١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَنُوبُ

عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ (سورة البقرة: ١٥٩، ١٦٠)

والكتمان معناه العمل ببعض الأحكام دون بعضها الآخر، والاعتراف ببعضها وإنكار البعض الآخر، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ (سورة البقرة، الآيتان: ١٧٤، ١٧٥).^(١)

(١) الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه (ص: ١٤).

الباب الثاني: محاسن العقيدة الإسلامية

للعقيدة الإسلامية محاسن تميزها عن غيرها من عقائد أهل الكفر والملل المخالفة للإسلام، وهي الأصل الكبير والركن الشديد الذي تبنى عليه سائر الأعمال والتشريعات، لذا كانت عناية الإسلام بهذا الأصل فائقة والتأكيد على رسوخه في القلوب لازمة

والعقيدة هي من عقد الشيء، ويقال: عقدت الحبل إذا أوثقته، ويقصد به الاعتقاد الجازم الوثيق الثابت الذي لا يدخله شك ولا ريب.

والمقصود بالعقيدة هنا: العقيدة الإسلامية، وتظهر أهميتها من كونها أساس الدين وأصله، ولا يصح إيمان العبد ولا يقبل عند الله تعالى إلا بها، كما قال **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

ولهذا كانت العقيدة هي أساس دعوة الرسل، يقول الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وهي مما أمر الله به، قال **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

وهذه العقيدة هي أساس الوجود الإنساني كله في هذه الدنيا، وهي الحكمة من وجوده.

قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وهي المهمة الكبرى التي يضطلع بها الإنسان في هذه الدنيا، ولهذا يجب أن نعلم أن الله **عَزَّوَجَلَّ** خلقنا في هذه الدنيا؛ لتحقيق هذه العقيدة. ^(١)

(١) تأصيل علم العقيدة عبد الرحيم السلمي (١/ ٣).

فهي عقيدة واحدة، لا تبدل بتبدل الزمان أو المكان، ولا تتغير بتغير الأفراد أو الأقوام:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾. [الشورى: ١٣].

ولهذه العقيدة الإسلامية ثمرات ومحاسن تفوق عن الحصر، لاشتمالها على مزايا وخصائص لازمة لكل عصر، وبها يتفاضل الناس في كل مصر، وبانحراف الناس عنها وجهلهم بها يمنع الله الغيث والقطر، فعقيدة المسلمين مليئة بالمحاسن، غنية بالمزايا والفوائد، جامعة للفضائل والنفائس، ويمكن أن نعد هنا بعض هذه المحاسن والفوائد.

❁ فمن محاسن هذه العقيدة:

١ - أن الله قد ارتضاها لنا وأمرنا باتباعها:

هذه العقيدة هي التي ارتضاها الله لنا وأنعم بها علينا قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فهي منهج الحياة الصحيح الذي رسمه الله لنا لنفوز بخيري الدنيا والآخرة، ولنكون محققين للعبادة التي خلقنا الله من أجلها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ولنقوم بعمارة الأرض على الوجه الذي أَرَادَهُ الله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. في حدود وإطار العبادة التي أمر الله بها.

وهذه الصورة المجملية تعطينا لمحة عن خصائص ومحاسن هذه العقيدة، وهي الشمول والتكامل، والتوازن. ^(١)

(١) ركائز الإيمان لمحمد قطب (ص: ٤٢٢).

٢- أنها توقيفية من عند الله.

فالعقيدة الإسلامية عقيدة يوقف بها عند الحدود التي حددها وبينها وبلغها النبي ﷺ، فلا مجال فيها لزيادة أو نقصان أو تعديل أو تبديل؛ فهي ربانية المصدر، موحى بها من عند الله تعالى.

وهذه من خصائصها التي تميزها عن غيرها من المعتقدات الوثنية التي تفتريها الأخيلة والأوهام والتصورات البشرية من تلقاء نفسها. ^(١)

فهي توقيفية لا يجوز الاجتهاد فيها، لذلك كان السلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يكتفون بما ورد في القرآن والسنة وأقوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويوضح ذلك منهج الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في العقائد، كما في رسالته إلى عبيد الله بن يحيى.

فقد روى ابن الجوزي بسنده، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: "كتب أبي إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان: لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام في شيء من هذا، إلا ما كان في كتاب أو حديث عن رسول الله ﷺ أو عن أصحابه، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود". ^(٢)

إذن فالعقيدة عند السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ توقيفية، لا مجال لآراء البشر فيها، وكثير من نصوصها بكلمة "قل" التلقينية مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ^(١) اللَّهُ الصَّكُدُ ^(٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ^(٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ^(٤)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ^(١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ^(٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ^(٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ^(٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ^(٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ^(٦) سورة الكافرون، وقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ^(١٣٦) سورة البقرة ١٣٦. ^(٣)

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته (ص ٥)، مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص: ٣٨٣).

(٢) ذم الكلام وأهله، للهروري (١١٧٣).

(٣) العقائد الإسلامية لسيد سابق (٩) وما بعدها.

ولأنها توقيفية من عند خالق البرية سبحانه، فهي تخلو من التناقضات والخرافات التي تتسم بها اجتهادات وافتراءات البشر، فهي كما قال الله تعالى عن كتابه الكريم: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].^(١)

٣- ربانية المصدر والغاية.

من خصائص الشريعة الإسلامية أنها ربانية المصدر والغاية، فهي من الله، وتهدف إلى بلوغ رضا.

إن الربانية تعني: النسبة إلى الرب، فالعقيدة الإسلامية مصدرها واحد هو الله تعالى، هذا المصدر الذي ضمنه في القرآن الذي هو وحيه وكلامه إلى رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

وقال عز من قائل: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢].

ومما يترتب على معرفتنا بهذا المصدر أن نعلم أنه محفوظ من التحريف والتبديل أو الزيادة والنقصان، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]^(٢)، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [٤١] لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

وكان القرآن الكريم يقيم الدليل على كل مسألة من مسائل العقيدة، ثم يطلب من خصومه إقامة الدليل على ما يعتقدون بقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [سورة البقرة ١١١]. ولا يقول عالم مسلم بأن هذه العقيدة تكتفي بإثارة العواطف ومخاطبة القلب والوجدان، بل إنها تخاطب العقل بالحجج الدامغة، ثم تأخذ طريقها إلى القلوب والأفئدة؛ لأن العقل الصريح يوافق المنقول الصحيح^(٣).

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم (ص: ٢٢).

(٢) تطبيق الشريعة وأثرها على الأمم (ص: ١٦)، أصول الدعوة وطرقها (ص: ٢٣٥)، محاسن العقيدة الإسلامية (ص: ١٣).

(٣) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم (ص: ٢٨).

إن مقاصد الشريعة مقاصد إلهية ربانية، وهذا وحده كافٍ لإبطال كل مقارنة لها مع غيرها، فهي من عند الله العليم الحكيم الذي علم ما كان وما لم يكن لو كان كيف يكون، وعلم طبائع النفوس وميولها: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].^(١)

إن كون هذه الشريعة من الله يعطيها هيبة وسلطاناً لا تجدهما في قانون فرض على الناس، فالناس منقادون إليها بسلطة الإيمان الذي يملأ قلوبهم، منقادون إليها ظاهراً وباطناً، سرّاً وعلانية، يرقبون في ذلك كله جزاء الله الذي لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء.

وتتميز الشريعة في مسألة الجزاء عن غيرها من القوانين، في أنها القانون الوحيد الذي يجازي في الدنيا والآخرة، فالمؤمن يلتزم حدودها، طمعاً في سعادة الدنيا التي يعيشها في جنات الطاعة والفضيلة، ثم هو موعود بحسن الجزاء في الآخرة، بالجنة التي أعدها الله للأتقياء من عباده، فلاجلهما معاً يمثل المؤمن قانون الشريعة ويلتزم به.^(٢)

٤- الوضوح والسهولة.

فالعقيدة الإسلامية عقيدة واضحة لا غموض فيها ولا تعقيد، فهي عقيدة سهلة لا تقعر ولا غموض ولا رموز وطلاسم فيها؛ بل تنسجم مع مخرجات العقول مع الخلو من الفلسفات التجريدية المعقدة والباطلة.

فهي تلخص في أن لهذه المخلوقات إلهاً واحداً مستحقاً للعبادة هو الله تعالى الذي خلق الكون البديع المنسق، وقدر كل شيء فيه تقديرًا، وأن هذا الإله

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية (ص: ٣٧١).

(٢) تعرف على الإسلام (ص: ٤١).

ليس له شريك ولا شبيه ولا صاحبة ولا ولد، فهذا الوضوح يناسب العقل السليم لأن العقل دائماً يطلب الترابط والوحدة عند التنوع والكثرة، ويريد أن يرجع الأشياء المختلفة إلى سبب واحد.

وكما أن العقيدة الإسلامية واضحة فإنها تدعو إلى التبصر والتعقل، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] ^(١)

٥- فطرية العقيدة الإسلامية.

إن العقيدة الإسلامية ليست غريبة عن الفطرة السليمة ولا مناقضة لها، بل هي على وفاق تام وانسجام كامل معها.

وليس هذا بالأمر الغريب إذ إن خالق الإنسان العليم بحاله هو الذي شرع له من الدين ما يناسب فطرته التي خلقه عليها، كما قال تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠] وقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]

والواقع شاهد على موافقة الفطرة للعقيدة الإسلامية القائمة على الإخلاص لله وحده، فما أن يصاب الإنسان بضر تعجز أمامه القوى المادية إلا ويلجأ إلى الله تعالى في تذلل وخضوع، ويستوي في ذلك الكافر والمؤمن، بل حتى الطفل الصغير فإنه لو ترك على حاله دون أن يؤثر عليه والداه أو البيئة من حوله لنشأ معتقداً بالله تعالى رباً وإلهاً لا يعبد سواه، لذلك قال رسول الله ﷺ: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ثُمَّ يَقُولُ أَقْرَأُوا" ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجَّسَّانِهِ كَمَا تُتَّبَعُ الْبَهِيمَةُ بِبَهِيمَةٍ جَمْعَاءَ هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ" ^(٢).

(١) العقيدة (ص: ٤)، شرح الواسطية يوسف الغفيص (١/ ٣)، أضواء على الثقافة الإسلامية (ص: ١٠٠).

(٢) البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨). وانظر: أضواء على الثقافة الإسلامية (ص: ١٠٠)، العقيدة

وابتداء مقاصد الشريعة على وصف الشريعة الإسلامية الأعظم وهو الفطرة، قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَيْهِ الْقَيْمُ﴾ [الروم: ٣٠].

والفطرة: الخلقة، أي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، ففطرة الإنسان هي ما فطر، أي: خلق عليه الإنسان ظاهراً وباطناً، أي: جسداً وعقلاً. والفطرة في هذه الآية مراد بها جملة الدين بعقائده وشرائعه. ^(١)

٦ - أنها امتداد لعقيدة سائر الأنبياء والمرسلين.

فدعوة رسول الإسلام ﷺ هي دعوتهم ورسالتهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٥].

وكان نداء الأنبياء لقومهم: ﴿يَقُومُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وهي دعوة نبي الله نوح وهود وصالح وشعيب ^(٢).

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ" ^(٣).

وعنه أيضاً، أَنَّهُ ﷺ قَالَ: "إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبَنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ" ^(٤).

(ص: ٥) مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة للعقل (ص: ٢٣)، المدخل لدراسة العقيدة للبريكان ص (٦٢)، المفيد في مهيات التوحيد (ص: ٣٢).

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية (٣/ ١٧٦) بتصرف.

(٢) سورة الأعراف آيات (٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥).

(٣) صحيح البخاري (٣٤٤٣).

(٤) صحيح البخاري (٣٥٣٥) وصحيح مسلم (٦٠٢٥).

٧- الغيبة.

تقوم العقيدة الإسلامية على الإيمان بأصول لا تخضع للحس المباشر أو غير المباشر، وإنما تقع في مجال عالم الغيب، وهو العالم الذي غاب عن حواسنا ولا تقتضيه بدهاة العقول.

ولذلك فإن الطريق لمعرفة عالم الغيب والتصديق به، إنما يكون عن طريق الخبر الصادق الذي يأتينا عن طريق الوحي، كما يكون عن طريق الآثار التي تدل عليه، والفطرة السليمة تتلقى معرفة ذلك بالتسليم والتصديق.^(١)

٨- العموم والشمول.

عمومُ شريعة الإسلام معلومٌ بالضرورة من الدين، أن شريعة الإسلام جاءت شريعة عامة داعيةً جميع البشر إلى اتباعها، لأنها لما كانت خاتمة الشرائع استلزم ذلك عمومها - لا محالة - سائر أقطار المعمورة، وفي سائر أزمنة هذا العالم. والأدلة على ذلك كثيرة من نصوص القرآن والسنة الصحيحة، بحيث بلغت مبلغ التواتر المعنوي.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ سبأ: ٢٨.

وقال: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ الأعراف: ١٥٨.

وفي الحديث الصحيح: "أُعْطِيتَ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي" فعدّ منها: "وكان الرسول يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة"^(٢)

وهذه الخاصية نجدها بارزة واضحة في الإسلام الذي رضيهِ الله تعالى لنا دينًا، فهو دين شامل كامل، لم يترك جانبًا من جوانب الحياة الفردية والاجتماعية إلا وقد

(١) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص: ٣٨٦).

(٢) البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١). وانظر مقاصد الشريعة الإسلامية (٣/ ٢٥٩).

نظّمه تنظيمًا دقيقًا شاملاً لجميع النواحي، يبتعد به عن النظرة التجزيئية القاصرة. ^(١)

وهذه العقيدة تشمل الإنسان كله، جسمه وعقله وروحه، كما تشمل سلوكه وفكره ومشاعره، كما تشمل دنياه وآخرته.

ليس في كيان الإنسان ولا في حياته شيء لا يتصل بهذه العقيدة ولا تتصل العقيدة به.

إنها تصاحبه في كل لحظة من لحظات حياته، وفي كل عمل يعمل به، أو فكر يفكره، أو شعور يختلج في ضميره. ^(٢)

٩- التكامل.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

وإذا كان هذا الدين قد بلغ ذروة الكمال والتمام والشمول، فإن العقيدة الإسلامية تتميز بالتكامل، فهي كمال متكامل، تتجمع فيها كل الأجزاء وتترابط ترابطًا دقيقًا

(١) تطبيق الشريعة وأثرها على الأمم (ص: ١٧)، تعرف على الإسلام (ص: ٤٤).

(٢) دراسات في الثقافة الإسلامية، صالح هندي (ص ٥٤).

ويتضح لنا الشمول في مجالات متعددة، وعلى محاور مختلفة، تلتقي كلها في النهاية في عدة صور:

١- ففي مجال الاعتقاد تشمل الإيمان بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والنبين، والكتب السماوية، والقدر خيره وشره.

٢- وفي مجال العمل: تشمل العمل للدنيا، والعمل للآخرة في ذات الوقت.

٣- وفي مجال الكائن البشري: تشمل حركة جسمه، وتفكير عقله، وانطلاقة روحه.

٤- وفي مجال المجموع البشري: تشمل الفرد والجماعة، والأمة والدولة في ذات الوقت.

٥- وفي مجال العلاقات: تشمل علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بغيره؛ في داخل الأسرة وفي داخل المجتمع وفيما بين المسلمين وغير المسلمين، وفيما بين الإنسان والكون كذلك!.

ولن توجد دائرة أوسع من هذه ولا أشمل. لأن هذه تشمل كل شيء في الوجود! ركائز الإيمان لمحمد قطب (ص: ٤٢٣).

يأخذ بعضها بحُجَز بعض لتشكيل كلاً موحداً متناسقاً، لا يقبل التجزئة والانقسام. ولذلك، فإن الأحكام فيها تؤخذ "كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها، وعامها المرتب على خاصها، ومطلقها المحمول على مقيدها، ومجملها المفسر بيّنها. إلى ما سوى ذلك من مناحيها. ^(١)

فمن مزايا هذه العقيدة الإسلامية أنها عقيدة ثابتة محددة، بمعنى: أنها لا تتغير ولا تتطور بمرور الأزمان وتعاقب الأجيال، فلا مجال فيها للزيادة والنقص، ولا تقبل التحريف والتبديل، فلن يستطيع حاكم أو مجمع أو مؤتمر أن يضيف إليها ما ليس منها، أو ينقص منها ما هو داخل فيها، وكل محاولة في ذلك يوصف صاحبها بالكفر، لأن الوحي قد انقطع بالتحاق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى، وبقيت النصوص ثابتة إلى يوم الدين لا ينسخها ناسخ ولا يبدلها إلا كافر.

أما غيرها من العقائد فقد زيد فيها ونقص منها؛ لأنها كانت تخضع لأهواء الحكام والمجامع الدينية، ثم يجبر الناس على ما يتخذه هؤلاء من القرارات في أمر دينهم وعقيدتهم كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَنَلْهُمُ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّقُوا الْقُرْآنَ﴾ التوبة ٣٠.

فالعقيدة اليهودية، والعقيدة النصرانية كذلك، رغم أن أصلهما وحي من عند الله، إلا أن التحريف قد دخلهما حتى أصبح وصف الإله فيهما لا يختلف كثيراً عن أوصاف البشر، بل قد تضمنت كتبهم المحرفة أوصافاً لله لا ترتفع كثيراً على أوصاف الإغريق لآلهتهم الوثنية، فاليهود يصفون الإله بالأكل والشرب والنوم والراحة والتعب وما إلى ذلك من النقائص التي لا تليق بالله سبحانه، وأما العقيدة النصرانية فكانت حالتها أدهى وأمر، حيث

(١) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص: ٣٩١)، ركائز الإيمان (ص: ٤٢٣)، أصول الدعوة وطرقها (ص: ٢٣٧).

اختلفت مبادئها بالوثنية اليونانية، ونشأ من هذا الخلط دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء، واختلاف النصارى في طبيعة المسيح وتفرقهم إلى طوائف عديدة، يبين لنا بوضوح مدى التلاعب والتحريف بعقيدتهم. ^(١)

١٠- الوسطية.

ومع هذا التكامل وذاك الشمول، نجد خاصية أخرى بارزة في العقيدة الإسلامية، تتصل بوحدة من أهم السمات العامة للإسلام وهي الوسطية والاعتدال، تلكم هي خاصية التوازن بين الأمور المتقابلة، فيقع كل أمر أو جانب على قدر معين باعتدال موزون، بحكمة ربانية "تضبط فيها النسب بين جوانب الحياة وقيمها؛ فالمال واللذة، والعمل والعقل، والمعرفة والقوة، والعبادة والقربة، والقومية والإنسانية؛ قيم من قيم الحياة، والإسلام جعل لكل منها موضعاً في نظام الحياة ونسبة محدودة لا تتجاوزها حتى لا تطغى قيمة على قيمة". ^(٢)

فعقيدة التوحيد لا إفراط فيها ولا تفريط، وسط بين العقائد التي تنكر الخالق وتنكر كل ما وراء الطبيعة المحسوسة، وبين العقائد التي تزعم أن للعالم أكثر من إله، وتقول بالتعدد، وتدعي حلول الإلهية في الملوك والحكام والأنبياء والأشياء والحيوانات.

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم (ص: ٢٧)، تعرف على الإسلام (ص: ٤٤). وانظر موسوعتنا الموسومة بموسوعة (محاسن الإسلام ورد شبهات اللثام) ففيها تفصيل كامل لمعتقد اليهود والنصارى، وبيان ما وقع في كتابها من التحريف والتبديل.

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الحركات الإسلامية المعاصرة منها (ص ٢٧)، مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص: ٣٩٢).

ويبدو هذا التوازن كذلك على مجموعة من المحاور المختلفة ومجموعة من المجالات:

- ١- توازن بين الروح والجسد أو عالم المعنويات وعالم الحس.
- ٢- توازن بين عالم الغيب وعالم الشهادة.
- ٣- توازن بين الإيمان بالقدر والأخذ بالأسباب.
- ٤- توازن بين جوانب الحياة المختلفة: السياسية والاقتصادية والاجتماعية. إلخ. ركائز الإيمان لمحمد قطب (ص: ٤٢٧).

إن عقيدة الإسلام بريئة من الإلحاد وإنكار وجود الله، كما هي بريئة من الشرك والوثنية ونسبة الولد له ووصفه بصفات المخلوقين، إنها عقيدة تُفرد الله سبحانه بالربوبية والألوهية لأنه لا يستحق ذلك غيره.

وهذه العقيدة الإسلامية وسط في صفات الله تعالى، فلا مغالاة في التجريد الذي يجعل صفات الله بلا معنى كالجهمية المعطلة وأساتذتهم من فلاسفة اليونان، إنما تقول هذه العقيدة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى ١١]، فإجمالاً في النفي، وتفصيل في الإثبات.

وقد خلت العقيدة الإسلامية كذلك من التشبيه والتمثيل الذي لجأت إليه اليهودية والنصرانية وأهل البدع من المشبهة الذين وصفوا الله بصفات المخلوقين، كوصفه بالتعب والراحة والنوم والمحابة والقسوة وغير ذلك مما لا يليق بجلال الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

إن عقيدة الإسلام وسط بين المقلدين لآبائهم تقليدًا أعمى، كما حكى القرآن أنهم قالوا: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [٢٢] وكذلك مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣]، وبين الذين يبحثون عن كنه ذات الله تعالى، وهم بعد لم يعرفوا حقيقة أنفسهم كما قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتَ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [٥١] [الكهف: ٥١].

لكنها عقيدة تفتح الباب للنظر في هذا الكون المفتوح للتفكير في مخلوقات الله تعالى. قال سبحانه: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [٨] [الروم: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [٥٠] وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾

[الذاريات: ٢٠-٢١].^(١)

١١ - أنها عقيدة ثابتة ودائمة.

لما كانت العقيدة الإسلامية تقوم على الدليل والبرهان؛ لزم أن تكون عقيدة ثابتة ودائمة، قال الله تعالى: ﴿لَا بُدَّيْلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤] وسبب هذا هو ثبوت مصادرها ودوامها، لأن الله تعالى تكفل بحفظها ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فهي عقيدة ثابتة ومحددة لا تقبل الزيادة ولا النقصان، ولا التحريف ولا التبديل.^(٢)

وهذه العقيدة الإسلامية هي العقيدة الوحيدة التي سلم أصلها من التحريف، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجرات: ٩]. بينما العقائد الأخرى التي جاءت بها الديانات السابقة، قد دخلها التحريف في كل صورة من صورها، وقد أضيفت إلى أصول الكتب المنزلة شروح وتأويلات وزيادات ومعلومات بشرية، وأدمجت في صلبها حتى صار الحق فيها نادراً قليلاً مغموراً وسط الأباطيل قبله وبعده، وبقي الإسلام وحده محفوظ الأصول، ولم يشب نبعه الأصيل كدر، ولم يلبس فيه الحق بالباطل، قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقال تعالى عنهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].^(٣)

١٢ - تأثيرها الكبير في سلوك الفرد.

ويظهر ذلك في نقاط:

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم (ص: ٣١)، تعرف على الإسلام (ص: ٤٤).

(٢) العقيدة (ص: ٧)، أصول الدعوة وطرقها (ص: ١٠٥).

(٣) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم (ص: ٢٤).

١- فالعقيدة تهب صاحبها عزة النفس؛ لما يشعر به من معية الله تعالى، لقوله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

ومن كانت هذه عقيدته فلن يستكين ولن يستعبد لغير الله تعالى.

وهذه الأنفة من الخضوع والعبودية لغير الله تعالى يصاحبها التواضع والرحمة لعباده المؤمنين انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، والمؤمن يعلم أن واهب العزة هو الله ﴿وَتُعْزَمَنْ تَشَاءُ وَتُذَلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]. فعزة المؤمن عزة إيمان وحق، وعزة غيره عزة غرور وفجور وكبرياء.

٢- رجل العقيدة رجل يحتكم إلى كتاب الله ولا يستبدل به حكماً آخر، ويرضى بحكم الله ولو كان الحق عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥].

وغير المؤمن يحتكم لقانون البشر الجائر قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

٣- رجل العقيدة رجل نشيط عامل منتج، لا يتكاسل ولا يتواكل، حريص على وقته، لعلمه أن الله سائله عن عمره وعن شبابه وعن عمله، فهو يعبد ربه بإتقانه عمله كما يعبد ربه بالصلاة والصيام، لقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١].

٤- رجل العقيدة عنده إشار وتضحية وشجاعة، لا يخاف من بذل الروح والمال؛ لأنه يرى أن ذلك عبادة لله، وغيره يحسب أن دفع الزكاة ضريبة، وأن الجهاد بالمال خسارة بالنفس وإلقاء في التهلكة، فيحسب أن الرزق والأجل بيده، فالبذل يفقر والجهاد يقصر العمر.

والمؤمن يعلم أن كل ذلك بيد الله، وأن روحه وماله ملك لدينه وعقيدته، يبذلهما عند الطلب، لإيمانه بقوله تعالى: ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢].

٥- رجل العقيدة عنده سعة نظر ووضوح في الهدف؛ لأن عقيدته الصحيحة تجيبه على كل سؤال من الأسئلة التالية: من أين جاء؟ ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب؟ فهو يرى نفسه أنه لم يخلق عبثاً لقوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، إنما خلق لعبادة الله القائل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

٦- والعقيدة توقظ الضمير فتجعله مراقباً لله دائماً لا يعتريه ضعف ولا يتبدل بالأمكنة والأزمنة؛ لأنه مستند لعقيدة سليمة، فهو في حذر دائم ضد الشر وبواعثه، وضد النفس وشهواتها، وضد الشيطان ونزغاته، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦]، لذلك عندما عمرت العقيدة الضمائر والقلوب؛ صلح الظاهر والباطن حتى كأن على كل إنسان شرطياً يراقبه لإيمانهم بقوله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]، وبقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]، وبقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [آل عمران: ٥]، وبقوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة: ٧].

٧- يمتاز رجل العقيدة عن غيره بأنه مطمئن البال، مستريح الفكر، هو محقق للطمأنينة وسكينة النفس والرضا عن الله، غير قلق على المستقبل، لا تمزقه الأوهام؛ لأن له هدفاً يسعى إليه ومثلاً أعلى يطلبه، ألا وهو نيل رضوان الله وجنته.

وهو واثق أنه على الحق ولن يتسرب اليأس والقنوط إلى نفسه مهما واجهه من أخطار؛ لإيمانه بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ يوسف: ٨٧، وبقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ الحجر: ٥٦، وبقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ﴾ الانشراح: ٥-٦.

هذه الطمأنينة والثقة يفقدها غير المؤمن ولا يعوضها الغنى والترف، لما نرى من كثرة حوادث الانتحار والتمزق النفسي في أكثر الدول غنى ورفاهية.

وهذه العقيدة الإسلامية مؤمنة بباب القضاء والقدر، فلا تنفي القدر، بل كل شيء بعلم الله وقدره كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ الفرقان: ٢. وقال: ﴿فَدَجَّلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ الطلاق: ٣.

فالمؤمن إذا ما دهمته الحوادث والنكبات لم ييأس ولم يصبه القنوط، بل يهد الله قلبه لليقين كما قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ التغابن: ١١.

٨- رجل العقيدة عنده قيم وموازنين ثابتة يزن بها الناس وهي موازين عقيدته الثابتة، فالحق فيها حق والباطل باطل، والرذيلة فيها رذيلة والفضيلة فضيلة من عهد آدم إلى يومنا، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ الحديد: ٢٥.

فالمؤمن إذن ذو شخصية ثابتة، ومن موازينه في الناس قوله تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَضَكُمُ﴾ الحجرات: ١٣، ومن موازينه في الخسارة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الزمر: ١٥، ومن موازينه في الربح قوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ آل عمران: ١٨٥.

٩- رجل العقيدة يوالي ويعادي لله، ويحب ويبغض لله، فلن يوالي عدو الله ولو كان أباه أو ابنه، ولن يعادي ولي الله ولو كان بعيداً منه، ولن يحب من أبغضه الله، كما

أنه لن يعادي من أحبه الله، كل ذلك لإيمانه بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَمِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) التوبة ٢٣، وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ الممتحنة: ١.

١٠- رجل العقيدة تتوازن فيه الروح والعقل والجسم، فلا يطغى فيه جانب على جانب، فلا هو مفرط في الروحانية المعذبة لجسده والملغية لعقله، ولا هو مفرط في العقل حتى يحكمه في الوحي والشرع، ولا هو مفرط في التربية الجسمية حتى يرتد كبهيمة هدفها الطعام والشراب كما تعتبره المذاهب المادية، وشعارهم في ذلك:

إنما الدنيا طعامٌ وشرابٌ ومنام ... فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام.

وهم في هذا كما وصفهم **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ محمد: ١٢.

فالعقيدة توازن في الإنسان بين عقله وروحه وجسمه، فتجعله إنساناً سوياً، والمذاهب المادية التي ألغت اعتبار الروح جعلته نصف إنسان، ومن هنا يحصل القلق والاضطراب والحيرة والتمزق النفسي. ^(١)

١٣- ومن محاسن وأثار العقيدة في سلوك المجتمع.

١- إن أمة العقيدة أعرق أمة في التاريخ، وتاريخها حافل بالوقائع والتجارب، قادتها الرسل، وقد بين الله للمؤمنين أمتهم الواحدة من أتباع الرسل بقوله تعالى في نهاية عرض قصص الأنبياء مع أقوامهم المكذبين: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (١٩٢) الأنبياء: ٩٢

وأول قائد لهذه الأمة العريقة هو آدم **عَلَيْهِ السَّلَام**، وآخر قادتها وأجلهم محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم (ص: ٤٣)، ركائز الإيمان (ص: ٤٣٢).

هذا التراث الكبير والتجارب العميقة تشكل الذخيرة الحية لأمة العقيدة، وهي الحضارة التي تملك الأمة أن تقدمها للإنسانية، وهي واثقة ومطمئنة أنها ليست بحاجة لاستيراد القيم والأخلاق والعقائد من الأمم الكافرة؛ لأنها أمة متبوعة لا تابعة لغيرها.

٢- أمة العقيدة تتلقى للتنفيذ، لا مجال عندها للتردد ومخالفة الأوامر، فإذا نزل القرآن يأمر بشيء أو ينهى عن شيء؛ انقلب كل رجل إلى أهله يتلو عليهم ما أنزل الله تعالى، فيبادر الجميع لامثال المأمور به واجتناب المنهي عنه.

٣- إن أمة العقيدة أمة لا تعيش لذاتها ومصالحها فقط، بل هي أمة ترى على عاتقها مسؤولية إنقاذ البشرية مما هي فيه من الضلال، لأنها تشعر بنعمة اهتدائها إلى الله تعالى، لذلك تحب أن تهدي غيرها من الأمم.

ولهذا فهي تشعر بخيريتها على سائر الأمم، لا خيرية الجنس واللون، لكن خيرية الدين والعقيدة انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران: ١١٠. وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ البقرة: ١٤٣.

٤- أمة العقيدة أمة عزيزة الجانب مصونة لا تقيم حرباً أو سلماً إلا على أساس عقيدتها كما كان عمل الرسول ﷺ أول مقدمه إلى المدينة مع مختلف الطوائف داخل المدينة وخارجها من الممالك والإمارات، وإذا جاهدت أمة العقيدة فليس هدفها من الجهاد إراقة الدماء ونهب الأموال، إنما هدفها تحرير الإنسانية من الحكام الكفرة الذين يحولون بين أممهم وبين الدين الحق.

٥- أمة العقيدة تقوم الروابط بين أفرادها على العقيدة؛ لأن الروابط الأرضية من الجنس واللون واللغة والأرض والمصالح المشتركة؛ روابط ليس للإنسان فيها اختيار، فهو لن يستطيع اختيار جنسه ولونه ولغة قومه والأرض التي يولد فيها، وهذه الروابط الأرضية لا تدوم، فسرعان ما يدب الخلاف بين أصحابها،

أما رابطة العقيدة فهي أقوى وأقوم، ولذلك كان المجتمع الإسلامي الأول يضم العربي والفارسي والرومي والحشي والهندي، هذه الجنسيات كلها يجمعها اسم الأمة الإسلامية، بدون فوارق عرقية أو طبقية.

٦- مجتمع العقيدة مجتمع يفتخر بأصله ويعتز بانتسابه لأدم الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه، وكل ما في الكون مسخر لخدمته ونفعه، لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝﴾ [إبراهيم ٣٢-٣٣].

هذا المجتمع لا تساويه المجتمعات التي تعلّم أفرادها أن أصلهم قرد أو حيوان أخط من القرد، وأن كل ما في الكون عدو له ويقف ضده، فهو في صراع مع الكون ويعتبر أن أي اكتشاف علمي إنما هو تغلب على الكون وقهر للطبيعة، بينما مجتمع العقيدة يرى أن من واجبه الاهتداء لهذه السنن والاستفادة منها، وأن الإنسان مهما بلغ في العلم فهو من تعليم الله الذي علّم الإنسان ما لم يعلم.

٧- مجتمع العقيدة مجتمع قوى متماسك يشد أفراداه على أيدي بعضهم بعضاً كأنهم بنيان مرصوص، آمالهم وآلامهم واحدة؛ لأنها نابعة من عقيدتهم، وكلهم يسعون لتحقيق العدل والمحبة والأخوة، ليعيش كل فرد في هذا المجتمع آمناً على دينه وروحه وعقله وماله وعرضه، ولكل فرد في مجتمع العقيدة حق العمل، وإلا فالدولة توفر الضروريات للعاجزين عن العمل وللذين لا يجدون ما يكفيهم.^(١)

١٤- إفراد الإله الحق وحده بالعبادة، ونفي كل شريك له.

الشرك هو: صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله؛ كالدعاء، والذبح، والنذر، والاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.^(٢)

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم (ص: ٤٧)، ركائز الإيمان (ص: ٤٣٢).

(٢) مؤلفات الشيخ بن عبد الوهاب: قسم العقيدة (ص: ٢٨١)، القول السديد شرح كتاب التوحيد

أو اتخاذ شريك مع الله فيما اختص الله **عَزَّجَلَّ** به وحده دون خلقه. ^(١)

وقد أخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل، ومن أعظم القسط التوحيد، وهو رأس العدل وقوامه، وإن الشرك لظلم عظيم، فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات.

فتأمل هذا الأصل حق التأمل، واعتبر تفاصيله تعرف به حكمة أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده، وحرمه عليهم، وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي.

فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود؛ كان أكبر الكبائر على الإطلاق، وحرّم الله الجنة على كل مشرك، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد، وأن يتخذوهم عبيداً لهم لما تركوا القيام بعبوديته، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً أو يقبل فيه شفاعاة أو يستجيب له في الآخرة دعوة، أو يقبل له عثرة، فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله، حيث جعل له من خلقه ندّاً، وذلك غاية الجهل به، كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه. ^(٢)

والنفسُ بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية، مُحَبَّةٌ لله، تعبدُه لا تُشرك به شيئاً، ولكن يفسدها وينحرف بها عن ذلك ما يُزَيِّنُ لها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، فالتوحيد مركوز في الفطرة، والشرك طارئ ودخيل عليها، قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّيْلَ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

(ص: ٤٧)، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد (ص: ٤٣).

(١) تجريد التوحيد من درن الشرك وشبه التنديد (ص: ٩).

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص: ١٢٩).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كل مولود يُولَدُ على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه" (١)،

فالأصلُ في بني آدم: التوحيد. (٢)

ومن أصول الشرك: التشبه بالخالق وتشبيه المخلوق به، هذا هو التشبيه في الحقيقة، لإثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فعكس الأمر من نكس الله قلبه وأعمى بصيرته وأركسه بكسبه، وجعل التوحيد تشبيهاً والتشبيه تعظيماً وطاعة، فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية.

فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق وجعل من لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فضلاً عن غيره - شبيهاً بمن له الأمر كله، فأزمة الأمور كلها بيديه، ومرجعها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد.

فمن أقبح التشبيه: تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات.

ومن خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوبة والتوكل والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب - كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون له وحده، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره، فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد

(١) أخرجه: البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك (ص: ٧٣).

شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة.

ومن خصائص الإلهية: العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما: غاية الحب، مع غاية الذل، هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين.

فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه به في خالص حقه، وهذا من المحال أن تجيء به شريعة من الشرائع، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل، ولكن غيرت الشياطين فطر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم، واجتالتهم عنها، ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنی، فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم، فازدادوا بذلك نورا على نور، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورٍ مِّنْ نَّشَاءٍ﴾ [النور: ٣٥].^(١)

ومن أهم الجوانب التي تبرز محاسن عقيدة التوحيد لله ونفي الشريك عنه ما يلي:

❁ اتباع الفطرة.

فالشرك مخالفٌ للفطرة، والله جل في علاه خلق عباده حنفاء مسلمين موحدين لرب العالمين بالألوهية، ومتبرئين من الشرك والتأله لما سواه، وجعل ذلك من لوازم فطرهم، بحيث لو تركوا ودواعيها لما كانوا إلا عارفين بالله، وبتوحيده وبأسمائه الحسنی وصفاته العلى القائم عليها والمنبثق منها: وحدانية تألهه، وبذلك شهدت فطرة الموحدين وعقولهم؛ بأن الله أهلٌ أن يُعبد، ولو لم يرسل بذلك رسولا ولم ينزل به كتابا، وعليه أصبحت الفطرة بينة التوحيد وشاهدة في أنفس الموحدين.

فلا جرم أن الفطر يقتضي: عبادة الفاطر، وأن من كان مفطوراً مخلوقاً فحري

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص: ١٣٧).

به أن يتفرغ لعبادة فاطره وخالقه، لا سيما إذا كان أمره بيده ومنتهاه إليه، قال سبحانه: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يس: ٢٢.

ومن هنا استحال جواز الشرك في الفطر السليمة والعقول المستقيمة ولو لم يرد بذلك خبر، كيف وقد أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب لتقرير ما استودع سبحانه في فطر خلقه من حسن التوحيد وحل الطيبات، ومن قبح الشرك وحرمة الخبائث.

وبهذا تكون الفطرة حجة مستقلة في بطلان الشرك، فهي أسبق من كافة الحجج الواهية وسائر المعاذير الساقطة التي يتشبث بها المشركون. ^(١)

فالشرك يطفئ نور الفطرة؛ لأن الله **عَزَّوَجَلَّ** فطر الناس على توحيد وطاعته، قال سبحانه: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الروم: ٣.

وفي الحديث القدسي: أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قال فيما يرويه عن ربه تعالى: "إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحلت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً" ^(٢). ^(٣)

✽ إثبات الصمدية له **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** والكمال المطلق لله وحده.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤)﴾ الإخلاص: ١-٤.

تضمنت هذه السورة ثلاثة معان هي مجامع التوحيد، ولا يستقر التوحيد في قلب العبد إلا باجتماعها: الأمر الأول: إثبات الأحدية لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** التي تقتضي نفى الشريك، وذلك في قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

(١) الشرك في القديم والحديث (٢/ ١٤٠٩).

(٢) صحيح مسلم (٢٨٦٥).

(٣) نور التوحيد وظلمات الشرك في ضوء الكتاب والسنة (ص: ٥١).

الأمر الثاني: إثبات الصمدية له **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وهي تقتضي اتصافه بأوصاف الكمال.

الأمر الثالث: إثبات تنزهه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عن الشبيه والنظير والمثيل، وذلك في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].^(١)

والشرك لا يغفره الله تعالى لتضمنه القدح في رب العالمين وفي وحدانيته وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً بمن هو مالك النفع والضرر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبار.

فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق الذي ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنى شيء؛ بل ليس له إلا العدم؛ عدم الوجود وعدم الكمال وعدم الغنى، والفقر من جميع الوجوه.^(٢)

✽ بيان أحقية الله سبحانه وحده دون غيره لهذه العبادة:

قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ البقرة: ٢٥٦، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النحل: ٣٦، وقال أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ الزمر: ١٧.

ومعنى قوله ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾، والطاغوت: اسم لكل ما عبد من دون الله، فكل معبود من دون الله يُسمى طاغوتاً، فالأصنام والأشجار والأحجار والكواكب المعبودة من دون الله كلها طاغوت، وهكذا من عبد من دون الله وهو راضٍ: كفرعون ونمرود والشياطين وأشباههم، وأما من عبد من دون الله

(١) شرح العقيدة الواسطية لخالد المصلح (٤/ ٣).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٢٠٣).

ولم يرض بذلك: كالأنبياء والصالحين والملائكة، فهؤلاء ليسوا طواغيت، وإنما الطاغوت الشيطان الذي دعا إلى عبادتهم من جن وإنس.

فقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ أن ينكر عبادة غير الله كالاستغاثة بالأموات ودعائهم والالتجاء إليهم، والذبح والنذر لهم، ويتبرأ منها ويجحدها، ويبين أنها باطلة.

وقوله: ﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يعني: يؤمن بأن الله هو المعبود بالحق، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فالدعاء له وحده، والنذر له وحده، والذبح له وحده، والطواف ببيته وحده، والالتجاء إليه وحده والتوكل عليه وحده.

فالإيمان إذاً لا يتم ولا يصح إلا بالبراءة من عبادة غير الله، وإنكارها، واعتقاد بطلانها، والتصريح بذلك، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَدَ مَا كِدُّعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ الحج: ٦٢، وقال **جَلَّ وَعَلَا** في تقرير هذا الأصل العظيم ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ الممتحنة: ٤.

فقوله: ﴿إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فيه البراءة من العابدين لغير الله والمشركين به، والبراءة من المعبودين من دون الله، فبراءة من الشرك وأهله، ثم لم يكتف إبراهيم عليه السلام بالبراءة من الكفر وأهله بالقلب فقط، حتى أظهر ذلك وأعلنه كما في قوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ أي: ظهرت العداوة بيننا، وهذه العداوة باقية ما بقي الكفر والشرك، لا يرفعها قرابة ولا نسب ولا بلد كما في قوله ﴿أَبَدًا﴾.

وقال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله" (١) (٢).

(١) رواه مسلم (٢٣).

(٢) تجريد التوحيد من درن الشرك وشبه التنديد (ص: ١٧).

❁ أن نفي الشريك أول ما دعى إليه المرسلون:

إن القرآن العظيم يقص علينا في جلاء ووضوح أن أول ما يدعو إليه الأنبياء والمرسلون صلوات الله عليهم أجمعين هو توحيد الله، وأول ما ينكرونه على قومهم الشرك ومظاهره، وعلى حكم هذه السنة الرشيدة جاءت بعثة خاتم النبيين **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؛ فعنيت بالدعوة إلى التوحيد، والتحرز من الشرك، والتحذير منه، وما ذلك إلا لشدة الحاجة إلى معرفته، وإنك لتجد تلك العناية ظاهرة في الكتاب وأطوار البعثة وأركان الدين. ^(١)

❁ إثارة الفكر واحترام العقل.

إثارة الفكر للتعرف على خالق الموجودات جميعها، والاستدلال بذلك على وحدانيته تعالى، وهو أول دليل تلفت الآيات النظر إليه، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِيرٌ ۚ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ﴾ ^(١١٧) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ [البقرة: ١١٦ - ١١٨].

وملخص هذا أن كل ما في الكون مخلوق، والمخلوق لا بد له من خالق؛ لأنه يستحيل أن يكون خُلِقَ من غير خالق، ولهذا كان كل رسول يقول لقومه: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ^(٢).

فإن الله سبحانه ركب العقول في عباده ليعرفوا بها صدقه وصدق رسله، ويعرفوه بها ويعرفوا كماله وصفاته وعظمته وجلاله وربوبيته وتوحيده، وأنه الإله الحق وما سواه باطل، فهذا هو الذي أعطاهم العقل لأجله بالذات والقصد الأول وهداهم به إلى مصالح معاشهم التي تكون عوناً لهم على ما خُلِقُوا لأجله،

(١) رسالة الشرك ومظاهره (ص: ٤٤).

(٢) الشرك في القديم والحديث (٢/ ١٣٤٥).

وأعطوا العقول له، فأعظم ثمرة العقل معرفته لخالقه وفاطره، ومعرفة صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله، وصدق رسله والخضوع والذل والتعبد له، فإذا أقررت على العقل بأنه لا يدرك ذلك ولا يصدق ذلك به بل يعارضه ويكذبه ويرده؛ فقد نسبتموه إلى أقبح الجهل وأعظم شهادة الزور، وما كان هكذا فلا تقبل له شهادة في شيء فضلاً عن تقديم شهادته على ما شهد الله به لنفسه وشهدت له به رسله من أولهم إلى آخرهم. ^(١)

✽ حسن الظن بالله:

حسن الظن بالله من واجبات التوحيد، وسوء الظن به ينافي التوحيد. فتقرير عقيدة التوحيد في النفوس يؤصل حسن الظن به سبحانه.

وقد وصف الله المنافقين بأنهم يظنون به غير الحق؛ فقال تعالى:

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ آل عمران: ١٥٤.

وأخبر عنهم في الآية الأخرى أنهم يظنون به ظن السوء، فقال:

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ سورة الفتح الآية: ٦. ^(٢)

إثبات الحمد كله لله عزَّ وجلَّ:

فإنه المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين، وعلى خلق الرسل وأعدائهم، وهو المحمود على عدله

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعتلة (٤/ ١٢٣٦).

(٢) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد (ص: ٩٢).

في أعدائه كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه، فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده، ولهذا سَبَّح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وكان في قول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع: "رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَاءِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ". (١) (٢)

❁ دوام شهود أوليته تعالى وعلوه.

إذا فتح الله لقلبه شهود أوليته سبحانه حيث كان ولا شيء غيره، وهو الإله الحق الكامل في أسمائه وصفاته، الغني عما سواه، الحميد المجيد بذاته قبل أن يخلق من يحمده ويعبده ويمجده، فهو معبود محمود حي قيوم له الملك وله الحمد في الأزل والأبد، لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الجلال، منعوتاً بنعوت الكمال، وكل شيء سواه فإنما كان به، وهو تعالى بنفسه ليس بغيره؛ فهو القيوم الذي قيام كل شيء به، ولا حاجة به في قيوميته إلى غيره بوجه من الوجوه.

فمن شهد مشهد علو الله على خلقه وفوقيته لعباده واستوائه على عرشه كما أخبر به أعرف الخلق وأعلمهم به الصادق المصدوق، وتبعد بمقتضى هذه الصفة بحيث يصير لقلبه صمداً يعرج القلب إليه مناجياً له مطرقاً واقفاً بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدي الملك العزيز؛ فيشعر بأن كلمه وعمله صاعد إليه معروض عليه مع أوفى خاصته وأوليائه، فيستحي أن يصعد إليه من كلمه ما يخزيه ويفضحه هناك، ﴿يَذَرُ الْأُمُورَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] فمن أعطى هذا المشهد حقه معرفة وعبودية استغنى به. (٣)

(١) صحيح مسلم (٧٧١).

(٢) طريق المهجرتين، وباب السعادتين (ص: ١١٣).

(٣) طريق المهجرتين وباب السعادتين (ص: ٤٤) بتصرف.

✽ الاعتراف بإنعام المنعم.

إن الاعتراف بفضل الله وإنعامه والقيام بشكره من صميم العقيدة؛ لأن من نسب النعمة إلى غير موليتها، وهو الله - سبحانه؛ فقد كفرها، وأشرك بالله بنسبتها إلى غيره. ^(١)

فمن لم يعرف النعمة، بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضاً، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع له ويحبه ويرض به وعنه لم يشكرها أيضاً، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقربها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضي به وعنه واستعملها في محابته وطاعته؛ فهذا هو الشاكر لها. ^(٢)

✽ تقرير وبيان استحالة وجود إلهين في الكون.

قال تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ [المؤمنون ٩١]

فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضرر، فلو كان معه سبحانه إله؛ لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه، بل إن قدر على قهره وتفرد به بالإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به كما انفرد ملوك الدنيا عن بعضهم بعضاً بممالكهم.

إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه فلا بد من أحد أمور ثلاثة:

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد (ص: ١١٣).

(٢) طريق المهجرتين وباب السعادتین (ص: ٩٥).

وإما أن يعلو بعضهم على بعض.

وإما أن يكون كلهم تحت قهر إله واحد وملك واحد يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم عليه ولا يمتنعون من حكمه عليهم، فيكون وحده هو الإله الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون.

وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إله غيره، كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا رب له غيره فذاك تمانع في الفعل والإيجاد وهذا تمانع في العبادة والإلهية، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان يستحيل أن يكون له إلهان معبودان. ^(١)

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ (لقمان: ١١)

فله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه وأدله على بطلان الشرك فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت شيئاً مع الله؛ طولبوا بأن يروه إياه، وإن اعترفوا بأنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك؛ كانت آلهيتها باطلاً ومحالاً.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤].

فطالبهم بالدليل العقلي والسمعي، وقال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (الرعد: ١٦).

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعتلة (٢/ ٤٦٤).

فاحتج على تفرده بالإلهية بتفرده بالخلق، وعلى بطلان إلهية ما سواه بعجزهم عن الخلق، وعلى أنه واحد بأنه قهار، والقهر التام يستلزم الوحدة فإن الشراكة تنافي تمام القهر. (١)

❁ إثبات التوحيد لله هو في ذاته إبطال للشرك به:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۚ﴾ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ الحج: ٧٤، ٧٣.

فتأمل هذا المثل الذي أمر الناس كلهم باستماعه، فمن لم يستمعه فقد عصى أمره، كيف تضمن إبطال الشرك وأسبابه بأصح برهان في أوجز عبارة وأحسنها وأحلاها، وأسجل على جميع آلهة المشركين أنهم لو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد وساعد بعضهم بعضاً وعاونه بأبلغ المعاونة؛ لعجزوا عن خلق ذباب واحد، ثم بين ضعفهم وعجزهم عن استنقاذ ما يسلبهم الذباب إياه حين يسقط عليهم، فأى إله أضعف من هذا الإله المطلوب ومن عابده الطالب نفعه وخيره.

فأقام سبحانه حجة التوحيد وبين إفك أهل الشرك والإلحاد بأعذب ألفاظ وأحسنها، لم يستكرهها غموض، ولم يشنها تطويل، ولم يعبها تقصير، ولم تزر بها زيادة ولا نقص، بل بلغت في الحسن والفصاحة والبيان والإيجاز ما لا يتوهم متوهم ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها، وتحتها من المعنى الجليل القدر العظيم الشرف البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ.

ومن ذلك احتجاجة سبحانه على نبوة رسوله وصحة ما جاء به من الكتاب وأنه من عنده، وكلامه الذي يتكلم به، وأنه ليس من صنعة البشر ولا من كلامهم

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعتلة (٢/ ٤٦٦).

بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) ﴿[البقرة: ٢٣]﴾. (١)

فنفي الشريك يتضمن كمال تفرد **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في ربوبيته، وإلهيته؛ فهو الواحد، وهو الأحد، وهو الإله الذي لا شريك له ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخْذْ وَلَدًا﴾ نفى الولد ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ لا شريك له في ملكه، ولا شريك له في شيء من: أسمائه، وصفاته سبحانه.

ونفي الولي من الذل يتضمن كمال عزته، وكمال قوته، وقدرته، وولايته لأوليائه لم تكن لحاجة وذل يلحقه تعالى وتقدس؛ بل هو القوي العزيز، وهو القدير المقتدر؛ ولهذا قال سبحانه ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرًا تَكْبِيرًا﴾ (١١١) ﴿[الإسراء: ١١١]﴾. (٢)

✽ بيان قدرة الخالق على مخلوقاته وعلمه بتفاصيل خلقه:

قال سبحانه في تثبيت أمر البعث: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) ﴿[يس: ٧٨، ٧٩]﴾.

فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو بمثلها في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز والاختصار ووضوح الدلالة وصحة البرهان؛ لألفى نفسه ظاهر العجز منقطع الطمع يستحيي الناس من ذلك.

فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد اقتضى جواباً، فكان في قوله سبحانه ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ ما وفى بالجواب وأقام الحجة وأزال الشبهة، لولا ما أراد سبحانه من تأكيد حجته وزيادة تقريرها، وذلك أنه سبحانه أخبر أن هذا

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعتلة (٢/ ٤٦٧).

(٢) توضيح مقاصد العقيدة الواسطية (ص: ١٠١).

الملحد السائل عن هذه المسألة لو لم ينس خلق نفسه وبدأ كونه وذكر خلقه؛ لكانت فكرته فيه كافيةً في جوابه مسكتةً له عن هذا السؤال، ثم أوضح سبحانه ما تضمنه قوله ﴿وَسَيَخْلُقُهُ﴾ وصرح به جواباً له عن مسألته فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩].

فاحتج بالإبداء على الإعادة وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم علماً ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز.

ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] فهو عليم بالخلق الأول وتفاصيله وجزئياته ومواده وصورته وعلله الأربع.

وكذلك هو عليم بالخلق الثاني وتفاصيله ومواده وكيفية إنشائه، فإن كان تام العلم كامل القدرة؛ كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم، ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر يتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميمًا عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعته حارة رطبة لتقبل صورة الحياة، فتولى سبحانه جواب هذا السؤال بما يدل على أمر البعث ففيه الدليل والجواب معاً فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس: ٨٠] فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة والذي يخرج الشيء من ضده وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه من إحياء العظام وهي رميم، ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر، وأن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل

فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر. (١)

✽ تقرير التوحيد في النفوس يظهر قباحة الشرك والمشركين.

ويتجلى ذلك ببيان حال المشرِك:

١ - فالمشرك كالذي يهوي من السماء فتخطفه الطير أو هوت به الريح في مكان سحيق، قال تعالى: ﴿خُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]

يحث الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عباده على إخلاص التوحيد وإفراده بالطاعة والعبادة دون الأوثان، ويذكر قبح الشرك وبطلانه بأوضح الأمثلة؛ لأن من يشرك بالله شيئاً من دونه فمثله في بعده عن الهدى وإصابة الحق وهلاكه وذهابه عن ربه، مثل من خرَّ من السماء فتخطفه الطير فهلك، أو هوت به العواصف في مكان بعيد، فعن قتادة قال: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ الآية، قال: هذا مثل ضربه الله لمن أشرك بالله في بعده من الهدى وهلاكه. (٢)

٢-المشرك كالحيوان في الأرض:

وضرب الله مثل المشرك في عبادته الأصنام كمثل رجل في الفلاة حائر، وله أصحاب مسلمون موحدون يدعونه للهدى فلا يتبعهم، قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلَّ إِنَّكَ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِّسُلَيْمٍ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]

يأمر **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** نبيه محمداً **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أن يقول للكفار: أنخص بالعبادة الأصنام وندع عبادة الله فنرجع القهقري لم نظفر بحاجتنا؟ فيكون مثلنا في

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٢/ ٤٨١).

(٢) الشرك في القديم والحديث (٢/ ١٣٧٠) بتصرف.

ذلك مثل الرجل الذي سيرته الشياطين في الأرض حيران ضالاً عن المحجة، ولهذا الحيران أصحاب مسلمون يدعونه لما هم عليه من الهدى الذي هم عليه مقيمون، والصواب الذي هم عليه متمسكون، وهو يعاندهم ويتبع الشياطين الداعية له لعبادة الأوثان.

فعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا﴾ الآية، قال: هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها وللدعاة الذين يدعون إلى الله، كمثل رجل ضل الطريق إذ ناداه مناد: يا فلان ابن فلان، هلم إلى الطريق، وله أصحاب يدعونه: يا فلان، هلم إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه في الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق. ^(١)

٣- المشرك كالعبد المملوك لجماعة كثيرين:

ضرب الله تعالى مثل المشرك بالعبد المملوك لجماعة كثيرين، والموحد بالعبد المملوك لرجل واحد، ثم بين سبحانه أنهما لا يستويان، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لِّحَمْدِ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٢٩).

هذا المثل يبين حالة المشرك بالله الذي يعبد آلهة شتى، ويطيع الشياطين وهم في أنفسهم متنازعون سيئة أخلاقهم، وحالة المؤمن الذي لا يعبد إلا الله الواحد؛ فالمشرك كالعبد المملوك لجماعة مختلفين متنازعين سيئة أخلاقهم، وكل واحد منهم يستخدم هذا العبد لمصلحته، وأما الموحد فهو كالعبد المملوك لشخص واحد، فهو مطمئن ومستريح من تشاحن الخطاء والشركاء عليه؛ لأن الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون وأخلاقهم سيئة، كلهم يتلقونه آخذين بطرقه لملكهم له ولأن لكل منهم حقاً عليه، والموحد يملكه إله واحد، فلا يستوي هذا ومن جعل في عنقه حقوقاً لآلهة متعددة.

(١) الشرك في القديم والحديث (٣/ ١٣٧٣).

يقول ابن القيم: هذا مثل ضربه الله سبحانه للمشرك والموحد، فالمشرك بمنزلة عبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون متشاحنون، والرجل المتشاكس الضيق الخلق، فالمشرك لما كان يعبد آلهة شتى شُبَّهَ بعبد يملكه جماعة متنافسون في خدمته لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين^(١).

والموحد لما كان يعبد الله وحده فمثله كمثل عبد لرجل واحد قد سلم له وعلم مقاصده وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه، بل هو سالم لمالكه من غير تنازع فيه، مع رافة مالكه به ورحمته له وشفقته عليه وإحسانه إليه وتولييه لمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان؟ وهذا من أبلغ الأمثال، فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاتة إليه وقيامه بمصالحه ما لا يستحقه صاحب الشركاء المتشاكسين^(٢).

٤- الفوارق العظيمة بين قلب الموحد وقلب المشرك.

وهما مثالان: ضرب الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** مثلاً لقلب المؤمن الموحد بالبلد الطيب، ومثلاً لقلب المشرك الكافر بالبلد الخبيث، فقال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٨).

بين **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في هذا المثل أن البلد الطيب تربته العذبة مشاربه يخرج نباته إذا أنزل الله الغيث طيباً ثمره في حينه ووقته، والبلد الذي خبث فتربته رديئة، ومشاربه مالحه، يخرج نباته بعسر وشدة، فعن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي قالوا: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر؛ لأن قلب المؤمن لما دخله القرآن آمن به وثبت الإيمان فيه وفاض بالخير، وقلب الكافر لما دخله القرآن لم يتعلق منه بشيء ينفعه ولم يثبت فيه الإيمان، ففاض بالنكد والشر والفساد.

(١) إعلام الموقعين (١/٤٣).

(٢) الشرك في القديم والحديث (٣/١٣٧٤).

وقد سمي الله في كتابه المؤمن بالطيب والكافر بالخيث، فقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَيْثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٣٧) الأنفال: ٣٧.

فالخيث في هذه الآية هم الكفار والطيب هم المؤمنون.

وقد ورد مثل هذا المثل عن رسول الله ﷺ أنه قال: "مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَتَنَقَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرَبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعِلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ". (١)

وهذا الحديث يبين مثل قلب المؤمن ومثل قلب الكافر بما يوافق المثل القرآني السابق.

وضرب الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** مثلاً آخر للقلب الذي يريد أن يهديه والقلب الآل عن الهداية. فقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُضَيِّقْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٥) [الأنعام: ١٢٥]

يبين تعالى أن من أراد الله هدايته إلى الإيمان به وبرسوله ﷺ وبما جاء به من عند ربه ويوفقه لذلك؛ يفسح صدره للإيمان ويهونه ويسهله له بلطفه ومعونته حتى يستنير الإيمان في قلبه فيضيء له ويتلقاه صدره بالقبول.

ومن أراد إضلاله عن سبيل الهدى يجعل صدره حرجاً بخذلانه وغلبة الكفر عليه، والخرج: أشد الضيق، وهو الذي لا ينفذ إليه شيء من شدة ضيقه، وهو

(١) صحيح البخاري (٧٩).

هنا القلب الذي لا تصل إليه الموعظة ولا يدخله نور الإيمان لرئس الشرك عليه، وضيق مشاربه فلا يدخل الإيمان، وهو في ذلك كالخرقة: وهي الشجرة الملتف بها الأشجار الكثيفة فلا يدخل إليها شيء لشدة التفاف الأشجار بها. ^(١)

٥- وصف حواس الموحد وحواس المشرك.

ضرب الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** مثل المؤمن الموحد بالحي، والسميع، والبصير، وهو في النور والظل، وبمن يمشي سويًا.

وضرب مثل الكافر بالميت، والأصم، والأبكم، والأعمى، وهو في الظلمات والحرور، وبمن يمشي مكبًا على وجهه وهو كالأنعام.

يقول تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ^(١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ^(٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ^(٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ^(٢٢)﴾ فاطر: من الآية ١٩ - ٢٢.

لقد شبه الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** المؤمن بالحي، وشبه الكافر بالميت من حيث إن الميت جسده خال من الروح فيظهر منه النتن والصدید والقيح وسائر أنواع العفونات وأصلح أحواله دفنه تحت التراب، والكافر كذلك يظهر منه الجهل بالله تعالى ومخالفاته لأمره وعدم قبوله لمعجزات الرسل لأنه ميت القلب، وهذا من باب التهكم والازدراء.

فهذا وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان وجعل له نورًا يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات، وسمى الله رسالته روحًا والروح إذا عدم فقد فقدت الحياة.

وشبه الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** الكافر بالأنعام التي لا تفقه ما يقال لها وهمها الأكل والشرب، وهو في شدة نفوره من الإيمان وفراره عن سماع القرآن كالحمير التي رأت الأسد ففرت مسرعة في كل اتجاه، فبين سبحانه أن الكفار أضل من البهائم؛

(١) الشرك في القديم والحديث (٣/ ١٣٧٦).

لأنها تبصر منافعها ومضارها وتتبع مالكيها، قال عطاء: الأنعام تعرف الله والكافر لا يعرفه، ولهذا جعل الأكثرين أضل سبيلاً من الأنعام؛ لأنها تتبع قائدها وتهتدي الطريق، وأما الكفار فدعاهم الرسل للطريق والهداية فلم يتبعوهم، بل لم يفرقوا بين ما يضرها من النبات أو الطريق وبين ما ينفعها منه، فتجنب الأول وتوثر الثاني، والله تعالى لم يعط البهائم قلوباً تفقه بها، ولا ألسنة تنطق بها وأعطى ذلك للكفار ثم لم ينتفعوا به فصاروا أضل من البهائم لأنهم لم يهتدوا مع وجود الأدلة. وكذلك شبه الله تعالى المؤمن الموحد بالسميع والبصير، وشبه الكافر بالأصم والأبكم والأعمى وذلك لتعطيل حواسه وعدم الاستفادة منها.

وشبه الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** المؤمن بمن يمشي سوياً معتدلاً على طريق مستقيم، وشبه الكافر بمن يمشي مكباً على وجهه في ظلمات كثيفة. ^(١)

(١) الشرك في القديم والحديث (٣ / ١٣٨١).

الباب الثالث: محاسن الإسلام في الإيمان بالله

اعلم أن الإيمان هو المرتبة التي يسمو إليها المسلم بعد إسلامه، فيرنو إلى الارتقاء بإسلامه إلى مرتبة الإيمان، فلا يقف في دينه عند عتبة العبادات الظاهرة، بل يترقى في كمالات الإيمان بمقدار ما يتمثل في سلوكه من شُعبه التي تشمل الاعتقاد والعبادة والأخلاق، قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان".^(١)

وأما أركان الإيمان فهي ستة يوضحها قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي القدر قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]،

وحديث جبريل حين سأل النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** عن الإيمان فأجاب النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره".^(٢)

وهكذا فأول الإيمان أن ينعقد قلب المسلم على التصديق بهذه المسائل الست، ثم يبرهن بعمله على صحة إيمانه بها، فالإيمان اعتقاد وقول وعمل، ويزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.^(٣)

(١) البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

(٢) مسلم (٨).

(٣) تعرف على الإسلام (ص: ٥٦).

❁ أول أركان الإيمان الست: الإيمان بالله:

والإيمان بالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يتضمن: الإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته.

أولاً: محاسنه في توحيد الألوهية، القصد والطلب:

توحيد العبادة هو إفراده وحده بأجناس العبادة وأنواعها، وإفراها من غير إشراك به في شيء منها مع اعتقاد كمال ألوهيته. ^(١)

والأصل في مقصد الشريعة هو إفراده الله تبارك وتعالى بالعبودية، وإفراده النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بالاتباع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]. والأدلة الشرعية تبيان لحكم الله ورسوله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية **رَحِمَهُ اللَّهُ**: والتنبيه على مقاصد الشريعة وما فيها من إخلاص الدين لله وعبادته وحده لا شريك له وما سدته من الذريعة إلى الشرك دقه وجله؛ فإن هذا هو أصل الدين وحقيقة دين المرسلين وتوحيد رب العالمين. ^(٢)

فمقاصد الشريعة هي الأصرة الكبرى التي تربط بين الأحكام والحكم، وتبين خصائص ومحاسن الشريعة وتحقيق العبودية، وهي مهمة للمسلم من حيث العموم والخصوص، من حيث زيادة الإيمان بالله تعالى ورسوخ العقيدة في القلب، وحاجة على الالتزام بهذه الشريعة السمحة لما يرى من تحقق المصالح ودرء المفاسد فيترك ما سواها من الشرائع. فكما أن الخلق عباد لله كوناً فلا بد أن يكونوا عباداً له سبحانه شرعاً وديناً. ^(٣)

(١) أصول العقائد الدينية (ص: ٢٦).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (١/ ٤٥٩).

(٣) مقاصد الشريعة وعلاقتها بالأدلة الشرعية (ص: ١٢).

❁ وقد تضمن هذا الجانب من التوحيد محاسن شتى ومن أهمها:

١ - حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً.

اعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً في محبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب؛ أعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإن حقيقة العبد روحه وقلبه ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيته، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها، ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل؛ لم يدم له ذلك بل يتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت ثم يعذب ولا بد في وقت آخر، وكثيراً ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملذ بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك، وإنما يحصل له بملاسته من جنس ما يحصل للجرب من لذة الأظفار التي تحكه فهي تدمي الجلد وتخرقه وتزيد في ضرره وهو يؤثر ذلك لما له في حكها من اللذة، وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله هو عذاب عليه ومضرة وألم في الحقيقة لا تزيد لذته على لذة حك الجرب، والعاقل يوازن بين الأمرين ويؤثر أرجحهما، والمقصود أن إله العبد الذي لا بد له منه في كل حالة وكل دقيقة وكل طرفة عين وهو الإله الحق الذي كل ما سواه باطل، والذي أينما كان فهو معه وضرورته وحاجته إليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة، بل هي فوق كل ضرورة وأعظم من كل حاجة. ^(١)

٢ - أن يعلم أن الله تعالى أثبت له حقاً لا يشركه فيه مخلوق.

كالعبادة والتوكل، والخوف والخشية، والتقوى، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ

(١) طريق المهجرتين وباب السعادتین (ص: ١٠٠) بتصرف.

اللَّهُ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدْ مَذْمُومًا تَحْذُولًا ﴿٢٢﴾ [الإسراء: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر: ٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر: ١١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغْيَرِ اللَّهَ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٤ - ٦٦].

وكل من الرسل يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٦١].^(١)

٣- سبب للأمن والسعادة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨١].

قال الله تعالى فاصلاً بين الفريقين ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ أي: يخلطوا ﴿إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً، لا بشرك، ولا بمعاص؛ حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة.

وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها، ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمان، لم يحصل لهم هداية، ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء.^(٢)

٤- دخول الجنان والنجاة من النيران.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

(١) خصائص هذا الدين عند ابن تيمية (ص: ١٠).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٢٦٣)، نبذة في العقيدة الإسلامية (ص: ٦٧).

(محمد: ١٢).

وقال تعالى في الحديث القدسي: "وَمَنْ لَقِيَني بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بي شَيْئًا لَقِيتهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً". (١)

ويمنع دخول النار بالكلية، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَّبِعِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ. (٢)

بل جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد؛ فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت. (٣)

٥- به تُنال شفاععة الرسول ﷺ.

فشفاععة النبي ﷺ العظمى إنما تنال لمن حقق توحيد الله ومات على ذلك

قال النبي ﷺ: "أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ". (٤)

٦- الاستخلاف في الأرض والتمكين والعزة.

قال عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (النور: ٥٥).

هذا من وعوده الصادقة، التي شوهده تأويلها ومخبرها، فإنه وعد من قام

(١) رواه مسلم (٦٩٣١).

(٢) البخاري (١١٨٦)، ومسلم (٣٣).

(٣) القول السديد في وجوب الاهتمام بالتوحيد (ص: ٤٩).

(٤) البخاري (٩٧).

بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جداً بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل.

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً، ولا يخافون أحداً إلا الله، فقام صدر هذه الأمة من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكّنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويديلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح. ^(١)

٧- الهداية لكل خير.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ (التغابن: ١١).

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ (يونس: ٩).

وهذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتلوا

(١) تفسير السعدي (ص: ٥٧٣)، رسائل الشيخ الحمد في العقيدة (١/ ٢٤).

ما أمروا به فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم. ^(١)

فقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يشيهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم. ^(٢)

٨- الإيمان بالله سبب لدفاع الله عن أهله.

قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (الحج: ٣٨).

هذا إخبار ووعد وبشارة من الله، للذين آمنوا، أن الله يدفع عنهم كل مكروه، ويدفع عنهم كل شر - بسبب إيمانهم - من شر الكفار، وشر وسوسة الشيطان، وشرور أنفسهم، وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف، كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه، فمستقل ومستكثر. ^(٣)

٩- غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه إنما يكمن في الإيمان به.

الإيمان بالله وعبادته ومحبه وإخلاص العمل له وإفراده بالتوكل عليه؛ هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان وكما دل عليه القرآن، لا كما يقوله من يقول: إن عبادته تكليف ومشقة على خلاف مقصود

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤٩).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٣٥٨).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٥٣٩).

القلب ولذته، بل لمجرد الامتحان والابتلاء، كما يقوله منكرو الحكمة والتعليل، أو لأجل التعويض بالأجر لما في إيصاله إليه بدون معاوضة منه تكدره، أو لأجل تهذيب النفس ورياضتها واستعدادها لقبول العقليات كما يقوله من يتقرب إلى النبوات من الفلاسفة، بل الأمر أعظم من ذلك كله وأجل، بل أوامر المحبوب قرة العيون وسرور القلوب ونعيم الأرواح ولذات النفوس وبها كمال النعيم، فقرة عين المحب في الصلاة والحج وفرح قلبه وسروره ونعيمه في ذلك، وفي الصيام والذكر والتلاوة، وأما الصدقة فعجب من العجب، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله والصبر على أعداء الله سبحانه، فاللذة بذلك أمر آخر لا يناله الوصف ولا يدركه من ليس له نصيب منه، وكل من كان به أقوم كان نصيبه من الالتذاذ به أعظم.

فمن كان مراده وحبه الله وحياته في معرفته ومحبته في التوجه إليه وذكره وطمأنينته به وسكونه إليه وحده؛ عرف هذا وأقر به. ^(١)

١٠ - غاية صلاح العبد في عبادة الله وحده فهي أسمى غايات الإنسان.

ولما كان صلاح العبد في عبادة الله وحده واستعانتة وحده؛ كان في عبادة غيره والاستعانة بغيره غاية مضرته.

ومما يوضح الأمر في ذلك ويبينه أن الله سبحانه غني حميد كريم رحيم، فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه يريد به الخير ويكشف عنه الضر لا لجلب منفعة إليه سبحانه ولا لدفع مضرة، بل رحمة وإحساناً وجوداً محضاً، فإنه رحيم لذاته، محسن لذاته، جواد لذاته، كريم لذاته، كما أنه غني لذاته، قادر لذاته، حي لذاته، فأحسانه وجوده وبره ورحمته من لوازم ذاته لا يكون إلا كذلك، كما أن قدرته وغناه من لوازم ذاته، فلا يكون إلا كذلك، وأما العباد فلا يتصور أن يحسنوا إلا لحظوظهم، فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ويجلبوا له منفعة، ويدفعوا

(١) طريق المهجرتين وباب السعادتین (ص: ١٠٢).

عنه مضرة، وذلك من تيسير الله وإذنه لهم به، فهو في الحقيقة ولي هذه النعمة ومسديها ومجريها على أيديهم، ومع هذا فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد، فإنهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر. ^(١)

ثانيًا: محاسنه في توحيد الربوبية.

ومعنى توحيد ربوبيّته: الإقرار بأنّه واحد في أفعاله، لا شريك له فيها، كالخلق والرّزق والإحياء والإماتة، وتدبير الأمور والتصرّف في الكون، وغير ذلك ممّا يتعلّق بربوبيّته. ^(٢)

وتوحيد الربوبية، كالإقرار بأنه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام؛ وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠]. ^(٣)

ولتوحيد الربوبية ثمرات ومحاسن عظيمة، ومن أهم ثمرات الإيمان به ما يلي:

١- توحيد الربوبية أعظم دليل على توحيد الإلهية.

ولذلك وقع الاحتجاج به في القرآن أكثر مما وقع بغيره، لصحة دلالاته وظهورها وقبول العقول والفطر لها، ولاعتراف أهل الأرض بتوحيد الربوبية، وكذلك كان عباد الأصنام يقرون به وينكرون توحيد الإلهية ويقولون:

(١) طريق المهجرتين وباب السعادتین (ص: ١٠٦).

(٢) تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد (٩/١).

(٣) شرح العقيد الطحاوية لابن أبي العز (٧٩).

﴿أَجْعَلِ لِلَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]، مع اعترافهم بأن الله وحده هو الخالق لهم وللسموات والأرض وما بينهما، وأنه المنفرد بملك ذلك كله، فأرسل الله تعالى الرسل تذكّره بما في فطرهم الإقرار به من توحيد وحده لا شريك له، وأنهم لو رجعوا إلى فطرهم وعقولهم لدلّتهم على امتناع إله آخر معه واستحالته وبطلانه، فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء، وهو مشهد جامع للأسماء والصفات، وحظ العباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات، ولذلك كان الاسم الدال على هذا المعنى هو اسم الله جل جلاله، فإن هذا الاسم هو الجامع، ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها إليه فيقال: الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كلها وكل مشهد سواه، فإنما هو مشهد لصفة من صفاته، فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهية وقام بحقه من التبعّد الذي هو كمال الحب بكمال الذل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية؛ فقد تم له غناه بالإله الحق، وصار من أغنى العباد. ^(١)

٢- أنه يغرس في النفوس تنزيه الخالق عن الظلم.

الظلم ينافي كمال الربّ وعدله؛ ولهذا حرّمه الله تعالى على نفسه، ودلّت على ذلك آياته، وأسماءه وصفاته، قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨].

وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧) [الأنبياء: ٤٧].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

(١) طريق المهجرتين وباب السعادتین (ص: ٤٦).

وقال في الحديث القدسي: "يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا". (١)

٣- تنشئة النفس على العزة والكرامة.

إن الإيمان بالله يربي في العبد العزة والكرامة، والراحة والطمأنينة، والشعور بالرضا؛ لأن العبد يعلم أن الله الواحد القهار هو الذي بيده الرزق. (٢)

فإذا أيقن المؤمن أن له رباً خالقاً هو الله تبارك وتعالى، وأن هذا الرب هو رب كل شيءٍ ومليكه وهو مصرف الأمور، وأنه هو القاهر فوق عباده، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض؛ أنست رُوحه بالله، واطمأنت نفسه بذكره، ولم تزلزله الأعاصير والفتن، وتوجه إلى ربه بالدعاء، والالتجاء، والاستعاذة، وكان دائماً خائفاً من تقصيره وذنبه؛ لأنه يعلم قدرة ربه عليه، ووقوعه تحت قهره وسلطانه، فتحصل له بذلك التقوى، والتقوى رأس الأمر، بل هي غاية الوجود الإنساني.

ولهذا قال النبي ﷺ: "ذاق طعم الإيمان: من رضي الله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً". (٣)

فإذا علم الإنسان أن الله هو الرزاق، وآمن بذلك، وأيقن أن الله بيده خزائن السموات والأرض، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع؛ قطع الطمع من المخلوقين، واستغنى عما بأيديهم، وانبعث إلى أفراد الله بالدعاء والإرادة والقصد. فإن هذا يوجب تعلق قلب المؤمن بالله وحده، وسؤاله والافتقار إليه، والاعتماد عليه، فهو سبحانه خالقه ورازقه ومالكه. فإذا لم الخوف من المخلوق؟! (٤)

(١) مسلم ١٦ / ١٣٢. وانظر دلالة الأسماء الحسنى على التنزيه (ص: ١٦٨).

(٢) مفهوم الثقافة الإسلامية (ص: ٣١).

(٣) صحيح مسلم (٣٤) من حديث العباس رضي الله عنه.

(٤) مفهوم الثقافة الإسلامية (ص: ٣١)، رسائل الشيخ الحمد في العقيدة (٣ / ٧).

٤- اليقين بأن النفع والضرر والعطاء والمنع بيد الله وحده.

المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر ولا عطاء ولا منع؛ بل ربه سبحانه الذي خلقه ورزقه وبصره وهده وأسبغ عليه نعمه وتحبب إليه بها مع غناه عنه، ومع تبغض العبد إليه بالمعاصي مع فقره إليه، فإذا مسه الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإذا أصابه بنعمه فلا راد لها ولا مانع كما قال تعالى: ﴿وإن يمسسك الله يضرّ فلا كاشف له إلا هو وإني يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾ [يونس: ١٠٧]،

وقال ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]،

فالعبد لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع إلا بإذن الله، فالأمر كله لله أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، هو مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء، المتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع والخفض والرفع، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين. ^(١)

٥- استلزام توحيد الربوبية لتوحيد الألوهية.

من أقرّ بتوحيد الربوبية لله، فاعترف بأنه لا خالق ولا رازق ولا مدبّر للكون إلا الله عزّ وجلّ لزمه أن يقرّ بأنه لا يستحق العبادة بجميع أنواعها إلا الله سبحانه، وهذا هو توحيد الألوهية، فإنّ الألوهية هي العبادة؛ فالإله معناه: المعبود، فلا يدعى إلا الله، ولا يُستغاث إلا به، ولا يُتوكّل إلا عليه، ولا تذبح القرابين وتُنذر النذور ولا تُصرف جميع أنواع العبادة إلا له؛ فتوحيد الربوبية دليلٌ لوجوب توحيد الألوهية؛ ولهذا كثيرًا ما يحتجُّ الله - سبحانه - على المنكرين لتوحيد الألوهية بما أقرّوا به من توحيد الربوبية، مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فُرْشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا

(١) طريق المهجرتين وباب السعادتین (ص: ١٠٤).

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ البقرة: ٢١، ٢٢ (١)

❁ ثالثاً: محاسن الإسلام في عقيدة الأسماء والصفات.

إن مدار الحق الذي اتفقت عليه الرسل مبني على أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل، إثبات الصفات ونفي مشابهة المخلوقات، فمن شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد حقائق ما وصف الله به نفسه فقد كفر، ومن أثبت له حقائق الأسماء والصفات ونفى عنه مشابهة المخلوقات فقد هدي إلى صراط مستقيم. (٢)

ومما يدل ويؤكد أهمية هذا التوحيد، هو ما تثمره معرفة أسماء الله وصفاته في قلب المؤمن من زيادة في الإيمان ورسوخ في اليقين، وما تجلبه له من النور والبصيرة التي تحصنه من الشبهات المضللة، والشهوات المحرمة.

فهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة، فلكل اسم من أسماء الله تأثير معين في القلب والسلوك، فإذا أدرك القلب معنى الاسم وما يتضمنه واستشعر ذلك، تجاوب مع هذه المعاني وانعكست هذه المعرفة على تفكيره وسلوكه. (٣)

❁ وقد تضمنت هذه العقيدة جملة من المحاسن ومنها:

١- كون الأسماء والصفات مقتضية لآثارها من العبودية.

الأسماء الحسنى والصفات العلاء مقتضية لآثارها من العبودية، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها، وهذا مطّرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء

(١) عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر. ص (٣٢).

(٢) الروح (ص: ٢٦٣).

(٣) معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات محمد بن خليفة بن علي التميمي (ص: ٢٣).

والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطنًا، ولو ازم التوكل وثمراته ظاهرًا وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور؛ يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطنًا، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح، ومعرفة بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته؛ توجب له سعة الرجاء وتثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه، وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه، تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعًا من العبودية الظاهرة هي موجباتها، وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية.

فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات، وارتبطت بها ارتباط الخلق بها، فخلقه سبحانه وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضاها، لأنه لا يتزين من عباده بطاعتهم ولا تشينه معصيتهم^(١).

٢- أنها أصل التوحيد، وأساس بناء الدين.

فمن أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به، فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه، فالأعمال والدرجات بنيان وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقًا حمل البنيان واعتلى عليه، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد.

فالعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس فلا يلبث بنيانه أن يسقط، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٢/ ٩٠).

مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهَا بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ التوبة: ١٠٩.

فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية حملت البدن ودفعت عنه كثيراً من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة ضعف حملها للبدن وكانت الآفات إليه أسرع شيء، فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان، فإذا تشعث شيء من أعالي البناء وسطحه كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس.

❁ وهذا الأساس أمران:

الأول: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

والثاني: تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه، فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه وبحسبه يعتلي البناء ما شاء. ^(١)

٣- العلم بأسماء الله وصفاته هو الطريق إلى معرفة الله تعالى.

فالله خلق الخلق ليعرفوه، ويعبدوه، وهذا هو الغاية المطلوبة منهم؛ فلاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له، وقبيح بعبد لم تزل نعم الله عليه متواترة أن يكون جاهلاً بربه، معرضاً عن معرفته.

ومعرفة الرب سبحانه بالجمال هي معرفة خواص الخلق، وكلهم عرفه بصفة من صفاته، وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه ليس كمثله شيء في سائر صفاته، ولو فرضت الخلق كلهم على أجملهم صورة وكلهم على تلك الصورة، ونسبت جمالهم الظاهر والباطن إلى جمال الرب سبحانه لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى قرص الشمس، ويكفي في جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه، ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته، فما الظن بمن صدر عنه هذا

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١٥٦).

الجمال، ويكفي في جماله أنه له العزة جميعاً والقوة جميعاً، والجود كله والإحسان كله والعلم كله والفضل كله ولنور وجهه أشرقت الظلمات.

فعلى العبد أن يعلم أنه لا إله إلا الله؛ فيحبه ويحمده لذاته وكماله، وأن يعلم أنه لا محسن على الحقيقة بأصناف النعم الظاهرة والباطنة إلا هو؛ فيحبه لإحسانه وإنعامه، ويحمده على ذلك فيحبه من الوجهين جميعاً، وكما أنه ليس كمثله شيء فليس كمحبته محبة، والمحبة مع الخضوع هي العبودية التي خلق الخلق لأجلها فإنها غاية الحب بغاية الذل، ولا يصلح ذلك إلا له سبحانه، والإشراك به في هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله ولا يقبل لصاحبه عملاً، وحمده يتضمن أصلين: الإخبار بمحامده وصفات كماله، والمحبة له عليها.

فمن أخبر بمحاسن غيره من غير محبة له لم يكن حامداً، ومن أحبه من غير إخبار بمحاسنه لم يكن حامداً حتى يجمع الأمرين، وهو سبحانه يحمد نفسه بنفسه ويحمد نفسه بما يجريه على ألسنة الحامدين له من ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، فهو الحامد لنفسه بهذا وهذا، فإن حمدهم له بمشيئته وإذنه وتكوينه فإنه هو الذي جعل الحامد حامداً والمسلم مسلماً والمصلي مصلياً والتائب تائباً؛ فمنه ابتدأت النعم، واليه انتهت، فابتدأت بحمده وانتهت إلى حمده، وهو الذي ألهم عبده التوبة وفرح بها أعظم فرح، وهي من فضله وجوده، وألهم عبده الطاعة وأعانها عليها ثم أثابه عليها، وهي من فضله وجوده وهو سبحانه غني عن كل ما سواه بكل وجه وما سواه فقير إليه بكل وجه، والعبد مفتقر إليه لذاته في الأسباب والغايات، فإن ما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا ينفع.^(١)

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١٨٤).

٤- حصول كمال التوحيد للعبد.

تعظيم الأسماء والصفات من كمال التوحيد، وإنَّ جحد الأسماء والصفات مناف لأصل التوحيد، فالذي يجحد اسمًا سمى الله به نفسه أو سماه به رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وثبت ذلك عنه وتيقنه، فإنه يكون كافرًا بالله تعالى كما قال سبحانه عن المشركين: **﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾** [الرعد: ٣٠]. (١)

وهذه العقيدة من محاسنها: تحصيل الهيبة منه تعالى.

فمن ازدادت معرفته؛ ازدادت هيئته، فالمعرفة توجب السكون، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته.

قال أحمد بن عاصم: من كان بالله أعرف كان له أخوف ويدل على هذا قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾** [فاطر: ٢٨، ٢٩]. وقول النبي: "أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية". (٢)

٥- التنوع في دعاء الله بكل أسمائه.

لا شك أن معرفة الأسماء الحسنی، والإيمان بها: يقتضي دعاء الله بهذه الأسماء، فهو القائل سبحانه: **﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾** [الأعراف: ١٨٠]. وقال: **﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾** [الإسراء: ١١٠].

فدعاء الله تعالى بهذه الأسماء لا يقتصر على كونه من باب التعبد المحض الذي يشب الله به الداعي - على عظيم أهمية ذلك، بل مع الدعاء إجابة، ومع السؤال عطاء، والدعاء هو العبادة؛ وهي الغاية التي لأجلها خلق الله الجن والإنس كما قال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾** [الذاريات: ٥٦].

(١) دراسة لاسمي الله الرازق. الرزاق (ص: ١٣).

(٢) البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦)، وانظر: مدارج السالكين (٣/ ٣٣٨).

وكلما كان العبد أعرف بأسماء الله وصفاته، ومقتضياتها وآثارها كان ذلك أرجى أن يديم دعاء ربه، فمن عرف كرم الله تعالى وبره وفضله، كان حرياً ألا يدع الدعاء، وأن يتضرع إلى الله تعالى أن ينيله من فضله، وأن يمدّه بالطفاه وعافيته.

وخاصة مع امتلاء القلب رغبة وانكساراً بين يدي الله تعالى؛ فكم من رحمة ونعمة ظاهرة وباطنة استجلبت بسبب الدعاء. ^(١)

٦- تزكية النفوس وإقامتها على منهج العبودية للواحد الأحد.

وهذه الثمرة من أجل الثمرات التي تحصل بمعرفة أسماء الله وصفاته، فالشريعة المنزلة من عند الله تهدف إلى إصلاح الإنسان، وطريق الإصلاح هو إقامة العباد على منهج العبودية لله وحده لا شريك له، والعلم بأسماء الله وصفاته، يعصم بإذن الله من الزلل، ويفتح للعباد أبواب الأمل، ويثبت الإيمان، ويعين على الصبر، فإذا عرف العبد ربه بأسمائه وصفاته، واستحضر معانيها؛ أثر ذلك فيه أيماً تأثير، وامتلاً قلبه بأجل المعارف والألطف. ^(٢)

٧- الكف عن المعاصي.

ذلك أن النفوس قد تهفو إلى مقارفة المعاصي، فتذكر أن الله يبصرها، فتستحضر هذا المقام وتذكر وقوفها بين يديه، فتزجر وترعوي، وتجنب المعصية، قال الله تعالى مبيناً قربته وإحاطته بعبده: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنْ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنْ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]

٨- تهذيب النفس وكفها عن الحسد والاعتراض.

بعض النفوس تتطلع وتشوق إلى ما في أيدي الآخرين، وربما وقع فيها شيء

(١) دراسة لاسمي الله الرازق (ص: ١٥٢).

(٢) دراسة لاسمي الله الرازق. أحمد بن عثمان المزيد (ص: ١٣)، رسائل الشيخ الحمد في العقيدة (٤/ ٣).

من الاعتراض أو الحسد، فعندما تتذكر أن الله من أسمائه الحكيم، والحكيم هو الذي يضع الشيء في موضعه عندئذ تكف عن حسدها، وتنقلع عن شهواتها، وتنفطم عن غيها.

فالعبد يقع في المعصية، فتضيق عليه الأرض بما رحبت، ويأتيه الشيطان؛ ليجعله يسيء ظنه بربه، فيتذكر أن من أسماء الله (الرحيم، التواب، الغفور)، فلا يتمادى في خطيئته، بل ينزع عنها، ويتوب إلى ربه، ويستغفره فيجده غفوراً تواباً رحيماً. ^(١)

٩- زيادة الإيمان.

فالعلم بأسماء الله وصفاته من أعظم أسباب زيادة الإيمان، وذلك لما يورثه في قلوب العابدين من المحبة، والإنابة، والإخبات، والتقديس، والتعظيم للباري **جَلَّ وَعَلَا** ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ نَفَقْتُهُمْ﴾ (١٧) (محمد: ١٧).

وأن من أحصى تسعة وتسعين اسماً من أسماء الله دخل الجنة، قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة". ^(٢)

١٠- الطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته.

والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان: طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها، وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجهه من آثار العبودية، مثاله: الطمأنينة إلى القدر وإثباته، والإيمان به يقتضي الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له على دفعها، فيسلم لها ويرضى بها ولا يسخط ولا يشكو ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما أتاه، لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يُخلَق كما قال تعالى:

(١) الطوبى في توحيد أسماء الله الحسنى (ص: ١٨٠)، رسائل الشيخ الحمد في العقيدة (٤/ ٤).

(٢) صحيح البخاري (٢٧٣٦)، وانظر رسائل الشيخ الحمد في العقيدة (٤/ ٥)، صفات الله **عَزَّجَلَّ** الواردة في الكتاب والسنة (ص: ٤١) القول السديد في وجوب الاهتمام بالتوحيد (ص: ٢٨ - ٣٢)، الوجيز في أسماء الله الحسنى محمد الكوس (ص: ٣).

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴿[الحديد: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ [الصف: ١١].

قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم، وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها: كالسمع، والبصر، والعلم، والرضا، والغضب، والمحبة، فهذه طمأنينة الإيمان. (١)

❁ رابعاً: محاسن الإيمان بالملائكة.

الإيمان بالملائكة يتضمن الإيمان بوجودهم، وبأنهم خلق من خلق الله، يعبدونه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، ولا يفترون عن عبادته ليلاً ونهاراً، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأن لهم أعمالاً كلّفهم الله بها وهم يؤدونها في طاعة كاملة لله. (٢)

ومن محاسن العقيدة الإسلامية توضيح مكانة ووظيفة الملائكة الكرام ليزداد المسلم تعظيماً ومحبة لهم، وحياءً منهم، وإكراماً لهم، ونفت عنهم ما نُسب إليهم من المشركين حيث قالوا: إنهم بنات الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً! وحثّت المؤمن على احترامهم وحبهم وإكرامهم، وعدم التعرض لهم بالأذى، وعدم الاعتداء بالقول وغيره. (٣)

(١) انظر: مقدمة نضرة النعيم، والروح لابن القيم (ص: ٢٢٢).

(٢) ركائز الإيمان (ص: ١٠).

(٣) محاسن العقيدة الإسلامية (ص: ٣٨).

ولقد أكثر الله تعالى من ذكر الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في القرآن، وأثنى عليهم بكريم الخصال وجليل الأعمال، وقربهم وطاعتهم لذي الكرم والجلال، وليس ذلك من باب العلم بالشيء فقط، ولكن لأجل ما يثمره العلم بهم واعتقاد وجودهم؛ من المحاسن والثمرات العظيمة العاجلة والآجلة، فمن ذلك:

١- العلم بعظمة الله تعالى، وقوته، وسلطانه.

فإن عظمة المخلوق من عظمة الخالق، وأن الله عَزَّجَلَّ له الصفات العليا، وله التدبير الكامل في خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

٢- شكر الله تعالى على عنايته بعباده.

حيث وكل من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم، وكتابة أعمالهم، وغير ذلك من مصالحهم. ^(١)

٣- محبة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله تعالى على الوجه الأكمل، واستغفارهم للمؤمنين. ^(٢)

٤- الاقتداء بالملائكة فيما يقومون به من طاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهم عباد مكرمون، لا يعصون الله عَزَّجَلَّ ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فالملائكة تأمر العباد بالخير والشر، ويحذرونهم على الشر. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ﴿٣٦﴾ [الزخرف: ٣٦]

٥- الأثر العظيم في حياة الإنسان.

فإذا شعر الإنسان بمراقبة الملائكة له وتقييدهم أعماله؛ فإنه يتحفظ لئلا يُسَجَّلَ في صحيفته أعمال يندم عليها يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسَهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ﴿١٦﴾ إِذْ يَنْفُلُ الْمَلَكَيْنِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ

(١) ركائز الإيمان لمحمد قطب (ص: ١٧٨).

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة للعثيمين (ص: ٣٢)، تأصيل علم العقيدة - عبد الرحيم السلمي (٣/ ١٣).

فَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ سورة ق: ١٦-١٨. (١)

٦- أن الإيمان بهم من الإيمان بالغيب، الذي هو أصل أصول الإيمان بالله تعالى وما جاء عنه سبحانه.

٧- الثقة بسند الرسالة.

فإن منهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ السفراء بين الله تعالى وبين رسله في تبليغ رسالته، وهم موصوفون بالغاية من الأمان وكمال الديانة والعصمة من الذنوب، ومنها الكذب والخطأ.

٨- معرفة علاقتهم بالإنسان وقربهم منه في أحوال كثيرة والحفظ الدائم.

وهذا يقتضي الأدب معهم، والحياء منهم، والأنس بهم، وحسن صحبتهم.

٩- ملازمة الاستقامة والحذر من مقارفة المعاصي حذراً من أن يكتبوا علينا إثماً، أو يشهدوا علينا بمعصية.

فإنهم شهود مرضيون، وإن العبد إذا ذكر حضورهم معه استحيى منهم.

١٠- الطمأنينة في المواطن التي يحضرونها يصلون على المسلم رجاء بركة حضورهم، وتحصيل المزيد من دعائهم وصلاتهم. (٢)

١١- تطهير عقيدة المسلم من شوائب الشرك وأدراجه.

لأن المسلم إذا آمن بوجود الملائكة الذين كلفهم الله بهذه الأعمال العظيمة؛ تخلّص من الاعتقاد بوجود مخلوقات وهمية تسهم في تسيير الكون.

١٢- أن يعلم المسلم أن الملائكة لا ينفعون ولا يضرّون.

وإنما هم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، فلا

(١) مباحث في العقيدة (٧/ ١٩) تعريف عام بدين الإسلام لعلي الطنطاوي (ص: ١٥١).

(٢) شرح ثلاثة الأصول للعثيمين (ص: ٩٢)، بيان أركان الإيمان (ص: ٢٩)، الفوائد السنية على العقيدة الواسطية (ص: ٣٧).

يعبدهم ولا يتوجه إليهم، ولا يتعلق بهم. ^(١)

١٣- الإيمان بقدرته التامة جَلَّ وَعَلَا على إحياء الموتى وبعث الأجساد من القبور لفصل القضاء.

فإن الله الذي خلق هؤلاء الملائكة على هذه الصفات العظيمة وهم أكبر من خلق الناس بكثير؛ قادر من باب أولى على إعادة هذا الخلق الصغير الذي مبدؤه نظفة ثم علقه. ^(٢)

١٤- الانتباه إلى أن هذه الحياة فانية لا تدوم حين يتذكر ملك الموت الأمور بقبض الأرواح حين يتوفاه الله.

ومن ثم فلا تستحق هذه الحياة الدنيا أن يشغل بها الإنسان عن الآخرة، ويكفيه منها المتاع الطيب الحلال الذي أباحه الله.

١٥- عمل الحساب للآخرة حين يتذكر الإنسان ترحيب الملائكة بالمؤمنين في الجنة وتعذيبهم للكفار في النار.

فيجب أن يكون ممن أنعم الله عليهم بجنته ورضوانه. ^(٣)

✽ خامساً: محاسن الإيمان التصديق بالكتب التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله.

إن المسلم مأمور بالإيمان بالكتب التي أنزلها الله على رسله، فنؤمن بما سمى الله تعالى منها في كتابه، من التوراة والإنجيل والزمور، ونؤمن بأن لله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى.

ولقد أوجب الله تعالى الإيمان بالكتب السماوية التي أنزلها على رسله، والتي تنزَّلت حقيقةً على الأنبياء والمرسلين، وليس تلك الكتب التي سطرَّتها عقول البشر،

(١) الإسلام أصوله ومبادئه (٢/ ١٣٣).

(٢) إتحاف أهل الألباب بمعرفة التوحيد والعقيدة في سؤال وجواب (١/ ١٢٣).

(٣) ركائز الإيمان محمد بن قطب (١/ ٢٢٣).

وتناولتها الأيدي بالوضع وفق الأهواء، فلا يصح إيمان المؤمن إلا بالتصديق بما أنزله الله فعلاً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]. وقال تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ ۚ وَكُتُبِهِ ۚ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وفي حديث جبريل عليه السلام حينما سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان، قال: "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ". (١)

والإيمان بالكتب السماوية يتضمن: الإيمان بكل ما أنزل الله على رسله من الكتب بما فيها القرآن الكريم، وإن كانت الكتب السماوية السابقة كلها قد حرفت إلا القرآن الكريم وحده فقد حفظه الله، قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] (٢).

ولما كانت وظيفة الرسل حمل الهداية الإلهية إلى البشرية، فقد أنزل الله عليهم هديه ووحيه، ليستنقذ به البشرية من ضلالها وتيهها ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأُنْزِلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وهذه الكتب الإلهية تحمل رسالة الله إلى الإنسان، وتبعاً لذلك فهي تتصف بصفات مُنزلها، فهي الهدى والنور. (٣)

والإيمان بالكتب يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بأن نزولها من عند الله حقاً.

(١) مسلم (٨)، وانظر: مقرر التوحيد (ص: ٢٩)، أصول الدعوة وطرقها (ص: ٢٨١)، مفهوم الثقافة الإسلامية (ص: ٧٥).

(٢) ركائز الإيمان (ص: ١٠).

(٣) تعرف على الإسلام (ص: ٥٩).

الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه: كالقرآن الذي نزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتوراة التي أنزلت على موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والزبور الذي أوتيه داود صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما ما لم نعلم اسمه؛ فنؤمن به إجمالاً.

الثالث: تصديق ما صحَّ من أخبارها، كأخبار القرآن، وأخبار ما لم يبدل أو يحرف من الكتب السابقة.

الرابع: العمل بأحكام ما لم ينسخ منها، والرضا والتسليم به سواء أفهمنا حكمته أم لم نفهمها، وجميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن العظيم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [سورة المائدة: ٤٨] أي (حاکماً عليه).

وعلى هذا، فلا يجوز العمل بأي حكم من أحكام الكتب السابقة إلا ما صحَّ منها، وأقره القرآن. ^(١)

ومن محاسن وثمرات الإيمان بالكتب:

١ - العلم بعناية الله تعالى وكمال رحمته.

حيث أنزل لكل قوم كتاباً يهديهم به، ويحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

٢ - العلم بحكمة الله تعالى في شرعه.

حيث شرع لكل قوم ما يناسب أحوالهم ويلاءم أشخاصهم، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] ^(٢).

٣ - شكر نعمة الله تعالى في إنزال الكتب.

فهذه الكتب نور وهدى في الدنيا والآخرة، ومن ثم يتعين شكر الله على

(١) نبذ في العقيدة للشيخ محمد صالح العثيمين (٤٦).

(٢) شرح الأصول الثلاثة لابن عثيمين ص (٩٥).

هذه النعم العظيمة. ^(١)

٤- عبادة الله على بصيرة والتحرر من التخبط الفكري والعقدي. ^(٢)

٥- العيش مع القرآن، والتعبد بتلاوته وحفظه، والعمل به، وإقامة حدوده، وتربية النفوس بحسب أوامره وتوجيهاته. ^(٣)

٦- سلامة القصد والعمل من الانحراف في عبادة الله تعالى أو معاملة المخلوقين.

لأن من أسسها الإيمان بالرسول المتضمن لاتباع طريقتهم ذات السلامة في القصد والعمل. ^(٤)

وسياتي بعون الله مزيد بيان حول الكتب السماوية، وبخاصة القرآن الكريم في باب محاسن القرآن الكريم

❁ سادساً: محاسن وثمرات الإيمان بالرسول.

ومعنى الإيمان بالرسول: هو التصديق الجازم بأن الله تعالى بعث في كل أمة رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له والكفر بما يعبد من دونه، وأن جميعهم صادقون مصدقون بارون راشدون كرام بررة أتقياء أمناء هداة مهتدون، وبالبراهين الظاهرة والآيات الباهرة من ربهم مؤيدون، وأنهم بلغوا جميع ما أرسلهم الله به، لم يكتموا منه حرفاً ولم يغيروه ولم يزيدوا فيه من عند أنفسهم حرفاً ولم ينقصوه، فهل على الرسول إلا البلاغ المبين.

وأنهم كلهم كانوا على الحق المبين والهدى المستبين، وأن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً واتخذ محمداً ﷺ خليلاً، وكلم موسى تكليماً، ورفع إدريس مكاناً علياً، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح

(١) مقرر التوحيد (ص: ٣٢).

(٢) رسائل الشيخ الحمد في العقيدة (١٣ / ٥).

(٣) مفهوم الثقافة الإسلامية (ص: ٧٥).

(٤) ٦٠ فائدة في العقيدة (ص: ٦٣ - ٦٤)، القول السديد في مقاصد التوحيد (ص ١٦).

منه، وأن الله تعالى فضَّل بعضهم على بعض، ورفع بعضهم على بعض درجات. وقد اتفقت دعوتهم من أولهم إلى آخرهم في أصل الدين وهو توحيد الله **عَزَّوَجَلَّ**، بإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، ونفي ما يصاد ذلك أو ينافي كماله، وأما فروع الشرائع من الفرائض والحلال والحرام فقد تختلف فيفرض على هؤلاء ما لا يفرض على هؤلاء، ويخفف على هؤلاء ما شدد على أولئك، ويحرم على أمة ما يحل للأخرى، وبالعكس لحكمة بالغة، وغاية محمودة قضاهها ربنا **عَزَّوَجَلَّ**؛ ليلوكم فيما آتاكم. ^(١)

ولكي تبلغ رسالة الله إلى العالمين؛ اصطفى الله خيرة من خلقه، فجعلهم رسلاً له، أولاهم تعريف الناس بدينهم وإبلاغهم ما يريد ربهم منهم، فمن أطاعهم وآمن بهم؛ بشرَّوه بالسعادة والرضوان، ومن عصاهم أنذروه غضب الملك الديان: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ^(١٦٥) النساء: ١٦٥.

فبهؤلاء الرسل قامت حجته تبارك وتعالى على خلقه كما قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "وليس أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب، وأرسل الرسل". ^(٢) والإيمان بالرسول ركن من أركان الإيمان، فلا يعتبر الإنسان مسلماً ولا مؤمناً حتى يؤمن بأن الله قد أرسل للبشر رسلاً من أنفسهم يبلغونهم الحق المنزل إليهم من ربهم، ويبشرونهم وينذرونهم، ويبينون لهم حقيقة الدين، كذلك لا يعتبر مسلماً ولا مؤمناً حتى يؤمن بالرسول جميعاً، لا يفرِّق بين أحدٍ منهم، وأنهم جميعاً جاءوا بالحق من عند الله.

والإيمان بالرسول يقتضي الإيمان بأن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** أرسل إلى البشرية رسلاً متعددين، منهم من قصه الله على نبيه محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في القرآن، ومنهم من لم يقصصه عليه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ

(١) معارج القبول (٢/٦٧٥).

(٢) مسلم (٢٧٦٠).

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ
وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ
نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤] (١)

وللإيمان بالرسول محاسن وثمرات جليلة منها:

١ - العلم برحمة الله تعالى وعنايته بعباده.

حيث أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى صراط الله تعالى، ويبينوا لهم كيف
يعبدون الله، لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك.

٢ - شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى.

٣ - محبة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وتعظيمهم، والثناء عليهم بما يليق بهم.

لأنهم رسل الله تعالى، ولأنهم قاموا بعبادته، وتبليغ رسالته، والنصح لعباده. (٢)

٤ - هداية البشرية إلى معرفة الخالق وتوحيده.

فيتحقق للمؤمنين في حياتهم الخير والهداية والسعادة في الدارين، قال
تعالى: ﴿ قَالَ أَهَاطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى
فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٦٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا
وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [طه: ١٢٤]. (٣)

إن الفطرة البشرية بذاتها تعرف وجود الخالق وتتجه إليه بالعبادة. ولكنها
كثيراً ما تضل، فتتصور الخالق على غير حقيقته وتشرك معه آلهة أخرى، ومن
ثم يرسل الله الرسل ليعرفوا البشر بحقيقة خالقهم وينفوا من عقولهم ونفوسهم
التصورات الباطلة عن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وما يترتب عليها من انحرافات في الفكر

(١) ركائز الإيمان (١/ ٢٨٦).

(٢) شرح ثلاثة الأصول للعثيمين (ص: ٩٩).

(٣) مفهوم الثقافة الإسلامية (ص: ٨٣)، مقرر التوحيد، د. عبد العزيز العبد اللطيف، (ص: ٨٧).

والسلوك، وليعالجوا بصفة خاصة قضية الشرك، وهي أشد ما يتعرض له البشر من انحراف في تصورهم للخالق وسلوكهم نحوه.

فأله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** واحد أحد: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤)﴾ [الإخلاص].

ومن ثم تنتفي كل بنوة لله أو قرابة لأحد من البشر أو الجن أو الملائكة مما تعج به خرافات الجاهلية، ما باد منها وما لا يزال باقيًا حتى اليوم.

كذلك ليس الله متمثلاً في صنم أو وثن أو في الشمس أو القمر أو النجوم أو غيرها من الكائنات، فكلها مخلوقات والله هو الخالق: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: ٣٧]. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَى ۝ (٤٩)﴾ [النجم: ٤٩].

كما يقوم الرسل بتعريف البشر باللهم بصفاته كلها وأسمائه الحسنی: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

تلك هي المهمة الكبرى للرسول جميعاً صلوات الله عليهم وسلامه: أن يهدوا البشرية لإلهها الواحد، ويدلوهم على الطريقة الصحيحة لعبادته، وبذلك تقوم حياتهم على قاعدتها الصحيحة: أفراد الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بالألوهية والربوبية وأسمائه، وتوحيد العبادة له في الاعتقاد وشعائر التعبد واتباع ما أنزل الله من التشريع، أي: الحكم بما أنزل الله. ^(١)

٥- أن المنهج الصالح لا يمكن أن يأتي إلا من مصدر واحد هو الله تعالى.

فأله هو الذي يعلم حقيقة الإنسان لأنه هو الذي خلقه سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝ (١٤)﴾ [الملك: ١٤].

والله هو الذي يعلم كل شيء في حياة البشر - وفي الكون كله - علم إحاطة

(١) ركائز الإيمان (ص: ٢٣٤)

واطلاع: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ: ٢] ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝٣﴾ [سبأ: ٣].

والله هو الذي شرع التشريع الحكيم لأنه هو الغني القادر، وليس محتاجاً إلى شيء مما عند الناس، وهو الواهب لهم كل شيء، وهو الذي لا يزيد في ملكه أن يكون الناس كلهم على قلب أتقى رجل منهم، ولا ينقص في ملكه أن يكونوا على قلب أفجر رجل،

والهداية الربانية التي تشتمل على المنهج الصالح لحياة البشر طريقها هو الرسل والرسالات.

ومن ثم تصبح الرسالة حاجة بشرية لا غنى عنها، ولا استقامة لحياة البشر بدونها.

وكما تكفل الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** رحمة منه بعباده - بكل ما يحفظ حياتهم من الطعام والكساء والماوى والعقل المدبر المنظم، فقد تكفل - سبحانه - كذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب لتستقيم حياة الناس في الأرض. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] ^(١)

٦- تربية أتباعهم.

حتى تستقيم على أمر الله، وتتحصن من غواية الشيطان، تبدأ من ذات أنفسهم، بأن يكونوا هم أنفسهم القدوة في كل ما يدعون الناس إلى اتباعه.

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرْنِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، قَالَتْ: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، قُلْتُ: فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَّبِلَ، قَالَتْ: لَا تَفْعَلْ، أَمَا تَقْرَأُ: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} فَقَدْ

(١) ركائز الإيمان (ص: ٢٣٢).

تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ وُلِدَ لَهُ. " (١) (٢)

٧- تعريف الناس بالقيم الحقيقية التي من أجلها خلُقوا.

إن الناس بطبيعتهم منجذبون دائماً إلى متاع الأرض: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤].

وهم يحتاجون دائماً إلى من يرفعهم من ثقله الأرض هذه، ويبصرهم بالقيم العليا التي ينبغي أن يتجهوا إليها من صدق وإخلاص وأمانة وتضحية وكرم وشجاعة وإيثار وعدل، مما يليق بالإنسان الذي كرمه الله وفضله وجعله خليفة في الأرض وحمله الأمانة الكبرى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وهنا - حين يتعرض الرسل لتلك المحنة - فإنهم - بسلوكهم العملي - يبرزون القيمة الحقيقية التي تستحق الحرص عليها والجهد من أجلها. (٣)

❁ سابعاً: محاسن وثمرات الإيمان باليوم الآخر.

اليوم الآخر: هو يوم القيامة الذي يُبْعَثُ الناس فيه للحساب والجزاء. (٤)

الإيمان بالله واليوم الآخر هو صلب عقيدة المسلم، ومعلم بارز من معالم شخصيته، وبه يكون الفرق بين المؤمنين والكافرين، ولأهميته الكبرى ومكانته العظمى؛ فقد جاء في القرآن الكريم مقترناً بالإيمان بالله، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ

(١) أحمد (٢٤٦٠١) وصححه محققوا طبعة الرسالة.

(٢) ركائز الإيمان (١/ ٢٩٠).

(٣) ركائز الإيمان (ص: ٢٣٩).

(٤) شرح ثلاثة الأصول للعثيمين (ص: ١٠٠).

وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْفُوكَ يَعْهَدُهُمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

[البقرة: ١٧٧]. فهذه الآية، رسمت في إعجاز بلاغيٍّ، معالم وملاح شخصيّة المسلم، في العقائد والعبادات والسلوك، واشتملت على جملٍ عظيمة، وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة^(١).

إن الإيمان باليوم الآخر حقيقة يفرضها العقل البشري فرضاً، ذلك لأن حياة المرء في الدنيا حياة محدودة الزمن، صغيرة المدى إذا ما قيسَت بالعمر الزمني المديد للكون، وقد لا تتسع هذه الحياة لأن ينال المسيء جزاءه، بل قد يفلت من العقوبة بتكتمه وتستره على نفسه، أو لأنه رجل قوة وجبروت وسلطة وغلبة. فهل يعقل أن تفوت حياته كلها من غير أن يُؤخذ على يديه؟ أم أنه من المنطق السليم أن تكون هناك حياة أخرى تتسع لما ضاقت عنه الأولى؟ أو ليس من العدل والحكمة وجود تلك الحياة الثانية؟

وكذلك قد يقضي إنسان حياته كلها مجاهداً طائعاً تقياً نقيّاً متحملاً العذاب والإيذاء، والحق والحرب الشديدة في سبيل دعوته. ثم ينتهي أجله قبل أن ينال شيئاً من الجزاء، وحتى من بهجة النصر، وفرحة الغلبة والعزة للدعوة. فهل يعقل أن يذهب هذا الإنسان سدىً من غير ثواب، من غير تكريم؟ إن العدالة المطلقة تقتضي وجود يوم آخر ينسيه ألمه وعذابه، وينقله إلى النعيم الأبدي الذي لا يزول.^(٢)

وللإيمان باليوم الآخر أهمية بالغة في حياة الإنسان وآثار عميقة، ونستطيع أن نفهم على ضوء هذه الحقيقة كيف أن القرآن ربط في كثير من المواضع بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، فيجئان متتاليين ومتراطين سواء في

(١) أصول الدعوة وطرقها (ص: ٣١٢)، شرح الأصول الثلاثة الفوزان (ص: ٨٣).

(٢) أضواء على الثقافة الإسلامية (ص: ٩٩).

الإثبات أو النفي.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾
[آل عمران: ١١٤].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ
النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ [البقرة: ٢٦٤].

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ
يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].^(١)

❁ ومن ومحاسن الإيمان باليوم الآخر:

- ١- الرغبة في فعل الطاعة، والحرص عليها رجاء لثواب ذلك اليوم.
- ٢- الرهبة عند فعل المعصية، والرضى بها خوفاً من عقاب ذلك اليوم، وملازمة
التوبة النصوح.

٣- تسلية المؤمن عما يفوته من الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها.^(٢)

٤- إن معرفة ذلك اليوم حقيقة المعرفة يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء.

الذين إن خلا القلب منهما؛ خرب كل الخراب، وإن عمّر بهما، أوجب له
الخوف والانكفاف عن المعاصي، والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها.

ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها وتحذر، كأحوال
القبر وشدته، وأحوال المواقف الهائلة، وصفات النار المفضعة، وبمعرفة تفاصيل

(١) ركائز الإيمان لمحمد قطب (ص: ٣٨٣).

(٢) شرح ثلاثة الأصول للعثيمين (ص: ١٠٥) شرح الأصول الثلاثة (ص: ٣٤).

الجنة وما فيها من النعيم المقيم.

٥- معرفة فضل الله وعدله في المجازاة في الأعمال الصالحة والسيئة.

وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب، يعرف بذلك فضل الله وعدله وحكمته.

٦- الإيمان باليوم الآخر والجزاء فيه أصل صلاح القلب، وأصل الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، اللذين هما أساس الخيرات. ^(١)

٧- الإيمان باليوم الآخر مفتاح سعادة الإنسان.

وسر يقينه وهو الرباط الوثيق بين العمل والجزاء، بين الصبر والفرج، بين التحمل والإنعام به يشعر المؤمن أنه لم يخلق عبثًا، وأنه ليس شيئًا مهملاً، كيف؟ والعدالة الإلهية تنتظره والنعيم الأبدي يترقبه، فيطمئن قلبه وترتاح نفسه.

٨- والإيمان بالآخرة ضابط لكل أعمال الإنسان وقيب على كل تصرفاته..

فهو في كل ما يقول وفي كل ما يدع وفي كل ما يعمل يشعر بجلال ذلك الموقف العظيم الوقور، يوم ينادي عليه من بين الخلائق وأمام الأشهاد وعلى مرأى من أعين الناس عظيمهم وحقيرهم ينادي عليه. فيلبي ويستجيب وهل يستطيع حينذاك أن يكتفم الله حديثًا؟ أو أن يتستر على عيب أو نقص أو زلة أو خطيئة أو معصية مات عنها قبل أن يتوب منها؟ يا لهول ذلك المشهد، ويا لعظمته! إنه يأخذ الأنفاس فإذا بها تلهث خوفًا؟، ويمتلك الأفئدة فإذا بها تطير رعبًا.

٩- سلامة التفكير وانضباط الموازين وسمو الأخلاق.

لا يستوي من يؤمن بالله واليوم الآخر ويوقنُ بيوم الحساب والجزاء ولا يغفل عنه، ومن لا يؤمن بالآخرة، أو يؤمن بها ولكنّه في لهو وغفلةٍ عنها، لا يستويان أبدًا في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الآخرة فيوضحه قوله تعالى:

(١) تفسير السعدي (ص: ٣٧).

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَبُ النَّارِ وَأَصْحَبُ الْجَنَّةِ أَصْحَبُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ (سورة الحشر: ٢٠).

وأما في الحياة الدنيا فلا يلتقي أبداً من يعلم أن له غاية عظيمة في هذا الحياة، وأن مرده إلى الله **عَزَّجَلَّ** في يوم الجزاء والحساب والنشور، مع من لا يعلم من هذه الحياة الدنيا إلا ظاهرها، وأنها كل شيء عنده، وهو عن الآخرة من الغافلين. قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أَوَّلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [سورة الرعد: ١٩].

١٠ - معرفة حقيقة الحياة الدنيا وأنها متاع الغرور، وأنها جسر للآخرة التي فيها الحياة الحقيقية.

قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].^(١)

إن الاعتقاد باليوم الآخر يؤدي دوره الأساس في إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه، ونفي القلق والسخط والقنوط. إن الحساب الختامي ليس في هذه الأرض، والجزاء الأوفى ليس في هذه العاجلة. إن الحساب الختامي هناك، والعدالة المطلقة مضمونة في هذا الحساب.^(٢)

١١ - الإخلاص لله (عز وجل) والمتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إنَّ الموقنَ بقاء الله **عَزَّجَلَّ** يوم الفزع الأكبر، لا تلقاه إلا حريصاً على أعماله، خائفاً من كل ما يحبطها من أنواع الشرك الأكبر أو الشرك الأصغر، حيث إنَّ الشرك الأكبر يحبط جميع الأعمال، فتصير هباءً منثوراً، والشرك

(١) المدخل إلى الثقافة الإسلامية (ص: ١٤٨).

(٢) مفهوم الثقافة الإسلامية (ص: ٩٤).

الأصغر يحبطُ العملَ الذي حصل فيه هذا النوع من الشرك كيسير الرياء، والعُجب، والمن، وطلب الجاهِ والشرف في الدنيا، فكلّما كان العبدُ موقناً ببقاء ربه؛ كان منه الحرصُ الشديد على ألا تضيعَ منه أعمالُه الصالحةُ في موقف القيامة، يومَ أن يكون في أشدّ الأوقات حاجةً إليها؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَنَكانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلِيعْمَلْ عَمَلًا صَدِيقًا وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١١٠) [الكهف: ١١٠].

١٢- الحذرُ من الدنيا والزهدُ فيها والصبرُ على شدائدِها وطمأنينةُ القلب وسلامته.

إذا أكثرَ العبدُ ذكرَ الآخرة، وكانت منه دائماً على بال، فإنَّ الزهدَ في الدنيا والحذرَ منها ومن فتنتها سيحلان في القلب، وحينئذٍ لا يكثرُ بُزهرتها، ولا يحزن على فواتها، ولا يمدنَّ عينيه إلى ما متّع الله به بعض عباده من نعم ليفتنهم فيها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (١٣١) (سورة طه: ١٣١)، وهذه الثمرة يتولد عنها بدورها ثمارٌ أخرى مباركة طيبة منها: القناعة، وسلامةُ القلب من الحرص والحسد والغلِّ والشحناء؛ لأن الذي يعيش بتفكيره في الآخرة وأنبأها العظيمة لا تهتمُّ الدنيا الضيقة المحدودة، مع ملاحظة أن إيمانَ المسلم باليوم الآخر وزهده في الدنيا لا يعني انقطاعه عنها وعدم ابتغاء الرزق في أكنافها؛ يقول تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٧٧) (سورة القصص: ٧٧).

١٣- اجتنابُ الظلم بشئٍ صوره.

نظراً لكثرة الظلم والشحناء بين المسلمين في عصرنا الحاضر، وأنه لا شيء يمنع النفسَ من ظلم غيرها في نفس أو مال أو عرض: كاليقين بالرجوع إلى الله **عَزَّوَجَلَّ**، وإعطاء كل ذي حقٍّ حقه، وإنصافِ المظلوم ممن ظلمه؛ فإذا تذكرَ العبدُ هذا الموقف العصيبَ الرهيب، وأنه لا يضيعُ عند الله شيء، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ

لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبًا ﴿٤٧﴾ (سورة الأنبياء: ٤٧).

١٤ - حصول الأمن والاستقرار والألفة بين الناس بالحكم بشريعة الله.

إنَّ مجتمعًا يسودُ بين أهله الإيمانُ بالله **عَزَّجَلَّ** واليقينَ بالآخرة والجزاء والحساب، لا شكَّ أنه مجتمعٌ تسوده المحبةُ ويعمه السلامُ؛ لأنَّ تعظيمَ الله سبحانه سيجعلُ هذه النفوسَ لا ترضى بغيرِ شرعِ الله **عَزَّجَلَّ** بديلاً، ولا تقبلُ الاستسلامَ إلا لحكمه، وهذا بدوره سيُضفي الأمنَ والأمانَ على مثل هذه المجتمعات، لأنَّ أهلها يخافونَ الله ويخافونَ يومَ الفصل والجزاء، فلا تحاكم إلا لشرعِ الله، ولا تعامل إلا بأخلاقِ الإسلامِ الفاضلة: فلا خيانةَ ولا غشَّ ولا ظلمَ. ^(١)

❁ ثامناً: محاسن وثمرات الإيمان بالقضاء والقدر.

يعتبر موضوع القضاء والقدر من المواضيع المهمة لتعلقه بحياة الإنسان، فما من إنسان يعيش في هذه الحياة، ويسير في مناكبها على أي ديانة كان، وفي أي اتجاه اتجه في حياته العملية أو العقدية أو غيرها؛ إلا وقضية القضاء والقدر عنده من القضايا التي تشغل باله في كل وقت.

وقد دل الكتاب العزيز والسنة الصحيحة وإجماع سلف الأمة على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره، وأنه من أصول الإيمان الستة، التي لا يتم إسلام العبد ولا إيمانه إلا بها، كما دلت على ذلك آيات من القرآن الكريم وأحاديث صحيحة مستفيضة بل متواترة عن الرسول الأمين عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم. ^(٢)

(١) أركان الإيمان ص (١٧٧) جمع وإعداد: علي بن نايف الشحود، وقد ذكر طائفة كثيرة من الثمرات غير ما ذكرنا لمن أراد المزيد.

(٢) سبيل الرشاد في توحيد الربوبية والإيمان بالقضاء والقدر (ص: ٤٦).

وللإيمان بالقدر محاسن وثمرات إيمانية عقدية تعود على إيمان العبد بالزيادة، وعلى عقيدته بالثبات، ومن ذلك:

١ - هداية القلب.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ (التغابن: ١١).

أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدىً في قلبه، وبقيناً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيراً منه.

عن ابن عباس: يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. ^(١)

٢ - طمأنينة القلب وارتياحه، وعدم القلق في هذه الحياة.

العبد إذا علم أن ما يصيبه فهو مقدر لا بد منه، ولا رادَّ له، واستشعر قول الرسول ﷺ: "واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك" ^(٢)؛ فإنه عند ذلك تسكن نفسه ويطمئن باله؛ بخلاف من لا يؤمن بالقضاء والقدر؛ فإنه تأخذه الهموم والأحزان، ويزعجه القلق، حتى يتبرم بالحياة، ويحاول الخلاص منها، ولو بالانتحار؛ كما هو مشاهد من كثرة الذين ينتحرون فراراً من واقعهم، وتشاؤماً من مستقبلهم؛ لأنهم لا يؤمنون بالقضاء والقدر؛ فكان تصرفهم ذلك نتيجة حتمية لسوء اعتقادهم. ^(٣)

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا

(١) تفسير ابن كثير (٨ / ١٣٧).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٥٨٩) من حديث زيد بن ثابت، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٤٣٩).

(٣) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد (ص: ٣٠١).

تَفَرَّحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]

ويقول النبي ﷺ: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له" (١)

٣- الخلاص من الشرك، وصحة إيمان الشخص بتكامل أركانه.

لأن الإيمان بذلك من أركان الإيمان الستة، التي لا يتحقق إلا بها؛ كما دل على ذلك الكتاب والسنّة.

فالمجوس زعموا أن النور خالق الخير، والظلمة خالقة الشر، والقدرية قالوا: إن الله لم يخلق أفعال العباد، بل العباد يخلقون أفعالهم؛ فأثبتوا خالقين مع الله **جَلَّ وَعَلَا**. وهذا الضلال شرك، والإيمان بالقدر على الوجه الصحيح توحيد لله **جَلَّ جَلَالُهُ**. (٢)

٤- الثبات عند مواجهة الأزمات.

واستقبال مشاق الحياة بقلب ثابت، ويقين صادق، لا تزلزله الأحداث، ولا تهزه الأعاصير؛ لأنه يعلم أن هذه الحياة دار ابتلاء وامتحان وتقلب؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]. (٣)

٥- تحويل المحن إلى منحة، والمصائب إلى أجر.

كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]؛ قال علقمة: "هو الرجل تصيبه المصيبة،

(١) رواه مسلم (٢٢٩٥). وانظر شرح ثلاثة الأصول للعثيمين (ص: ١١٦).

(٢) الإيمان بالقضاء والقدر (ص: ٥٩).

(٣) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد (ص: ٣٠١).

فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم".^(١)

والإيمان بالقدر عصمة من الوهن والجزع عند حلول المصائب: فالإنسان عرضة دائماً لأن تصيبه النوائب والأحداث لأن هذه سنة الله في الأرض، وما من بشر في الأرض كلها لا يصاب، على الأقل يصاب بموت عزيز عنده، إن لم يصب هو شخصياً بما يصيب الناس عادة من أمراض أو آلام.

ومن شأن المصائب أن تهز النفوس، وما من إنسان لا يتأثر بما يصيبه ولو كان صلد المشاعر عديم الاكتراث، ولكن التأثر بالأحداث شيء والوهن والجزع عند حلولها شيء آخر.^(٢)

٦- الاعتماد على الله تعالى، ودفع الإنسان إلى العمل والإنتاج والقوة والشهامة.

فالمجاهد في سبيل الله يمضي في جهاده، ولا يهاب الموت؛ لأنه يعلم أن الموت لا بد منه، وأنه إذا جاء لا يؤخر، لا يمنع منه حصون ولا جنود، قال تعالى: ﴿أَيُّنَمَا كُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]،

وهكذا حينما يستشعر المجاهد هذه الدفعات القوية، من الإيمان بالقدر، يمضي في جهاده، حتى يتحقق النصر على الأعداء، وتتوفر القوة للإسلام والمسلمين.^(٣)

٧- تحرير العقل من الخرافات والأباطيل.

فمن بديهيات الإيمان بالقدر، الإيمان بأن ما جرى وما يجري وما سيجري في هذا الكون إنما هو بقدر الله، وأن قدر الله سر مكتوم، لا يعلمه إلا هو، ولا يطلع عليه أحد إلا من ارتضى من رسول.

(١) الإرشاد إلى تصحيح الاعتقاد (٣٠٤).

(٢) ركائز الإيمان (ص: ٤١٦) الإسلام أصوله ومبادئه (٢/ ١٤٣).

(٣) المختصر المفيد في عقائد أئمة التوحيد (ص: ١٩٩).

ومن هذا المنطلق تجد أن المؤمن بالقدر حقيقة لا يعتمد على الدجالين والمشعوذين، ولا يذهب إلى الكهان والمنجمين والعرافين، فلا يصدق أقوالهم، ويعيش سالمًا من زيف هذه الأقاويل، متحررًا من جميع تلك الخرافات والأباطيل.

٨- الفرح بكل ما يجريه الله عليه.

فيفرح المؤمن بالقدر بذلك الإيمان الذي حرم منه أمم كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: ٥٨). وكما أنه آمن بالقدر فلا سبيل لمشاعر القلق والتوتر لكي تتسرب إلى نفسه.

٩- علو الهمة وكبر النفس.

فالمؤمن بالقدر تجده عالي الهمة كبير النفس لا يرضى بالدون، ولا بالواقع المر الأليم، ولا يستسلم له محتجًا بالقدر، إذ أن هذا ليس مجال الاحتجاج بالقدر، لأنه من المعائب، والاحتجاج بالقدر إنما يسوغ عند المصائب دون المعائب، بل إن إيمانه بالقدر يحتم عليه أن يسعى سعيًا حثيثًا لتغيير هذا الواقع حسب قدرته واستطاعته، وذلك وفق الضوابط الشرعية.^(١)

١٠- الإيمان بالقدر أقوى حافز للعمل الصالح والإقدام على عظام الأمور بثبات وعزم وثقة.

ولقد كانت الصورة الصحيحة للإيمان بالقدر في حياة الأجيال الأولى من المسلمين، هي التي صنعت تلك العجائب التي سجلها تاريخهم، والتي ثبتت الدعوة في الأرض ونشرتها على نطاق واسع في فترة وجيزة من الزمن لا مثيل لها - في قصرها - في التاريخ، وهي التي أقامت هذا البناء الشاهق في كل ميدان من ميادين الحياة.

لقد وعى المسلمون قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].^(٢)

(١) اليسر في بيان توحيد العلم والخبر والإيمان بالقضاء والقدر (ص: ١٥٢)، الإسلام أصوله ومبادئه (٢/ ١٤٣).

(٢) ركائز الإيمان (ص: ٤١٤) الإسلام أصوله ومبادئه (٢/ ١٤٣).

الباب الرابع: محاسن الإسلام في باب الإمامة والولاية

النظام السياسي في الإسلام هو أحد نظمته الكثيرة المترابطة والمتناسقة، والتي يتألف منها - مجتمعة - عقد الإسلام المتكامل.

ويمتاز التشريع الإسلامي السياسي عن غيره من التشريعات الوضعية بمميزات كثيرة، منها:

- ١ - وضع القواعد العامة، والأسس المهمة التي يقوم عليها الحكم مثل: العدل، والشورى، والبيعة، والطاعة، والنصح، دون تفصيل لهذه القواعد، الأمر الذي يعطي أهل الحل والعقد مكنة من التصرف وفق الضوابط الشرعية والعرفية.
- ٢ - اشتراط صفات معينة في كل ما يلي أمراً من أمور المسلمين، ولا سيما الولايات العامة، كالإمامة، والوزارة، والقضاء، والإمارة.
- ٣ - تقرير الحقوق المتوازنة العادلة لكل من الراعي والرعية، بلا إفراط ولا تفريط.
- ٤ - مسئولية الإمام عن رعيته، وهي مسئولية عظيمة في الدنيا والأخرى.
- ٥ - مراعاة جلب المصالح ودرء المفاسد في شئون الحكم كلها.

وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد قررت قاعدة الحقوق والواجبات لكل من الراعي والرعية على وجه التفصيل - وذلك من خصائص هذه الشريعة - فإن إبراز هذه الحقوق والواجبات، وبيانها للمسلمين كافة رعاة ورعية، من خير الوسائل لتصحيح المفاهيم الخاطئة وإعلام كل بما له وما عليه. ^(١)

(١) من قواعد النظام السياسي في الإسلام (طاعة أولي الأمر) د. عبد الله بن عبد العزيز الطريقي (ص: ٣).

ومحاسن الإسلام في باب الإمامة عامة وولاية الأمور خاصة مما يميز هذه الشريعة الغراء، إذ أنه يبين ارتباط الإسلام بإصلاح المجتمعات واختيار الصلحاء، ويحقق العدل ويحافظ على الحاجيات والضرورات بل والمستحبات، ويجعل القضاء بين العباد خاضعاً لحكم رب الأرض والسموات، وبهذا تنتظم شئون الناس، ويقضى بالعدل ليكون هو المقياس، ويتفاضل الناس عند ذلك بالدين فهو الأساس، وتهيمن الشريعة على كل حكم وتهدر أحكام أصحاب الخيالات والوسواس:

والإمامة جاء في تعريفها:

كما قال الماوردي: موضوعه لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا. ^(١)

وقال إمام الحرمين الجويني: الإمامة رياسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة، في مهمات الدين والدنيا. مهمتها حفظ الحوزة، ورعاية الرعية، وإقامة الدعوة بالحجة والسيف، وكف الخيف والحيف، والانتصاف للمظلومين من الظالمين، واستيفاء الحقوق من الممتنعين، وإيفائها على المستحقين. ^(٢)

وقال ابن خلدون: هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الرجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به. ^(٣)

وأولو الأمر: أي أصحاب التصرف في شأن الأمة، الذين يملكون زمام الأمور ويدهم قيادة الأمة.

وقد ورد هذا المصطلح في الشرع: كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) الأحكام السلطانية للماوردي (ص: ١٥).

(٢) غياث الأمم في التياث الظلم (ص: ٢٢).

(٣) تاريخ ابن خلدون (١/ ٢٣٩).

الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ [النساء: ٥٩].

أما المراد بأولي الأمر في الشرع الوارد في الآية السابقة: فقد اختلف أهل العلم من المفسرين وغيرهم في ذلك على أقوال، أشهرها خمسة.

الأول: أنهم الأمراء، قاله جمع من السلف منهم أبو هريرة، وابن عباس. ورجحه الإمام الطبري. ^(١)

قال النووي: وهو قول جمهور السلف والخلف. ^(٢)

الثاني: أنهم العلماء، وبه قال جمع من السلف منهم: جابر بن عبد الله، والحسن البصري، والنخعي وغيرهم.

الثالث: أنهم أصحاب محمد ﷺ قاله مجاهد.

الرابع: أنهم أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قاله عكرمة. ^(٣)

الخامس: قال ابن كثير: والظاهر - والله أعلم - أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء.

وقد اختار هذا الرأي جمهرة من أهل التحقيق، منهم أبو بكر بن العربي، وابن قيم الجوزية، والشوكاني، والشيخ عبد الرحمن بن سعدي. ^(٤)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: فطاعة الله ورسوله واجبة على كل أحد، وطاعة ولاة الأمور واجبة؛ لأمر الله بطاعتهم، فمن أطاع الله ورسوله بطاعة ولاة الأمر لله فأجره على الله، ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية والمال،

(١) انظر تفسيره (٥٠٢ / ٨) الدرة الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء (ص: ١٩٣).

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٢٢٣ / ١٢. الدرة الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء (ص: ١٩٣).

(٣) انظر تفسير الطبري (٥٠٢ / ٨)

(٤) تفسير ابن كثير (٥٣٠ / ١)، وانظر: الدرة الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء (ص: ١٩٤)، من قواعد النظام السياسي في الإسلام (طاعة أولي الأمر) (ص: ١١).

فإن أعطوه أطاعهم وإن منعوه عصاهم؛ فما له في الآخرة من خلاق. ^(١)

❁ وقد تضمنت هذه العقيدة جملة من المحاسن نجملها في التالي:

١ - أنه أوجب نصبها ولم يترك أمر الأمة سدى.

نصبه الإمام واجبة: موضوعه لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدتها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع. ^(٢)

وهذا من محاسن التشريع في الإسلام، وقد أقرته العقول السوية في كل الأمم والعصور المتتالية فإنه لا يستقيم أمر الناس إلا بالولاية، فكيف وقد جاء في الشرع، وأيده النص، وقال به أهل الحل والعقد.

ومستندهم في هذا الإيجاب أمور:

أولاً: إجماع الصحابة على تولية خليفة، حتى قدّموا أمر البيعة على دفن الرسول ﷺ.

ثانياً: أن ما هو واجب من إقامة الحدود وسد الثغور لا يتم إلا به، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ثالثاً: أن فيه جلب المنافع ودفع المضار، وهذا واجب بالإجماع.

وفريق من المسلمين ذهبوا إلى أنه واجب بالعقل محتجين بأن كل أمة لا تستغنى عن قوة تحمي قوانينها وتدير شئون أفرادها، وبأن وجود الحاكم الوازع ضروري من ضروريات الاجتماع البشري.

والنظر الصحيح ينتج أن هذين الرأيين يمكن التوفيق بينهما لأنه لا مانع أن تكون تولية الخليفة مما يقضي به العقل لحياطة القوانين وحماية الأفراد، وقرره

(١) فتاوى ابن تيمية، ٣٥/ ١٦ - ١٧، وانظر خلاصة ما قاله رَحِمَهُ اللهُ في طاعة ولاية الأمر والإحالة على ذلك في الفتاوى، ٣٧/ ١٧٠.

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي (ص: ١٥) الدرة الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة (ص: ١١٢).

الشرع تأييداً لمقتضى العقل؛ فيكون العقل والشرع متوافقين على إيجاب تولية الخليفة، غير أن العقل قاض بوجود الوازع المطلق، والشرع داع إلى مثل أعلى ووازع يستمد سلطانه من بيعة الأمة لا من القهر؛ فمقتضى الشرع أكمل فرد من أفراد ما يقتضيه العقل. (١)

ومن الأدلة الصريحة أيضاً، قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]

قال القرطبي: هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة، ولاخلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة. (٢)

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ" (٣)

دليل على أنه يشرع لكل عدد بلغ ثلاثة فصاعداً أن يؤمروا عليهم أحدهم، لأن في ذلك السلامة من الخلاف الذي يؤدي إلى التلاف، فمع عدم التأمر يستبد كل واحد برأيه ويفعل ما يطابق هواه فيهلكون، ومع التأمر يقل الاختلاف وتجتمع الكلمة، وإذا شرع هذا لثلاثة يكونون في فلاة من الأرض أو يسافرون؛ فشرعيته لعدد أكثر يسكنون القرى والأمصار ويحتاجون لدفع التظالم وفصل التخاصم أولى وأحرى، وفي ذلك دليل لقول من قال: إنه يجب على المسلمين نصب الأئمة والولاية والحكام. (٤)

وقال ابن حزم **رَحِمَهُ اللَّهُ:** اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم

(١) السياسة الشرعية في الشؤون الدستورية والخارجية والهيالية عبد الوهاب خلاف (ص: ٦٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٦٤).

(٣) أبو داود (٢٦٠٨)، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٧٢): حسن صحيح.

(٤) نيل الأوطار (٨/ ٢٩٤)، الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء (ص: ١٩).

فيهم أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة التي جاء بها رسول الله ﷺ. ^(١)

وقال أبو يعلى: نُصِبَ الإمام واجبة، وقد قال أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الفتنة إذا لم يكن إمام يقوم بأمر الناس، والوجه فيه أن الصحابة لما اختلفوا في السقيفة فقاتل الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، ودفعهم أبو بكر الصديق وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقالوا: إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش، وورد في ذلك أخبار، فلولا أن الإمامة واجبة؛ لما ساغت تلك المحاورة والمناظرة عليها، ولقال قائل: ليست بواجبة لا في قريش ولا في غيرهم. ^(٢)

٢- الترهيب من مسئوليتها حتى يحافظ الولاة على الأمانة.

الولاية مهمة عظيمة وأمانة كبيرة؛ ولهذا قال النبي ﷺ: "يا عبد الرحمن؛ لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُعطيها عن مسألة وكِلتَ إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أُعِنْتَ عليها". ^(٣)

ولهذه الأهمية العظيمة، قال النبي ﷺ: "إنَّا والله لا نوليّ على هذا العمل أحداً سألته، ولا أحداً حرص عليه". ^(٤)

قال المهلب: فيه دليل على أنه من تعاطى أمراً وسولت له نفسه أنه قائم بذلك الأمر؛ أنه يخذل فيه في أغلب الأحوال؛ لأنه من سأل الإمارة لم يسألها إلا وهو يرى نفسه أهلاً لها، فقد قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وكل إليها) بمعنى: لم يعن على ما أعطاه، والتعاطي أبداً مقرون بالخذلان، وإن من دعي إلى عمل أو إمارة في الدين فقصر نفسه عن تلك المنزلة وهاب أمر الله؛ رزقه الله المعونة، وهذا إنما هو مبني على أنه من تواضع لله رفعه. ^(٥)

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٤ / ٨٧).

(٢) الأحكام السلطانية لأبي يعلى (ص ٣).

(٣) البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).

(٤) أخرجه البخاري (٧١٤٩)، ومسلم (١٧٣٣).

(٥) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٨ / ٢١٧).

وقال النووي: في هذا الحديث فوائد منها: كراهة سؤال الولاية سواء ولاية الإمارة والقضاء والحسبة وغيرها، ومنها: بيان أن من سأل الولاية لا يكون معه إعانة من الله تعالى، ولا تكون فيه كفاية لذلك العمل فينبغي أن لا يولى. ^(١)

وقال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لأبي ذر حينما قال: يا رسول الله ألا تستعملني؟ فضرب يده على منكب أبي ذر ثم قال: "يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها" ^(٢).

وهذا الحديث أيضاً أصل عظيم في اجتناب الولايات لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية، وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلاً لها، أو كان أهلاً ولم يعدل فيها، فيخزيه الله تعالى يوم القيامة ويفضحه ويندم على ما فرط، وأما من كان أهلاً للولاية وعدل فيها، فله فضل عظيم تظاهرت به الأحاديث الصحيحة. ^(٣)

فالولاية نعمة من نعم الله **عَزَّ وَجَلَّ**، من قام بحقها نال من السعادة ما لا نهاية له ولا سعادة بعده، ومن قصر عن النهوض بحقها حصل في شقاوة لا شقاوة بعدها إلا الكفر بالله تعالى. ^(٤)

قال ابن تيمية: يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس. ^(٥)

(١) شرح النووي على مسلم (١١/ ١١٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٥).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢١١).

(٤) التبر المسبوك في نصيحة الملوك (ص: ١٤).

(٥) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية (ص: ١٢٩).

٣- من محاسن الإسلام في الإمامة: وضع الشروط التي ينبغي توافرها في الإمام.

الإمام هو الرئيس الأعلى للدولة الإسلامية، ومن الطبيعي أن تكون هناك شروطاً لا بد من توافرها فيه، نظراً للمكانة التي سيشغلها والمسؤولية الكبرى التي ستلقى على عاتقه، وليكون كفواً لحمل هذه الأمانة الثقيلة.

وهذه الشروط التي اشترطها العلماء فيمن يراد توليته رئاسة الدولة الإسلامية، هي شروط يجب مراعاتها في الحال أن لا تولي أموراً إلا من تحققت فيه هذه الشروط، أما إذا انتفت حال الاختيار وألجئت الأمة إلى حال لا اختيار لها فيه كتغلب ونحوه، وتولى الأمر من لا يصلح له ولم يستكمل شروط الإمامة، ففي هذه الحال لا تشترط جميع تلك الشروط لأن ذلك سيؤدي إلى فتن عظيمة. ^(١)

أما شروط الإمامة فبعضها لازم لا تنعقد الإمامة إلا به، وبعضها شرط الكمال يصح للترجيح، وبعضها مختلف فيه.

أما اللازم: فالذكورة، والحرية، والبلوغ، والعقل، والعلم، وأصل الشجاعة، وهو أن يكون قوي القلب.

أما "الذكورة": فلأن المرأة لا تصلح للقهر والغلبة، وجر العساكر، وتدبير الحروب، وإظهار السياسة غالباً، كما أشار إليه النبي عليه السلام بقوله: "كيف يفلح قوم تملكهم امرأة". ^(٢)

وأما "الحرية"، و"البلوغ"، و"العقل": فإن العبد والصبي والمجنون مولى عليهم في تصرفاتهم، فمن لم تكن له ولاية على نفسه، فكيف تكون له الولاية على غيره؟

وأما "العلم": فلأن بالعلم تتضح الأشياء الخفية، ويتم بالعلم السلطنة والإمارة.

(١) الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة عبد الله بن عمر الدميحي (ص: ٢٣٢).

(٢) صحيح البخاري (٤٤٢٥).

فمن أراد أن يكمل سلطنته وإمارته، ينبغي له أن يكون عالمًا، أو يكون حريصًا بحب العلماء وحضورهم عنده، ويقبل نصيحتهم.

وأما أصل " الشجاعة ": يكفي للإمامة بحيث يكون بحال يمكنه جر العساكر، وإقامة الحدود، ومقاتلة العدو، وإن لم يقدر أن يقاتل مع العدو بنفسه. ^(١)

قال الماوردي: وأما أهل الإمامة فالشروط المعتمدة فيهم سبعة:

أحدها: العدالة على شروطها الجامعة.

والثاني: العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام.

والثالث: سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان؛ ليصح معها مباشرة ما يدرك بها.

والرابع: سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض.

والخامس: الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح.

والسادس: الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو.

السابع: النسب وهو أن يكون من قریش. ^(٢)

٤- ومن محاسن الإسلام: اختيار الأنفع والأصلح للأمة.

من وظائف أهل الحَلِّ والعقد، أنه عند اجتماع عدد تتوفر فيهم شروط الإمامة، فإنه لا يجب عليهم اختيار الأفضل، بل الأولى أن يختاروا الأنفع والأصلح والمناسب للمقام، فإن اجتمع الفضل والمصلحة في شخص واحد كان ذلك هو المطلوب، كما توفر ذلك في الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فإن ترتيبهم في الخلافة موافق لترتيبهم في الأفضلية، فأفضلهم، أبو بكر، ثم عمر

(١) الدرر الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء (ص: ١٢١).

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي (ص: ٢٠).

- باتفاق أهل السنة - ثم عثمان، ثم علي رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وهم كذلك مرتبون على حسب المصلحة والمنفعة، فمن مصلحة المسلمين أن يتولى الأمر بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو بكر لقوة إيمانه وعزيمته على الذود عن الإسلام، وقد كان في عصر ارتدت فيه بعض القبائل على الإسلام ومنعت أخرى الزكاة بحجة وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فكان لا يصلح لمثل هذا المقام إلا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم جاء عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان سيفاً مسلولاً على أعداء الإسلام الخارجين، فكان هو المناسب لهذا المقام، ثم من بعده عثمان، ثم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
فالمقصود أن الأولى تولية الأنفع وإن لم يكن الأفضل، وهذا أمر واضح في سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتأميره الأمراء على الجيوش، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: والمقصود أن هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تولية الأنفع وإن كان غيره أفضل منه. ^(١)

٥- معرفة مقاصد ومهام الإمام ومسئوليته.

الإمامة والحكم في الإسلام وسيلة لا غاية، وسيلة إلى مقاصد معينة يستطيع الإمام بما له من صلاحيات خاصة أن يحقق ويبلغ ما يعجز عن بلوغه آحاد المسلمين. وجماع هذه المقاصد هو إقامة أمر الله عَزَّ وَجَلَّ في الأرض على الوجه الذي شرع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا هو الهدف والمقصد الأساسي للإمامة في الإسلام، وقد أوضح الله عَزَّ وَجَلَّ هذا الهدف في كتابه الكريم حيث قال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ سورة الحج: ٤١.

فهذا هو الجامع لمقاصد الإمامة جميعاً، كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وجميع الولايات الإسلامية إنما مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ^(٢)

وقال: المقصود والواجب بالولايات إصلاح دين الخلق الذي متى فاتهم

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٠٧)، وانظر: الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة (ص: ١٧١).

(٢) الحسبة لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ١٤).

خسروا خسراناً مبيّناً ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا، وإصلاح ما لا يقوم الدين إلا به من أمر دنياهم. ^(١)

وهذه المقاصد والأهداف تتمثل في مقصدين كبيرين هما: إقامة الدين، وسياسة الدنيا به. ^(٢)

٦- تعريف الإمام ما يلزمه من أمور الأمة.

وهي عشرة أشياء:

أحدها: حفظ الدين على الأصول التي أجمع عليها سلف الأمة، فإن زاغ ذو شبهة عنه؛ بين له الحجة، وأوضح له الصواب، وأخذ به بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروساً من خلل، والأمة ممنوعة من الزلل. ^(٣)

قال ابن الهمام: والمقصد الأول: إقامة الدين، أي: جعله قائم الشعار على الوجه المأمور به من إخلاص الطاعات وإحياء السنن وإماتة البدع، ليتوفر العباد على طاعة المولى سبحانه. ^(٤)

والمراد بحراسة الدين وحفظه: هو حراسة العقيدة الإسلامية في صدور المؤمنين بها، وحفظ تصور المؤمنين لهذا الدين صافياً سالماً من الغش، وإبقاء حقائقه ومعانيه كما أنزله **عَزَّجَلَّ**، وكما بلغها رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وسار عليها صحابته الكرام، ونقلوها إلى الناس من بعده، وتطبيقها في الواقع المحسوس، وحكم الناس بها، لا أن تبقى في بطون الكتب للتبرك بها واتخاذها زينة في المجالس والمكاتب.

(١) مجموع الفتاوى (٢٨ / ٢٦٢).

(٢) الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة الدميحي (ص: ٧٩)

(٣) الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء (ص: ٢٨)، الأحكام السلطانية للهاوردي (ص: ٤٠).

(٤) المسامرة في شرح المسامرة في علم الكلام (ص: ٢٤٨).

لذلك يكون حفظ الدين بهذا المعنى متمثلاً في:

أ - نشره والدعوة إليه بالقلم واللسان والسنان:

وحيث إن الإمام هو النائب عن مجموع الأمة، فإن هذا الواجب يكون في حقه أكد وعليه فرض عين، لأن له القدرة والسلطان أكثر من غيره من أفراد المسلمين. فعلى الدولة - ممثلة في شخصه - أن تقوم بتنفيذ هذا الهدف الجليل في داخل البلاد وخارجها. ^(١)

قال السبكي: فمن وظائف السلطان تجنيد الجنود، وإقامة فرض الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى، فإن الله تعالى لم يوله على المسلمين ليكون رئيساً أكلاً شارباً مستريحاً، بل لينصر الدين، ويعلي الكلمة. ^(٢)

ب - دفع الشبه والبدع والأباطيل ومحاربتها.

ومن مقاصد الإمامة أيضاً: العمل بشتى الوسائل على أن يكون الدين مصوناً عن كل ما يسيء إليه سواء في هذا ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية أو غيرها. ^(٣)

الثاني: تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بينهم، حتى تظهر النصفة، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم. ^(٤)

الثالث: حماية البيضة والذب عن الحوزة، ليتصرف الناس في المعاش ويتشروا في الأسفار آمنين.

الرابع: إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

(١) الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة (ص: ٨١).

(٢) معيد النعم ومبيد النقم للسبكي (ص ١٦).

(٣) الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة (ص: ٨٥).

(٤) الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء (ص: ٢٨)، الأحكام السلطانية للماوردي (ص: ٤٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: إقامة الحدود واجبة على ولاية الأمور، وذلك يحصل بالعقوبة على ترك الواجبات وفعل المحرمات. ^(١)

الخامس: تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة، حتى لا تظفر الأعداء بغرة يتتهكون بها محرماً، ويسفكون فيها دمًا لمسلم أو معاهد. ^(٢)

قال إمام الحرمين: وأما اعتناء الإمام بسد الثغور، فهو من أهم الأمور وذلك بأن يحصن أساس الحصون والقلاع، ويستظهر لها بذخائر الأطعمة ومستنقعات المياه، واحتفار الخنادق والعتاد، وآلات القصد والدفع، ويرتب على كل ثغر من الرجال ما يليق به. ^(٣)

السادس: جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة.

السابع: جباية الفياء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً مع غير عسف.

الثامن: تقدير العطاء وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقصير فيه، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

التاسع: استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوضه إليهم من الأعمال، ويكله إليهم من الأموال، لا تقديم فيه ولا تأخير.

العاشر: أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال ليهتم بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة، فقد يخون الأمين ويغش الناصح. وقد قال الله تعالى ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ ﴿١٦﴾ [ص: ٢٦] فلم يقتصر سبحانه على التفويض دون المباشرة. ^(٤)

(١) الحسبة (ص ٥٥).

(٢) الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء (ص: ٢٨)، الأحكام السلطانية للهاوردي (ص: ٤٠).

(٣) غياث الأمم (ص ١٥٦).

(٤) الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء (ص: ٢٨)، الأحكام السلطانية للهاوردي (ص: ٤٠).

٧- أمر الولاية بالعدل ورفع الظلم.

وهذا من أهم المقاصد وأسمى المطالب التي أمر الإسلام بتطبيقها، ولم يجعل الإسلام الالتزام بهذا الأمر خاصاً بالحكام فحسب، بل أمر كل إنسان بالعدل في جميع أموره التي يزاولها سواء في ذلك ما يتصل بالأسرة أو بالجار أو بغير ذلك.

وقد تتطابق على وجوب العدل آيات الكتاب الحكيم، وأحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله **عَزَّجَلَّ**: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ سورة النحل آية ٩٠.

ومنها قوله **عَزَّجَلَّ**: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿٥٨﴾ سورة النساء: ٥٨.

ومنها قوله **عَزَّجَلَّ**: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٥٢﴾ سورة الأنعام آية ١٥٢.

وحديث السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم "إمام عادل". (١)

فالعدل ميزان الله في الأرض فمن أخذ به قاده إلى الجنة، ومن تركه قاده إلى النار.

وقال بعض الحكماء: "بالراعي تصلح الرعية، وبالعدل تملك البرية، ومن عدل في سلطانه استغنى عن أعوانه، والظلم مسلبة النعم، ومجلبة النقم، وأقرب الأشياء سرعة الظلوم، وأنفذ السهام دعوة المظلوم، ومن سل سيف العدوان سلب من السلطان".

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن الله تعالى لا يهلك الرعية، وإن كانت ظالمة إذا كانت الأئمة هادية مهديّة: ويهلك الرعية وإن كانت هادية مهديّة إذا

كانت الأئمة ظالمة، لأن أعمال الأئمة تعلو أعمال الرعية". (١)

٨ - الأمر باجتماع الكلمة وعدم الفرقة.

كما أن من غايات الإمامة ومقاصدها جمع الكلمة، وعدم الفرقة وتوحيد صفوف المسلمين، ولا يكون هذا إلا تحت قيادة واحدة. وقد ورد الأمر بذلك في كتاب الله عز وجل، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (١٢) سورة الأنبياء: ٩٢.

وأمرهم بالاتحاد والالتفاف حول راية واحدة فقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ سورة آل عمران: ١٠٣.

وحرم التنازع بينهم، وبين أنه يفضي إلى الإخفاق والضعف، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُضِلَّكُمْ وَتَذْهَبَ رِجَالُكُمْ﴾ سورة الأنفال آية ٤٦،

وحذرهم من أن يؤدي بهم الاختلاف إلى الفرقة كما حدث للذين من قبلهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ سورة آل عمران آية ١٠٥.

٩ - توجيه الإمام للقيام بعمارة الأرض واستغلال خيراتها فيما هو صالح للإسلام والمسلمين.

كذلك من مقاصد الإمامة ومن مظاهر سياسة الدنيا بالدين، القيام بعمارة الأرض التي استعمرنا الله فيها. قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ سورة هود: ٦١. (٢)

ولا يكون ذلك إلا بأن تقوم الدولة الإسلامية بتهيئة جميع ما يحتاجه الناس من مختلف الصناعات، والحرف، والعلوم، وتوفير سبل البحث العلمي والاختراع، وقد جعل الفقهاء ذلك من فروض الكفاية التي يجب وجودها في الأمة، قال ابن

(١) الجوهر النفيس في سياسة الرئيس. ابن الحداد (ص: ١٢٥)، بدائع السلك في طبائع الملك (١/ ٢٣١).

(٢) الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة (ص: ١٢٠).

عابدين: من فروض الكفاية الصنائع المحتاج إليها^(١)

ويترتب على هذا لحوق الإثم بالأمة والأئمة إذا قصرا في تحصيلها، ولذلك جعل الفقهاء من حق الإمام إجبار أصحاب الصناعات الضرورية على القيام بها إذا امتنعوا عنها.

يقول ابن القيم: ومن ذلك أن يحتاج الناس إلى صناعة طائفة كالفلاحة، والنساجة، والبناء وغير ذلك؛ فلولي الأمر أن يلزمهم بذلك بأجرة مثلهم، فإنه لا تتم مصلحة الناس إلا بذلك، ولهذا قالت طائفة من أصحاب أحمد والشافعي: إن تعلم هذه الصناعات فرض كفاية.^(٢)

وكذلك من عمارة الأرض أيضاً استثمار خيرات البلاد بما يحقق مصالح المسلمين العامة كشق الطرق، وإقامة المصانع، واستخراج المعادن، وتنظيم الري، وإقامة السدود، وتحسين وسائل الزراعة، التي تزيد في المحصول، وإيجاد سبل العمل الشريفة للأمة، إلى غير ذلك من الأمور التي لا حصر لها، وقد شعر بهذه المسؤولية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: لو أن بغلة عثرت في سواد العراق لخشيت أن يسأل عنها عمر لماذا لم يسو لها الطريق؟!^(٣)

١٠ - نهى الإمام عن الاحتجاب عن الرعية، وأن يفتح بابه أمام ذوي الحاجات ومراعاة شؤون الرعية، وتفقد أحوالهم.

فعن عمرو بن مرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "ما من إمام يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسكنة؛ إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته. فجعل معاوية رجلاً على حوائج الناس"^(٤)

(١) رد المحتار على الدر المختار (٣).

(٢) الطرق الحكمية (ص ٢٢٦).

(٣) الخراج لأبي يوسف (ص ١١٩). وانظر: أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان (ص ٢٢٧)، والإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة (ص: ١٢١).

(٤) أحمد (١٨٠٣٣)، والترمذي (١٣٣٢)، والحاكم (١٠٦/٤)، وأبو يعلى (١٥٦٥، ١٥٦٦) من حديث

١١ - أمر الولاة بالنصح للمسلمين، ودلالتهم على الخير، وتحذيرهم من الشر، وترك غشهم.

فَعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ، وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ" (١)

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ". (٢)

وَعَنْ أَبِي الْمَلِيحِ، أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ زِيَادٍ دَخَلَ عَلَى مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ فِي مَرَضِهِ، فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ: إِنِّي مُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ لَوْلَا أَنِّي فِي الْمَوْتِ لَمْ أُحَدِّثْكَ بِهِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ، إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ. (٣)

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: معناه بين في التحذير من غش المسلمين لمن قلده الله تعالى شيئاً من أمرهم، واسترعاه عليهم، ونصبه لمصلحتهم في دينهم أو دنياهم، فإذا خان فيما أوّتمن عليه فلم ينصح فيما قلده إما بتضييعه تعريفهم ما يلزمهم من دينهم وأخذهم به، وإما بالقيام بما يتعين عليه من حفظ شرائعهم، والذب عنها لكل متصد لا دخال داخله فيها، أو تحريف لمعانيها، أو إهمال حدودهم، أو تضييع حقوقهم، أو ترك حماية حوزتهم ومجاهدة عدوهم، أو ترك سيرة العدل فيهم؛ فقد غشهم. (٤)

عمرو بن مرة. قال أبو عيسى الترمذي: حديث عمرو بن مرة حديث غريب. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٢٩).

(١) البخاري (٧١٥٠)، ومسلم (١٤٢) (٢٢٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٨).

(٣) صحيح مسلم (٤٧٥٩).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٦٦ / ٢).

١٢- الأمر بطاعة الإمام في المعروف.

إذا كانت طاعة ولاية الأمور مهمة، بل ضرورية، وجاءت نصوص الشارع لتفريدها والتأكيد عليها، فإن هذه الطاعة ليست مطلقة، بل مقيدة بقيود ومشروطة بأمر لا بد منها.

وذلك لأن الطاعة المطلقة ليست لأحد إلا لله ورسوله، كما جاءت بذلك النصوص القطعية، كما قال سبحانه: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ سورة آل عمران: ١٣٢.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ سورة الأنفال: ٢٠.

وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ سورة الأحزاب: ٣٦.

أما غير الله ورسوله فطاعته مقيدة، بل الأصل فيها - كما يقول العز بن عبد السلام - عدم الجواز إلا لمن أذن الله في طاعته كالوالدين والأئمة والقضاة والسادات والأزواج ونحوهم.^(١)

والمراد بالطاعة هنا: الاستجابة والانقياد لما يأمر به وينهى عنه ولي الأمر، وذلك بامتنال الأمر والنهي دون منازعة ومعارضة، سواء أمر بما يوافق الطبع، أو لم يوافقه بشرط أن لا يأمر بمعصية.^(٢)

قال الحافظ ابن رجب: أما السمع والطاعة لولاية أمور المسلمين، ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم، وطاعة ربهم.^(٣)

(١) انظر: قواعد الأحكام (٢/ ١٣٤)، ويراجع تفسير الرازي (١٠/ ١٥٠). من قواعد النظام السياسي في الإسلام (طاعة أولي الأمر) الطريقي (ص: ٣٢).

(٢) من قواعد النظام السياسي في الإسلام (طاعة أولي الأمر) (ص: ٧).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ١١٧).

فالأمرء إنما يطاعون إذ أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول، فطاعة الأمرء تبع لطاعة العلماء، ولما كان قيام الإسلام بطائفتي العلماء والأمرء، وكان الناس كلهم لهم تبعاً؛ كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما، كما قال عبد الله بن المبارك وغيره من السلف: صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس، قيل: من هم؟ قال: الملوك والعلماء. (١)

❁ ومن محاسن الالتزام بالطاعة المشروعة:

١ - امتثال أمر الله تعالى، وابتدار طاعته، فإن من أطاع الأمير بالمعروف فقد أطاع الله.

كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ سورة النساء: ٥٩. (٢)

ولا شك أن هذا الامتثال لأوامر الله من أعظم الأدلة على عبودية الإنسان لله، وخضوعه له وإيمانه به رباً وإلهاً وشارعاً.

٢ - إن في ذلك ترويضاً للرعية، وتربية لها على الطاعة والانقياد لمن شرع الله طاعته من ولاة الأمور والوالدين والأزواج ونحوهم.

وإذا تربت الأمة على ذلك أصبحت تصرفاتها وفق إرادة الشارع، وبذلك تذوب أهواؤها وأنانيتها كما تنهذب غرائزها وطباعها.

٣ - وبالطاعة لأولي الأمر تتلاحم الأمة وتتماسك، وتقوى الصلة بينهم جميعاً، سواء بين الراعي ورعيته، أم بين الرعية بعضهم ببعض.

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٠).

(٢) من قواعد النظام السياسي في الإسلام طاعة أولي الأمر الطريقي (ص: ٤٩).

وبهذا تتحقق وحدة الأمة بل قوتها.

٤ - انتظام أمور الدولة وأحوالها، سواء في أمور الدين كالعقيدة والعبادة والأخلاق، أم في أمور الدنيا كالمعاملات والعلاقات، ونحوها.

إذ إن تطبيق الشريعة بأصولها وفروعها لا يتحقق إلا بطاعة الراعي، بل لا تتحقق مصالح العباد العاجلة والآجلة إلا بها. ^(١)

٥ - إشاعة الأمن والاستقرار في ربوع ديار الإسلام.

وهذا أمر ظاهر، فالطاعة لأولي الأمر تعني سيطرة الشرع والعقل والقلب على كل التصرفات، والتغلب على الهوى والنفس اللذين يجران إلى الجريمة والتمرد والعصيان، وهذا كفيل في تحقيق الأمن والاستقرار والطمأنينة في النفس والمجتمع والبلاد.

٦ - ظهور الأمة المسلمة بمظهر الهيبة والقوة والرهبة أمام الأعداء.

فإذا كانت هذه الأمة تأتمر بأوامر قيادتها العليا في غير معصية الله، فإن هذا سيكون له أثره على الأعداء بلا شك، لما فيه من معاني الاتحاد والائتلاف والتماسك بين أفراد الأمة.

ولهذا يقول سبحانه: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَنفَشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٤٦].

٧ - وهي سبب للنصر على العدو.

إذ بها تجتمع الكلمة وتلتحم الصفوف وتتحد القوى، وهذه من أهم مقومات النصر، ولذلك كانت انتصارات المسلمين في المعارك الكثيرة بسبب هذه الطاعة. ولعل في قصة غزوة أحد أدلى دليل على ذلك، فالمسلمون قد انتصروا في أول

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (لابن رجب) (ص ٢٤٧).

الأمر حينما كانوا مطيعين لرسول الله ﷺ، ثم انهزموا حينما خالفوا أمره، فنزل الرماة من الجبل لمشاركة الناس في جمع الغنائم بدون إذن رسول الله ﷺ، وكذلك في قصة بني إسرائيل حينما بعث الله لهم طالوت ملكاً وقائداً، فإن الفئة التي أطاعته ولم تخالفه في الشرب من النهر، نصرها الله مع قتلها وكثرة عدوها.

فهذه من آثار طاعة أولي الأمر، وبضدها تتبين الأشياء، فإن عصيان ولي الأمر والتمرد عليه، والخروج عليه بلا مبرر شرعي؛ سيؤدي ذلك إلى مفسد كبيرة وإلى فساد عريض. ^(١)

وأما الطاعة المطلقة لولاة الأمر في غير المعروف فلها من المساوي العظيمة ما يلي:

١ - سلب إرادة الإنسان، ومصادرة حريته، فإن الإنسان قد منحه خالقه إرادة ومشية يتصرف بها وفق ما يميله عليه عقله وقلبه في محيط إرادة الله الكونية العامة. فإذا فرضت عليه طاعة المخلوقين - وفق إرادتهم - لم يعد لهذا المطيع إرادة وحرية، بل أصبح عبداً لهم.

٢ - وبالتزام هذه الطاعة تذوب شخصية المسلم وتفنئ في بوتقة الملك والسلطان، ومن ثم يصبح هذا الفرد ضعيفاً إمعة، تعصف به الرياح يميناً وشمالاً ثم تهوي به في مكان سحيق، فلا يعرف الحق من الباطل ولا يميز الطيب من الخبيث، ولا يفرق بين الضار والنافع، بل يكون تابعاً ذليلاً، وهذا عكس مراد الشارع الذي يطلب من المسلم أن يكون قوياً في بدنه وعقله وقلبه ودينه، وقد نعى الله على أقوام تابعوا كبراءهم وقلدوهم تقليداً أعمى، فقال جل شأنه عن فرعون وقومه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ سورة الزخرف: ٥٤.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ سورة

الزخرف: ٢٣. ^(٢)

(١) من قواعد النظام السياسي في الإسلام (طاعة أولي الأمر) الطريقي (ص: ٥١).

(٢) من قواعد النظام السياسي في الإسلام (طاعة أولي الأمر) (ص: ٥٤).

٣ - وفي التزام هذه الطاعة التقديسُ للمخلوقين، ورفعهم فوق المكانة التي يستحقونها، وهو خلاف الشرع والعقل، فذوو السلطان هم بشر من الناس ولا فرق بينهم، إلا أنهم تحملوا هذه الأمانة الكبيرة، والمسئولية الجسيمة.

وإذا كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نهى عن إطرائه ومدحه أكثر مما يستحق، وذلك بقوله: "لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ". ^(١)

فإذا كان ذلك في حق أفضل الخلق فكيف ببقية الناس؟

٤ - إنها سبب من أسباب الشرك بالله تعالى.

وذلك بجعل المخلوق نداً لله تعالى، يطاع كما يطاع سبحانه.

٥ - وهذه الطاعة تفضي إلى تعطيل أحكام الشرع وإغائها، وإحلال أوامر السلطان وتشريعاته محلها، فإذا أطيع السلطان في معاصي الله أهملت شريعة الخالق وطبقت شريعة المخلوق.

٦ - إن الإلزام بهذه الطاعة فيه طعن بالتشريع الإسلامي، وذلك بنسبة التناقض إليه. فإن إيجاب طاعة أولي الأمر طاعة مطلقة مع طاعة الله ورسوله المطلقة إما طلب أمر محال، وإما التخيير بين الطاعتين وكلا الأمرين فرية عظيمة على الشريعة الإسلامية. ^(٢)

١٣ - النهي عن نكث البيعة.

الإسلام دين الالتزام والنظام، ومن بديهيات هذا الدين: الوفاء بالعهود سواء كانت بين المسلمين بعضهم مع بعض، أو حتى مع الكفار، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ ^(٣٤) [الإسراء: ٣٤].

(١) البخاري (٣٤٤٥).

(٢) شرح سنن أبي داود لابن القيم مع عون المعبود (٧/ ٢٩٠).

وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (١١) [النحل: ٩١].

وهذا عام في كل عقد وعهد، والبيعة بجميع أنواعها داخلة في هذه العقود والعهود، وهذه الآيات تدل على وجوب الوفاء بها.

ويحرم على المسلم إذا بايع الإمام أن ينقض بيعته أو يترك طاعته، إلا لموجب شرعي يقتضي انتقاض البيعة، كردة الإمام ونحو ذلك

وقد قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ^(١): من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر. ^(٢)

١٤ - تحريم الخروج على الإمام المسلم.

قال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعوا عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله **عَزَّ وَجَلَّ** فريضة، مالم يأمرُوا بمعصية، وندعوا لهم بالصلاح والمعافاة. ^(٣)

فولاة الأمور يجب عدم الخروج عليهم، سواء كانوا صالحين أو طالحين، سواء كانوا أبراراً أو فجاراً، والسلف نصوا على هذا، وإن جاروا، فولّي الأمر إذا حدث منه نوع من الظلم، أو أثره، فيجب الصبر والمناصحة، ولا يجوز بحال من الأحوال أن يتخذ الجور والظلم والأثرة ذريعة للخروج. ^(٤)

وعن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قال: "من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل فقتله جاهلية، ومن خرج على

(١) مسلم (١٨٤٤).

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية (٩/ ٢٨٠).

(٣) العقيدة الطحاوية (١/ ٦٨).

(٤) شرح الطحاوية لناصر العقل (٨٠ / ٢).

أمتي يضرب برّها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفني لذي عهدٍ عهده، فليس مني ولست منه". (١)

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر؛ فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتة جاهلية". (٢)

وترك الخروج عليه لا يعني السكوت عن فسقه وما يرتكبه من منكرات، بل الواجب نصحه والإنكار عليه ومحاسبته ومحاكمته، وألا يطاع ولا يعاون في معصية الله تعالى. (٣)

قال النووي: وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين، وإن كانوا فسقة ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته وأجمع أهل السنة أنه لا ين عزل السلطان بالفسق. (٤)

١٥ - النصيحة لولاة الأمر بالحكمة.

فقد ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وحفظها، وبلغها، فربّ حامل فقه إلى من هو أفقّه منه، ثلاث لا يغلّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم؛ فإنّ دعوتهم تحيط من ورائهم". (٥)

فقد دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبهجة ونضارة الوجه والحسن الذي يكسى به الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به، وفرح القلب وسروره به، والتّذاذّه لمن سمع كلامه، ووعاه، وحفظه، وبلغه غيره، فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٥١).

(٣) المهذب في فقه السياسة الشرعية (ص: ٥٩٨).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٢ / ٢٢٩).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٠)، وصححه الألباني صحيح الجامع (٦٧٦٦).

تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الباطن والظاهر. ^(١)

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لهذا الحديث: وقوله: **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "ثلاث لا يغُلُّ عليهن قلب مسلم. "أي لا يحمل الغِلُّ، ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة؛ فإنها تنفي الغل والغش وفساد القلب، وسخائمه، فالمخلص لله إخلاصه يمنع غِلَّ قلبه، ويخرجه ويزيله جُمْلَةً؛ لأنه قد انصرفت دواعي قلبه وإرادته إلى مرضاة ربه، فلم يبق فيه موضع للغش.

وقوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "ومناصحة أئمة المسلمين. " هذا أيضاً مناف للغل والغش؛ فإن النصيحة لا تجامع الغل، إذ هي ضده، فمن نصح الأئمة والأئمة فقد برئ من الغل.

وقوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "ولزوم جماعتهم. " هذا أيضاً مما يُطَهِّر القلب من الغل والغش، فإن صاحبه - للزومه جماعة المسلمين - يُحِبُّ لهم ما يحبُّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها، ويسوؤه ما يسوؤهم، ويسره ما يسرهم، وهذا بخلاف من انحاز عنهم، واشتغل بالطعن عليهم والعيب والذم. ^(٢)

والنصيحة لولاء الأمر تكون سرّاً بين الناصح وبينهم: برفق ولين، وحكمة وموعظة حسنة، وأسلوب مناسب.

فعن عياض بن غنم أنه قال لهشام بن حكيم **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: ألم تسمع بقول رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يُبْده علانية ولكن يأخذ بيده فيخلو به، فإن قبل منه فذاك، وإلا كان قد أدّى الذي عليه". ^(٣)

وعن تميم الداري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قال: "الدين النصيحة قلنا:

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم، ١/ ٢٧٤، ٢٧٦.

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٢٧٥ - ٢٧٨).

(٣) أخرجه عمرو بن أبي عاصم في كتاب السنة (١٠٩٦)، وأخرجه أحمد (١٥٣٣٣). وصححه الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة (٢/ ٥٢١).

لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم". (١)

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: أما النصيحة لأئمة المسلمين: فحبُّ صلاحهم ورُشدهم وعدلهم، وحب اجتماع الأمة عليهم، وكراهة افتراق الأمة عليهم، والتدين بطاعتهم في طاعة الله **عَزَّوَجَلَّ**، والبغض لمن رأى الخروج عليهم، وحبَّ إعزازهم في طاعة الله **عَزَّوَجَلَّ**. (٢)

قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ اللهُ: ليس من منهج السلف: التشهير بعيوب الولاة وذكر ذلك على المنابر؛ لأن ذلك يفضي إلى الانقلاب، وعدم السمع والطاعة في المعروف، ويفضي إلى الخروج الذي يضر ولا ينفع، ولكن الطريقة المتبعة عند السلف، النصيحة فيما بينهم وبين السلطان، والكتابة إليه، أو الاتصال بالعلماء الذين يتصلون به حتى يوجه إلى الخير، وإنكار المنكر يكون من دون ذكر الفاعل، فينكر الزنى، وينكر الخمر، وينكر الربا، من دون ذكر من فعله، ويكفي إنكار المعاصي والتحذير منها من غير ذكر أن فلاناً يفعلها: لا حاكم ولا غير حاكم. (٣)

(١) أخرجه مسلم (٥٥)، والبخاري معلقاً في كتاب الإيمان، باب قول النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: (الدين النصيحة) (ص ٣٥).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢٢).

(٣) فتوى لساحة الشيخ مطبوعة في آخر رسالة (حقوق الراعي والرعية)، (ص ٢٧ - ٢٨).

الباب الخامس: محاسن الإسلام في كتابه القويم القرآن الكريم

القرآن الكريم هو الكتاب الذي ختم الله به الكتب، وأنزله على نبي ختم به الأنبياء.

فهو كلام الخالق لإصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض؛ أنهى إليه مُنزلَه كل تشريع وأودعه كل نهضة وناط به كل سعادة.

وهو حجة الرسول وآيته الكبرى يقوم في فم الدنيا شاهداً برسالته، ناطقاً بنبوته؛ دليلاً على صدقه وأمانته.

وهو ملاذ الدين الأعلى، يستند الإسلام إليه في عقائده وعباداته وحكمه وأحكامه وأدابه وأخلاقه وقصصه ومواعظه وعلومه ومعارفه.

وهو عماد لغة العرب الأسمى: تدين له اللغة في بقائها وسلامتها، وتستمد علومها منه على تنوعها وكثرتها، وتفوق سائر اللغات العالمية به في أساليبها ومادتها.

وهو أولاً وآخراً؛ القوة المحولة التي غيرت صورة العالم، ونقلت حدود الممالك، وحولت مجرى التاريخ، وأنقذت الإنسانية العائرة.

لذلك كله، كان القرآن الكريم موضع العناية الكبرى من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته، ومن سلف الأمة وخلفها جميعاً إلى يوم الناس هذا.

وقد اتخذت هذه العناية أشكالاً مختلفة: فتارة ترجع إلى لفظه وأدائه، وأخرى إلى أسلوبه وإعجازه، وثالثة إلى كتابته ورسمه، ورابعة إلى تفسيره وشرحه إلى غير ذلك. ^(١)

وقد أنزله الله على أشرف رسول، إلى خير أمة أخرجت للناس، بأفضل

الشرائع وأسمحها وأكملها، وهو كلام الله المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، المتلو بالألسنة المحفوظ في الصدور، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة المختتم بسورة الناس قال تعالى: ﴿وَلِئَلَّه لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

أنزل القرآن ليتدبر المسلم آياته، ويتفكر في معانيه وأوامره؛ فيمثلها ونواحيه فيجتنبها، وليتذكر ما فيه من الوعد والوعيد والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أَلَّا يُلَبِّبَ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

أنزل القرآن ليعمل به المسلم؛ فيحل حلاله ويحرم حرامه، ويعمل بمحكمه ويؤمن بمتشابهه، ويتلوه حق تلاوته، فيكون حجة له عند ربه، وشفيعاً له يوم القيامة، قال صلى الله عليه وسلم: "القرآن حجة لك أو عليك" ^(١)، وقد تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣]، وقد سماه الله روحاً لتوقف الحياة الحقيقية عليه، ونوراً لتوقف الهداية عليه قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]. ^(٢)

ومعنى القرآن لغة: مصدر مرادف للقراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم من باب إطلاق المصدر على مفعوله. ^(٣)

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣) مطولاً.

(٢) فضائل القرآن عبد الله بن جابر الله (ص: ٦).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٩٠)، مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ١٤)، الواضح في علوم القرآن (ص: ١٥).

وهو في الاصطلاح: كتاب الله عزَّجَلَّ المنزل على خاتم أنبيائه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلفظه ومعناه، المنقول بالتواتر، المفيد للقطع واليقين، المكتوب في المصاحف من أول سورة "الفاتحة" إلى آخر سورة "الناس".^(١)

فهذا الكتاب المسطر بين اللوحين يشمل رسالة الله للعالمين، ولذا فلا ترى حسناً إلا قد شمله ولا تحذيراً إلا وقد بينه، فهو جامع للمحاسن، شامل للفضائل، زاجر عن اقتراف الرذائل،

ومحاسن القرآن الكريم تعجز البشرية عن عدّها واستقصائها، لكن يستطيع أهل العلم والمستنبطون الأحكام منه؛ الوقوف على أجلّ هذه المحاسن ومنها:

١ - القرآن هو رسالة الله إلى الإنسانية.

من فضل الله على الإنسان أنه لم يتركه في الحياة يستهدي بما أودعه الله فيه من فطرة سليمة، تقوده إلى الخير، وترشده إلى البر فحسب، بل بعث إليه بين فترة وأخرى رسولاً يحمل من الله كتاباً يدعوه إلى عبادة الله وحده، ويشر وينذر، لتقوم عليه الحجة: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء: ١٦٥.

وظلت الإنسانية -في تطورها ورفقها الفكري- والوحي يعاودها بما يناسبها ويحل مشكلاتها الوقتية في نطاق قوم كل رسول، حتى اكتمل نضجها، وأراد الله لرسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تشرق على الوجود، فبعثه على فترة من الرسل، ليكمل صرح إخوانه الرسل السابقين بشريعته العامة الخالدة، وكتابه المنزل عليه، وهو القرآن الكريم.

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُطَوِّفُونَ بِهِ

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: ٩)، الواضح في علوم القرآن (ص: ١٥).

ويعجبون له، ويقولون هلاً وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين". (١)

فالقرآن رسالة الله إلى الإنسانية كافة، وقد تواترت النصوص الدالة على ذلك في الكتاب والسنة: قال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ الأعراف: ١٥٨. وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ الفرقان: ١، وقال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس كافة" (٢)، ولن يأتي بعده رسالة أخرى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ الأحزاب: ٤٠.

فلا غرو من أن يأتي القرآن وافيًا بجميع مطالب الحياة الإنسانية على الأسس الأولى للدين السماوي: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الشورى: ١٣.

وتجاوزت رسالة القرآن الإنس إلى الجن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٣٩) قَالُوا يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٠) يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ الأحقاف: ٢٩-٣١.

والقرآن بتلك الخصائص يعالج المشكلات الإنسانية في شتى مرافق الحياة، الروحية والعقلية والبدنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية علاجًا حكيمًا، لأنه تنزيل الحكيم الحميد، ويضع لكل مشكلة بلسمها الشافي في أسس عامة، ترسم الإنسانية خطاها، وتبني عليها في كل عصر ما يلائمها، فاكسب بذلك صلاحيته لكل زمان ومكان، فهو دين الخلود.

فالإسلام نظام شامل، يتناول مظاهر الحياة جميعًا، فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خُلُقٌ وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون، أو علم

(١) البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦).

(٢) البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة، وعبادة صحيحة سواء بسواء.

والإنسانية المعذبة اليوم في ضميرها، المضطربة في أنظمتها، المتداعية في أخلاقها، لا عاصم لها من الهاوية التي تتردى فيها إلا القرآن: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ طه: ١٢٣، ١٢٤.

والمسلمون هم وحدهم الذين يحملون المشعل وسط دياجير النظم والمبادئ الأخرى، فحري بهم أن ينفضوا أيديهم من كل بهرج زائف، وأن يقودوا الإنسانية الحائرة بالقرآن الكريم حتى يأخذوا بيدها إلى شاطئ السلام، وكما كانت لهم الدولة بالقرآن في الماضي؛ فإنها كذلك لن تكون لهم إلا به في الحاضر. (١)

القرآن يختلف في نزوله عن كل الكتب السماوية السابقة، فنزل مفردا حسب الأحداث.

إنزال الكتب السماوية السابقة، فالمشهور بين العلماء، أن ذلك كان جملة واحدة حتى كاد يكون هذا الرأي إجماعاً.

والدليل على ذلك آية "الفرقان": ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ .. الآية.

ووجه الدلالة: أن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لم يكذبهم في دعواهم نزول الكتب السماوية جملة، بل بين لهم الحكمة في نزوله مفرداً، ولو كانت الكتب السماوية نزلت مفرقة لكان كافياً في الرد عليهم أن يقول لهم: إن التنجيم سنة الله في الكتب التي أنزلت على الرسل، كما أجاب بمثل ذلك قولهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [سورة الفرقان: ٧] فقال في

(١) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص: ١٥)

الرد عليهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، فبين لهم أن ذلك سنن الأنبياء والمرسلين، وكذلك لما قالوا: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣] فرد عليهم: بأن سنته ألا يرسل رسلاً إلا من البشر فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٧] ولما قالوا: كيف يكون رسولاً ولا هم له إلا النساء، رد عليهم فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨] إلى غير ذلك.

ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى في إنزاله التوراة على موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** يوم الصَّعْقَةِ: ﴿فَخَذَ مَاءً آتَيْنِكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [١٤٤] وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٤ - ١٤٥]، وقوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ فِي سُخْرِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَنْقُضُ الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَاءً آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٧١]، والمراد بالألواح: الألواح التي كتبت فيها التوراة.

فهذه الآيات دالة على إنزاله - سبحانه - التوراة على "موسى" جملة.

وإذا كانت التوراة، وهي أعظم الكتب السماوية السابقة، وأكثرها أحكاماً وهداية، وقد ثبت نزولها جملة واحدة، فأحر بغيرها من الكتب السماوية - كالإنجيل والزيور وصحف إبراهيم - أن تكون قد نزلت جملة واحدة، وآية (الفرقان) تدلّ على هذا التعميم وتأييده. ^(١)

ومن المحاسن والحكم والأسرار في تنجيم القرآن بخلاف غيره من الكتب السماوية:

الحكمة الأولى: تثبت فؤاد النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وتقوية قلبه وذلك من وجوه خمسة:

(١) الإتيان في علوم القرآن (١/ ١٥٥)، المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: ٦٠).

الوجه الأول: أن في تجدد الوحي وتكرار نزول الملك به من جانب الحق إلى رسوله **صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** سروراً يملأ قلب الرسول وغبطة تشرح صدره، وكلاهما يتجدد عليه بسبب ما يشعر به من هذه العناية الإلهية وتعهده مولاه إياه في كل نوبة من نوبات هذا النزول.

الوجه الثاني: أن في التنجيم تيسيراً عليه من الله في حفظه وفهمه ومعرفة أحكامه وحكمه، وذلك مطمئن له على وعي ما يوحى إليه حفظاً وفهماً وحكماً، كما أن فيه تقوية لنفسه الشريفة على ضبط ذلك كله.

الوجه الثالث: أن في كل نوبة من نوبات هذا النزول المنجم معجزة جديدة غالباً، حيث تحداهم كل مرة أن يأتوا بمثل نوبة من نوب التنزيل؛ فظهر عجزهم عن المعارضة، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت، ولا شك أن المعجزة تشد أزره وترهف عزمه باعتبارها مؤيدة له ولحزبه، خاذلة لأعدائه ولخصمه.

الوجه الرابع: أن في تأييد حقه ودحض باطل عدوه المرة بعد الأخرى تكراراً للذة فوزه وفلجه بالحق والصواب، وشهوده لضحايا الباطل في كل مهبط للوحي والكتاب.

الوجه الخامس: تعهد الله إياه عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه بما يهون عليه هذه الشدائد، ولا ريب أن تلك الشدائد كانت تحدث في أوقات متعددة، فلا جرم كانت التسلية تحدث هي الأخرى في مرات متكافئة.

الحكمة الثانية: التدرج في تربية هذه الأمة الناشئة علماً وعملاً، وينضوي تحت هذا الإجمال أمور خمسة أيضاً:

أولها: تيسير حفظ القرآن على الأمة العربية وهي أمة أمية.

ثانيها: تسهيل فهمه عليهم مثل ما سبق في توجيه التيسير في حفظه.

ثالثها: التمهيد لكمال تخليهم عن عقائدهم الباطلة وعباداتهم الفاسدة وعاداتهم المردولة.

رابعها: التمهيد لكمال تحليلهم بالعقائد الحقّة والعبادات الصحيحة والأخلاق الفاضلة بمثل تلك السياسة الرشيدة السابقة.

خامسها: تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين، بسبب ما كان يقصه القرآن عليهم الفينة بعد الفينة والحين بعد الحين من قصص الأنبياء والمرسلين، وما كان لهم ولأتباعهم مع الأعداء والمخالفين، وما وعد الله به عباده الصالحين من النصر والأجر والتأييد والتمكين.

الحكمة الثالثة: مساندة الحوادث والطوارئ في تجددتها وتفرقها، فكلما جد منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وفصل الله لهم من أحكامه ما يوافقهم، وتتنظم هذه الحكمة أموراً أربعة:

أولها: إجابة السائلين على أسئلتهم عندما يوجهونها إلى الرسول ﷺ.

ثانيها: مجازاة الأقضية والوقائع في حينها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها ووقوعها.

ثالثها: لفت أنظار المسلمين إلى تصحيح أغلاطهم التي يخطئون فيها، وإرشادهم إلى شاكلة الصواب في الوقت نفسه.

رابعها: كشف حال أعداء الله المنافقين وهتك أستارهم وسرائرهم للنبي ﷺ والمسلمين، كيما يأخذوا منهم حذرهم فيأمنوا شرهم، وحتى يتوب من شاء منهم.

الحكمة الرابعة: الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه كلام الله وحده، وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد ﷺ ولا كلام مخلوق سواه.

٢- معرفة أنه نزل من عند الله وحده؛ فهو حق محض.

العلم بنزول القرآن أساس للإيمان بالقرآن، وأنه كلام الله وأساس للتصديق بنبوة الرسول ﷺ وأن الإسلام حق. ^(١)

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٤٠).

قال أبو شامة: إذ به يعرف تنزلات "القرآن الكريم" ومتى نزل وكيف نزل وعلى من نزل وكيف كان يتلقاه جبريل عليه السلام من الله تبارك وتعالى، وعلى أي حال كان يتلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم من جبريل، ولا شك أن العلم بذلك يتوقف عليه كمال الإيمان بأن القرآن من عند الله وأنه المعجزة العظمى للنبي صلى الله عليه وسلم، كما أن كثيراً من المحاسن التي تذكر في هذا الفن يتوقف على العلم بنزوله، فهو كالأصل بالنسبة لغيره، والعلم بالأصل مقدم على العلم بالفرع. ^(١)

٣- معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل وأماكن نزوله وهو العلم بالمكي والمدني وأسباب النزول.

وتفاصيل كل ذلك بما يؤدي إلى حصول اليقين به.

٤- الإمام بأول ما نزل وآخره تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات على موضوع واحد وكان الحكم في إحدى هذه الآيات يغير الحكم في الأخرى.

ومن فوائده أيضاً معرفة تاريخ التشريع الإسلامي، ومراقبة سيره التدريجي، والوصول من وراء ذلك إلى حكمة الإسلام وسياسته في أخذه الناس بالهواذة والرفق والبعد بهم عن غوائل الطفرة والعنف، سواء في ذلك هدم ما مردوا عليه من باطل، وبناء ما لم يحيطوا بعلمه من حق.

يضاف إلى هاتين الفائدتين فائدة ثالثة: هي إظهار مدى العناية التي أحيط بها القرآن الكريم حتى عرف فيه أول ما نزل وآخر ما نزل، كما عرف مكية ومدنيه وسفريه وحضره إلى غير ذلك، ولا ريب أن هذا مظهر من مظاهر الثقة به ودليل على سلامته من التغيير والتبديل: ﴿لَا بُدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤]. ^(٢)

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: ٤٧).

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٩٢).

ومن فوائده أيضاً معرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام، وذلك يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد.

ولا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح.^(١) ومدار هذا على النقل والتوقيف ولا مجال للعقل فيه إلا بالترجيح بين الأدلة أو الجمع بينها فيما ظاهره التعارض منها.^(٢)

فمعرفة "سبب النزول" يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.^(٣)

وكذلك ففيه تيسير الحفظ، وتسهيل الفهم، وتثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها، وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة؛ كل أولئك من دواعي تقرر الأشياء وانتقاشها في الذهن، وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها في الفكر.^(٤)

٥- نزوله على سبعة أحرف لتسع دائرة تلاوته وفقهه.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَأَقْرَأُوا مَا تَيْسَّرَ مِنْهُ".^(٥)

والمراد من الأحرف السبعة: أوجه متعددة متغايرة من وجوه القراءة، تكون في الكلمة القرآنية الواحدة، بحيث تُقرأ على وجه واحد، أو أكثر من وجه، إلى سبعة أوجه.^(٦)

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ١١٤).

(٢) المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: ٥٣)، مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ١٠٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٩).

(٤) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ١١٣).

(٥) صحيح البخاري (٤٩٩٢)، صحيح مسلم (٨١٨).

(٦) الإتيان (١/ ١٣٥)، وانظر جمع القران في مراحل التاريخ من العصر النبوي إلى العصر الحديث (ص: ٢٠٦).

أي: أنزل القرآن موسعاً فيه على القارئ أن يقرأه على سبعة أوجه، يقرأ بأي حرف أراد منها على البدل من صاحبه، كأنه قال: أنزل على هذا الشرط وعلى هذه التوسعة. ^(١)

وسبب إنزاله على سبعة التخفيف والتسهيل. ^(٢)

ويرينا مظهراً من مظاهر رحمة الله وتخفيفه على عباده وتيسيره لكتابه على كافة القبائل العربية، بل على جميع شعوب الأمة الإسلامية من كل جيل وقبيل، حتى ينطقوا به لينة ألسنتهم سهولة لهجاتهم، برغم ما بينهم من اختلاف في اللغات وتنوع في الخصائص والميزات. ^(٣)

فتنوع القراءات يقوم مقام تعدد الآيات، وذلك ضرب من ضروب البلاغة يتبدى من جمال هذا الإيجاز وينتهي إلى كمال الإعجاز.

أضف إلى ذلك ما في تنوع القراءات من البراهين الساطعة والأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله، وعلى صدق من جاء به وهو رسول الله ﷺ، فإن هذه الاختلافات في القراءة على كثرتها لا تؤدي إلى تناقض في المقروء وتضاد، ولا إلى تهافت وتخاذل، بل القرآن كله على تنوع قراءاته يصدق بعضه بعضاً ويبين بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد في علو الأسلوب والتعبير، وهدف واحد من سمو الهداية والتعليم؛ وذلك من غير شك يفيد تعدد الإعجاز بتعدد القراءات والحروف.

ومعنى هذا: أن القرآن يعجز إذا قرئ بهذه القراءة، ويعجز أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة الثانية، ويعجز أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة الثالثة وهلم جرا، ومن هنا تتعدد المعجزات بتعدد تلك الوجوه والحروف.

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ١٥٤).

(٢) صحيح مسلم (١/ ٥٦٠).

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ١٣٧).

ولا ريب أن ذلك أدل على صدق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه أعظم في اشتغال القرآن على مناح جمة في الإعجاز وفي البيان على كل حرف ووجه وبكل لهجة ولسان قال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٢) [الأنفال: ٤٢]. (١)

٦- أنه جُمِعَ في عهد النبوة، ودُوِّنَ كاملاً في عهد الصحابة.

كان القرآن في مدة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متفرقاً في صدور الرجال، وقد كتب الناس منه في صحف، فلما استحرّ القتل بالقراء يوم اليمامة أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما بجمع القرآن، مخافة أن يموت أشياخ القراءة: كأبي، وزيد، وابن مسعود فيذهب، فندبا إلى ذلك زيد بن ثابت فجمعه غير مرتب السور بعد تعب شديد منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (٢)

فَعَنْ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ السَّبَّاقِ، أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ مِمَّنْ يَكْتُبُ الْوَحْيَ - قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلِ أَهْلِ الْيَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحَرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ فِي الْمَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لَأَرَى أَنْ تَجْمَعَ الْقُرْآنَ"، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ: "كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟" فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لِدَلِّكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرُ، قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لَا يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، وَلَا تَتَّهَمُكَ، "كُنْتُ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"، فَتَبَعَ الْقُرْآنَ فَاجْمَعُهُ، فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ، قُلْتُ: "كَيْفَ تَفْعَلَانِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟" فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقُمْتُ فَتَبَعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرَّقَاعِ وَالْأَكْتَفِ وَالْعُسْبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ،

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ١٤٩).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٤٩) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٣٤).

حَتَّى وَجَدْتُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَتَيْنِ مَعَ خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهُمَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] إِلَى آخِرِهِمَا، وَكَانَتِ الصُّحُفُ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا الْقُرْآنُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ. ^(١)

وهذا من أحسن وأجل وأعظم ما فعله الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه أقامه الله تعالى بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقامًا لا ينبغي لأحد من بعده: قاتل الأعداء من مانعي الزكاة والمرتدين والفرس والروم، ونفذ الجيوش، وبعث البعث والسرايا، وردَّ الأمر إلى نصابه، بعد الخوف من تفرقه وذهابه، وجمع القرآن العظيم من أماكنه المتفرقة حتى تمكَّنَ القارئ من حفظه كله، وكان هذا من سر قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ^(٢) فجمع الصديق الخير وكفَّ الشرور رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر، إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين. ^(٣) وفي هذه إثبات ظاهر أن الصحابة جمعوا بين الدفتين القرآن المنزَّل من غير زيادة ولا نقص. ^(٣)

فكان الذي فعله الشيخان أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من أكبر المصالح الدينية وأعظمها، من حفظهما كتاب الله في الصحف؛ لئلاَّ يذهب منه شيء بموت من تلقاه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم كانت تلك الصحف عند الصديق أيام حياته، ثم أخذها عمر بعده، فكانت عنده محروسة معظَّمةً مكرمةً، فلما مات كانت عند حفصة أم المؤمنين؛ لأنها كانت وصيته من أولاده على أوقافه وتركته،

(١) صحيح البخاري (٤٦٧٩).

(٢) فضائل القرآن لابن كثير (ص: ٥٦).

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٣٦).

وكانت عند أم المؤمنين حتى أخذها أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.^(١)
فلما كان زمن عثمان: اختلف الناس في القراءات بسبب تفرق الصحابة في
البلدان، واشتد الأمر في ذلك وعظم اختلافهم وتشبههم، ووقع بين أهل الشام
والعراق ما ذكره حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فعن ابن شهاب، أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، حَدَّثَهُ: أَنَّ حُدَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، قَدِمَ عَلَى
عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّامِ فِي فَتْحِ أَرْمِينِيَّةَ، وَأَذْرَبِيَّانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَأَفْرَعَ
حُدَيْفَةَ اخْتِلَافَهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ حُدَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرَكَ هَذِهِ الْأُمَّةُ،
قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ:
"أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكَ"، فَأَرْسَلَتْ بِهَا
حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ،
وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ"، وَقَالَ عُثْمَانُ
لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ: "إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ
فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ" فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي
الْمَصَاحِفِ، رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أَفْقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا
نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ.^(٢)

وهذا أيضًا من أكبر مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن الشيخين سبقاه إلى حفظ القرآن أن يذهب منه شيء، وهو جمع الناس
على قراءة واحدة لئلا يختلفوا في القرآن، ووافقه على ذلك جميع الصحابة.

فاتفق الأئمة الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، على أن ذلك من مصالح
الدين، وهم الخلفاء الذين قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عليكم بسنتي وسنة
الخلفاء الراشدين من بعدي".^(٣)

(١) فضائل القرآن لابن كثير (ص: ٦٥)، الإتيان في علوم القرآن (١/ ٢٠٢).

(٢) صحيح البخاري (٤٩٨٧).

(٣) فضائل القرآن لابن كثير (ص: ٦٩).

قال الخطابي: إنما لم يجمع **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته؛ ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاءً بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر. ^(١)

فأين هذا من التوراة والإنجيل التي بين يدي الناس اليوم، فلا هي باللفظ الذي نزلت به، ولا جمعت في زمن موسى وعيسى؛ بل لم تدون إلا بعدهم بسنوات بل بقرون، وانظر تفاصيل ذلك في موسوعتنا "محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام" وقد بسطنا القول في هذه المسألة هناك.

٧- ترتيب آيات القرآن وسوره.

من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعاً، وارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون الكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني؛ علم عظيم.

قال الرازي: ومن تأمل في لطائف نظمه وفي بدائع ترتيبها؛ علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه. ^(٢)

والآية طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إليها، ثم هي علامة على صدق من جاء بها **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وفيها عبرة وذكرى لمن أراد أن يتذكر، وهي من الأمور العجيبة لمكانها من السمو والإعجاز، وفيها معنى الجماعة لأنها مؤلفة من جملة كلمات وحروف، وفيها معنى البرهان والدليل على ما تضمنته من هداية وعلم، وعلى قدرة الله وعلمه وحكمته، وعلى صدق رسوله في رسالته.

(١) الإتيان في علوم القرآن (٢/ ٣٧٧).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٦)، الإتيان في علوم القرآن (٣/ ٣٦٩).

ولا سبيل إلى معرفة آيات القرآن إلا بتوقيف من الشارع، لأنه ليس للقياس والرأي مجال فيها إنما هو محض تعليم وإرشاد

وأما ترتيب آيات القرآن فقد انعقد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذي نراه اليوم بالمصاحف كان بتوقيف من النبي ﷺ عن الله تعالى، وأنه لا مجال للرأي والاجتهاد فيه، بل كان جبريل ينزل بالآيات على الرسول ﷺ ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها، ثم يقرأها النبي ﷺ على أصحابه، ويأمر كتاب الوحي بكتابتها معيّنًا لهم السورة التي تكون فيها الآية وموضع الآية من هذه السورة، وكان يتلوها عليهم مرارًا وتكرارًا في صلاته وعظاته وفي حكمه وأحكامه، وكان يعارض به جبريل كل عام مرة وعارضه به في العام الأخير مرتين، كل ذلك كان على الترتيب المعروف لنا في المصاحف، وكذلك كان كل من حفظ القرآن أو شيئًا منه من الصحابة حفظه مرتب الآيات على هذا النمط، وشاع ذلك وذاع وملاّ البقاع والأسماع؛ يتدارسونه فيما بينهم ويقرؤونه في صلاتهم، ويأخذ بعضهم عن بعض، ويسمعه بعضهم من بعض بالترتيب القائم الآن؛ فليس لواحد من الصحابة والخلفاء الراشدين يد ولا تصرف في ترتيب شيء من آيات القرآن الكريم. ^(١)

ولتسوير القرآن سورًا فوائد منها:

- ١ - حسن الترتيب والتنويع والتبويب.
 - ٢ - تسهيل الحفظ وبعث الهمة والنشاط.
 - ٣ - أن في التسوير والتفصيل تلاحق الأشكال، والنظائر، وملاءمة بعضها لبعض.
- قال الإمام مالك: إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ.

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٣٥٠)، المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: ٣١٦).

وقال الطيبي: أنزل القرآن أولاً جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفزاً على حسب المصالح، ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ. ^(١)

٨- تواتر نقل القرآن الكريم.

لا خلاف أن كل ما هو من القرآن يجب أن يكون متواتراً في أصله وأجزائه، وأما في محله ووضعه وترتيبه فعند المحققين من علماء أهل السنة كذلك أي يجب أن يكون متواتراً، فإن العلم اليقيني حاصل أن العادة قاضية بأن مثل هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه الهادي للخلق إلى الحق المعجز الباقي على صفحات الدهر الذي هو أصل الدين القويم والصراط المستقيم؛ فمستحيل ألا يكون متواتراً في ذلك كله، إذ الدواعي تتوافر على نقله على وجه التواتر، وكيف لا! وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] والحفظ إنما يتحقق بالتواتر، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، والبلاغ العام إنما هو بالتواتر فما لم يتواتر مما نقل آحاداً نقطع بأنه ليس من القرآن. ^(٢)

ولم يعرف التاريخ في عمره الطويل كتاباً أحيط بسياجات من العناية والرعاية مثل ما عرف ذلك للقرآن الكريم، ولا كتاباً ثبت في جملته وتفصيله بالتواتر المفيد للقطع واليقين مثل ما عرف ذلك للقرآن الكريم، ولا كتاباً أوجب الله حفظه على الأمة كلها غير القرآن الكريم، ولا كتاباً سلم من التحريف والتبديل غير القرآن الكريم.

(١) البرهان في تناسب سور القرآن (ص: ١٨٥)، البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٥٧)، أسرار ترتيب القرآن

(ص: ٤٥)، مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٣٥٤)، المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: ٣٢٦).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٢٧).

وقد احتاط النبي ﷺ، والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لهذا الكتاب غاية الاحتياط، فلم يكتفوا بحفظه في الصدور، وعلى صفحات القلوب، وإنما جمعوا إلى الحفاظ الكتابة في الرقاع، والعسب، والأكتاف، والخاف ونحوها، ثم في الصحف ثم في المصاحف وبذلك اجتمع للقرآن الوجودان: الوجود في الأذهان والصدور، والوجود في الكتابة والصدور.

ولم يكن المعول عليه في حفظ القرآن وتلقيه الأخذ من الرقاع، والصحف، والمصاحف، وإنما كان المعول عليه الأول التلقي الشفاهي، والأخذ بالسماع، فالنبي ﷺ أخذ عن أمين الوحي جبريل عليه السلام، وعن النبي أخذ الكثير من الصحابة النجباء العدول الضابطين الأمناء، وعن الصحابة أخذ الألوفاً من التابعين الفضلاء، وهكذا نقله العدد الكثير، عن العدد الكثير، حتى وصل إلينا كما أنزله الله من غير زيادة، ولا نقصان، ولا تغيير، ولا تحريف مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقد كان من أسباب توثيق النص القرآني، حفظ النبي ﷺ للقرآن، وحفظ الصحابة له. (١)

وبهذا يعلم مدى قوة هذا النص الإعجازي الذي بين أيدينا؛ فمع مرور الزمان وتعاقب الأيام وتكاثر الحوادث والآيات؛ ظل القرآن بنصه ثابتاً وبرسمه ناصعاً وبكلماته وزواجره حاكماً، لم يشبه خلط أو تغيير أو تلاعب، وقد كثر في البلاد شائثوه وتعنت معاندوه وهو باق على حالته الأولى لم ينقص منه حرف ولم يزد فيه نقط، فالحمد لله على نعمه وآلائه.

٩- أن الله خصه بالحفظ في الصدور ويسره بخلاف غيره من الكتب.

من أشرف خصائص القرآن الكريم: أن الله ﷻ كلف الأمة بحفظه كله بحيث يحفظه عدد كثير يثبت به التواتر؛ وإلا أثمت الأمة كلها، وليس هذا الكتاب غير القرآن، فالتوراة والإنجيل ترك لأهلها أمر الحفاظ فاكتفوا بالقراءة دون الحفاظ، إلا قلة

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: ٣٨٦).

لا تكاد تذكر ولم تتوافر الدواعي لحفظهما كما توافرت لحفظ القرآن الكريم، فلم يكن لهما ثبوت قطعي كما هو للقرآن فسهل تحريفهما وتبديلهما.

ولم يترك الرسول ﷺ سبيلاً فيه حث على حفظ القرآن إلا وأرشد إليه وحث عليه، فحفظه عدد كبير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وما زالت المسيرة مستمرة يحفظ المسلمون القرآن في صدورهم، ونجد إقبالاً لا يخطر ببال ولا يحلم بمثله أهل كتاب؛ انظروا -إن شئتم- مدارس تحفيظ القرآن العديدة منذ نزول القرآن إلى عصرنا هذا ثم التفتوا يسرة، كم من مدرسة لتحفيظ الإنجيل أو التوراة؟ فلن تجدوا منها شيئاً، بل ستجدون قلة القلة تحفظ هذا أو ذاك مما لا يذكر -أبداً- في مقابل مدارس تحفيظ القرآن، تقول المستشرق لورا فاغليري: إن "في مصر وحدها عدد من الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الأناجيل عن ظهر قلب في أوروبا كلها"^(١) ويقول جيمي متشيز: "لعل القرآن هو أكثر الكتب التي تقرأ في العالم، وهو بكل تأكيد أسرها حفظاً".^(٢)

والسر في أن الله سبحانه وتعالى كلف الأمة المحمدية بحفظ القرآن العظيم، ولم يكلف الأمم السابقة بحفظ كتبها، وصحفها: أن هذه الكتب لم تكن معجزة بألفاظها ولم يشأ الله ذلك لحكمة يعلمها، بخلاف القرآن الكريم، فقد شاء الله سبحانه -وله الحكمة البالغة- أن يكون معجزاً بلفظه فضلاً عن معانيه، فكان من الضروري المحافظة على النص بالطريق المفيدة للقطع واليقين، وليس ذلك إلا بأن يحفظه العدد الكثير في كل جيل وعصر، الذين لا يجوز عليهم الكذب، ولا الغلط، ولا السهو، وهو ما يعرف في علم الرواية بالتواتر، وقد وفر الله له من الدواعي إلى حفظه ما لم يتوفر لغيره من الكتب السماوية، بله الأرضية، وأيضاً من الحكم أن القرآن هو الأصل الأصيل للدين العام الخالد الباقي ما بقي إنسان على وجه هذه الأرض، وهو الإسلام، فكان لا بد من المحافظة على كتابه،

(١) دفاع عن الإسلام: لورا فاغليري (ص ٥٩).

(٢) دراسات في علوم القرآن فهد الرومي (ص: ٦٣).

ليخلد خلود هذا الدين الذي يعتبر القرآن أصلاً له.

بخلاف التوراة والإنجيل، فقد كانتا كتباً لدينيين يمثلان طورين خاصين محدودين بحدود الزمان والمكان، من الأطوار التي مرت بها الأديان السماوية حتى وصلت إلى الاكتمال، في دين الإسلام قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة" (١) (٢).

١٠ - اتصال سنده إلى رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، بل إلى رب العزة سبحانه.

من المعلوم أن أغلب الذين يتعلمون تلاوة القرآن إنما يتعلمونها عن طريق السماع ولا يكتفون بتعلمه من المصاحف وحدها، ونعلم أن أساتذتهم تلقوه أيضاً بالسماع عن طريق مشايخهم؛ وهكذا لا تنقطع هذه الطريقة إلى أن تصل طبقة التابعين، ثم الصحابة، ثم الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

وبهذا يكون سند القرآن في كل عصر وفي كل حين متصلاً برسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وليس هذا لكتاب غير القرآن الكريم، فقد شرف الله هذه الأمة باتصال سندها برسولها **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

قال محمد بن حاتم المظفر: "إن الله تعالى قد أكرم هذه الأمة، وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمها وحديثها إسناد موصول، وإنما هو مصحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، وليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل، مما جاءهم به أنبياءهم، وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوها عن غير الثقات. (٣)

١١ - أنه لا يمسه إلا المطهرون.

أنزل الله القرآن بواسطة أفضل الملائكة على أفضل الأنبياء لخير أمة أخرجت

(١) البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: ٣٩٠).

(٣) توضيح الأفكار محمد بن إسماعيل الصنعاني (٢/ ٣٩٩)، فتح المغيث للسخاوي (٣/ ٤).

للناس، فأخرجهم به من الظلمات إلى النور، ومن رجس الجاهلية إلى طهارة الإسلام؛ فحق لهذا الكتاب أن يتيها المسلمون لتلاوته وأن يستعدوا لها بالطهارة، ليست الطهارة الصغرى كما يفهمها بعض الناس، ولكنها الطهارة الكبرى بكل معانيها.

طهارة القلب من الكفر والشرك، فلا يمس القرآن كافر ولا يمكن من ذلك، ولا يسافر بالمصحف إلى بلاد الكفر، وطهارة القلب أيضاً من الرياء والنفاق، وأن يريد بالتلاوة غير وجه الله كمن يقرؤه للرياء والسمعة، أو ليقال هو قارئ، أو كمن يقرؤه للتكسب أو لينال به شيئاً من حطام الدنيا.

وطهارة البدن من الحدثين الأكبر والأصغر، فيجب الاغتسال من الجنابة ونحوها بلا خلاف، ويسن الوضوء من الحدث الأصغر بل أوجه بعض العلماء.

وطهارة اللباس فينبغي أن تكون ثيابه طاهرة نظيفة نقية، وأن يتطيب وأن يلبس من الثياب أحسنها، وأن يستعد لها كما يستعد لملاقاة الملوك فإنه مناج ملك الملوك. وطهارة الفم فينبغي أن ينظف فاه ويستاك ويخلل أسنانه اقتداء بسنة رسول الله ﷺ وسنة أصحابه من بعده.

وهذه الطهارة خاصة بتلاوة القرآن لا يشترك معه فيها كتاب آخر. ^(١)

قال تعالى ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠].

﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام، الذين طهرهم الله تعالى من الآفات، والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمسّه إلا المطهرون، وأن أهل الخبث والشياطين، لا استطاعة لهم، ولا يدان إلى مسّه؛ دلت الآية بتبيينها على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر، كما ورد بذلك الحديث، ولهذا قيل: أن الآية خبر بمعنى النهي أي: لا يمس القرآن إلا طاهر.

(١) دراسات في علوم القرآن فهد الرومي (ص: ٦٤).

﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيل رب العالمين، الذي يربي عباده بنعمه الدينية والدنيوية، ومن أجل تربية ربي بها عباده، إنزاله هذا القرآن، الذي قد اشتمل على مصالح الدارين، ورحم الله به العباد رحمة لا يقدرון لها شكوراً. ^(١)

١٢ - الأمر بكتابته ورسمه.

معروف أن الأمة العربية كانت موسومة بالأمية مشهورة بها لا تدري ما الكتابة ولا الخط، وجاء القرآن يتحدث عن أميتها هذه فقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]

ولن يشذ عن هذه القاعدة إلا أفراد قلائل في قريش تعلموا الخط ودرسوه قبيل الإسلام، وكان ذلك كان إرهاباً من الله وتمهيداً لمبعث النبي ﷺ، وتقرير دين الإسلام، وتسجيل الوحي المنزل عليه بالقرآن؛ لأن الكتابة أدعى إلى حفظ التنزيل وضبطه وأبعد عن ضياعه ونسيانه. ^(٢)

ولما جاء الإسلام حارب فيما حارب أمية العرب وعمل على محوها، وطفق يرفع من شأن الكتابة ويعلي من مقامها. وإن كنت في شك فهذه أوائل آيات نزلن من القرآن الكريم يشيد الحق فيها بالقلم وما يعلم الله عباده بوساطة القلم إذ يقول جلّت حكمته: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ - ٥]

وهذه سورة "ن" يحلف العلي الأعلى فيها بالقلم وما يسطرون إذ يقول: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم: ١، ٢]. وهذا من أروع ألوان التنبيه إلى جلال الخط والكتابة ومزاياهما.

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٢)، تفسير السعدي (ص: ٨٣٦).

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٣٦٢).

وهذا رسول الله ﷺ يدفع أصحابه دفعًا إلى أن يتعلموا الخط ويحذقوا الكتابة ويهيئ لهم السبل بكل ما يستطيع من وسيلة مشروعة. حتى لقد ورد أن المسلمين في غزوة بدر أسروا ستين مشركًا فكان مما يقبل الرسول ﷺ في فداء الواحد منهم أن يعلم عشرة من أصحابه الكتابة والخط^(١).

وهكذا أعلن الرسول ﷺ بعمله هذا أن القراءة والكتابة عديلان للحرية وهذا منتهى ما تصل إليه الهمم في تحرير شعب أمي من رق الأمية. وبمثل هذه الطريقة أخذت ظلمات الأمية تتبدد بأنوار الإسلام شيئًا فشيئًا، وحل محلها العلم والكتابة والقراءة.

وهذا من أدل الأدلة على أن الإسلام دين العلم والحضارة والمدنية.^(٢)

١٣- أن فيه البيان لكل شيء.

القرآن الكريم فيه بيان كل شيء، فالعالم به على التحقيق عالم بجملة الشريعة، والدليل على ذلك أمور منها: النصوص القرآنية مثل قول تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وقوله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] يعني: الطريقة المستقيمة ولو لم يكن فيه جميع معانيها لما صح إطلاق هذا المعنى عليه حقيقة، وأشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه هدى وشفاء لما في الصدور ولا يكون شفاء لجميع ما في الصدور إلا وفيه تبيان كل شيء، ومنها ما جاء من الأحاديث والآثار المؤذنة بذلك.^(٣)

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد (١٦/٢) عن الشعبي بنحوه.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٣٦٦).

(٣) فضائل القرآن الكريم عبد الله بن جار الله (ص: ٢٦).

قال ابن كثير: قال ابن مسعود: وقد بينَّ لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء.

وقال مجاهد: كل حلال وحرام.

وقول ابن مسعود: أعم وأشمل؛ فإنَّ القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم^(١)

وقال السعدي تحت تفسير الآية: في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبين بألفاظ واضحة ومعان جلية، حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبيدها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة لتستقر في القلوب فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس^(٢).

١٤ - أنه حافظ على نسيج الأمة ووحدة لغتها.

القرآن هو كتاب العربية الأكبر، ورمز وحدة العرب الكبرى وجامعتهم العظمى، وبه اكتسبت لغة العرب بقاءها، وحيويتها؛ وبه صار العرب أمة واحدة مؤمنة موحدة، متألّفة القلوب متجانسة المزاج، متحدة اللسان، متشابهة البيان، وبه صار المسلمون في صدر الإسلام أمة واحدة، لا يفرق بينها جنس، ولا لون، ولا لغة، فقد انصهرت كل هذه الفوارق في نور الإسلام، ولم يبق إلا الاعتزاز بالإسلام والقرآن، وصار لسان الواحد منهم يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم.

(١) تفسير ابن كثير آية النحل (٨٩).

(٢) تفسير السعدي آية النحل (٨٩).

ومنه استمد العرب والمسلمون علومهم ومعارفهم، فما من علم من علومهم إلا وله بالقرآن سبب، وله منه ورد ومدد، ولولا هذا الكتاب العربي المبين لاستعجمت لغة العرب، وأضحت في عداد اللغات الميتة، فهو الذي يجدد شبابها كلما اعتراها الهرم والضعف، ويأخذ بيدها إذا ألمَّ بها التخلف والركود، ولولا هذا الكتاب لما كانت هذه الثروة الطائلة من العلوم التي تدور حول القرآن، ولغة القرآن وتجول في رحابه الواسعة.

وما من عربي - أيًا كان دينه - إلا وله بهذا الكتاب مفخرة واعتزاز وحب ووفاء؛ لأنه يخاطب فطرته اللغوية ووجدانه البياني، وروحه العربية الصافية الشفافة. ^(١)

واللغة العربية أشرف اللغات وأنصعها، فأختارها الله تعالى لأشرف كتبه، حتى أثبتت الدراسات المعاصرة إمتياز العربية وألويتها في سلامتها وفصاحتها وأصالتها، وهي تنطلق من صحاري الجزيرة، ومفاوز الحجاز، مخترقة مناخها الإقليمي، وبقعتها الجغرافية إلى بقاع العالم، ضاربة بأطنابها صوب المغرب والمشرق، مما عجزت عن تحقيقه اللغات الحية، وقصرت عن تناوله فصائل اللغات السامية، حتى هجر جملة من علماء الإسلام السنة لغاتهم الأصلية، تمحّضوا للغة القرآن فاحصين وباحثين، فذاع صيتهم في الآفاق، واشتهروا باسم العربية.

وكان القرآن الكريم أصل افتتانهم بلغة العرب، وأسلوبه مصدر حياتهم اللغوية المتنوعة، فتعددت المعارف، وتفتحت المدارك، فكانت الإسهامات الحضارية، والنقلة الثقافية تغزو المجتمعات والأمم والشعوب والقبائل، وتحرر العقول والذهنيات والألباب، قال ابن قتيبة: إنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصَّ الله به لغتها دون جميع اللغات". ^(٢)

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: ١٠).

(٢) تأويل مشكل القرآن: ص (١١).

١٥- أنه لا يعلو عن أفهام العامة ولا يقصر عن مطالب الخاصة.

وهذان مطلوبان لا يدركهما الفصحاء والبلغاء من الناس، فلجئوا إلى قاعدة يعتدرون بها فقالوا: "لكل مقام مقال" أما أن يأتي كلام واحد يخاطب به العلماء والعامة، والملوك والسوقة، والأذكىء ومن دونهم، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، ويرى فيه كل منهم مطلبه، ويدرك من معانيه ما يكفيه، فذلك ما لا نجده على أتمه وأكمله إلا في القرآن الكريم وحده.

يقرأ فيه العامي فيشعر بجلاله، ويذوق حلاوته، ولا يلتوي عليه فهمه، فتدركه هيمنته، ويستولي عليه بيانه، وتغشاه هدايته، فيخضع قلبه، وتدمع عيناه، فينقاد له، ويدعن.

ويقرأ فيه العالم فيدرك فصاحته، وتهيمن عليه بلاغته، ويملكه بيانه، وتنجلي له علومه ومعارفه، وتدهشه أخباره وأنباؤه، فيجد فيه زمام فكره، وقيادة عقله، ومنهج علمه، ومحار فكره، ورفعته شأنه فيذعن: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةٌ وَعِلْمًا﴾ سورة غافر: الآية ٧. ثم يرفع يديه: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ سورة طه: ١١٤. فتدركه الخشية، ويدعن لربه، ويؤمن بشرعه، والآيات هي هنا وهناك، لم تتغير ولم تتبدل. ^(١)

١٦- أنه كتاب الهداية الكبرى للبشرية.

القرآن هو هداية الخالق لإصلاح الخلق، وشريعة السماء لأهل الأرض، وهو التشريع العام الخالد الذي تكفل بجميع ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم ودنياهم: في العقائد، والأخلاق وفي العبادات وفي المعاملات: المدنية، والجنائية، وفي الاقتصاد، والسياسة، والسلم، والحرب، والمعاهدات، والعلاقات الدولية وهو في كل ذلك حكيم كل الحكمة، لا يعتريه خلل ولا اختلاف، ولا تناقض ولا اضطراب وصدق الله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا

(١) دراسات في علوم القرآن فهد الرومي (ص: ٦٢).

كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ [سورة النساء: ٨٢] وأصيل غاية الأصالة، وعدل غاية العدالة، ورحيم غاية الرحمة، وصادق غاية الصدق، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١١٥﴾ [سورة الأنعام: ١١٥].

فلا عجب. أن كانت السعادة الحقة لا تنال إلا بالاهتداء بهديه، والتزام ما جاء به، وأن كان الشفاء لأمراض النفوس وأدواء المجتمع؛ فاهتدت به القلوب بعد ضلال، وأبصرت به العيون بعد عمى، واستنارت به العقول بعد جهالة، واستضاءت به الدنيا بعد ظلمات، وصدق الله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَتَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ [سورة الإسراء: ٩ - ١٠]. وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٨٢﴾ [سورة الإسراء: ٨٢].

وقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [سورة المائدة: ١٥ - ١٦]. (١)

ما أعظم هذه القاعدة، وما أحكم هذا الأصل العظيم الذي نص نصًا صريحًا على عموم هداية القرآن وعدم تقييد هذه الهداية بحال من الأحوال؟ فكل حالة هي أقوم في العقائد والأخلاق والأعمال والسياسات والصناعات والأعمال الدينية والدنيوية، فإن القرآن يهدي لها ويرشد إليها ويأمر بها ويحث عليها، ومعنى ﴿أَقْوَمُ﴾ أصلح وأكمل استقامة، وأعظم قيامًا وصلاحًا للأمر.

فأما عقائد القرآن فهي العقائد النافعة التي فيها صلاح القلوب وحياتها وكمالها، فإنها تملأ القلوب عزة وكرامة بشعورها بالتجرد من الذل ولمخلوق

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: ١١).

مثلها، وشرفها بتخصيصها لمحبة الله تعظيماً له وتألهاً وتعبداً وإنابة، وهذا المعنى هو الذي أوجد الله الخلق لأجله.

وأما أخلاق القرآن التي يدعو إليها، فإنه يدعو إلى التحلي بكل خلق جميل من الصبر والحلم والعتو والأدب وحسن الخلق مع الله ومع الخلق وجميع مكارم الأخلاق، ويحث عليها بكل طريق ويؤلف القلوب ويجمع المتفرق، وأما الأعمال الدينية التي يهدي إليها فهي أحسن الأعمال التي فيها القيام بحقوق الله وحقوق عباده على أكمل الحالات وأجلها وأسهلها وأوصلها إلى المقاصد.

وأما السياسات الدينية والدينية فهو يرشد إلى سلوك الطرق النافعة في تحصيل المقاصد والمصالح الكلية وفي دفع المفاسد، ويأمر بالتشاور على ما لم تتضح مصلحته والعمل بما تقتضيه المصلحة في كل وقت بما يناسب الحال حتى في سياسة الوالد مع ولده وزوجه وأهله وخادمه وأصحابه ومعامله، فكل مصلحة يتفق العقلاء أنها أقوم وأصلح من غيرها، فإن القرآن يرشد إليها نصاً أو ظاهراً أو دخولاً تحت قاعدة من قواعده الكلية، وكل التفاصيل الواردة في الكتاب والسنة وما تقتضيه المصالح تفصيلاً لهذا الأصل المحيط، وبهذا وغيره يتبين لك أنه لا يمكن أن يرد علم صحيح أو معنى نافع أو طريق صلاح يردده القرآن.^(١)

١٧- أنه حارب التقليد بلا بصيرة، ودعا إلى النظر، والتأمل في الكون.

هو الكتاب الذي فك العقول من عقالها، وأطلق النفوس من إسارها، وأنحى على التقليد والمقلدين بالذم والتوبيخ، قال عز شأنه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٧٠]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة المائدة: ١٠٤].

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن لابن سعدي (١٧٧)، فضائل القرآن الكريم عبد الله بن جار الله (ص: ٥٤).

وهو الكتاب الذي وجه العقول والأنظار إلى النظر في الأنفس، وما فيها من عجائب وأسرار وغرائز واستعدادات، قال عز شأنه: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات: ٢١] والنظر في الآفاق والآيات الكونية علويها وسفليها، ظاهرها وخفيها وعما تنطوي عليه من حكم، وما أودع الله فيها من خواص وسنن، وأفاض في ذلك في غير ما سورة وآية، وإن شئت اليقين في ذلك فاقراً قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٠].

وقد زخر القرآن العظيم بهذا النوع من الآيات، وكثرت كثرة زادت على آيات الأحكام^(١)، ولا سيّما في القسم المكي، ولذلك سرّ: ذلك أن هذا النظر، وذاك التأمل غالباً ما ينتهيان بالإنسان العاقل المجرد عن الأهواء والشهوات، إلى الوصول إلى الإيمان بالخالق **جَلَّ وَعَلَا** ووحدانيته وتفرد بصفات الكمال والجلال، والجمال والإيمان بالبعث والمعاد، وأن هناك حياة أخرى خيراً من هذه الحياة، والإيمان بالملائكة والرسل الكرام، وإذا ما آمن البشر بهذه العقائد؛ سهل عليهم بعد تلقي الشرائع، والتزامها علماً، وعملاً، وسلوكاً، وخير الإيمان ما كان عن بيّنة ودليل، وخير العلم والعمل ما كان عن اطمئنان وبحث واقتناع.^(٢)

١٨ - أنه فتح الباب للعلوم التجريبية.

القرآن حينما دعانا إلى النظر في الآيات الآفاقية والأنفسية لم يقف بنا عند حد الاعتبار والاتعاظ بالظواهر والصور والأشكال فحسب، وإنما أراد - إلى ذلك -

(١) أكثر ما قاله العلماء في آيات الأحكام أنها خمسمائة، وغاية ما قالوه في تعداد آيات القرآن: ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية. المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: ١٣).

(٢) المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: ١٣).

استكشاف المستور، واستكناه الأسرار، والتقصي عما فيها من عجائب وسنن وخواص عن طريق الملاحظة حيناً والتجارب أحياناً أخرى؛ وبذلك يكون القرآن فتح أبواباً للعلوم التجريبية منذ أربعة عشر قرناً من الزمان.

ولو أن المسلمين استفادوا بما في هذا الكتاب الكريم من توجيهات وإرشادات؛ لكانوا- كما كان الشأن في سلفهم الأولين- أسبق الأمم إلى الكشف العلمية والاختراع والابتداع، ولصاروا سادة الدنيا، وأضحى بيدهم زمام الأمور، ولكنهم جمدوا ولم يستفيدوا بهدي القرآن وإرشاداته، فكانوا على ما ترى!^(١)

قال الدكتور موريس بوكاي في مقدمة كتابه "التوراة، والأنجيل، والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث" ص ٢٧: القرآن الكريم قد تضمن كثيراً جداً من الحقائق ذات الاتصال الوشيج بحقائق العلم؛ وهي كثيرة جداً، وهي أكثر بكثير جداً من تلك الموجودة في الإنجيل، ولا وجه للمقارنة بين العدد الضئيل المحدود من الحقائق العلمية المذكورة في الإنجيل -مع تعارضها مع حقائق العلوم الوضعية- والعدد الكبير من الحقائق العلمية الموجودة في القرآن الكريم مع اتفاقها واتساقها مع معطيات وحقائق العلوم الوضعية.

إن الحقائق ذات الصفة العلمية الموجودة بالقرآن الكريم يستحيل نقضها أو بيان أي خطأ فيها من وجهة نظر العلوم الوضعية.^(٢)

١٩- أنه حارب العنصرية الجاهلية.

القرآن هو الذي قضى على العنصرية، ودعاوى الجاهلية، وقضى على التفرقة العنصرية والنسبية واللونية، ووضع أساس المساواة بين الناس كافة، فالناس ربهم واحد وكلهم لآدم لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض، وإنما التفاضل بالتقوى، والتقوى

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: ١٣).

(٢) التوراة، والأنجيل، والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث (ص ٢٧).

جماع كل هدى وحق وخير.

وصدق الله: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالناس مهما تعددت شعوبهم، وتباينت أممهم فيجمعهم رباط واحد، وهو رباط الإنسانية العام، وهذا أسمى ما يطمع فيه من تشريع!

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [سورة النساء: ١].^(١)

٢٠- القرآن أنه كَوْنُ أمة مثالية.

هو الكتاب الذي صلحت به الدنيا، وحول مجرى التاريخ، وأقام أمة كانت مضرب الأمثال في الإيمان والإخاء والعدل والوفاء، والوفاق والوئام، وأظل العالم بلواء الأمن والسلام حقباً من الزمان، وصير من رعاة الإبل والشاء علماء حكماء رحماء، وسادة قادة في الحكم، والسياسة والسلم، والحرب، عقلت الدنيا عن أن تجود بمثلهم.

وهو الكتاب الذي لا تفنى ذخائره، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يزداد على التكرار إلا حلاوة وطلاوة، وصدق القائل:

تزداد منه- على ترداده- مِقة. وكلّ قول- على الترداد- مملول، وتلك لعمر الحق خصيصة من خصائص "القرآن" ومن كان في شك من هذا فليستفت الذوق والوجدان والقلب والأذان، وليوازن في هذا بين كلام الله وكلام الإنسان، وحينئذ سيتذوق، ومن ذاق عرف، ومن عرف اعترف.

ومهما تعاقبت على هذا الكتاب العزيز الأجيال والسنون لا يزداد إلا جدة وطرافة، ولا يزال غصّاً طريّاً كما أنزل، وكلما تقدمت العلوم والمعارف الإنسانية

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: ١٤)

تكشف للناس منه العجب العجاب، وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول:

﴿ سُرِّيهِمْ ءَايَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ ﴾ [سورة فصلت: ٥٣].

إن كتاباً هذا بعض شأنه لجدير أن يضعه الإنسان بين عينيه، ويجعله أنيسه في خلوته، ورفيقه في سفره، وصديقه الصدوق في يسره وعسره، ومستشاره الأمين في أمور دينه ودنياه، وحجته البالغة في حياته وأخراه. ^(١)

٢١- أنه يحض على الانتفاع بالكون.

إن القرآن حض على معرفة علوم الكون وصنائع العالم وحث على الانتفاع بكل ما يقع تحت نظرنا في الوجود، قال **سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى**: ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١ ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال جلّت حكمته: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣]. فلا يليق بالمسلمين وهم المخاطبون بهذا أن يفروا من وجه هذه المنافع العامة، ولا أن يزهّدوا في علوم الكون، ولا أن يحرموا أنفسهم فوائد التمتع بثمرات هذه القوى العظيمة التي أودعها الله لخلقه في خزائن سمواته وأرضه، ولهذا نص علماؤنا على أن تعلم تلك العلوم الكونية وحذق هذه الصناعات الفنية فرض من فروض الكفايات ما داموا في حاجة إليها لمصلحة الفرد أو المجموع، وذلك لأن البقاء في هذه الحياة للأصلح والحياة في هذا الوجود للسلام المسلح والأسلحة في كل عصر عامة وفي هذا العصر خاصة إنما تقوم على التمهّر في العلوم وعلى السبق في حلبة الصناعات والفنون، والويل فينا للضعيف والحظ كل الحظ للقوي والله تعالى يقول: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والنبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يقول فيما رواه مسلم ^(٢) عن أبي هريرة: "المؤمن

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: ١٦).

(٢) صحيح مسلم (٢٦٦٤).

القوي، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان".^(١)

٢٢- عالميته.

لقد زعم أعداء الإسلام أن القرآن العظيم كتاب تاريخي، خاطب عصرًا محددًا فقط ثم انتهت صلاحيته بعد ذلك، ولم يبق له في الواقع المعاصر أدنى تأثير!

ونحن المسلمين نعتقد اعتقادًا جازمًا لا مرية فيه، أن القرآن العظيم هو الكتاب الذي خاطب الله تعالى به جميع البشر إلى يوم القيامة، فلم يقيد بزمان ولا بمكان ولا جنس ولا طبقة، بل هو موجه إلى الثقلين، خاطبهم جميعًا بما يسعدهم في الدنيا والآخرة من العقائد الصحيحة، والعبادات الحكيمة، والأحكام الرفيعة، والأخلاق الفاضلة التي تستقيم بها حياتهم.

ولقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة، وإجماع الأمة على عالمية القرآن، ومن الصعوبة بمكان استقصاء جميع الآيات التي تحدثت عن عالمية القرآن. وقد ذكر بعضهم: "أن عدد الآيات الدالة على عالمية القرآن تزيد على ثلاثمائة وخمسين آية".

وهناك أربع آيات تعلن بكل وضوح أن القرآن ذكرٌ لجميع العالمين: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤]، [القلم: ٥٢]، [التكوير: ٢٧].

والمأمل في ألفاظ هذه الآيات الأربع، وتعبيراتها، يجد مقصوده منها على عالمية القرآن، وقد استنبط بعض علماء التفسير من هذه الآيات الآتي:

أولاً: أنها جاءت بصيغة الحصر، فهذه الصيغة الحصرية تنفي عن القرآن كل

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٢٥).

صفة تنافي عالميته، وتجعل عالميته منصوباً عليها بكل وضوح. ^(١)

ثانيًا: أنه مذكر للعالم أجمع، باعتبار أنه مخاطب به الأنس والجن، فهو يذكرهم ويخاطبهم بما يحتاجون إليه فرداً وأسرةً ومجتمعاً ودولة.

ولفظ: ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ عام للأنس والجن، ممن عاصروا النبي ﷺ، وممن جاؤوا بعده إلى قيام الساعة. ^(٢)

ثالثًا: العالمين جمع عرفت بـ (ال) فتدل على معنى الاستغراق، فالجمع المعرف بـ (ال) من صيغ العموم في اللغة العربية.

ولفظ (عالم) مفرد للعالمين، فهو يعم كل ما هو في الكون، فإذا جمع بالواو والنون يكون خاصاً بالعقلاء من الأنس والجن أجمعين.

فدلت لفظة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ على أن القرآن العظيم ذكرٌ لجميع عقلاء الإنس والجن بلا تقييد من مكان، أو زمان، أو طبقة، أو جنس.

يقول الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "لفظ العالمين يتناول جميع المخلوقات، فدلت الآية على أنه رسول للخلق عامة إلى يوم القيامة". ^(٣)

ولا ريب أن عموم رسالة النبي ﷺ يتحقق بعالمية كتابه الذي أرسل به إلى الناس كافة "يتذكرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقائص والرذائل والأمثال، ويتذكرون به الأوامر والنواهي، وحكمها، ويتذكرون به الأحكام القدريّة، والشرعية والجزائية.

وبالجملة، يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين. ^(٤)

(١) التحرير والتنوير، (١٧/ ١٢٥).

(٢) تفسير أبي حيان، (٦/ ٤٨٠)، تفسير ابن عطية، (٤/ ١٩٩).

(٣) التفسير الكبير (٢٤/ ٤٠).

(٤) تفسير السعدي (٥/ ٣٧٩).

ومن الآيات التي صرحت بعالمية القرآن العظيم:

١- قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) ﴿[الفرقان: ١].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) ﴿[الأنبياء: ١٠٧].

٣- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٨٩) ﴿[الإسراء: ٨٩].

٤- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٢٧).

٥- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٤١) ﴿[الزمر: ٤١].

يقول ابن عاشور **رَحْمَةُ اللَّهِ** في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) ﴿: "صيغت بأبلغ نظم؛ إذا اشتملت هذه الآية - بوجازة ألفاظها - على مدح الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة، وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه. (١)

ويتحدث ابن القيم **رَحْمَةُ اللَّهِ** عن عموم الآية فيقول:

"أصحُّ القولين في هذه الآية: أنها على عمومها.

وفيها على هذا التقدير وجهان: أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته.

أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة.

وأما أعداؤه المحاربون له: فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم

(١) التحرير والتنوير (١٧ / ١٢١).

الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر.

وأما المعاهدون له: فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شراً بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون: فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم، وأموالهم وأهلهم واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث، وغيرها.

وأما الأمم النائية عنه: فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته. ^(١)

٢٣- إعجازه.

إعجاز القرآن مركب إضافي معناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به، والتقدير: إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحداهم به، ولكن التعجيز المذكور ليس مقصوداً لذاته بل المقصود لازمه وهو إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي جاء به رسول صدق، وكذلك الشأن في كل معجزات الأنبياء ليس المقصود بها تعجيز الخلق لذات التعجيز، ولكن لازمه وهو دلالتها على أنهم صادقون فيما يبلغون عن الله، فينتقل الناس من الشعور بعجزهم إزاء المعجزات إلى شعورهم وإيمانهم بأنها صادرة عن الإله القادر لحكمة عالية، وهي إرشادهم إلى تصديق من جاء بها ليسعدوا باتباعه في الدنيا والآخرة. ^(٢)

فالإعجاز هو أن يقع التركيب بحيث لا يمتنع أن يوجد ما هو أشد تناسباً ولا اعتدالاً في إفادة ذلك المعنى. ^(٣)

(١) عظمة القرآن الكريم (ص: ١١٥).

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣٣٢).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٤٧).

فهو معجزة قولية تشاهد بالبصر والبصيرة، تخاطب العقل والوجدان، ولا يقتصر الإيمان بها على من عاصرها، وإنما يستمر لمن أتى بعدها، وهي أيضاً لكل مخلوقات الله من إنس وجن، وصالحة لكل زمان ومكان، وخاتمة أيضاً لكل الرسالات السابقة، ومصدقة بكل ما جاء به الأنبياء السابقون، لذلك كانت رسالة عامة، جامعة، خاتمة.

لذلك كان التحدي بهذه المعجزة القولية سافراً أمام القوم في كل ناد ومجتمع، يقرع آذانهم بلفظه، ومعانيه، وطرائقه، وأساليبه؛ فيبهتون، ولا يستطيعون تصرفاً في قول، أو محاكاة في أسلوب، تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بأقصر سورة كذلك، ولكن هيهات أن تقف قدرة عاجزة قاصرة خاسرة أمام قدرة الله التي أوحى بهذا القول لرسول الله ﷺ.

فهذا القرآن شاهد على صدق الرسالة أولاً، فمن تدبر في آيات الله، وجد أنها من عند الله، لا تمت بصلة إلى بشر، وإذا ثبت ذلك، دل على صدق الرسول المبلغ به.

لقد أعلن أحد زعماء قريش، وهو الوليد بن المغيرة، عجزه حينما ذهب إلى محمد ﷺ يعرض عليه تلك المغريات التي اعتقد أنها تستطيع أن تغير مسار دعوة محمد ﷺ، أو تغريه بمظاهر الحياة كما تغري أهل الدنيا، أو تفت في عضده، وتوهن من عزمه، فقرأ عليه السلام قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، فما كان منه إلا أن رجع إلى قومه، وقال: والله لقد سمعت كلاماً ما هو بكلام الإنس، ولا بكلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه.

كانت للقرآن ولا تزال تلك المكانة العليا التي أرادها الله لكلمته الهادية،

والتي عبرت عنها الآيات القرآنية في وصف أثره في نفوس المؤمنين به في قوله تعالى: ﴿نَفْسَعِرْ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۚ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٢٣].

وفي آية أخرى: ﴿إِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ خُورٌ ۖ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخْرُجُونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُ ۖ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]

ولو كان هؤلاء الكفار من قريش وأتباعهم يظنون أن محمداً يستعين بغيره من القارئين والأخبار والرهبان، لأمكنهم أيضاً أن يلجئوا إليهم ويستعينوا بهم، فلما لم يفعلوا ذلك، وآثروا أن يقفوا من محمد موقف المحاربة والنزاع، دل ذلك على أن القرآن معجز، وأن بلاغته ووجوه إعجازه عديدة، لا تقف عند حصر، فلا يستطيعون لها تقليداً، ويعجزون عن معارضتها. ^(١)

وإعجاز القرآن له وجوه متعددة فلا يقف عند وجه واحد، ومن هذه الوجوه:

١ - لغته وأسلوبه

مرت على اللغة العربية من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا أدوار مختلفة بين علو ونزول واتساع وانقباض وحركة وجمود وحضارة وبداءة، والقرآن في كل هذه الأدوار واقف في عليائه، يطل على الجميع من سمائه، وهو يشع نوراً وهدايةً، ويفيض عذوبةً وجلالةً، ويسيل رقةً وجزالةً، ويرف جدةً وطلاوةً، ولا يزل كما كان غضاً طرياً يحمل راية الإعجاز ويتحدى أمم العالم في يقين وثقة، قائلاً في صراحة الحق وقوته، وسلطان الإعجاز وصولته: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ۚ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومن عجيب أمر هذا القرآن وأمر هؤلاء العرب، أنه طاولهم في المعارضة

(١) عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن. على أحمد عبد العال الطهطاوى (ص: ١٥٦) بتصرف.

وتنازل لهم عن التحدي بجميع القرآن إلى التحدي بعشر سور مثله، ثم إلى التحدي بسورة واحدة من مثله، وهم على رغم هذه المطاولة ينتقلون من عجز إلى عجز ومن هزيمة إلى هزيمة، وهو في كل مرة من مرات هذا التحدي وهذه المطاولة ينتقل من فوز إلى فوز ويخرج من نصر إلى نصر.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ (الطور: ٣٣، ٣٤) فلما انقطعوا مد لهم في الجبل وقال في سورة هود: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٣) فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ فاعلموا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لِلَّهِ الْاَهُوُّ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ [هود: ١٣، ١٤].

فلما عجزوا هذه المرة أيضاً طاولهم مرة أخرى وأرخی لهم الجبل إلى آخره، وقال في سورة البقرة: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٢٤) [البقرة: ٢٣، ٢٤] فكان عجزهم بعد ذلك أشنع وأبشع، وسجّل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر، فلم يفعلوا ولن يفعلوا، ودحضت حجّتهم وافتضح أمرهم، وظهر أمر الله وهم كارهون. (١)

٢- طريقة تأليفه.

وبيان ذلك أن القرآن لم ينزل جملة واحدة، وإنما نزل مفرقاً منجماً على أكثر من عشرين عاماً على حسب الوقائع والدواعي المتجددة، وكان الرسول ﷺ كلما نزل عليه نجم من تلك النجوم قال: ضعوه في مكان كذا من سورة كذا وهو بشر لا يدري طبعاً ما ستجيء به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث، فضلاً عما سينزل فيها، ثم مضى

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣٣٤)، التحرير والتنوير (١/ ١٠١)

العمر الطويل والرسول على هذا العهد وإذا القرآن كله بعد ذلك يكمل ويتم وينتظم ويتآخى ويأتلف وينسجم ولا يؤخذ عليه شيء من التخاذل والتفاوت، بل كان من ضروب إعجازه ما فيه من انسجام ووحدته، وترباط حتى إن الناظر فيه دون أن يعلم بتنجيم نزوله، لا يخطر على باله أنه نزل منجماً. ^(١)

٣- أسلوبه وتأثيره.

أتى القرآن الكريم بأسلوب معجز، متميز عن بقية الأساليب المألوفة في وقته؛ لأنه من الله، فبهر الناس حينما سمعته، وأسر منهم القلوب، وسيطر على نفوسهم، فاستجابات الأئدة إليه، ولم تنأ عنه إلا تلك القلوب المريضة التي قست كالحجارة، فلم تستجب لدعوته، ورصدت نفسها لمحاربته والوقوف أمام دعوته في الهداية للحق؛ حفاظاً على ما لهم من سلطة، ودفاعاً عن تقاليدهم العفنة، وعباداتهم الباطلة، حاربوا القرآن بمحاربة رسول الله ﷺ، فأخذوا يكيلون إليه التهم الباطلة، ويلفقون الأكاذيب، ويمنعون الناس من الاستماع إليه، ويعذبون من يتلوا القرآن من صحابة رسول الله في المسجد الحرام، سلكوا هذه المسالك؛ لأنهم عجزوا عن محاكاة القرآن، أو الإتيان بمثل أقصر سورة فيه، وتهافت أسلحتهم العديدة أمام هذا الكلام المعجز بلفظه وعباراته، وسبكه وصياغته، وأخباره ونواحيه. إلخ، كل هذه الألوان المؤلفة من جنس ما يقولون ويؤلفون، ولكنهم عاجزون أن يأتوا بمثله، وهو الذي سمعته الجن، فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ١، ٢].

وسمعه نفر من النصارى، فخشعت له قلوبهم وقالوا، كما عبر القرآن الكريم: ﴿بِأَنِّ مِنْهُمْ قَسِيصِينَ ۖ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣٤٢).

وسمعه زعيم من زعماء قريش، فقال: إنه يعلو ولا يعلو عليه. نطق بالشهادة الحق في قرآن الله الذي كان له وقعة في القلوب والنفوس، فكان يقتلع منها عقيدة الشرك وهجمة الباطل. ^(١)

٤- وفاؤه بحاجات البشر.

جاء القرآن الكريم بهدايات تامة كاملة تفي بحاجات البشر في كل عصر ومصر وفاء لا تظفر به في أي تشريع ولا في أي دين آخر، ويتجلى لك هذا إذا استعرضت المقاصد النبيلة التي رمى إليها القرآن في هدايته، والتي نعرض عليك من تفاصيلها ما يأتي:

أولاً: إصلاح العقائد عن طريق إرشاد الخلق إلى حقائق: المبدأ والمعاد وما بينهما تحت عنوان: الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والأقدار التي تجري على العباد.

ثانياً: إصلاح العبادات عن طريق إرشاد الخلق إلى ما يزكي النفوس ويغذي الأرواح ويقوم الإرادة ويفيد الفرد والمجموع منها.

ثالثاً: إصلاح الأخلاق عن طريق إرشاد الخلق إلى فضائلهم وتنفيرهم من رذائلها، في قصد واعتدال وعند حد وسط لا إفراط فيه ولا تفريط.

رابعاً: إصلاح الاجتماع عن طريق إرشاد الخلق إلى توحيد صفوفهم ومحو العصبية وإزالة الفوارق التي تباعد بينهم، وذلك بإشعارهم أنهم جنس واحد من نفس واحدة ومن عائلة واحدة، أبوهم آدم وأمهم حواء، وأنه لا فضل لشعب على شعب، ولا لأحد على أحد إلا بالتقوى، وأنهم متساوون أمام الله ودينه وتشريعه، متكافئون في الأفضلية وفي الحقوق والتبعات من غير استثناءات ولا امتيازات، وأن الإسلام عقد إخاء بينهم أقوى من إخاء النسب والعصب، وأن لسانهم العام هو

(١) عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن على الطهطاوى (ص: ١٥٦).

لسان هذا الدين ولسان كتابه لغة العرب، وأنهم أمة واحدة يؤلف بينها المبدأ ولا تفرقها الحدود الإقليمية ولا الفواصل السياسية والوضعية، ﴿وَلِإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

خامساً: إصلاح السياسة أو الحكم الدولي عن طريق تقرير العدل المطلق والمساواة بين الناس، ومراعاة الفضائل في الأحكام والمعاملات من الحق والعدل والوفاء بالعهود والرحمة والمواساة والمحبة، واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والكذب والخيانة والغش وأكل أموال الناس بالباطل، كالرشوة والربا والتجارة بالدين والخرافات.

سادساً: الإصلاح المالي عن طريق الدعوة إلى الاقتصاد، وحماية المال من التلف والضياع، ووجوب إنفاقه في وجوه البر وأداء الحقوق الخاصة والعامة والسعي المشروع.

سابعاً: الإصلاح النسائي عن طريق حماية المرأة واحترامها وإعطائها جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية.

ثامناً: الإصلاح الحربي عن طريق تهذيب الحرب ووضعها على قواعد سليمة لخير الإنسانية في مبدئها وغايتها، ووجوب التزام الرحمة فيها والوفاء بمعاهداتها، وإيثار السلم عليها والاكتفاء بالجزية عند النصر والظفر فيها.

تاسعاً: محاربة الاسترقاق في المستقبل وتحرير الرقيق الموجود بطرق شتى منها: الترغيب العظيم في تحرير الرقاب وجعله كفارة للقتل وللظهار ولإفساد الصيام بطريقة فاحشة ولليمين الحاثثة ولإيذاء المملوك بالطم أو الضرب.

عاشراً: تحرير العقول والأفكار ومنع الإكراه والاضطهاد والسيطرة الدينية القائمة على الاستبداد والغلطسة ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [١١] لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿

[الغاشية: ٢١، ٢٢]. (١)

٥- إعجازه أمام النظريات العلمية.

القرآن الكريم في طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلق قد حاكم الناس إلى عقولهم وفتح عيونهم إلى الكون وما في الكون من سماء وأرض، وبر وبحر وحيوان ونبات وخصائص وظواهر ونواميس وسنن.

وكان القرآن في طريقة عرضه هذه موفقاً كل التوفيق، بل كان معجزاً أبهر الإعجاز، لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها الخبير بدقائقها المحيط بعلومها ومعارفها، على حين أن هذا الذي جاء بالقرآن رجل أمي، نشأ في أمة أمية جاهلة لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها، ولا إلمام لها بكتبتها ومباحثها.

بل إن بعض تلك العلوم لم ينشأ إلا بعد عهد النبوة ومهبط الوحي بقرون وأجيال. فأنى يكون لرجل أمي كمحمد ﷺ ذلك السجل الجامع لتلك المعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم، قال سبحانه مقررًا لهذا الإعجاز العلمي: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٤٨) ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْدُتْ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَحْجَدُّ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (٤٩) ولعل من الحكمة أن نسوق لك نموذجين من القرآن على سبيل التمثيل؛ **أولهما:** في سورة النور إذ يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنْ أَسْمَاءٍ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ قل لي بربك ألا يملكك العجب حين تقرأ هذا النص الكريم الذي يتفق وأحدث النظريات العلمية في الظواهر الطبيعية من سحب ومطر وبرق؟.

النموذج الثاني: يقول الله تعالى في سورة القيامة مبيِّنًا ومقررًا كمال اقتداره

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣٥٣).

على إعادة الإنسان وبعثه بعد موته: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَهُ عَظَامَهُ﴾ (٢) بَلَىٰ قَدَرِينَا عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (٤)، أرجو أن تقف قليلاً عند تخصيصه البنان بالتسوية في هذا المقام. ثم تستمع بعد ذلك إلى هذا العلم الوليد علم تحقيق الشخصية في عصرنا الأخير وهو يقرر أن أدق شيء وأبدعه في بناء جسم الإنسان هو تسوية البنان، حتى إنه لا يمكن أن تجد بنانا لأحد يشبه بنان آخر بحال من الأحوال. وقد انتهوا من هذا القرار إلى أن حكّموا البنان في كثير من القضايا والحوادث ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ واللّه وحده هو المحيط بأسرار كتابه، ولا يزال الكون وما يحدث في الكون من علوم وفنون وشؤون لا يزال كل أولئك يشرح القرآن ويفسره ويميط اللثام عن نواح كثيرة من أسرارهِ وإعجازه مصداقاً لقوله جل ذكره: ﴿سَرِيهِمْ أَيْنِيتْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾. (١)

٦ - إخباره عن الغيبات.

ومعنى هذا؛ أن القرآن قد اشتمل على أخبار كثيرة من الغيوب التي لا علم لمحمد ﷺ بها ولا سبيل لمثله أن يعلمها، مما يدل دلالة بينة على أن هذا القرآن المشتمل على تلك الغيوب لا يعقل أن يكون نابغاً من نفس محمد ولا غير محمد من الخلق بل هو كلام علام الغيوب وقيوم الوجود الذي يملك زمام العالم: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

من ذلك قصص عن الماضي البعيد المتغلغل في أحشاء القدم، وقصص عن الحاضر الذي لا سبيل لمحمد ﷺ إلى رؤيته ومعرفته فضلاً عن التحدث به، وقصص عن المستقبل الغامض الذي انقطعت دونه الأسباب وقصرت عن إدراكه الفراسة والألمعية والذكاء، وسر الإعجاز في ذلك كله أنه وقع كما حدث وما تخلف، وجاء على النحو الذي أخبر به في إجمال ما أجمل وتفصيل ما فصل، وأنه إن أخبر عن غيب الماضي صدقه ما شهد به التاريخ، وإن أخبر عن

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٢٧).

غيب الحاضر صدقه ما جاء به الأنبياء وما يجد في العالم من تجارب وعلوم، وإن أخبر عن غيب المستقبل صدقه ما تلده الليالي وما تجيء به الأيام. ^(١)

٢٤- محاسن التشريع فيه.

المسلمون جميعاً على تباين أقطارهم، وتباعد ديارهم، يرجعون إلى القرآن العظيم، لأنه المنهاج الأمثل، الذي ارتضاه الله تعالى للإنسانية، وقد اشتمل القرآن والسنة، على العقائد، والعبادات والمعاملات، والحقوق الشخصية، وغيرها.

وثروة القرآن العظيم لا تقف عند حد الاعتقاد الصحيح وتوحيد الخالق جل جلاله، بل من جملة هذه الثروة ما يترتب على التوحيد من: تهذيب السلوك، وتربية العقل والوجدان، وتصحيح المعاملات، وتطبيق قواعد العدل.

وقد احتوى القرآن الكريم، على أنواع الأعمال التي كلف بها المسلمون: كالعبادات المحضة، والمالية، والبدنية، والاجتماعية، وقد اعتبرت هذه العبادات- بعد الإيمان بالله تعالى- أساس الإسلام.

واشتمل القرآن العظيم على ستة آلاف ومائتين وستة وثلاثين آية (٦٢٣٦) احتوت- جملة وتفصيلاً- على العبادات والعقائد والتكاليف وأصول الأحكام، والمعاملات، وعلاقات الأمم والشعوب، في السلم والحرب، وسياسة الحكم، وإقامة العدل، والعدالة الاجتماعية، والتضامن الاجتماعي، وكل ما يتصل ببناء المجتمع، ورسم شخصية المسلم الكامل خلقاً وأدباً وعلماً.

ولقد جاء القرآن العظيم بتشريعات عادلة، احتوت أحكاماً كلية، ومبادئ عامة، في كل فروع التشريع، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ نَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢]. والقائل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

إن القرآن العظيم- بحق- منهاج كامل وشامل، جاء بكليات الشريعة

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣٦٧)، الواضح في علوم القرآن (ص: ١٥٨).

والأصول، في العبادات، والمعاملات، والأسرة، والميراث، والجنايات، والحدود، وأنظمة الحكم. ^(١)

ومن أبرز مظاهر العظمة في التشريع القرآني:

أولاً: شمول التشريع القرآني:

إن من خصائص التشريع القرآني تميزه بالشمول، وتميزه بالكمال، وقد دل على كمال التشريع القرآني قوله تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ومعنى الآية كما فسرهما الطبري **رَحْمَةُ اللَّهِ** بقوله: "اليوم أكملت لكم أيها المؤمنون فرائضي عليكم وحدودي، وأمرني إياكم ونهيي، وحلالي وحرامي وتنزيلي من ذلك منه، بوحى على لسان رسولي، والأدلة التي نصبتها لكم على جميع ما بكم الحاجة إليه من أمر دينكم، فأتممت لكم جميع ذلك، فلا زيادة فيه بعد اليوم". ^(٢)

وهذا الإكمال يتلازم مع الشمول، بمعنى: شمول التشريع القرآني لكل ما يحتاجه الناس، فلا تخلو حادثة عن حكم الشريعة في جميع الأحوال والأعصار والأقطار، فالمعاني التي تضمنها التشريع القرآني تعم جميع الحوادث وتسعها إلى يوم الدين، وهذا خاص بهذا التشريع، فلم يسبق لشريعة أخرى أن استغنت كل الاستغناء عن غيرها، كما هو الحال في التشريع القرآني.

إن أكبر الشرائع قبل الإسلام- وهي شريعة موسى **عَلَيْهِ السَّلَام** لم تتوجه لغير بني إسرائيل، ولم تدع العموم والشمول للذين ميز الله تعالى بهما التشريع القرآني.

وهذا التشريع القرآني شامل كذلك لجميع المصالح الدنيوية والأخروية،

(١) عظمة القرآن الكريم (ص: ٢٦٥).

(٢) تفسير الطبري (٦ / ٧٩).

والفردية والجماعية، فهو تشريع لا يعرف الدنيا بدون الآخرة، ولا الآخرة بدون الدنيا، ولا يعرف الجماعة بدون الفرد، ولا الفرد بدون الجماعة، فالفرد جزء وعضو، والجماعة كل وجسد، وليس للجسد دون الروح، ولا للعقل مجرداً عن العاطفة، إنه تشريع كامل وشامل وعظيم، يسلك مسلك الموازنة بين المصالح الدينية والمنافع الدنيوية.

وقد جاء في تقرير ذلك- رعاية مصالح الدنيا والآخرة- قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]. قال قتادة: معناه لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه، ونظرك لعاقبة دنياك.

ولذلك نلاحظ أن النصوص التشريعية لم ترد مجرد أوامر جافة، بل خاطبت في الإنسان قلبه ولبه وأحاسيسه، وحركت كوامن الإيمان فيه من مثل: إن كنتم مؤمنين، لعلكم تتقون، لعلكم تذكرون، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر. إلخ. فمثل هذا الخطاب يذكي جذوة الإيمان في نفس المسلم، فيكون أدعى للاستجابة وأقرب للالتزام والانضباط.

وهذا بخلاف القوانين الوضعية التي لا تركز على دعائم من الإيمان في جوهرها، ولا تراعي أحاسيس الإنسان ومشاعره في أسلوبها، فهي مجرد أوامر ونواه جافة، تكتفي بعلاج الظاهر، والحديث عن الدنيا فقط، على ضعف في العلاج، وقصور في الحديث، وركاكة في الأسلوب.

والسبب الرئيس في حرص التشريع القرآني على حصول التوازن بين مصلحة الدنيا ومصلحة الآخرة، أنه وضع لمصالح العباد، ووضعه هو أحكم الحاكمين، فهو أعلم بمصالح خلقه وأحوالهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤)

(١). [الملك: ١٤].

وأما التشريعات الوضعية فهي لا تهتم إلا بمصالح الدنيا، مع عجزها الواضح عن الموازنة بين مصالح الأفراد والجماعة. (٢)

ونخرج مما سبق بأن عموم التشريع القرآني وشموله يقتضي ما يلي:

١ - عموم الزماني: فهو تشريع واجب الاتباع، من حين ما بعث محمد ﷺ إلى قيام الساعة، لا يجوز أبداً أن يزاحمه أو ينافسه تشريع، أو مذهب، أو نظام.

٢ - عموم المكاني: لأنه شريعة الأرض دون مناس أو مزاحم، فهو تشريع للأرض بسهولها وجبالها ووديانها وبحارها وأنهارها وأعماقها وأجوائها، بل هو تشريع للكون بكل أجرامه، قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ﴾ [مريم: ٩٣].

٣ - عموم البشري: فهو تشريع واجب الاتباع على كل البشر على اختلاف أجناسهم وأعراقهم، وحتى الجن، فهو تشريع لكل أحد كيفما وجد، وأينما كان، مكث في الأرض، أو صعد في السماء، أو نزل الأجرام الأخرى - إن استطاع إلى ذلك سبيلاً - فهو تشريع له، ولا يجوز له أن ينفك عنه، أو يتفلسف منه، أو يفر، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ [الذاريات: ٥٦]. ﴿قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

٤ - عموم وشموله الموضوعي: فهو لكل شيء، ولكل شأن من شؤون الأحياء والأشياء، وحتى الأموات راعى التشريع القرآني ما لهم من حقوق وحرمة بعد موتهم، واعتنى بالحيوانات رفقا وعناية وعطفًا، وبالدولة والمجتمعات والكون

(١) من مزايا التشريع الإسلامي، محمد بن ناصر السحبياني، مجلة الجامعة الإسلامية، بالمدينة النبوية، (عدد: ٦١)، (محرم ١٤٠٤هـ)، (ص ٧٤).

(٢) المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، د. يوسف حامد العالم، (ص ٤٦ - ٤٧).

والكائنات، قال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].^(١)

ولذلك عد العلماء أن من ينكر شيئاً من عموم التشريع القرآني وشموله فهو كافر مرتد عن الإسلام، فمن يرى أن أحداً - مهما كان - يسعه الخروج منه، فرداً أو جماعة أو دولة فهو كافر، أو زعم أن هذا التشريع القرآني خاص بجنس من الأجناس أو عصر من العصور، وأنه لا يعنى بتنظيم شؤون الناس في الاقتصاد والاجتماع والسياسة، من اعتقد ذلك فهو مرتد عن الإسلام يستتاب فإن تاب وإلا قتل.^(٢)

ثانياً: خلود التشريع القرآني.

هذا التشريع القرآني العظيم يمتاز بأنه خالد إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، فلا يتطرق إليه تعديل أو تبديل، ومع أننا نلاحظ أن التشريع القرآني مرن في أحكامه، لكنه راسخ في أصوله، فهو يشبه شجرة ثابتة الأصول، متحركة الفروع.

ومما يدل على خلود التشريع القرآني، وديمومته، واستمراره:

١ - قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]. فهذا نص مطلق، غير مقيد بزمن.

٢ - قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

٣ - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَقَّقَ الْفَقِي الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ [الحج: ٥٢].

هذه الآية الكريمة استدلت بها الشاطبي رحمة الله على خلود التشريع القرآني وحفظه في مجمله، سواء كان كتاباً أو سنة، فقال: "فأخبر الله تعالى على أنه يحفظ آياته ويحكمها حتى لا يخالطها غيرها، ولا يداخلها التغيير ولا التبديل، والسنة وإن لم تذكر؛ فإنها مبينة له ودائرة حوله، فهي منه، وإليه ترجع في معانيها،

(١) من مزايا التشريع الإسلامي، (ص ٧٠ - ٧٣).

(٢) البرهان والدليل على كفر من حكم بغير التنزيل، أحمد بن ناصر المعمر، (ص ٤٨).

فكل واحد من الكتاب والسنة يعضد به بعضاً، ويشد بعضه بعضاً".

وهذا لا يتحقق إلا بأن يكون التشريع القرآني محفوظاً إلى يوم القيامة، وإلا فإنه لو تغير وتبدل لانتقطع التكليف به. ^(١)

وإن المتأمل في أمر التشريع القرآني، يجد أن له كلاءتين بهما يحفظ، الأولى: كلاءة من الله تعالى مباشرة، وهي ما تكفل به من حفظ الكتاب، والأخرى: كلاءة ذاتية في هذا التشريع عندما يطبق، ففيه تكمن عوامل الخلود والبقاء، إذا استقام عليه أهله، ولم يضيعوا فرائضه وحدوده، فكذلك فإن الراعي والرعية يحفظ الله بهم هذا التشريع إذا قاموا بواجبهم حياله، ومعروف أن حفظ الدين من ضمن الضروريات المأمور بحفظها، وطريق ذلك إقامة الحدود والشرائع والشعائر التي تحفظ الدين، مثل الصلاة ومعاقبة تاركها، وإقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفريضة الجهاد، وإقامة حد الردة، والقيام بمسؤولية الدعوة إلى الله تعالى. ^(٢)

وخلود التشريع القرآني، وجعله المنهاج الصحيح الوحيد للحياة البشرية يرجع لأمر عدة منها:

١- أن هذا التشريع قائم على العدل المطلق، لأن الذي خلق الكون **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يعلم حق العلم ما يحقق العدل المطلق، وكيف يتحقق.

٢- أن شرع الله تعالى مبرأ من الهوى والميل، كما أنه مبرأ من الجهل والقصور والغلو والتفريط، وهو الأمر الذي لا يمكن أن يتوفر في أي قانون من صنع الإنسان ذي الشهوات والميل والضعف، سواء كان واضعه فرداً أو طبقة، أو أمة أو جيلاً من أجيال البشر.

٣- أن التشريع القرآني متناسق مع ناموس الكون كله، لأن الذي وضعه هو خالق هذا الكون، فإذا شرع للإنسان شرع له باعتباره عنصراً كونياً، له سيطرة

(١) الموافقات، (٢/ ٤٠).

(٢) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ٣٦٩).

على عناصر كونية مسخرة له بأمر خالقه، ومن هنا يقع التناسق بين الإنسان وحركة الكون الذي يعيش فيه.

٤- أن التشريع القرآني هو التشريع الوحيد الذي يتحرر فيه الإنسان من العبودية للإنسان، ففي كل منهج غير المنهج الإسلامي يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، أما في المنهج الإسلامي فإنهم يخرجون من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد وحده لا شريك له.

٥- أنه منهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنساني، والحاجات الإنسانية، وبحقيقة الكون الذي يعيش فيه الإنسان، وبطبيعة النوااميس التي تحكمه، ومن ثم لا يقع ولا ينشأ عنه أي تصادم مدمر بين أنواع النشاط الإنساني، إنما هو توازن واعتدال، وهو أمر لا يتوفر أبداً لمنهج صنعه الإنسان، الذي لا يعلم إلا ظاهراً من الأمر، ولا يعلم إلا الجانب المكشوف من الكون، والإنسان، والحياة، في فترة زمنية معينة.

٦- أنه المنهج الذي يوثق عرى الوحدة بين البشر جميعاً، إلى الحد الذي تتلاشى فيه الفوارق العنصرية والطبقية، فيصبح المجتمع كالفرد الواحد، تحركه إرادة واحدة، وتديره روح واحدة، تدفعه إلى غاية مشتركة، كمثل أعضاء الجسد الواحد، يقول الله تعالى: ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءُ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].^(١)

ثالثاً: عدالة التشريع القرآني.

الناس أمام حكم الله تعالى سواسية، فشرعية القرآن تنظر إليهم من حيث جوهرهم وأصلهم نظرة واحدة، ومن ثم فهي تعدل فيهم بعد أن تساوي بينهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ

(١) عظمة القرآن الكريم (ص: ٢٧٨)، وانظر: القرآن شريعة المجتمع، د. عارف خليل محمد أبو عيد، (ص ٣٥ - ٣٧).

تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴿النساء: ٥٨﴾، لقد أمر الله تعالى - في هذه الآية الكريمة - بالعدل بين جنس الناس، لا بين أمة منهم دون أمة، أو جنس دون جنس، أو لون غير لون. ومعنى العدل هنا: هو إعطاء من يستحق ما يستحق، ورفع الاعتداء والظلم عن المظلوم، وتدبير أمور الناس بما فيه صلاحهم. ^(١)

والعدالة من أبرز سمات التشريع القرآني، وهي ميزان الاجتماع فيه، وبها يقوم بناء الجماعة، وكل تنسيق اجتماعي - صغيراً كان أو كبيراً - لا يقوم على العدالة فهو منهيار، مهما تكن قوة التنظيم فيه، لأنها دعامة وأساس للنظام الصالح، ولذلك جاء الأمر بها في أجمع آية لمعاني القرآن العظيم، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذه الآية من أمهات الأحكام تضمنت جميع الدين والشرع". ^(٢)

وللعدل في التشريع القرآني معنى أبعد وأعمق منه في غيره، ذلك لأن له أبعاداً إنسانية راقية، تعرف من مرادفات العدل في لغة العرب، وفي استعمال القرآن، فالعدل يعبر عنه بالقسط، والقسط هو توفية النصيب بمقتضى الإنصاف. ^(٣)

٢٥- عظمة قصص القرآن.

القصص منهج رباني مبارك، ويعد خلاصة لتجارب الأمم السابقة - على مر التاريخ - تمخّضت عن بيان سنن الله تعالى في الأمم، ومدى تحقق هذه السنن في كل مرة تتوفر فيها أسبابها وشروطها في أي عصر من العصور أو أمة من الأمم. وهذا القصص القرآني المبارك واقع عاشه أصحابه كما وصف تماماً في

(١) انظر: التحرير والتنوير، (٤/ ١٦٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٥/ ٢٨٥).

(٣) عظمة القرآن الكريم (ص: ٢٨٠) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، (١/ ٤٠٤ - ٤٠٦).

القرآن العظيم، فهو محل تدبر وتفكر واعتبار في مصائر هذه الأمم ومسيراتها، وما أصابها من عزة ونصر وبركة نتيجة الإيمان والطاعة لله، أو ما حلّ بها من ذل وانكسار وضنك العيش حين تنكبت الطريق السوي، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

ومن عظيم فضل الله تعالى على هذه الأمة المحمدية أن زوى لها هذه الخلاصات في كتابه العظيم فحفظت بذلك من الضياع أو التحريف، فلم تمتد إليه يد غادر فتزور أو تغير، ولا يد خائن فتسرق أو تخفي - كما هو الشأن في التوراة والإنجيل المحرفين - فهذا القصص الحق محفوظ ما دامت على الأرض حياة تنبض أو شمس تشرق وتغيب، تصديقاً لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].^(١)

ومن مظاهر العظمة في القصص القرآني:

١ - ربانية المصدر.

من المعلوم بداهة أن القصص القرآني جزء من القرآن العظيم، فثبت له كل ما ثبت للقرآن من مزايا، مثل تنزيله من الله تعالى وحياً على نبينا محمد ﷺ، وثبوت نقله إلينا بالتواتر، وأن النبي ﷺ ليس له منه سوى تبليغه للناس كما أنزل عليه، ولقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذه الحقيقة الناصعة في مقدمات بعض القصص وخواتيمها، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩].

(١) عظمة القرآن الكريم (ص: ٢٩٦) انظر: معالم القصة في القرآن الكريم، محمد خير العدوي، (ص ٧ - ٨).

٢ - مطابقة الواقع والصدق.

إنَّ كل ما أخبر به القرآن العظيم من قصص فهو صدق، له واقع مشهود وملمس حين وقوعه، دون أن يكون للخيال أو الوهم أو المبالغة مدخل في شيء أبداً، بل هو الواقع الكامل كما حصل تماماً، وبكل أبعاده المشاهدة والمغيبية، فهو من واقع الحياة، نقل في القرآن الكريم نقلاً دقيقاً يأخذ بمجامع القلوب، ولا يمكن أن يكون فيه غير الصدق والواقع المطابق له. ^(١)

٣ - الانتخاب مع العبرة والعظة.

القصص القرآني تناول من الأحداث أجزاءً منتقاة، تناسب أهدافه ومقاصده للعبرة منها، والاتعاظ بها.

وهذه الطريقة في اختيار مادة القصص هي من أحسن الطرق وأكثرها أثراً في نفوس قارئها؛ لأنها تفي بالغرض من ناحية الهدف، وهي أيضاً تعرض بأسلوب فني رفيع، فيه كل عناصر التشويق والإثارة الفنية التي تنتج الانفعالات والعواطف الخيرة في الإنسان، وتدعم هذا الجانب فيه. علماً بأن هذه الأجزاء المنتخبة إنما هي أجزاء واقعية صادقة، ليست خيالاً أو وهماً أو مبالغة. ^(٢)

٤ - التنوع في تصوير الأحداث.

لمّا كان القرآن العظيم لا يهدف إلى بيان الحق فقط، بل إلى تعميق مجراه في نفوس المؤمنين، وذلك بقصص الأنبياء، وضرب الأمثال، وإقامة الأدلة، كان لابد من التكرار المستمر، والتذكير الدائم.

ولا ريب أنَّ التربية عملية شاقة، ولا بدَّ أن تكون متواصلة، حتى تؤتي أكلها، وإلا ضاع الجهد والجهد المبذول فيها، وأصبح هباءً منثوراً، وكلنا نعلم إلى أي

(١) انظر: معالم القصة في القرآن الكريم، (ص ٩١).

(٢) عظمة القرآن الكريم (ص: ٣٠٠).

مدى تحتاج تربية النفوس والأفراد من جهد وتذكير دائم بالأمر المراد بنائها في النفوس، وتربية الأفراد عليها.

والتكرار هو أنجع وأحسن الوسائل في تنمية هذا الأمر، سواء كان التكرار قولاً يردد، أو عملاً يقتدي به أو يُدرَّب عليه، فيبني فيها القناعة والعاطفة اللازمين للتحويل إلى السلوك الجديد المراد لهذه النفس. ^(١)

٥ - التيسير في تلاوته وحفظه والعمل به.

نسب الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** إلى ذاته القدسية فضيلة التيسير، فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]، وذلك للترغيب في قبول ما يأتي به من شرائع يسودها الرفق، والرحمة، واليسر، وفي كثير من مظاهر العبادات التي فرضت على الإنسان، فهو الرحيم بعباده، ولا يكلف نفساً إلا وسعها.

ومن مظاهر التيسير التي كتبها الله لقرآنه، أنه قد حفظ بالكتابة والطباعة على مدى العصور، فقد سخر الله الإنسان حتى من لم يؤمن به، لكي يشترك في أمر المحافظة عليه، وذلك أنه أخذ صفة العالمية في وقتنا الحاضر، فالفن بكل إبداعاته يتجه إلى إخراجه في أبهى صورة له في أنحاء العالم، مؤمنه وكافره، وتتسابق إلى ذلك دور الطباعة والنشر في سبيل إخراجه وإبرازه على الوجه الأكمل الذي يحفظه من التصحيف والضياع.

ومن فضل الله علينا وعلى الناس، أن سهل حفظه على الناشئة في صغرهم، ويسر نطقه وقراءته على تلك البراعم الصغيرة التي ترغب في تعليمه وحفظه، فهم عن طريق التلقين يستمعون ويكررون القول، وينطقون الآيات والحروف تبعاً لما يسمعون، ويعلق هذا بأذهانهم حتى على غير الناطقين باللغة العربية. والإنسان يأخذه العجب، وتتملكه الدهشة، حينما يسمع إلى قارئ القرآن ينطق

(١) عظمة القرآن الكريم (ص: ٣٠١) قصص القرآن التحرير والتنوير (١/ ٦٤).

الآيات نطقاً سليماً يدل على حبّ شديد لما يقرأ، حبّ يملك عليه نفسه وقلبه، فإذا تقرب منه وتعرّف عليه من خلال لغته، ولهجته، وزيّه، وشكله، رآه باكستانياً، أو هندياً، أو تركياً. إلخ، لغته غير العربية، ومع ذلك فالنطق، والاستماع، والفهم، والقراءة لتلك الآيات البينات التي أوحاها الله لنبيه، عليه السلام، يدل على أن الله جلت قدرته قد حفظ هذه الآيات، ويسرها للذكر: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فقارئه لا يسأمه، وسامعه لا يمجه، بل تكراره يوجب زيادة محبته.

وكما يسر الله قراءته على الناس، يسر علمه على قلوب قوم، ويسر فهمه على قلوب آخرين، فكان من الدراسات التي تفرّعت عنه ما أحاط بالحياة وما فيها من حاجيات النفوس، وما ينتابها من مشكلات، ولقد استطاع الفقهاء والعلماء والباحثون في شتى المجالات، أن يستخرجوا من كنوز هذا القرآن المحفوظ من رب العالمين ما يعالج أدواء الحياة التي تخنقها الأزمات، فأبانوا عن شريعة الله التي يسودها اليسر، والرفق، والرحمة، والتي يسهل على الناس قبولها، وعلى العقول فهمها، وعلى الجميع تطبيقها والعمل بها، متى تم لهم الإيمان، وقوى اليقين. ^(١)

٢٦- تضمنه لكل مقاصد المكلفين.

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه؛ لأنه معلوم من دين الأمة، وإذا كان كذلك؛ لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة وطمع في إدراك مقاصدها، واللاحق بأهلها، أن يتخذ سميته وأنيسه، وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي؛ نظراً وعملاً، لا اقتصاراً على

(١) عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن (ص: ١٦٣).

أحدهما؛ فيوشك أن يفوز بالبيعة، وأن يظفر بالطلبة، ويجد نفسه من السابقين في الرعيل الأول، فإن كان قادراً على ذلك، ولا يقدر عليه إلا من زاول ما يعينه على ذلك من السنة المبينة للكتاب، وإلا؛ فكلام الأئمة السابقين، والسلف المتقدمين أخذ بيده في هذا المقصد الشريف، والمرتبة المنيفة. ^(١)

قال العز بن عبد السلام: معظم مقاصد القرآن: الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفسدات وأسبابها، فلا نسبة بمصالح الدنيا ومفسادها إلى مصالح الآخرة ومفسادها، لأن مصالح الآخرة خلود الجنان ورضا الرحمن، مع النظر إلى وجهه الكريم، فياله من نعيم مقيم، ومفسادها خلود النيران وسخط الديان مع الحجب عن النظر إلى وجهه الكريم، فياله من عذاب أليم.

والمصالح ثلاثة أنواع: أحدها مصالح المباحات، الثاني مصالح المندوبات، الثالث: مصالح الواجبات.

والمفسدات نوعان: أحدهما: مفسدات المكروهات، الثاني: مفسدات المحرمات. ^(٢)

وقال ابن عاشور: في القرآن أدلة على مقاصد الشريعة. ^(٣)

وكون حفظه أو معرفة آيات الأحكام منه شرطاً من شروط الاجتهاد، وكذلك فهم المقاصد على كمالها مما يدل على متانة علاقة القاصد بالقرآن. ^(٤)

والقرآن هو المرشد الأصيل، والمدرک الرئيسي في معرفة المقاصد العامة، والخاصة، والجزئية، أو الضرورات، والحاجيات، والتحسينيات. ^(٥)

وتحديد القرآن لمقاصد المكلف بحيث تكون على وفق القرآن ونهجه.

(١) الموافقات (٤ / ١٤٤).

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأناس (٩ / ١).

(٣) مقاصد الشريعة لابن عاشور (ص ١٩).

(٤) المستصفى للغزالي (٦ / ٤).

(٥) مقاصد الشريعة عند ابن تيمية ليوسف بن أحمد محمد البدوي (ص ٣١٧).

ومن الأمور التي عني القرآن بيانها: مقاصد التشريع، وبيانها لها جاء في صور شتى وأساليب مختلفة، من ذلك:

١ - أنه ذكر في بعض الآيات: بعض المقاصد العامة في الشريعة الإسلامية ومن ذلك:

أ- مقصد رفع الحرج.

وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].
وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].
وهذا واضح في أن (رفع الحرج) من مقاصد الشريعة الإسلامية.

ب- مقصد إخلاص العبادة لله وحده.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]،
وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وإخباره عن أنبيائه عليهم السلام أنهم دعوا إلى عبادة الله وحده، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وغيرها من الآيات الكثيرة بل لو قال قائل: إن القرآن من أوله إلى آخره يدعو إلى هذه القضية ويؤكد بها بالأساليب المختلفة والمتعددة؛ لم يكن مبالغاً، فهذا المقصد هو المقصد الأساسي في الشريعة، والمقصد الأصلي وما عداه فهو تابع له، وقد بينه القرآن أعظم بيان، وحذر مما يضاده ويعود عليه بالإبطال.

ج- مقصد العدل في الأقوال والأفعال.

هذا المقصد تقرر في نصوص القرآن في أكثر من آية من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوْا أَعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ [المائدة: ٨]. وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

والعدل كما هو في المعاملات بإيصال الحقوق إلى أهلها وعدم هضم الناس حقوقهم، كذلك يكون في العبادات بسلوك الطريق الوسط فيها، وتأديتها كما كان النبي ﷺ يؤديها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: العدل في العبادات من أكبر مقاصد الشريعة. (١)

د- مقصد النهي عن الفساد والإفساد.

من المقاصد العامة المقررة في القرآن: مقصد النهي عن الفساد والإفساد، وهذا مقصد عظيم من مقاصد الشريعة قرره القرآن أوضح تقرير، فحذر من الإفساد في الأرض وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ﴾ [الأعراف: ٥٦] وحكى ذلك عن شعيب كما في قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وأخبر سبحانه أنه لا يحب المفسدين، ولا يحب الفساد، ورتب العقوبة العظيمة في الدنيا والآخرة على فعله، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

وإضافة إلى ذلك فقد جاء التنصيص على جزئيات هذه القاعدة وتقررت بأدلة خاصة كتحرим الشرك وهو أعظم إفساد في الأرض، وتحریم الزنا، وذكر عقوبة الزنا، وعقوبة السرقة، وأكل الأموال بالباطل.

(١) حقيقة الصيام (ص ٦٤).

هـ - مقصد الاتفاق والائتلاف، والنهي عن التفرق والاختلاف.

وقد جاء تقرير هذا المقصد في الكتاب العزيز في أكثر من موطن وبأكثر من أسلوب، وذلك لكون هذا المقصد العظيم من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية في تماسك الأمة الإسلامية، ولما يحققه أيضاً من نتائج مثمرة للدين من هبة في نفوس أعدائه، قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ [آل عمران: ١٠٥] وقال: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَإِنَّكُمْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة التي تخدم هذا المقصد وتقويه، كالأمر بإصلاح ذات البين في قوله: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] وتحريم الخمر لما يوقعه من العداوة والبغضاء في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: ٩١].

والأمر بموالاتة المؤمنين ومحبتهم، وتحريم أذاهم، وتحريم السخرية بهم والاستهزاء، والتنازع بالألقاب، والغيبة، والنميمة، والظلم، والحسد، وغير ذلك مما يصعب إحصاؤه.

إلى غير ذلك من المقاصد العامة في مقاصد الشريعة.

٢ - أنه ذكر مقاصد بعض الأحكام الشرعية خاصة ونص عليها وبين ثمرتها وفائدتها، ومن ذلك:

أنه قال في الصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وقال في الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال في الحج: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ

مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴿[الحج: ٢٧، ٢٨].

وقال في الصيام: ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا كُنِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُنِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٨٣﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال في الوضوء بعد أن ذكر فروضه: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].
وقال في القصاص: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقال في العفو عنه: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].
وقال في حد السرقة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٢٨﴾ [المائدة: ٣٨].
وقال في تحويل القبلة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠].

وقال في الجهاد: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١].

وقال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٥﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

وقال: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ

وَعَدَّوْكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴿[الأنفال: ٦٠].

وقال: ﴿وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كَلَهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقال عند خوف عدم العدل في التعدد: {ذَلِكَ أَذْنَى أَلَّا تَعُولُوا} [النساء: ٣].

وقال في كتابة الدين: ﴿ذَلِكَ أَمْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال في تحليف الذميين في الشهادة: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [المائدة: ١٠٨].

وقال في تحريم الخمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

وقال في قسمة الفية: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كُنْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

والأمثلة على هذا النوع كثيرة جداً في القرآن خصوصاً فيما يتعلق بتعليل الأوامر والنواهي، وما يذكر في القرآن من تفصيل لبعض الأخبار فقد بين الله كثيراً من مقاصد أمره ونهيه وتفصيل الآيات.

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٥٥].

وقال عن القرآن: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: ٥٢].^(١)

٢٧- ما امتاز به على غيره من الكتب السابقة.

القرآن الذي شرفه الله على كل كتاب أنزله، وجعله مهيمناً عليه وناسخاً له

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية (ص: ٤٢٧).

وختاماً له، لأن كل الكتب المتقدمة نزلت إلى الأرض جملة واحدة، وهذا القرآن نزل منجماً بحسب الوقائع، لشدة الاعتناء به وبمن أنزل عليه، فكل مرة كنزول كتاب من الكتب المتقدمة.

وأعظم الأمم المتقدمة هم اليهود والنصارى، فاليهود استعملهم الله من لدن موسى إلى زمان عيسى، والنصارى من ثم إلى أن بعث محمداً ﷺ، ثم استعمل أمته إلى قيام الساعة، وهو الشبه بآخر النهار، وأعطى المتقدمين قيراطاً قيراطاً، وأعطى هؤلاء قيراطين قيراطين، ضعفي ما أعطى أولئك، فقالوا: أي ربنا، ما لنا أكثر عملاً وأقل أجراً؟ فقال: هل ظلمتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذاك فضلي -أي: الزائد على ما أعطيتكم- أوتيته من اشاء، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَعْرِفْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٨) ﴿لَا يَلْعَلْ أَهْلُ الْكِتَابِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩) [الحديد: ٢٨-٢٩]. (١)

وقد امتاز القرآن الكريم بأنه هو المهيمن المؤتمن الشاهد على ما قبله من الكتب وهو أعلى منها درجة، فإنه قرر ما فيها من الخير عن الله وعن اليوم الآخر، وزاد ذلك بياناً وتفصيلاً، وبين الأدلة والبراهين على ذلك، وقرر نبوة الأنبياء كلهم ورسالة المرسلين، وقرر الشرائع الكلية التي بعث بها الرسل وجادل المكذبين بالكتب والرسول بأنواع الحجج والبراهين، وبين عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين له، وبين ما حرف منها وبدل وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة.

وبين أيضاً ما كتموه مما أمر الله ببيانه، وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن؛ فصارت له الهيمنة على ما قبله من الكتب من وجوه متعددة، فهو شاهد بصدقها، وشاهد بكذب ما حرف منها وهو حاكم

(١) فضائل القرآن لابن كثير (ص: ١٧٦).

بإقرار ما أقره الله. ^(١)

وكما جاء القرآن العظيم مصدقاً لما قبله من كتب الله، فقد جاء كذلك مهيمناً عليها، كما صرح بذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

ومعنى قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾: أي أن القرآن العظيم رقيب على الكتب السابقة؛ لأنه يشهد بصحتها ويقرر أصولها وما يتأبد من فروعها، ويبين أحكامها المنسوخة بتعين وقت انتهاء مشروعيتها.

أو على معنى أنه أمينٌ عليها، فما أخبر عن صدقه مما ورد فيها صدق، وما أخبر بزيفه فهو باطل، أو على معنى أنه الحافظ لها، فهو الذي حفظ ما جاء فيها التوحيد وكرليات الدين إلى يوم القيامة، أو على معنى أنه دالٌّ على صدقها، أي: هو دليل على أنها من عند الله؛ لأنه جاء كما نعتته هذه الكتب.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله، فهو أمين وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها، أشملها وأعظمها وأحكمها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

مظاهر هيمنة القرآن على الكتب السابقة:

لهيمنة القرآن العظيم على كتب الله المنزلة قبله - فوق ما تقدم من تصديقه لها - مظاهر متعددة، من أهمها ما يلي:

١ - إخباره بتحريف الكتب السابقة وتبديلها.

فتناولتها أيدي أهل الكتاب الأئمة بالتحريف والتبديل، وتناولوا ما بقي منها

(١) فضائل القرآن الكريم عبد الله بن جار الله (ص: ٣٨).

بالتأويل الفاسد طبقاً للأهواء والشهوات أو متابعة لذوي السلطان أو محاولة لكسب الجدل على أعدائهم وخصومهم،

بل أخبر القرآن كذلك أنهم كتبوا الكتب بأيديهم ونسبوها- زوراً وبهتاناً- إلى الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكُتُبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩] .

٢ - بيان المسائل الكبرى التي خالفوا فيها الحق.

ففي جانب العقائد- على سبيل المثال- نفى القرآن العظيم ما صرحت به الأنجيل المحرفة من قتل عيسى عليه السلام وصلبه، فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] .

وحكم على النصارى بالكفر لقولهم بالتثليث والوهية المسيح، فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٢ - ٧٣] .

أما التوراة المحرفة، فإنها تنسب إلى الله تعالى كثيراً من النقائص والتي جاء القرآن العظيم بدحضها وإبطالها.

فلقد أخبر القرآن العظيم أن اليهود نسبوا إلى الله عز وجل الولد، كما وصفه اليهود المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم بالفقر والبخل وغل اليد.

فَكَرَّرَ القرآن على ذلك بالإبطال والدحض، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّكَوت﴾ [التوبة: ٣٠] .

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿٨١﴾ آل عمران: [١٨١] .

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤] .

٣ - بين القرآن كثيراً من المسائل التي أخفوها.

فمن ذلك: أن الدارس لأسفار العهد القديم يرى أنها قد خلت من ذكر اليوم الآخر ونعيمه وجحيمه- وإذا كانت اليهودية في أصلها تقرر البعث والنشور والحساب والجنة والنار، كما ينبئ بذلك القرآن- فإن ذلك يدل على أن اليوم الآخر وما فيه، وما يتصل به، من المسائل التي أخفها أهل الكتاب. ^(١)

ومن ذلك أيضاً إخفاؤهم ما يتصل بخاتم الرسل من بشائر ونعوت، وتحريفهم لها بالحذف أو التأويل الفاسد، فجاء القرآن العظيم بالحق في ذلك كله، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ [المائدة: ١٥]. ^(٢)

٢٨- الدعوة إلى الوسطية.

نزل القرآن الكريم هدايةً للناس ونوراً، يُخرج به الله من شاء من الظلمات إلى النور، ولزوم منهج الوسطية عين الهداية، وحقيقتها، ولذلك فقد جاءت الآيات مستفيضة ترسم منهج الوسطية وتدلّ عليه.

والوسطية ليست محصورةً في جزئية من الجزئيات، بل ولا في ركن من الأركان! وإنما هي منهج متكامل شامل، لا ينفصل بعضه عن بعض، فالإسلام

(١) الأسفار المقدسة، علي عبد الواحد وافي، (ص ٢٩).

(٢) عظمة القرآن الكريم (ص: ١٢٧).

كَلِّهِ وَسَطٌ، ولذلك فهذه الأمة هي أُمَّة الوسط: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: من الآية ١٤٣).

والذين يغفلون عن هذه الحقيقة يغفلون عن جوهر القرآن ومقاصده.

ومن هذا المنطلق جاء القرآن الكريم مقررًا لمنهج الوسطية في أبواب العبادات، والاعتقاد، والحكم والتحاكم، وفي باب الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغيرها من الأبواب والمجالات.

والناظر في كتاب الله لا يتلو بضع آيات إلا ويجد فيها ذلك صراحة أو إيماءً. ^(١)

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: عدلاً خياراً، وما عدا الوسط، فأطراف داخلية تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة، وسطاً في كل أمور الدين، وسطاً في الأنبياء، بين من غلا فيهم، كالنصارى، وبين من جفاهم، كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك، ووسطاً في الشريعة، لا تشديدات لليهود وآصارهم، ولا تهاون للنصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم الطيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئاً، ولا يحرمون شيئاً، بل أباحوا ما دبر ودرج.

بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرّم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجملها، ومن الأعمال أفضلها.

وهبهم الله من العلم والحلم، والعدل والإحسان، ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ كاملين ليكونوا ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بسبب عدالتهم وحكمهم

(١) الوسطية في ضوء القرآن الكريم ناصر بن سليمان العمر (ص: ١٤٨).

بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول، فهو مقبول، وما شهدت له بالرد، فهو مردود. ^(١)

ومن وسطية القرآن في باب الإيمان بالكتب السماوية بيانه أن هذه الكتب نزلت بالحق والنور والهدى وتوحيد الله سبحانه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأن ما نسب إليها مما يخالف ذلك إنما هو من تحريف البشر وصنعهم. ومن وسطية القرآن ما ميزه الله وخصه به عن سائر الكتب المقدسة التي سبقت نزوله من الكتب المنزلة من أهمها:

أنه تضمن خلاصة التعاليم الإلهية، وجاء مؤيداً ومصدقاً لما جاء في الكتب السابقة من توحيد الله، وعبادته، ووجوب طاعته، وجمع كل ما كان متفرقاً في تلك الكتب من الحسنات والفضائل، وجاء مهيمناً ورقياً عليها، يقر ما فيها من حق، ويبين ما دخل عليها من تحريف وتغيير قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨].

ومن وسطية القرآن أنه جاء بشريعة عامة للبشر فيها كل ما يلزمهم لسعادتهم في الدارين، نسخ بها جميع الشرائع العملية الخاصة بالأقوام السابقة، وأثبت فيها الأحكام النهائية الخالدة الصالحة لكل زمان. إن القرآن الكريم هو الكتاب الرباني الوحيد الذي تعهد الله بحفظه فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر: ٩] وقال تعالى: ﴿وَلَهُ لَكِنْتُ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْنِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢]. ^(٢)

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٠).

(٢) الوسطية في القرآن الكريم (ص: ٢٧٦).

لقد امتن الله على هذه الأمة في الكتاب العزيز بأن وضع عنها الإصر والأغلال التي كانت على من قبلها، ولم يحملها ما حمل من قبلها، فكان ذلك مظهرًا من مظاهر وسطية هذا الدين، يقول تعالى في وصف نبيه محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في كلامه **عَزَّجَلَّ** مع قوم موسى **عَلَيْهِ السَّلَام**: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقد جاء في الحديث: "قال الله: قد فعلت"، وفي رواية: "قال: نعم".^(١)

والإصر: هو العهد الثقيل الذي في تحمله أشد المشقة، والأغلال: هي الشدائد التي كانت في عبادتهم، روى الطبري عن الربيع في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، يقول: التشديد الذي شدته على من قبلنا من أهل الكتاب.

ولبيان وسطية القرآن في التكاليف في ضوء ما شرعه الله في كتابه، وعلى لسان رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أذكر نماذج من الأحكام التي جاءت في التوراة التي بين أيديهم، يتبين منها الأغلال والأصار التي كانت عليهم.

جاء في سفر الخروج: "من شتم أباه وأمه يقتل قتلاً، إذا نطح ثور رجلاً أو امرأة وكان الثور نطاحاً من قبل، وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلاً أو امرأة فالثور يرحم وصاحبه يقتل".

وفي سفر اللاويين: "كل من مس حاضاً يكون نجساً إلى المساء، وكل ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجساً، وكل ما تجلس عليه يكون نجساً، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه، ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء".

وفي سفر التثنية: "لا تحرث على ثور وحمار معاً، ولا تلبس ثوباً مختلطاً صوفاً وكتناً معاً".

(١) مسلم (١٢٦).

وأصدق من ذلك وأبين وأدق قول الحق تبارك وتعالى في الكتاب العزيز:

﴿فِظْلُمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠]

وقوله سبحانه في بيان أنواع من المحرمات عليهم بسبب بغيهم:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].^(١)



(١) الوسطية في القرآن الكريم (ص: ٥٠٧)، وانظر: رفع الحرج في الشريعة (١٦٠).

الباب السادس: ومن محاسن الشريعة
حفظ الله السنة كما حفظ القرآن.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

والذكر: اسم واقع على كل ما أنزل الله على نبيه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** من قرآن، أو من سنة وحي يبين بها القرآن.

فأخبر تعالى أن كلام نبيه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** كله وحي، والوحي بلا خلاف: الذكر، وكله محفوظ بحفظ الله، مضمون لنا أنه لا يضيع منه شيء، إذ ما حفظ الله تعالى فهو باليقين لا سبيل إلى أن يضيع منه شيء، فهو منقول إلينا كله ^(١)

وقال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال تعالى: ﴿ وَأَذْكُرْكَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

قال الشافعي: فذكر الله الكتاب وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت من أَرْضَى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

وذكر الله منه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يجز والله أعلم أن يقال: الحكمة ها هنا إلا سنة رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؛ وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله، وأن الله افترض طاعة رسوله، وحتم على الناس اتباع أمره؛ فلا يجوز أن يقال لقوله: فرض إلا لكتاب الله، ثم سنة رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، ولم يجعل هذا

(١) الإحكام في أصول الأحكام ابن حزم (١/٩٣، ٩٥، ١١٥).

لأحد من خلقه، غير رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.^(١)

فرسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** معصوم فيما يبلغه عن رب العالمين، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْغُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

ولا نزاع بين المسلمين أن الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** معصوم فيما بلغه عن الله تعالى، فهو معصوم فيما شرعه للأمة بإجماع المسلمين،

والكلام في هذا المقام مبنى على أصل وهو: أن الأنبياء -صلوات الله عليهم- معصومون فيما يخبرونه به عن الله تعالى، وفي تبليغ الرسالة باتفاق الأمة، وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة؛ فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين.^(٢)

وأعلم الله رسوله منه عليه بما سبق في علمه من عصمته إياه من خلقه، ولما سبق في علمه جل ثناؤه، من إسعاده بعصمته وتوفيقه، وما شهد له به من هدايته، واتباع أمره...، والشهادة بتأدية رسالته.^(٣)

وعليه: فإن أقسام السنة كلها حجة تصلح أن يحتج بها على ثبوت الأحكام الشرعية لثبوت العصمة للنبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، ولسائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.^(٤)

وقد أعطى الله **عَزَّجَلَّ** الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** حق التشريع، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

(١) الرسالة الإمام الشافعي (٧٨، ٧٩).

(٢) مجموع الفتاوى ابن تيمية (١٠ / ٢٨٩ - ٢٩٠).

(٣) الرسالة الشافعي (٨٥ - ٨٨).

(٤) شرح الكوكب المنير ابن النجار (٢ / ١٦٧).

وقد اتفق من يعتد به من أهل العلم؛ على أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام، وأنها كالقرآن في تحليل الحلال، وتحريم الحرام، وقد ثبت عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ" ^(١) أي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ، وأُوتِيتُ مِثْلَهُ مِنَ السَّنَةِ التي ينطق بها القرآن، لأن الله سبحانه ولاه منصب التشريع عنه ابتداءً، كما ولاه منصب البيان لما أَرَادَهُ بِكَلَامِهِ، بل كَلَامَهُ كُلَّهُ بَيَانٌ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . ^(٢)

ومن مظاهر الحفظ للسنة:

- ١ - إذن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالكتابة.
 - ٢ - أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكتابة بعض مسائل العلم، وإرسالها إلى الأمصار.
 - ٣ - أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبعض الصحابة بالكتابة وتقييد العلم.
 - ٤ - كتابة عدد من الصحابة لحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
 - ٥ - شيوع كتابة الحديث في التابعين.
 - ٦ - أن كتابة السنة كان لها ضوابط تقبل على أساسها الصحف المكتوبة.
 - ٧ - أن جمع السنة اعتمد على الرواية الشفوية، والصحف المكتوبة.
- والمعنى كما قال الهروي رَحِمَهُ اللَّهُ: أن كَلَامَهُ كَانَ قَلِيلَ اللَّفْظِ، كَثِيرَ الْمَعَانِي.

وحفظ السنة قام على أمرين أساسيين:

الأول: حفظ الصدر. الثاني: حفظ الكتاب.

وقد حث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صحابته على كلا الأمرين فمن ذلك: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تَضَرَّ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَلَبَّغَهُ كَمَا سَمِعَ قَرُبَ مُبَلِّغٍ أَوْ عَى مِنْ سَامِعٍ". ^(٣)

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧١٧٤).

(٢) إعلام الموقعين ابن القيم (٢/ ٢٦٧).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٣٢)، وأحمد ١/ ٤٣، وصححه الألباني (٦٧٦٤).

فدعى **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بالنضرة لمن سمع شيئاً، وشيئاً نكرة في سياق الإثبات، فتدل على الإطلاق، فبلغه على وجهه كما سمعه من النبي **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، ثم حث السامع على تبليغه والعمل به بقوله: "فرب مبلغ أوعى من سامع" ففي هذا النص حث على حفظ الصدر، وضبطه ضبطاً صحيحاً حتى يؤديه كما سمعه، وحث على رواية الحديث؛ نشرًا للعلم.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: "كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؛ أُرِيدُ حِفْظَهُ فَتَهْتَنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرَّضَا؛ فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ؛ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؛ فَأَوْمَأَ بِأَصْبَعِهِ إِلَى فِيهِ فَقَالَ: "اَكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ: مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ". (١)

ففيه حث للصحابة على حفظ الحديث بالكتاب، وبث ذلك في الناس، وذلك في كل الأحوال، حال الرضا وحال الغضب، وفي ذلك أيضاً دلالة على أن حال النبي **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** كله مُدَوَّنٌ معروف، بل إن الله تعالى حث أمهات المؤمنين **رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُنَّ** على بث سنته الخاصة في تعامله في بيوته **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، مما لا يطلع عليها إلا زوجاته، فقال **عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلُو فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (الأحزاب: ٣٤).

وكلا الأمرين كان معروفًا في صحابة النبي **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، حتى قال أبو هريرة **رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ**: "ليس أحد من أصحاب رسول الله **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أكثر حديثاً مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو؛ فإنه كان يكتب ولا أكتب". (٢)

فحفظ الله السنة في صدور الصحابة والتابعين، حتى كتبت ودونت، وكان التزام كتابتها في العهد النبوي شاقاً جداً؛ لأنها تشمل جميع أقوال النبي **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وأفعاله

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٢)، وأبو داود (٣٦٤٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٣٢).

(٢) البخاري (١١٣).

وأحواله، وما يقوله غيره بحضرته أو يفعله، وغير ذلك.

والمقصود الشرعي من السنة هو: معانيها، وليست كالقرآن، فالمقصود لفظه ومعناه؛ لأن كلام الله بلفظه ومعناه، ومعجز بلفظه ومعناه، ومتعبد بتلاوته بلفظه بدون أدنى تغيير، لا جرم خفف الله عنهم واكتفى من تبليغ السنة غالباً بأن يطلع عليها بعض الصحابة، ويكمل الله تعالى حفظها وتبليغها بقدرته التي لا يعجزها شيء، فالشأن في هذا الأمر هو العلم بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بلغ ما أمر به التبليغ الذي رضىه الله منه، وأن ذلك مظنة بلوغه إلى من يحفظه من الأمة، ويبلغه عند الحاجة ويبقى موجوداً بين الأمة، وتكفل الله تعالى بحفظ دينه يجعل تلك المظنة مئة، فتم الحفظ كما أراد الله تعالى، وبهذا التكفل يدفع ما يتطرق إلى تبليغ القرآن، كاحتمال تلف بعض القطع التي كتبت فيها الآيات، واحتمال أن يغير فيها من كانت عنده ونحو ذلك، ومن طالع تراجم أئمة الحديث من التابعين فمن بعدهم، وتدبر ما آتاهم - الله تعالى من قوة الحفظ والفهم، والرغبة الأكيدة في الجهد، والتشهير لحفظ السنة وحياتها؛ بان له ما يحير عقله، وعلم أن ذلك ثمرة تكفل الله تعالى بحفظ دينه، وشأنهم فيها عظيم جداً، أو هو عبادة من أعظم العبادات وأشرفها، وبذلك يتبين أن ذلك من المصالح المترتبة على ترك كتابة الأحاديث كلها في العهد النبوي، إذ لو كتبت؛ لانسد باب تلك العبادة، وقد قال الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

وتم مصالح أخرى منها: تنشئة علوم تحتاج إليها الأمة، فهذه الثروة العظيمة التي بيد المسلمين من تراجم قدمائهم، إنما جاءت من احتياج المحدثين إلى معرفة أحوال الرواة. ^(١)

١- أن قيد الله للأمة من يذبون الكذب والضعيف عن السنة بوضعهم قواعد الإسناد.

فقد نشأ علم أصول الحديث مع ظهور الأسانيد، فلما بعد العهد بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكثر النقل وظهرت البدعة ووقعت الفتن، تناول المبتدعة على

(١) انظر موسوعتنا (محاسن الإسلام ورد شبهات اللثام) (٧/ ١٢).

السنة الغراء فزادوا فيها أشياء من كيسهم.

قال ابن سيرين: لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة، قالوا: سموا لنا رجالكم، فيُنظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، ويُنظر إلى أهل البدعة فلا يؤخذ حديثهم. ^(١)

ومن هذا العهد تدارس الناس الأسانيد، ونقَّبوا ما فيها، ودرسوا رجالها، ووضعوا معايير النقد لها، فيقبل من الحديث ما وافق معايير النقد المتفق عليها، ويرد ما دون ذلك.

فالإسناد من خصائص الإسلام:

إن هذه الخصيصة ليست لأمة من الأمم غير أمة الإسلام، نقل الخطيب في شرف أصحاب الحديث بإسناده عن محمد بن حاتم بن المظفر قوله: إن الله أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمهم وحديثهم إسناد، وإنما هي صحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، وليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل مما جاءهم به أنبيأؤهم، وتميز بين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوا عن غير الثقات.

وهذه الأمة إنما تنص الحديث من الثقة المعروف في زمانه المشهور بالصدق والأمانة عن مثله حتى تتناهى أخبارهم، ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط، والأصول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة، ثم يكتبون الحديث من عشرين وجهاً وأكثر حتى يهذبوه من الغلط والزلل، ويضبطوا حروفه ويعدوه عدًّا...

فليس أحد من أهل الحديث يحابي في الحديث أباه ولا أخاه ولا والده، وهذا علي بن عبد الله المديني وهو إمام الحديث في عصره لا يُروى عنه حرف

(١) مقدمة صحيح مسلم (ص ١٥).

في تقوية أبيه بل يُروى عنه ضد ذلك.

ونقل ابن عساكر عن أبي حاتم قوله: "لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم أمناء يحفون آثار الرسل إلا هذه الأمة..".^(١)

وقال ابن حزم في "الفصل" تحت باب وجوه نقل المسلمين لكتابهم ودينهم... والثالث: ما نقله الثقة كذلك حتى يبلغ به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبر كل واحد منهم باسم الذي أخبر عنه ونسبه، وكلهم معروف الحال والعين والعدالة والزمان والمكان... وهذا نقل خص الله عَزَّ وَجَلَّ به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها وأبقاه عندهم غُضًّا جديداً على قديم الدهور منذ أربعمئة عام وخمسين عاماً في المشرق والمغرب.

ثم تكلم على وجوه النقل المنقطعة والمعضلة والمرسلة وقال: ومن هذا النوع كثير من نقل اليهود بل هو أعلى ما عندهم إلا أنهم لا يقربون فيه من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كقربنا فيه من محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل يقفون، ولا بد حيث بينهم وبين موسى أزيد من ثلاثين عصراً في أزيد من ألف وخمسمئة عام، وإنما يبلغون بالنقل إلى هلال وشماني ومرعقيما وأمثالهم... وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق وحده على أن مخرجه من كذاب قد صح كذبه.. وهذا أمر لا يقدر أحد منهم على إنكاره ولا إنكار شيء منه. اهـ والإسناد من خصائص أهل الأمة، وهو من خصائص الإسلام، ثم هو في الإسلام من خصائص أهل السنة.

قال ابن المبارك: مثل الذي يطلب أمر دينه بلا إسناد كمثل الذي يرتقي السطح بلا سلم.^(٢)

وقال أيضاً: الإسناد عندي من الدين لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، فإذا

(١) في تاريخ دمشق (٣٨/٣٠).

(٢) انظر: مقدمة مسلم، وشرف أصحاب الحديث (٧٤).

قيل له من حدثك بقي. ^(١)

قال الشيخ الألباني طيّب الله ثراه: الإسناد الذي ميزنا الله به - نحن معشر المسلمين - على سائر الأمم. هذا الإسناد الذي لولاه لم يكن علم الحديث وتراجم الرجال والجرح والتعديل شيئاً مذكوراً، بل ولا لعلم التفسير والفقه واللغة وغيرها من العلوم الشرعية ذكراً لأنه كلها قائمة عليه، ولولاه لما تمكن العلماء من التصحيح والتضعيف، ولا من رد الأحاديث الدائرة على الألسنة ولا أصل لها في السنة، إذ أن ذلك كله يدور على الإسناد وجوداً وعدمًا، فما كان له إسناد فهو صحيح أو ضعيف على تفصيل معروف فيهما، وإن كان مما لا إسناد له قيل فيه: لا أصل له. ^(٢)

ومن هنا يظهر تميزنا على سائر الأمم، بل وتميز أهل الحديث والسنة على سائر الطوائف، فإنه لو قيل لهؤلاء وهؤلاء: أسندوا لنا كتابكم المقدس! أو كتابكم الصحيح المعتمد؟ لم يجدوا لذلك سبيلاً، لأنه لا أسانيد لها عندهم، وإن وجدت فمقاطيع ومراسيل، ومع ذلك فجل رواياتهم مجاهيل لا تاريخ لهم يعرف ولا ترجمة تذكر!

وهذا على خلاف ما عند علمائنا من أهل السنة والحديث، فإنهم لا يقبلون من الحديث إلا ما كان له إسناد معروف، وفي كتاب ثابت النسبة إلى مؤلفه، ثم يكون إسناده ثابتاً سالماً من علة قاذحة.

فلا غنى لطالب العلم عن تعلم الأسانيد، ومن لم يرزق هذا فقد فاتته التحرير والتنقيح لكل فروع علم الشريعة.

قال ابن ناصر الدين في مقدمة عقود الدرر: فإن أصل علوم الإسلام، وقاعدة مباني الأحكام، شريعة الخاص والعام: كتاب الله عزَّجَل وحديث رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

(١) شرح علل الترمذي (١/ ٣٥٩)

(٢) الذب الأحمدي (٢٦-٢٧)

وليس بعد العلم بالقرآن المعتمد عليه، أشرف من العلم بالحديث النبوي - المشار إليه - لأنه يشرح لطالبه صدوراً ويعظم لناقليه أموراً، ويلقي في قلوب حافظيه نوراً ويحلل وجوههم نضرة، ويجعل لكل منهم منزلة، ويرفع قدره مع ما فيه من حفظ الشريعة، وأنه ثاني أصوله المنبعة ولا سبيل إلى معرفته، والدخول في زمرة حفظته إلا بعلم أصوله وأحكامه وإتقان مصطلحه، وإحكامه والإحاطة بمعرفة أنواعه من أشكاله وأوضاعه.

والخلاصة: أن هذا الفن لازم لكل طالب علم مداوم، وإلا فقد فقد الوسيلة والأداة التي يحرر بها مسائل هذا الدين ومن فقد الأصول فقد حرم الوصول.

ومن محاسن الشريعة تدوين السنة في مصنفات وانتقاء الصحيح منها.

نشير في هذا المقام فقط إلى مدى أهمية صحيح البخاري وثناء الناس عليه في حسن تصنيفه بما يجعلنا نفخر بأن في هذه الأمة من قام بهذا الجهد الذي تعجز الأمم عن فعل مثله، ويعتبر صحيح البخاري هو أصح كتاب في أمة الإسلام بعد القرآن الكريم، وبهذا اتفقت الأمة أولها وآخرها

قال الإمام النووي: اتفق العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ على أن أصح الكتب بعد القرآن العزيز: الصحيحان: البخاري ومسلم، وتلقتهما الأمة بالقبول، وكتاب البخاري أصحهما وأكثرهما فوائد ومعارف ظاهرة وغامضة، وقد صح أن مسلماً كان ممن يستفيد من البخاري ويعترف بأنه ليس له نظير في علم الحديث، وهذا الذي ذكرناه من ترجيح كتاب البخاري هو المذهب المختار الذي قاله الجماهير وأهل الاتقان.. وقد انتخب علمه ولخص ما ارتضاه في هذا الكتاب وبقي في تهذيبه وانتقائه ست عشرة سنة، وجمعه من ألوف مؤلفة من الأحاديث الصحيحة. ^(١)

وقال ابن الملقن في مقدمة شرحه: فهذه نبذة مهمة، وجواهر جمّة، أرجو نفعها وذخرها، وجزيل ثوابها وأجرها، على صحيح الإمام أمير المؤمنين أبي عبد

(١) مقدمة شرح النووي على مسلم (١/١٤).

الله محمد بن إسماعيل البخاري، سقى الله ثراه، وجعل الجنة مأواه، الذي هو أصح الكتب بعد القرآن، وأجلها، وأعظمها، وأعمها نفعاً بعد الفرقان. ^(١)

وقد نقل الحافظ **رَحِمَهُ اللهُ** في هدي الساري كيف انتخب البخاري كتابه من جملة محفوظاته:

قال أبو الهيثم الكشميهني: سمعت الفربري يقول: سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: ما وضعت في كتاب الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين.

وعن البخاري قال: صنف الجامع من ستمائة ألف حديث، في ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله.

وقال أيضاً: صنف كتابي الجامع في المسجد الحرام، وما أدخلت فيه حديثاً حتى استخرت الله تعالى وصليت ركعتين وتيقنت صحته.

وقال الفربري: سمعت محمد بن حاتم وراق البخاري يقول: رأيت البخاري في المنام خلف النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، والنبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يمشي فكلما رفع النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قدمه وضع أبو عبد الله قدمه في ذلك الموضع

وقال أبو جعفر العقيلي: لما صنف البخاري كتاب الصحيح عرضه على بن المديني وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهم؛ فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة إلا أربعة أحاديث، قال العقيلي: والقول فيها قول البخاري وهي صحيحة. ^(٢)

(١) التوضيح شرح الجامع الصحيح (٩/٢).

(٢) هدي الساري (٤٨٩/١)

الباب السابع: محاسن الإسلام في التشريع الإسلامي
على باقي الشرائع السماوية والأرضية

وهذا المبحث تحته مطالب:

- ❁ المطلب الأول: محاسن الطهارة والحرص على النظافة
- ❁ المطلب الثاني: محاسن الصلاة.
- ❁ المطلب الثالث: محاسن الصيام.
- ❁ المطلب الرابع: محاسن الزكاة.
- ❁ المطلب الخامس: محاسن الحج.
- ❁ المطلب السادس: محاسن المعاملات: بيع، قضاء، شهادات، أطعمة وأشربة، وذبائح.
- ❁ المطلب السابع: محاسن الجهاد.
- ❁ المطلب الثامن: محاسن الأحوال في تشريع النكاح والطلاق وما يتعلق بهما.
- ❁ المطلب التاسع: في إقامة الحدود وأحكام الديات.

الباب السابع: محاسن الإسلام في التشريع الإسلامي على باقي الشرائع السماوية والأرضية.

تعنى الشريعة الإسلامية في مجملها بعلاقة العبد بالله تعالى، وبالعلاقة العبد بالكائنات من حوله، وتحكم على أفعال العباد بالوجوب أو الحرمة أو الاستحباب أو الكراهة أو الإباحة، وبالصحة والفساد.

والشريعة الإسلامية هي الشريعة الخاتمة، وهي شريعة عالمية للناس كافة، لذلك فهي صالحة بل واجبة التطبيق في كل زمان ومكان،

وتطبيق الشريعة الإسلامية ليس كما قد يتوهم البعض أنها تكون بإقامة الحدود فحسب، بل هي منهج كامل ينظم جميع شؤون حياة الأفراد والأمم والجماعات، تنظم حياتهم في السلم والحرب والصحة والمرض والإقامة والسفر بالليل والنهار.

فالشريعة الإسلامية هي: مجموعة الأحكام التي سنّها الله تعالى للناس جميعاً، على لسان رسوله محمد ﷺ في الكتاب والسنة.

فهو: المنهج المستقيم الذي ارتضاه الله تعالى لعباده ومورد الأحكام المنظمة له^(١).

وهذه الأحكام لا يخلو حكم منها من فائدة أو منفعة أو دفع مفسدة عن العباد والبلاد.

قال الطاهر بن عاشور: لا يمتري أحد في أن كل شريعة شرعت للناس، أن أحكامها ترمي إلى مقاصد مرادة لمشرّعها الحكيم تعالى، إذ قد ثبت بالأدلة القطعية أن الله لا يفعل

(١) المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، عز الدين بن زغبة (ص: ٣٩).

الأشياء عبثاً؛ دلّ على ذلك صنعه في الخلقة كما أنبأ عنه قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴿الدخان: ٣٨، ٣٩﴾، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ومن أعظم ما اشتمل عليه خلق الإنسان خلق قبوله التمدن، الذي أعظمه وضع الشرائع له. وما أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الشرائع إلا لإقامة نظام البشر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وشريعة الإسلام هي أعظم الشرائع وأقومها، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] بصيغة الحصر المستعمل في المبالغة.

فالشرائع كلها -وبخاصة شريعة الإسلام- جاءت لما فيه صلاح البشر في العاجل والآجل، أي في حاضر الأمور وعواقبها، وليس المراد بالآجل أمور الآخرة؛ لأن الشرائع لا تحدد للناس سَيْرَهُمْ في الآخرة، ولكن الآخرة جعلها الله جزاءً على الأحوال التي كانوا عليها في الدنيا، وإنما نريد أن من التكاليف الشرعية ما قد يبدو فيه حرج وإضرار للمكلفين، وتفويت مصالح عليهم، كتحریم شرب الخمر وتحريم بيعها، ولكن المتدبّر إذا تدبّر في تلك التشريعات ظهرت له مصالحها في عواقب الأمور، واستقراء أدلة كثيرة من القرآن والسنة الصحيحة يوجب لنا اليقين بأن أحكام الشريعة الإسلامية منوطة بحكمٍ وعللٍ راجعة للصلاح العام للمجتمع والأفراد. (١)

ومن نظر في كل مقاصد الشريعة الجزئية؛ تبين له ما فيها من جمال وجلال وحكم ومصالح تعجز العقول عن إدراك ماهيتها ومعرفة منافعها، بما يجعل العبد خاضعاً لمولاه بأن أنعم عليه بشريعة جامعة لخيري الدنيا والآخرة، فلا ترى فيها مشقةً على المكلفين، ولا تفريطاً في أحكام الدين، بل هي متماسكة الأركان، قوية الأحكام، مصلحة لكل زمان ومكان، باقية ما بقي الزمان. فالحمد لله على نعمه، وأعاننا على العمل بها بإحسان.

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر ابن عاشور (٣/٣٥).

المطلب الأول: محاسن الشريعة في الطهارة

إن من تأمل أبواب الشريعة ووسائلها وغاياتها؛ وجد أنها مشحونة بالحكم المقصودة والغايات الحميدة المستحبة والمفروضة، والتي لولاها لكان الناس كالبهائم بل أسوأ حالاً، فكم في الطهارة من حكمة ومنفعة للقلب والبدن، وتفريح للقلب، وتنشيط للجوارح، وتخفيف من أحمال ما أوجبه الطبيعة وألقاه عز النفس من درن المخالفات، فهي منظفة للقلب والروح والبدن، وفي غسل الجنابة من زيادة النعومة والإخلاف على البدن - نظير ما تحلل منه بالجنابة - ما هو من أنفع الأمور، وتأمل كون الوضوء في الأطراف التي هي محل الكسب والعمل؛ فجعل في الوجه الذي فيه السمع والبصر والكلام والشم والذوق، وهذه الأبواب هي أبواب المعاصي والذنوب كلها، منها يدخل إليها، ثم جعل في اليدين وهما طرفاه وجناحاه اللذان بهما يبطش ويأخذ ويعطي، ثم في الرجلين اللتين بهما يمشي ويسعى، ولما كان غسل الرأس مما فيه أعظم حرج ومشقة؛ جعل مكانه المسح، وجعل ذلك مخرجاً للخطايا من هذه المواضع، حتى يخرج مع قطر الماء من شعره وبشره؛ كما في حديث أبي هريرة، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوْ الْمُؤْمِنُ - فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَتْ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَسَّتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ»^(١).

(١) صحيح مسلم (٢٤٤)، وانظر: شفاء العليل لابن القيم (ص: ٢٢٩، ٢٣٠).

وإليك جملة من هذه المحاسن التي تتجلى واضحة في الطهارة:

١ - الطهارة التي وردت بها الشريعة معتادة للعقلاء، متعارفة عند ذوي الألباب

والمروءات.

حسبك أن العرب كانت تنسب من خُبثت أخلاقه وذمت مذاهبه إلى نجاسة الثياب، ومن حمدت أخلاقه وانتفت عنه المعايب إلى ضدها من طهارة الثياب، وعلى هذا تأول كثير من المفسرين قوله تبارك وتعالى: ﴿وَيُطَابِّكُ فَطَهَّرْ﴾ [المدثر: ٤]. على معنى تطهير من أجناس الآثام ^(١).

وعن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ» ^(٢).

ومن مراتب الطهارة:

- تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات.

- تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

- تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة، والرذائل الممقوتة.

- تطهير السر عما سوى الله تعالى، وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصادقين.

فتطهيره أحد الشطرين؛ وهو الشطر الأول الذي هو شرط في الثاني، فكأن الطهور شرط الإيمان بهذا المعنى، وهذا هو الغاية القصوى لمن قويت بصيرته فسمت إلى هذا المطلوب، ومن عميت بصيرته، لم يفهم من مراتب الطهارة إلا المرتبة الأولى ^(٣).

(١) محاسن الشريعة في فروع الشافعية (٤٨).

(٢) صحيح مسلم (٢٢٣).

(٣) إحياء علوم الدين (١/١٢٦).

٢- الصلاة - وهي عماد الدين - لا تصح إلا بالطهارة.

ففي الحديث عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ: «مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ»^(١)

والمفتاح شأنه التقديم على ما جعل مفتاحاً له، فصار المناسب هو البدء بالطهارة؛ لأن الطهارة من الحدث والخبث من شروط الصلاة، وشرط الشيء يسبقه^(٢).

٣- الطهارة للصلوات فيها معنى التعظيم لله.

إذ الصلاة في معنى المناجاة من العبد لسيده، وفي معنى دخوله عليه للقاء والتعظيم له، فأمروا لها بطهارة الأطراف الظاهرة التي الغالب إبداءها وترك سترها بالثياب، ولهذا المعنى أمر المصلي بتطهير ثيابه، والموضع الذي يصلي فيه تعظيماً للصلاة وإجلالاً لله تعالى، وورد في تفسير قوله تعالى لموسى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ [طه: ١٢] أنه كان في رجليه نعل من جلد حمار ميت^(٣).

٤- تنشيط الجوارح، وطردها الجسم.

ودليل ذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «يَعْقُدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فَارْقُدْ، فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانًا»^(٤).

(١) صحيح. أخرجه أحمد في المسند (١٠٠٦)، وأبو داود في سننه (٦١)، وابن ماجه (٢٧٥)،

وانظر: إرواء الغليل للألباني (٩/٢).

(٢) توضيح الأحكام للبسام (١/١١٤).

(٣) محاسن الشريعة في فروع الشافعية (٤٨-٤٩).

(٤) البخاري (١١٤٢)، ومسلم (٧٧٦).

٥- الطهارة تمحو الأذى من البدن، وكذلك تمحو الذنوب والخطايا.

وعن عثمان بن عفان، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ، حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ»^(١).

٦- أن طهارة الظاهر بالماء والتراب تكميلٌ لطهارة الباطن بالتوحيد والتوبة النصوح.

عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكَ الرِّبَاطُ»^(٢).

٧- أن الله تعالى -فيما شرعه لنا من الأحكام-؛ لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، وإنما هو رحمة منه بعباده ليظهرهم وليتم نعمته عليهم^(٣).

ودليل ذلك قوله تعالى: -بعد الحديث عن الوضوء- ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وعلى هذا المعنى حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوْ الْمُؤْمِنُ - فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بَعَيْنُهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ -، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشْتُهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ -، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَسَّتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ»^(٤). ثم هكذا في الرأس والرجلين^(٥).

(١) صحيح مسلم (٢٤٥).

(٢) مسلم (٢٥١).

(٣) محاسن الشريعة في فروع الشافعية (٥٢).

(٤) مسلم (٢٤٤).

(٥) محاسن الشريعة في فروع الشافعية (٥٢).

٨- دفع الأشياء الضارة والمستقبحة.

يقول السعدي: «وأما المضمضة والاستنشاق فإنهما مشروعان في طهارة الحدث الأصغر والأكبر لتطهير الفم والأنف وتنظيفهما؛ لأن الفم والأنف يتوارد عليهما كثير من الأوساخ والأبخرة ونحوهما، وهو مضطر إلى ذلك وإزالته»^(١).

وهذا يتضح جلياً في حديث عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «عَشْرٌ مِنَ الْفُطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْقَاءُ اللَّحْيَةِ، وَالسَّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الْأَظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ، وَتَنْفُ الْإِبْطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ» قَالَ زَكْرِيَّا: قَالَ مُصْعَبٌ: وَنَسِيتُ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمَضْمُضَةُ زَادَ قُتَيْبَةُ، قَالَ وَكِيعٌ: «انْتِقَاصُ الْمَاءِ: يَغْنِي الْإِسْتِنْجَاءَ»^(٢).

٩- تميم صحة الأعضاء.

يقول السعدي في أهمية السواك: وكذلك السواك يطهر الفم، فهو «مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»^(٣)، ولهذا يشرع كل وقت ويتأكد عند الوضوء، والصلاة، والانتباه من النوم، وتغير الفم، وصفرة الأسنان ونحوها»^(٤).

١٠- جعل الأعضاء مستعدة لكل ما يراد منها.

يقول السعدي: «وأما قص الشارب أو حفه حتى تبدو الشفة؛ فهذا من النظافة، والتحرز مما يخرج من الأنف، فإن شعر الشارب إذا تدلى على الشفة باشر به ما يتناوله من مأكول ومشروب، مع تشويه الخلقة بوفرته، وإن استحسنه من لا يعبأ به»^(٥).

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار (ص: ٤٩).

(٢) مسلم (٢٦١).

(٣) ذكره البخاري معلقاً (٣/٣١)، وأخرجه أحمد (٧)، والنسائي (٥)، من حديث أبي بكر الصديق، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١/١٠٥).

(٤) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار (ص: ٤٩).

(٥) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار (ص: ٥٠).

ودليل ذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «الْفِطْرَةُ خَمْسٌ: الْخِثَانُ، وَالْإِسْتِحْدَادُ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَنَتْفُ الْأَبَاطِ» ^(١).

١١ - التطهير من الذنوب والسيئات، والرحمة بالعباد.

يقول ابن القيم: فكم في الطهارة من حكمة ومنفعة للقلب وتخفيف من أحمال ما أوجبه الطبيعة وألقاه عز النفس من درن المخالفات؛ فهي منظفة للقلب والروح والبدن، وتأمل كون الضوء في الأطراف التي هي محل الكسب والعمل؛ فجعل في الوجه الذي فيه السمع والبصر والكلام والذوق، وهذه الأبواب هي أبواب المعاصي والذنوب، ولما كان غسل الرأس مما فيه أعظم حرج ومشقة جعل مكانه المسح، وجعل ذلك مخرجاً للخطايا من هذه المواضع، حتى يخرج مع قطر الماء من شعره وبشره ^(٢).

١٢ - إتمام نعمته تعالى على الناس بالثواب والأجر، والخير والدرجات.

يقول السعدي عند بيان مقاصد الطهارة: فعلى العباد شكر ما شرعه لهم من الشرائع الظاهرة والباطنة التي يحصل لهم به مقصودان عظيمان: التطهير من الذنوب والسيئات، وتمام نعمته بالثواب والأجر والخير والدرجات ^(٣).

(١) البخاري (٥٨٨٩).

(٢) شفاء العليل (٢٣٠/١) بتصرف.

(٣) الرياض الناضرة (ص: ٤٤٧).

المطلب الثاني: محاسن الشريعة في الصلاة

فمن محاسن الشريعة في الصلاة؛ أن الله أمر عباده أن يفزعوا إلى الصلاة، وأمرهم بالاستعانة بالصلاة على كل أمر من أمر دنياهم وآخرتهم، ولم يخص بالاستعانة بها شيئاً دون شيء، فقال: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وإنما بدأ بالصبر قبلها؛ لأن الإيمان وجميع الفرائض والنوافل من الصلاة وغيرها لا تتم إلا بالصبر، ثم قال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وهم المنكسرة قلوبهم إجلالاً لله، ورهبة منه، فشهد لمن حقت عليه أن يقيمها له، إنه من الخاشعين، وكيف لا يفزع المؤمنون إلى الصلاة وهي عماد دينهم، كذلك أخبر النبي ﷺ أن الصلاة عمود الدين، وسماها الله إيماناً، وإسلاماً، وديناً، فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فلا عمل بعد توحيد الله أفضل من الصلاة لله، لأنه افتتحها بالتوحيد والتعظيم لله بالتكبير، ثم الثناء على الله، وهي قراءة فاتحة الكتاب، وهي حمدٌ لله وثناء عليه، وتمجيد له ودعاء، وكذلك التسييح في الركوع والسجود، والتكبيرات عند كل خفض ورفع، كل ذلك توحيد لله وتعظيم له، وختمها بالشهادة له بالتوحيد، ولرسوله بالرسالة، وركوعها وسجودها خشوعاً له وتواضعاً، ورفع اليدين عند الافتتاح والركوع، ورفع الرأس تعظيماً لله وإجلالاً له، ووضع اليمين على الشمال بالانتصاب لله تذلاً له، وإذعاناً بالعبودية. ^(١)

(١) تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (١/٢٦٨).

فمن محاسن الصلاة:

١- الإعلان عنها بالأذان، فالأذان شعار من شعائر أهل الإسلام^(١).

ولا يشك مسلم في أن الأذان شعار من شعائر أهل الإسلام، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وعكرمة، ومجاهد، وقيس بن أبي حازم: ما كنا نشك أن هذه الآية نزلت في المؤذنين^(٢).

فهذا الأثر يدل على مكانة الأذان؛ ففيه فضلٌ عظيم، وهو:

- إعلام بدخول وقت الصلاة^(٣).

- ودعاء إلى صلاة الجماعة^(٤).

٢- أن في الصلاة تعظيماً للباري وتكبيرة.

يقول ابن القيم: لما كان المصلي قد تخلى عن الشواغل، وقطع جميع العلائق؛ فيدخل بالتعظيم والإجلال، فشرع له أبلغ لفظ يدل على هذا المعنى وهو قول «الله أكبر»^(٥).

قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ لَدُنَا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

٣- أن فيها إصلاحاً للنفس وتهذيبها وتخليصها من الفواحش والمنكرات والهواجس والأوهام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾

(١) فتح الباري لابن حجر (٧٧/٢).

(٢) تفسير الطبري (٤٣٠/٢٠).

(٣) الفروق للقرافي (١٢/١)، وفتح الباري لابن حجر (٧٧/٢).

(٤) فتح الباري لابن حجر (٧٧/٢).

(٥) بدائع الفوائد (١٩٥/٢).

[العنكبوت: ٤٥] ^(١).

قال السعدي: ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة؛ مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها. وثمَّ في الصلاة مقصودٌ أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن، فإن الله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عبوديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ^(٢).

ويقول ابن القيم: وكان شيخ الإسلام أبو العباس يقول: الصحيح أن معنى الآية: أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، أحدهما أعظم من الآخر: أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله ^(٣).

٤ - إقامة ذكر الله.

لأن الصلاة إنما شرعت لإقامة ذكر الله، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] ^(٤).

٥ - تحقيق مبدأ الامتثال والانقياد في نفس المصلي، وتعويده على الطاعة والتعبد والانتظام في منهج التكليف والاستخلاف ^(٥).

قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٢].

(١) علم المقاصد الشرعية (١٧١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦٢٣).

(٣) الوابل الصيب (١٠٢/١).

(٤) الإرشاد إلى معرفة الأحكام (٤٤٥ - ٤٤٦)، وتيسير الكريم الرحمن (١٤٨/٥).

(٥) علم المقاصد الشرعية (١٧١).

وَعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَائِرَ الرَّأْسِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ: «الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ شَيْئًا»، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ؟ فَقَالَ: «شَهْرَ رَمَضَانَ إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ شَيْئًا»، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الزَّكَاةِ؟ فَقَالَ: فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ، قَالَ: وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، لَا أَتَطَوَّعُ شَيْئًا، وَلَا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ، أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ» (١).

٦- تثبيت الإيمان وتنميته، وتكميل الإسلام الذي هو أكبر أركانه (٢).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

وعن ابن عمر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ» (٣).

٧- تكفير السيئات، وزيادة الحسنات، ورفع الدرجات (٤).

فعن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ: ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَجَةٍ قَالَوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرَجَةٍ شَيْئًا، قَالَ: «فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا» (٥).

وعن أبي هريرة، يقول: قال رسول الله ﷺ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي

(١) البخاري (١٨٩١).

(٢) مجلة البحوث الإسلامية (ص: ١٩).

(٣) البخاري (٨).

(٤) مجلة البحوث الإسلامية (ص: ١٩).

(٥) البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

الْجَمَاعَةَ تُضَعِّفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَفِي سُوقِهِ، خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رَفَعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا صَلَّى، لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ أَرْحَمْهُ، وَلَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَهَرَ الصَّلَاةَ» (١).

وعن ثوبان قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحُطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةٌ» (٢).

٨- زيادة القرب من رب السماوات (٣).

فعن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثَرُوا الدُّعَاءَ» (٤).

٩- إقامة شعائر الدين.

يقول السعدي: «اعلم أن هذه العبادات الأربع «الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج» هي مع الشهادتين أركان الإسلام التي ينبنى عليها، وهي أعظم مهمات الدين» (٥).

وهذا ما أشار إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث عن ابن عمر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَالْحَجُّ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ». (٦).

١٠- الاستعانة بالصلاة على نوائب الدهر.

(١) البخاري (٦٤٧).

(٢) مسلم (٤٨٨).

(٣) مجلة البحوث الإسلامية (ص: ١٩).

(٤) مسلم (٤٨٢).

(٥) الإرشاد إلى معرفة الأحكام (٤٣٧-٤٣٨).

(٦) البخاري (٨).

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

يقول المناوي: «ولهذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إليها»^(١).

١١ - الصلاة والتسبيح سبب لزوال المكروه عن العبد.

يقول الشنقيطي: «اعلم أن ترتيبه جل وعلا الأمر بالتسبيح والسجود على ضيق صدره ﷺ بسبب ما يقولون له من السوء»^(٢).

١٢ - تحقيق العبودية لله والخضوع الكامل له.

يقول الشاطبي: «فالصلاة مثلاً أصل مشروعيتها؛ الخضوع لله سبحانه بإخلاص التوجه إليه، والانتصاب على قدم الذلة والصغار بين يديه، وتذكير النفس بالذكر له»^(٣).

١٣ - انشراح الصدر وطمأنة القلب وإراحة البال.

ولذا قال النبي ﷺ لبلال «يَا بَلَّالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرْحَنًا بَهَا»^(٤).

لماذا الراحة بالصلاة؟ أي: أقمها لنستريح بها من مقاساة الشواغل؛ كما يستريح التعبان إذا وصل إلى مأمنه ومنزله وقرّ فيه، وسكن وفارق ما كان فيه من التعب والنصب.

وتأمل كيف قال: «أرحنا بالصلاة» ولم يقل: «أرحنا منها»، كما يقوله المتكلف الكاره لها، الذي لا يصلّيها إلا على إغماض وتكلف، فهو في عذاب ما دام فيها، فإذا خرج منها وجد راحة قلبه ونفسه؛ وذلك أن قلبه ممتلئ بغيره، والصلاة قاطعة له عن أشغاله ومحبوباته الدنيوية، فهو معذبٌ بها حتى يخرج منها، وذلك ظاهرٌ في أحواله فيها؛ من نقرها، والتفات قلبه إلى غير ربه، وترك

(١) فيض القدير (٤/ ٥٢٧).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٣٢٣).

(٣) الموافقات (٣/ ١٤٢).

(٤) صحيح. أخرجه أبو داود (٤٩٨٥)، وانظر: مشكاة المصابيح للألباني (١٢٥٣).

الطمأنينة والخشوع فيها، ولكن قد علم أنه لا بد له من أدائها، فهو يؤديها على أنقص الوجوه، قائل بلسانه ما ليس في قلبه، ويقول بلسان قلبه حتى نصلي فنستريح من الصلاة، لا بها. ^(١)

١٤ - سبب في جلب الرزق للعبد.

الصلاة تجلب الرزق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (١٣٢) ﴿طه: ١٣٢﴾. ^(٢)

قال مقاتل بن سليمان: إنا ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ ﴿إِنَّمَا نَسْأَلُكَ الْعِبَادَةَ﴾ ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ^(٣).

١٥ - تنشيط الجوارح وطردهاء الجسم.

يقول ابن القيم: «وأما الصلاة فشأنها في تفريح القلب وتقويته وشرحه وابتهاجه ولذته أكبر شأن» ^(٤).

ودليل ذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَعْقُدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ؛ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ؛ فَارْقُدْ، فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ؛ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ؛ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى؛ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَاصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانً» ^(٥).

١٦ - حصول الأجر الكثير الذي لا يحصل بالانفراد ^(٦).

ودليل ذلك حديث عبد الله بن عمر: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «صَلَاةٌ

(١) أسرار الصلاة (ص: ٣١).

(٢) أضواء البيان (٤٧/٣).

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان (٤٦/٣).

(٤) زاد المعاد (١٩٢/٤).

(٥) البخاري (١١٤٢)، ومسلم (٧٧٦).

(٦) الإرشاد إلى معرفة الأحكام (٤٦٢).

الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلَاةِ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً»^(١).

١٧- قيام الألفة والمودة وتأسيس التواد والتواصل بين المسلمين، وعدم التقاطع.

لأن الاجتماع الظاهر عنوان الاجتماع الباطن^(٢).

١٨- تعلم بعض المسلمين من بعض.

ولهذا كان الوافد يفد إلى النبي ﷺ ويسأله عن الصلوات فيأمره بحضور الصلاة معه يوماً أو يومين ويقتدي الناس بعضهم ببعض^(٣).

ففي حديث مالك بن الحويرث: فأتينا النبي ﷺ، فأقمنا عنده، فقال: «لو رجعتم إلى أهليكم، صلوا صلاة كذا، في حين كذا صلوا صلاة كذا، في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة، فليؤذن أحدكم، وليؤمكم أكبركم»^(٤).

١٩- نفي الفرقة والتمييز والفرقة بأي سبب.

فالكل موقوفون ومصطفون في مكان واحد بين يدي الله الواحد القهار^(٥). ولم يكن التقديم يوماً لأحد في الصفوف الأولى لأصحاب الجاه والمناصب، وإنما لأهل العلم والتقوى، فعن أبي مسعود البصري، قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة، ويقول: «اسْتَوُوا، وَلَا تَخْتَلَفُوا، فَتَخْتَلَفَ قُلُوبُكُمْ، لِيَلْنِي مِنْكُمْ أَوْلُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»^(٦).

(١) البخاري (٦٤٥)، مسلم (٦٥٠).

(٢) الإرشاد إلى معرفة الأحكام؛ للسعدي (٤٦٢-٤٦٣).

(٣) الإرشاد إلى معرفة الأحكام (٤٦٣).

(٤) صحيح البخاري (٨١٩).

(٥) علم المقاصد الشرعية (١٧١).

(٦) صحيح مسلم (٤٣٢).

٢٠- حصول التنافس في الخيرات ^(١).

فمن ذلك حض النبي ﷺ على التنافس في غير موضع على المسابقة إلى المساجد والصفوف الأولى، فعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النَّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهْمُوا عَلَيْهِ لَأَسْتَهْمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَأَسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ، لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا» ^(٢).

٢١- معرفة مراتب المسلمين، وما هم عليه من العلم والدين والأخلاق، والمحافظة على الشرائع.

فلولا هذا الاجتماع لكان ناقص الدين قليل الاهتمام به يتمكن من ترك شرائعه ^(٣).
عن عبد الله بن مسعود، قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا، فَلْيَحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مَنْ سُنَنَ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمُدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ، إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحِطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةٌ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النَّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يَهَادَى بَيْنَ الرَّجْلَيْنِ حَتَّى يَقَامَ فِي الصَّفِّ» ^(٤).

(١) علم المقاصد الشرعية (١٧١).

(٢) صحيح البخاري (٦١٥).

(٣) الإرشاد إلى معرفة الأحكام (٤٦٣).

(٤) مسلم (٦٥٤).

٢٢- مُرَاغَمَةُ الشَّيْطَانِ الَّذِي يَكْرَهُ اجْتِمَاعَهُمْ عَلَى الْخَيْرِ ^(١).

عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمْ يَذَرْ كَمْ صَلَّى ثَلَاثًا أَمْ أَرْبَعًا، فَلْيَطْرَحِ الشَّكَّ وَلْيَبَيِّنْ عَلَى مَا اسْتَيْقَنَ، ثُمَّ يَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ، فَإِنْ كَانَ صَلَّى خَمْسًا شَفَعْنَ لَهُ صَلَاتَهُ، وَإِنْ كَانَ صَلَّى إِتِمَامًا لِأَرْبَعٍ كَانَتْ تَرْغِيمًا لِلشَّيْطَانِ» ^(٢).

٢٣- جميع أعمال الصلاة توحيد لله، وتعظيم له.

قال أبو عبد الله المروزي: فلا عمل بعد توحيد الله أفضل من الصلاة لله، لأنه افتتحها بالتوحيد والتعظيم لله بالتكبير، ثم الثناء على الله وهي قراءة فاتحة الكتاب، وهي حمد لله وثناء عليه، وتمجيد له ودعاء، وكذلك التسبيح في الركوع والسجود والتكبيرات عند كل خفض ورفع، كل ذلك توحيد لله وتعظيم له، وختمها بالشهادة له بالتوحيد، ولرسوله بالرسالة، وركوعها وسجودها خشوعاً له وتواضعاً، ورفع اليدين عند الافتتاح والركوع، ورفع الرأس تعظيماً لله وإجلالاً له، ووضع اليمين على الشمال بالانتصاب لله تذلاًً له، وإذعاناً بالعبودية ^(٣).

٢٤- الإقبال على الله، وإقبال الله سبحانه على العبد.

وفي الإقبال على الله في الصلاة جميع ما ذكر من ثمرات الأعمال، وجميع ثمرات الأعمال في الإقبال على الله فيها. ولهذا لم يقل النبي ﷺ جعلت قرة عيني في الصوم، ولا في الحج والعمرة، ولا في شيء من هذه الأعمال وإنما قال: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» وتأمل قوله: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» ولم يقل: «بالصلاة»، إعلاماً منه بأن عينه لا تقرر إلا بدخوله كما تقرر عين المحب بملاسته لمحجوبه وتقرر عين الخائف بدخول في محل أنسه وأمنه. ^(٤)

(١) التعليقات على عمدة الأحكام (٤٣٣/١).

(٢) مسلم (٥٧١).

(٣) تعظيم قدر الصلاة (٢٦٨/١).

(٤) أسرار الصلاة (ص: ٣٠).

٢٥- القرب من الله.

ولهذا تعدّ الملوك من أرضاهم بالأجر والتقريب، كما قال السحرة لفرعون: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤].

فوعدهم بالأجر والقرب، وهو علو المنزلة عنده، فالأول: مثله مثل عبد دخل الدار، دار الملك، ولكن حيل بينه وبين رب الدار بسترٍ وحجاب، فهو محجوب من وراء الستر فلذلك لم تفر عينه بالنظر إلى صاحب الدار والنظر إليه؛ لأنه محجوب بالشهوات، وغيوم الهوى ودخان النفس، وبخار الأماني، فالقلب منه بذلك وبغيره عليل، والنفس مُكبَّة على ما تهواه، طالبة لحظها العاجل. فلهذا لا يريد أحد من هؤلاء الصلاة إلا على إغماض، وليس له فيها راحة، ولا رغبة ولا رهبة فهو في عذاب حتى يخرج منها إلى ما فيه قرّة عينه من هواه ودنياه.

والقسم الآخر: مثله كمثّل رجلٍ دخل دار الملك، ورفع الستر بينه وبينه، فقرّت عينه بالنظر إلى الملك، بقيامه في خدمته وطاعته، وقد أتشفه الملك بأنواع التحف، وأدناه وقربه، فهو لا يحب الانصراف من بين يديه، لما يجده من لذة القرب وقرّة العين، وإقبال الملك عليه، ولذة مناجاة الملك، وطيب كلامه، وتذلّل بين يديه، فهو في مزيد مناجاة، والتحف وافدة عليه من كلّ جهة، ومكتن^(١) وقد اطمأنت نفسه، وخشع قلبه لربه وجوارحه، فهو في سرورٍ وراحةٍ يعبد الله، كأنه يراه، وتجلّى له في كلامه، فأشدّ شيء عليه انصرافه من بين يديه^(٢).

(١) اکتَنَ الرَّجُلُ: استتر. معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ١٩٦٤).

(٢) أسرار الصلاة (ص: ٣٢).

المطلب الثالث: محاسن الشريعة في الزكاة.

الزكاة فريضة شرعية وعبادة مالية، كما أنها ركن من أركان الإسلام الخمسة التي تُكوّن دعائم الدين والمجتمع الإسلامي، ودخلت حيز التطبيق منذ العهد النبوي، وطوال التاريخ الإسلامي وحتى يومنا الحاضر - وإن تفاوت التطبيق بنسبة كبيرة - ولكنه فاق التصور والتوقعات في بعض الأزمنة والأماكن.

والزكاة واجبة التطبيق على مدار الأزمنة وفي كل مكان، مرتبطة بالمسلم الذي دخل الإسلام، وآمن بالله ربًّا، وبالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًّا ورسولًا، وبالقرآن منهاجًا، ويخطيء من يعتقد أن الزكاة كانت تعطى لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يجوز إعطاؤها لغيره، ولا جدوى لتطبيقها؛ بل هي ركن من أركان الإسلام، حارب أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مانعيها فقال: «وَاللَّهِ لَوْ مَنْعُونِي عَنَّا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا»^(١).

واقترنت الزكاة بالصلاة - التي هي عماد الدين - في ثمانية وعشرين آية، وجعلها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحد الأعمدة التي بني عليها الإسلام.

فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»^(٢).

وأدت الزكاة وظيفتها في المجتمع الإسلامي، وحققت الأهداف السامية لها

(١) البخاري (١٤٥٦)، مسلم (٢٠). وانظر: التطبيق المعاصر للزكاة د. حسين حسين شحاتة (ص: ٧).

(٢) البخاري (٨)، مسلم (١٦).

في الجوانب الإيمانية والنفسية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية. ولا تزال كذلك إلى حد كبير في عصرنا، مع ضعف تطبيقها في العصور المتأخرة، وكادت أن تصبح في بعض الأحيان، وبعض البلدان، الفريضة المنسية أو الغائبة، ثم عادت الحياة إلى بعض جوانبها، وارتفعت الدعوة لها، والتذكير بها، والتوعية إلى أهميتها ودورها، حتى فرضت نفسها من جديد على الساحة، وصدرت فيها الأنظمة واللوائح والقوانين في بعض البلاد الإسلامية، وأقيمت لها المؤسسات والأجهزة، مع تنامي الفكر الاقتصادي الإسلامي والفكر العام.

ذلك أن المال شقيق الروح، وهو أحد المصالح الضرورية الخمس التي تمثل مقاصد الشريعة الغراء. ^(١)

ولقد كان من روائع الإسلام، بل من معجزاته الدالة على أنه دين الله حقاً، أنه سبق الزمن، وتخطى القرون، فعني -منذ أربعة عشر قرناً مضت- بعلاج مشكلة الفقر والحاجة، ووضع الفقراء والمحتاجين، دون أن يقوموا بثورة، أو يطالبوا، أو يطالب لهم أحد بحياة إنسانية كريمة، بل دون أن يفكروا هم مجرد تفكير في أن لهم حقوقاً على المجتمع يجب أن تؤدي، فقد توارث هؤلاء على مر السنين والقرون أن الحقوق لغيرهم، وأما الواجبات فعليهم!

ولم تكن عناية الإسلام بهذا الأمر سطحية ولا عارضة، فقد جعلها من خاصة أسسه، وصلب أصوله، وذلك حين فرض للفقراء وذوي الحاجة حقاً ثابتاً في أموال الأغنياء، يَكْفُر مَنْ جَحَدَهُ، وَيَفْسُق مَنْ تَهَرَّبَ مِنْهُ، وَيُؤْخَذُ بالقوة ممن منعه، وتُعلن الحرب من أجل استيفائه ممن أبى وتمرد.

كان ذلك الحق هو الزكاة؛ الفريضة الإسلامية العظيمة التي اهتم بها القرآن والسنة، وجعلها ثلاثة دعائم الإسلام.

فهي عبادة من العبادات الأربع، كالصلاة والصيام والحج، ومورد أساسي من

(١) تقويم التطبيقات المعاصرة للزكاة إيجابيات، سليات. لمحمد الزحيلي (ص: ٦).

الموارد المالية في الدولة الإسلامية، وهذا يخرجها عن أن تكون عبادة محضة، فهي جزء من النظام المالي والاقتصادي في الإسلام. ^(١)

وقد ذكر أئمة الإسلام جملة من محاسنها ومقاصدها، فمن ذلك:

١ - تحقيق مبدأ الامتثال والانقياد لله تعالى بفعل نفس ما أمر به ^(٢).

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثَائِرَ الرَّأْسِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسَ إِلَّا أَنْ تَطْوَعَ شَيْئًا»، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ؟ فَقَالَ: «شَهْرَ رَمَضَانَ إِلَّا أَنْ تَطْوَعَ شَيْئًا»، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الزَّكَاةِ؟ فَقَالَ: فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ، قَالَ: وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، لَا أَنْطَوِّعُ شَيْئًا، وَلَا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ، أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ» ^(٣).

٢ - التخلص بأخلاق الكرام من السخاء والجود، والبعد عن أخلاق اللئام.

فالزكاة تطهر أهلها من الصفات الذميمة، وتركيهم بالأخلاق الكريمة ^(٤).

والدليل من القرآن: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّى الْمَالُ عَلَى حَبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

(١) فقه الزكاة. للدكتور/ يوسف القرضاوي (٣/١).

(٢) علم مقاصد الشريعة (ص: ١٧٢).

(٣) البخاري (١٨٩١).

(٤) الدرة المختصرة في محاسن الإسلام (ص: ٣١٤)، وفتح الرحيم الملك العلام (ص: ١٢٩).

٣- حماية المسلمين والذب عن حوزة الإسلام^(١).

ففي مصارف إخراج الزكاة مصرف ابن السبيل، وهم المجاهدون المنقطعون في الغزو، فيأخذون من الزكاة عدة للجهاد من دابة وسلاح، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

٤- تنمية المجتمع وتطوير تجارته وصناعاته ومهنه وحرفه ومعاملاته بترويح المال وعدم كثره وادخاره^(٢).

والدليل من السنة: حديث سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قَالَ: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ»، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «يَعْمَلُ بِيَدِهِ، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ» قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ» قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ»^(٣).

وَعَنْ خَالِدِ بْنِ أَسْلَمَ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ﴾ [التوبة: ٣٤] قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ كَنَزَهَا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهَا، فَوَيْلَ لَهُ، إِنَّمَا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ الزَّكَاةُ، فَلَمَّا أُنْزِلَتْ جَعَلَهَا اللَّهُ طَهْرًا لِلْأَمْوَالِ»^(٤).

٥- تزكية المزكي والمزكى من الشح والأنانية وتنمية المال^(٥).

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ

(١) إعلام الموقعين (١٠٣/٥).

(٢) علم مقاصد الشريعة للخادمي (ص: ١٧٣).

(٣) البخاري (١٤٤٥) ومسلم (١٠٠٨).

(٤) البخاري (١٤٠٤).

(٥) زاد المعاد (٥/٢)، والرياض الناضرة (ص: ٣٨٢)، وبهجة قلوب الأبرار (ص: ٦٣).

لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].
وعن أبي هريرة، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانٌ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ عَبْدٍ أَبَدًا، وَلَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا»^(١).

٦- الإحسان إلى الخلق، ومواساة المحتاجين والفقراء^(٢).

والدليل من القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ﴾ [النور: ٣٣].
وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].
وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»^(٣).

قال العلماء: هذا في الإنفاق في الطاعات ومكارم الأخلاق وعلى العيال والضيغان والصدقات ونحو ذلك بحيث لا يذم ولا يسمى سرفاً والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا^(٤).

٧- تحقيق الإيمان وتنميته وتكميل الإسلام، فإنها تجب على الأغنياء تتميمًا لدينهم^(٥).

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ

(١) صحيح. أخرجه النسائي (٣١١٠)، والطيبالسي (٢٥٨٣)، وانظر: المشكاة (٣٨٢٨)، والتعليق الرغيب للألباني (١٦٧ / ٢).

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ٣٣٣)، والتعليقات على عمدة الأحكام (٢/ ٥٥٥)، وتيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٠٦).

(٣) البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

(٤) شرح النووي على مسلم (٧/ ٩٥).

(٥) الإرشاد إلى معرفة الأحكام (ص: ٤٣٨)، وبهجة قلوب الأبرار (ص: ٦٣).

الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى اليمن، فقال: «ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ، فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَكَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ، فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُوْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ»^(١).

٨- إقامة شعائر الدين.

فإخراج الزكاة من أعظم شعائر الدين، وأكبر براهين الإيمان^(٢).

عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»^(٣).

وفي حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ»^(٤).

٩- الرحمة بالعباد والمساكين^(٥).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: دَخَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ لَبْنًا فِي قَدَحٍ، فَقَالَ: «أَبَا هَرِيرٍ، الْحَقُّ أَهْلَ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ إِلَيَّ» قَالَ: فَاتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ، فَأَقْبَلُوا فَأَسْتَأْذَنُوا، فَأُذِنَ لَهُمْ فَدَخَلُوا»^(٦).

(١) البخاري (١٣٩٥)، صحيح مسلم (١٩).

(٢) الرياض الناضرة (ص: ٣٨٢).

(٣) البخاري (١٤٠١)، مسلم (٥٦).

(٤) مسلم (٢٢٣).

(٥) إعلام الموقعين (٢١٩/٣).

(٦) البخاري (٦٢٤٦).

١٠ - تكفير السيئات، وزيادة الحسنات، ورفع الدرجات ^(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وعن حذيفة، أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْفِتْنَةِ؟ فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنَا أَحْفَظُ كَمَا قَالَ، قَالَ: هَاتِ، إِنَّكَ لَجَرِيءٌ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَجَارِهِ، تُكْفَرُهَا الصَّلَاةُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ» ^(٢).

١١ - تحقيق أواصر التضامن والتآلف والتراحم والتواد ^(٣).

عن ابن عمر، أن رجلاً جاء إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دِينًا، أَوْ تَطْرُدَ عَنْهُ جُوعًا ^(٤).

١٢ - تطهير المال من الآفات والنقصان والتلف والتآكل.

وقد جاء في كثير من الأدلة أن الزكاة والصدقات تزيد المال كمًّا وبركةً، وتنميته، وتبعد عنه الآفات والكوارث والجوائح ^(٥).

قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وعن أبي هريرة، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ» ^(٦).

(١) تيسير اللطيف المنان (ص: ٧٧)، وبهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار (ص: ٥٠).

(٢) البخاري (٣٥٨٦).

(٣) علم المقاصد الشرعية (ص: ١٧٢).

(٤) حسن لغيره؛ أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٠٢٦)، وانظر: صحيح الترغيب والترهيب للألباني (٧٠٩/٢).

(٥) علم المقاصد الشرعية (ص: ١٧٢).

(٦) مسلم (٢٥٨٨).

١٣- ومن محاسن زكاة الفطر: أنها طهرة للصائم من اللغو والرفث^(١).

عن ابن عباس، قال: «فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَكَاةَ الْفِطْرِ طَهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ»^(٢).

١٤- نفع المساكين والفقراء الذين لا يجدون ما يسعهم وإغناؤهم عن السؤال في ذلك اليوم العظيم^(٣).

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ عَلَى الْعَبْدِ وَالْحُرِّ، وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ»^(٤).

١٥- الحد من ملذات الدنيا، والتوجه إلى عالم عبودية الله وطلب رضوانه، بالإنفاق في طلب مرضاة الله.

١٦- الوقوف أمام طغيان المال وقسوة القلب.

كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ (٦) أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى (٧)﴾ [العلق: ٦، ٧].
فإيجاب الزكاة يقلل الطغيان ويرد القلب إلى طلب رضوان الرحمن.

١٧- الزكاة تنقل الإنسان من درجة الاستغناء بالشيء إلى مقام أعلى وهو الاستغناء عن الشيء، والأول صفة الخلق، والثاني صفة الحق.

١٨- الإنفاق من المال في وجوه البر والخير والمصالح العامة يوجب المدح الدائم في الدنيا، والثواب الدائم في الآخرة.

(١) منهج السالكين (ص: ١٠٨).

(٢) حسن. أخرجه أبو داود (١٦٠٩)، وانظر: إرواء الغليل للألباني (٣/ ٣٣٢).

(٣) منهج السالكين (ص: ١٠٨).

(٤) البخاري (١٥٠٣).

فيكون ذلك سبباً لنقل المال إلى القبر وإلى القيامة، بعد أن كان معرضاً للزوال لأن المال غاد ورائح.

١٩- الزكاة شكر النعمة، وشكر المنعم واجب، وشكر النعمة: صرفها إلى طلب مرضاة المنعم.^(١)

٢٠- دفع الحاجة وسد الخلة.

وذلك مقصد راجح على مراعاة جانب المالك الذي اكتسب المال وتعلق قلبه به، لكنه فضل عنده فائض زائد على قدر حاجته، فأبقينا له الكثير، وأخذنا منه اليسير.

٢١- عدم تعطيل المال الفاضل عن الحاجات الأصلية.

وقد خلق الله تعالى المال وسيلة لتوفير الحوائج، لا للاكتناز والادخار والإمساك.

٢٢- التكافل الاجتماعي.

فالحكمة والرحمة تقتضيان صرف الغني بعض ماله غير المحتاج إليه إلى الفقير العاجز عن الكسب بالكلية الذي هو أحوج إليه، وهذا يحقق معنى التكافل الاجتماعي في الإسلام.

٢٣- الحد من ارتكاب الجرائم واللحاق بالأعداء.

فلو لم ينفق الأغنياء على مهمات الفقراء، لأقدم هؤلاء على الأفعال المنكرة كالسرقة وغيرها، أو على الالتحاق بأعداء المسلمين، ولهذا جعل الله من مصارف الزكاة مصرف المؤلفة قلوبهم فيعطى من يرجى إسلامه أو يخشى من بطشه بالمسلمين مالا طمعا في هدايته أو كف شره.

(١) التفسير المنير للزحيلي (١٠/ ٢٧٨).

٢٤- أداء الزكاة يساعد جميع المكلفين على الانصاف بصفة الصبر والشكر معا.

فإذا أدى الغني الزكاة شكر النعمة، وصبر على نقصان جزء من المال، وإذا أعطى الفقير الزكاة، صار شاكرًا بعد أن كان صابرًا.

٢٥- أنها تشرح الصدر.

فالإنسان إذا بذل الشيء، ولا سيما المال، يجد في نفسه انشراحًا، وهذا شيء مجرب، ولكن بشرط أن يكون بذله بسخاءٍ وطيب نفس.

وقد ذكر ابن القيم في زاد المعاد أن البذل والكرم من أسباب انشراح الصدر، لكن لا يستفيد منه إلا الذي يعطي بسخاءٍ وطيب نفس، ويخرج المال من قلبه قبل أن يخرج منه من يده، أما من أخرج المال من يده، لكنه في قرارة قلبه؛ فلن ينتفع بهذا البذل. ^(١)

٢٦- تحقيق أهم عناصر التمكين في الأرض، والنصر على الأعداء.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

٢٧- كفاية العاملين عليها.

ففي إعطائهم منها: إعانة لهم على الخير وتشجيعهم على الاستمرار على هذا العمل؛ ليعينوا إخوانهم الأغنياء على إخراج الزكاة الواجبة عليهم، ويعينوا إخوانهم الفقراء في إيصالهم ما فرض الله لهم، وتحصيل حقوقهم دون أن تتطلع نفوس العاملين عليها إلى الخيانة وسوء التصرف فيها.

٢٨- في إعطاء الزكاة للمؤلفة قلوبهم.

ترغيبهم في الإسلام، وتحبيبه إليهم، وتقوية ما في قلوبهم من الإيمان، أو

(١) التفسير المنير للزحيلي (١٠/ ٢٨٠).

كف شرهم عن المسلمين، وإيصال الدعوة إلى من لديهم من المستضعفين.
في إعطاء الغارمين الزكاة نوع من التخفيف عنهم من هم الديون بالليل
وتحريرهم من ذلها بالنهار؛ فإن الدين هم على المؤمن بالليل وذل بالنهار.

**٢٩- مساعدة المسلم المسافر إذا انقطع من النفقة في طريقه لنفاد نفقته، أو سرقته
أو ضياعه، ولم يجد ما يكفيه لمؤنة سفره، ففي إعطائه الزكاة إحسان إليه، ومواساة له
في حال غربته، فيعطى من الزكاة ما يسد حاجته حتى يعود إلى بلاده.**

٣٠- في إعطاء الزكاة لتحرير الرقاب؛ تحرير للرقيق الذي أذله الرق.

فيكون بأخذه للزكاة أو إعتاقه منها حرّاً عبداً لله عزَّ وجلَّ، يقوم بعبادة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى،
وهو على كمال في الحرية من ملك العباد وتفريغه لعبادة، رب العباد. ^(١)

٣١- تحقيق العدالة الاجتماعية.

الإسلام هو دين العدالة الاجتماعية، الذي يكفل للفقير العاجز العيش
والقوت، وللغني حرية التملك مقابل سعيه وكدحه. وهذا هو المذهب المستقيم
الذي به عمارة الكون، وصلاح الدين والدنيا. فلا شيوعية متطرفة، ولا رأسمالية
ممسكة شحيحة. ^(٢)

وبمثل هذه الفريضة الكريمة الرشيدة، يُعلم أنَّ الإسلام دين التكافل
الاجتماعي، يكفل للفقير العاجز عن العيش؛ ما يعينه على حياته، وأنه دين
الحرية الذي أعطى الغنيَّ حرية التملك مقابل كده وسعيه، وفرض عليه الزكاة
مساواةً لإخوانه المعوزين، فهو الدين الوسط، فلا شيوعية مؤممة حارمة، ولا
رأسمالية ممسكة محتكرة شاحّة، وقد حذّر الله تبارك وتعالى من منع الزكاة،
وتوعد عليها بالعقوبة العاجلة والآجلة. ^(٣)

(١) الزكاة في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة (ص: ٢٩).

(٢) تيسير العلام شرح عمدة الأحكام (ص: ٢٩٥).

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام (٣/ ٢٨٢).

٣٢- الزكاة حفظت كرامة الإنسان.

إن من محاسن شريعة الإسلام في الزكاة؛ أنها حفظت كرامة الإنسان، وصانته عن الابتذال، فإذا كان الإنسان محتاجاً؛ فقد جعل الله **عَزَّوَجَلَّ** له نصيباً في الزكاة، وأمر ولاة الأمر أن يعطوه نصيبه دون أن يحوجوه إلى إراقة ماء وجهه؛ لأن في المسألة ذلة وإراقة لماء الوجه، ولهذا حرمها الشرع إلا لمن كان مضطراً إليها، فرخص فيها لثلاثة أصناف فقط، عَنْ قَبِيصَةَ بِنِ الْمُخَارِقِ الْهَلَالِيِّ، قَالَ: تَحَمَّلْتُ حِمَالَةً فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أَسْأَلُهُ فِيهَا. فَقَالَ: «أَقِمِ يَا قَبِيصَةُ حَتَّى تَأْتِيَنِي الصَّدَقَةُ، فَأَمُرُكَ بِهَا». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةً: رَجُلٌ تَحْمَلُ حِمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ -أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ-؛ وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ فَاجْتَا حَتَّى مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ -أَوْ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ-؛ وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الصَّدَقَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ. فَمَا سِوَى ذَلِكَ يَا قَبِيصَةُ سُحْتٌ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا»^(١).

(١) شرح بلوغ المرام لعطية سالم (١٤١/١). والحديث أخرجه أبو داود (٢٣٦١).

المطلب الرابع: محاسن الشريعة في الصيام.

الصيام من أركان الإسلام التي لا يتم الإيمان إلا بها، وهو رابع ركن من أركانه، والصيام له فوائد دينية ودنيوية.

يقول ابن القيم: لما كان المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات، وطمعها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظما من حدتها وسؤورتها، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين.

وتضييق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، ويسكن كل عضو منها وكل قوة عن جماحه وتلجم بلجامه، فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعل شيئاً، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إشاراً لمحبة الله ومرضاته، وهو سر بين العبد وربّه لا يطلع عليه سواه، والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده، فهو أمر لا يطلع عليه بشر، وذلك حقيقة الصوم.

وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات، فهو من أكبر العون على

التقوى، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) [البقرة: ١٨٣]. وقال النبي ﷺ: «وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ»^(١).

وأمر من اشتدت عليه شهوة النكاح، ولا قدرة له عليه؛ بالصيام، وجعله وجاء هذه الشهوة.

والمقصود أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة والفطر المستقيمة؛ شرعه الله لعباده رحمةً بهم، وإحساناً إليهم وحميةً لهم وجنةً.^(٢)

ومن المحاسن التي اشتمل عليها الصيام:

١- الصوم دورة تدريبية سنوية عامة، تتنوع دروسها وفوائدها، وتشمل المسلمين جميعاً رجالاً ونساءً، أغنياء وفقراء، حاكمين ومحكومين.^(٣)

٢- كسر النفس؛ فإن الشبع والري، ومباشرة النساء تحمل النفس على الأشر والبطر والغفلة.

٣- تخلي القلب للفكر والذكر.

فإن تناول هذه الشهوات؛ قد تقسي القلب وتعميه، وتحول بين العبد وبين الذكر والفكر، وتستدعي الغفلة. وخلو الباطن من الطعام والشراب؛ ينور القلب، ويوجب رقته، ويزيل قسوته، ويخليه للذكر والفكر.

٤- أن الغني يعرف قدر نعمة الله عليه؛ بإقداره له على ما منعه كثيراً من الفقراء من فضول الطعام والشراب والنكاح.

فإنه بامتناعه من ذلك في وقت مخصوص، وحصول المشقة له بذلك؛

(١) البخاري (٧٤٩٢).

(٢) زاد المعاد (٢٧/٢-٢٨).

(٣) التعريف بالإسلام (ص: ٣٤١).

يتذكر به من مُنع من ذلك على الإطلاق فيوجب له ذلك شكر نعمة الله عليه بالغنى، ويدعوه إلى رحمة أخيه المحتاج ومواساته بما يمكن من ذلك.

٥- أن الصيام يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم.

فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فتسكن بالصيام وساوس الشيطان، وتنكسر سَوْرَةُ الشهوة والغضب؛ ولهذا جعل النبي ﷺ «الصوم وجاء» كما ورد في الحديث «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، عَلَيْكُمْ بِالبَّاءَةِ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ، وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ البَّاءَةَ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وَجَاءٌ»^(١) لقطعه عن شهوة النكاح.^(٢)

٦- تحصيل التقوى.

لأن النفس إذا انقادت للامتناع عن الحلال طمعاً في مرضاة الله، وخوفاً من أليم عقابه؛ فمن باب أولى أن تنقاد للامتناع عن الحرام، فكان الصوم سبباً للتقوى. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١٨٣) [البقرة: ١٨٣].

٧- الصائم يدرّب نفسه على مراقبة الله^(٣).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول: قال رسول الله ﷺ: قَالَ اللَّهُ: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ...»^(٤).

(١) البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠).

(٢) لطائف المعارف (١٥٥).

(٣) مجلة البحوث الإسلامية (ص: ٢٩).

(٤) البخاري (٥٩٢٧)، ومسلم (١١٥١).

٨- تحقيق مبدأ الامتثال والانقياد لله تعالى^(١).

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ومن السنة: عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدٍ اللَّهُ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَائِرَ الرَّأْسِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسَ إِلَّا أَنْ تَطْوَعَ شَيْئًا»، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ؟ فَقَالَ: «شَهْرَ رَمَضَانَ إِلَّا أَنْ تَطْوَعَ شَيْئًا»^(٢).

٩- اجتماع القلب والهم على الله تعالى، وتوفير قوى النفس على محابه وطاعته^(٣).

١٠- تعويد النفس وتمارينها على قوة العزيمة والصبر^(٤).

والدليل من السنة: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدْعُ شَهْوَتُهُ وَطَعَامُهُ مِنْ أَجْلِي»^(٥). وفي رواية البخاري: «يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي، الصِّيَامُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا»^(٦).

١١- الوقاية من الأمراض الجسدية والنفسية والاجتماعية^(٧).

فعن معاذ بن جبل، قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ: الصَّوْمُ جَنَّةٌ^(٨) أَي: وقاية.

(١) علم مقاصد الشرعية (ص: ١٧٣).

(٢) البخاري (١٨٩١).

(٣) زاد المعاد (٣٠٧/٤).

(٤) مفتاح دار السعادة (٣/٢)، والإرشاد إلى معرفة الأحكام (ص: ٤٧١)، والرياض الناضرة (ص: ٣٨٤).

(٥) مسلم (١١٥١).

(٦) البخاري (١٨٩٤).

(٧) علم المقاصد الشرعية (ص: ١٧٣).

(٨) صحيح، أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي (٢٢٢٤)، وانظر: الإرواء للألباني (٤١٣).

١٢ - تميم الدين والإيمان وزيادة كماله والبر العميم^(١).

١٣ - تذكر هموم الآخرة وأحوالها، بسبب العطش والجوع الشديد في أرض المحشر وفي نار جهنم^(٢).

١٤ - تقوية داعي الإخلاص وتحقيق محبته على محبة النفس^(٣).

١٥ - وقاية النفس من الأنانية، والإفراط في حب الدنيا^(٤).

١٦ - تكفير السيئات، وزيادة الحسنات، ورفعة الدرجات، وقد جعله الله سبباً لصلاح القلوب والأرواح والأبدان^(٥).

فعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكْفَرَاتُ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»^(٦).

١٧ - كف اللسان عن الرفث والخنا^(٧).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «الصَّيَامُ جُنَّةٌ فَلَا يَرُفُثُ وَلَا يَجْهَلُ، وَإِنْ أَمْرُؤُ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ»^(٨).

١٨ - الدخول من باب الريان^(٩).

عن سهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرِّيَّانُ،

(١) الإرشاد إلى معرفة الأحكام (ص: ٤٣٨)، و(ص: ٤٧١).

(٢) علم مقاصد الشرعية (ص: ١٧٣).

(٣) شرح التوضيح على التلويح (١٣٦/٢)، والدرة المختصرة في محاسن الإسلام (ص: ٣١٥).

(٤) علم مقاصد الشرعية (ص: ٣٣).

(٥) الإرشاد إلى معرفة الأحكام (ص: ٤٣٨)، و(ص: ٤٧١).

(٦) مسلم (٢٣٣).

(٧) تربية ملكة الاجتهاد من خلال بداية المجتهد (٢٠/٣).

(٨) البخاري (١٨٩٤).

(٩) الموافقات (١٤٣/٣).

يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أَغْلَقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ»^(١).

١٩- الاستعانة على التحصين في العزبة^(٢).

فعن عبد الله بن مسعود، قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ»^(٣).

٢٠- معرفة قدر نعمة الله على العباد؛ بتناول ما يشتهي من الأكل والشرب والنكاح.

قدر النعم لا يُعرف إلا بضدها كما قيل: «وبضدها تتبين الأشياء»؛ لأن الإنسان إذا كان دائماً شبعان وريان، ويتمتع بأهله، لا يعرف قدر هذه النعمة، لكن إذا حجب عنها شرعاً أو قدرّاً عرف قدر هذه النعمة، إذن ليعرف الإنسان بذلك قدر نعمة الله عليه بتناول الأكل والشرب والنكاح؛ لأنه يفقدها في هذا اليوم فيشكر الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** على التيسير.^(٤)

٢١- أن يعرف الغني حاجة الفقير فيرق له ويرحمه.

ولهذا كان الرسول ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، والإنسان لا يعرف حاجة المضطر إذا كان شبعان، لكن إذا جاع عرف قدر الجوع وألمه فيرحم بذلك إخوانه الفقراء.

٢٢- أن الغالب على الصائمين التفرغ للعبادة.

ولهذا تجد الإنسان في حال الصيام تزداد عبادته، وليس يوم فطره ويوم

(١) البخاري (١٨٩٦)، مسلم (١١٥٢).

(٢) الموافقات (١٤٣/٣).

(٣) مسلم (١٤٠٠)، البخاري (٥٠٦٥).

(٤) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (١٦٦/٣).

صومه سواء؛ إلا الغافل فله شأن آخر، لكن الإنسان يقظ الحازم الفطن الكيِّس؛ يجعل يوم صومه غير يوم فطره.

٢٣- التذكير بعدل الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ومساواته بين خلقه.

حيث جعل هذا الركن فرضاً على جميع المسلمين غنيهم وفقيرهم، ملوكهم وسُوقَتهم، وبذلك يتذكر الملوك العدل الذي فرض عليهم إقامته بين رعاياهم. ^(١)

٢٤- الصوم مدته يسيرة، شهر واحد من اثني عشر شهراً، وهو يسقط عن العاجز، ويُرخَّص فيه للمريض والمسافر بالإفطار والقضاء بعد ذلك. ^(٢)

٢٥- أن الإنسان إذا جاع بطنه اندفع جوع كثيرٍ من حواسه.

فإذا شبع بطنه جاع عينه ولسانه ويده وفرجه، فكان تشبيع النفس تجويعاً لهذه المذكورات، وفي تجويع النفس تشبيعها، فكان هذا التجويع أولى، ومن ذلك أنه إذا جاع علم؛ حال الفقراء في جوعهم فيرحمهم، ويعطيهم ما يسد به جوعهم؛ إذ ليس الخبر كالمعاينة، لا يعلم الراكب مشقة الراحل إلا إذا ترجل.

٢٦- أنه رُخِّصَ في الإفطار عندما يحصل لمن وجب عليه عذر، وأيضاً أمر بالصوم في النهار وأبيح في الليل الإفطار.

وهذا من لطف الله؛ أمر عباده على وجه يمكن لهم فيه إحراز الفضيلة واكتساب الوسيلة.

٢٧- اكتساب مكارم الأخلاق؛ لأن قلة الأكل من محاسن الأخلاق.

ولذلك لم يحمد أحد بكثرة الأكل، ويحمد على قلة الأكل؛ يحمده كل ذي دين في كل حين، ولم يُرو عن أحد من الأنبياء كثرة الأكل.

(١) شرح زاد المستقنع لعبد الكريم الخضير (١٦/١).

(٢) المصدر السابق.

٢٨- أن الله من لطفه بعباده لم يشترط في القضاء ما في الأداء من كل وجه.

فلم يشترط في القضاء طول اليوم باليوم ولا حرارته ولا برودته، فإذا أفطر في أطول يوم ثم قضاؤه في أقصر يوم أجزأه وكفاه.

٢٩- أنه لم يشترط فيه قران النية عند الشروع كما في سائر العبادات.

لأن هذا الوقت وقت نوم وغفلة قلما يقف العبد عليه، فلو شرط لضاق الأمر على الناس؛ فيسر الأمر على عباده حتى أجاز الصوم بنية متقدمة تقع بجزء من الليل، وإن طرأ عليه الأكل والشرب والرفث؛ لأن الله أباح الأكل والشرب إلى آخر الليل فلو بطلت به فات محلها. ^(١)

٣٠- في الصيام تتجلى وحدة المسلمين، وتعرف الأمة أهمية الوقت.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «الصيام يُعَلِّمُ الأمة النظام في المعيشة، فجميع المسلمين يفطرون في وقت واحد لا يتقدم أحدٌ على آخر دقيقة واحدة، وقلما يتأخر عنه دقيقة واحدة». ^(٢)

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان لعبد العزيز السلطان (١/٤٠٣).

(٢) تفسير المنار (٢/١٤٨) بتصرف يسير.

المطلب الخامس: محاسن الحج إلى بيت الله الحرام.

الحج ركن من أركان الإسلام الخمسة، وهو من جلائل أعمال الدين، وشعيرة ظاهرة من شعائر الإسلام، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»^(١).

والحج خاصية الإسلام، نعني بهذا أنه الشريعة التي تختص بالحج بخلاف الشرائع الأخرى؛ لأن الإسلام في تسمية الحنيفية يختص بشريعتين: الختان، والحج، وبهذا وردت الأخبار في تفسير الحنيف أنه الذي يختن ويحج، وحقيق أن يكون ذلك؛ لأن إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الموسوم على الإطلاق بالدين الحنيف، وهو السابق بالختان والحج، ثم الختان مشترك في المسلمين واليهود، وقد يفعله طائفة من النصارى، أما حج الكعبة فمخصوص به ذوي الإسلام^(٢).

وقد بين علماء الإسلام جملة من محاسن الحج إلى البيت العتيق، اذكر منها ما يلي:

١ - تحقيق صدق العبودية، وكمال الامتثال لأمر الله تعالى^(٣).

حيث إن العبودية فطرة فطر الله تعالى الإنسان عليها، فالإنسان إن لم يستطع أن يتعرف على الله الذي هو معبوده الحق، فإنه يبحث عن إله يدين له ويذل له، وما هذا إلا لأن الإنسان مجبول على العبودية ومفطور

(١) أخرجه البخاري (٨) واللفظ له، ومسلم (١٢٢).

(٢) محاسن الشريعة في فروع الشافعية، للقفال الكبير (١٣٩).

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لعلاء الدين الكاساني (١١٨/٢).

عليها، فالعبودية أشرف صفات المخلوقين وأعظمها وأجلها، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وفي هذا السياق يؤكد النبي ﷺ على هذا المعلم، فيقول «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجَّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجِ الْبَهِيمَةُ بِبَهِيمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ». ثم يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ الَّذِي الْقِيَمُ﴾ (١).

٢- فمن محاسن الحج إلى بيت الله الحرام أنه يلبي حاجة الإنسان الفطرية لتحقيق كمال صدق العبودية لله رب العالمين.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

٣- تقرير التوحيد والإخلاص (٢).

فإن القاريء لآيات بناء البيت، ورفع قواعده، والأذان بالحج، يلحظ التلازم الوثيق بين هذا الحدث الكبير، وتقرير التوحيد، ونبذ الشرك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفِهَةِ نَفْسِهِ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) [البقرة: ١٢٧ - ١٣١].

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٥)، ومسلم (٦٩٢٦).

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، للبرهان (٣/٤).

كما يجد المتتبع لسياق حجة النبي ﷺ إعلان التوحيد، في عدة مشاهد مشرقة، منها التلبية، ففي حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما وهو يصف تلبية النبي ﷺ: «فَأَهْلَ بِالتَّوْحِيدِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ»^(١).

٤- التنوع في عبوديات الله في تلك المشاعر.

التي هي موائد مدها الله تعالى لعباده، ووفود بيته، وسؤال جميع مطالبهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية في تلك المشاعر العظام؛ ليجزل لهم من قراه وكرمه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

- ولكل نوع من هذه العبادات خاصية وسر وزيادة فضل وإيمان وتحقيق وإحسان ليس للآخر، وكل واحد منها مضطر إليه الوافد لهذا البيت.

- فتارة يطوف إلى بيت ربه ويكرر ذلك، يترضى لربه، ويطوف بفنائيه ويخضع لعظمته، ﴿وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

- وتارة يسعى بين الصفا والمروة، يتردد بين هذين المشعرين العظيمين اللذين كم تردد بينهما من رسول ونبي، وكم سعى بينهما من ولي وصفي، ﴿إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ سَعَاءِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

- وتارة يقف بالمشعر الحلال وهو عرفة، وتارة بالمشعر الحرام وهو مزدلفة، يبدي ما في وسعه من خشية وخضوع وإنابة وانجذاب تام إلى ربه، وشدة نزوع يتضرع فيها إلى مولاه، ويسأله مصالح دينه ودنياه، يقف فيه موقف السائل المسكين الذليل، ويطمع غاية الطمع في كرم المولى الجليل، ﴿فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٩).

وَأِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّاكِلِينَ ﴿١٩٨﴾ [البقرة: ١٩٨].

- وتارة يرمي الجمار تنبيهاً وإشارة إلى رمي الخطايا ومراغمة العدو المبين، ويقف عنها طالب الرحمة والغفران من الملك الحق المبين، ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٢٠٣﴾ [البقرة: ٢٠٣].

- وتارة يذبح قربانه تقرباً إلى الله تعالى بذبح، جامعاً بين تقربه إلى الله بهذا النسك، وبين الإحسان إلى إخوانه بإطعام البائس الفقير، وبين قبول ضيافة الله حيث أمره بالأكل منها، ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨].

- ثم شرع في التحلل من محظورات الإحرام بالحلق بعد الرمي، فكان ذلك جارياً مجرى السلام من الصلاة التي تحريمها التكبير وتحليلها التسليم، فتنحل عنه المحظورات التي كان ممنوعاً عنها وقت الإحرام؛ إظهاراً للذل والخضوع والتعظيم، وشعاراً وهيئة لهذا النسك، ويتفاءل بفضل الله بانحلاله عن الخطايا والذنوب، وأنه أدرك من ربه غاية المنى والمطلوب، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ [يونس: ٥٨].^(١)

٥- تحقيق المساواة والوحدة والقوة^(٢).

فالحج مؤتمر عام للمسلمين يستفيدون منه فوائد دينية وتربوية وأخلاقية بالممارسة الفعلية للعلاقات الاجتماعية، وهو فرصة يتداول فيها المسلمون أوضاع بلادهم، وشؤون شعوبهم، وهمومهم وآمالهم، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿١٢﴾ [الأنبياء: ٩٢].

والناس في الحج يرتدون زياً واحداً كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم،

(١) مقاصد الشريعة الجزئية في فقه العبادات، جميل يوسف زريوا، (ص: ٣٢-٣٣)، مجلة البحوث الإسلامية، السنة الثانية، العدد السادس - جمادى الأولى ١٤٣٧هـ، فبراير ٢٠١٦ م.

(٢) علم المقاصد الشرعية، للخادمي (ص: ١٧٤)، وتيسير العلام شرح عمدة الأحكام، للبسام (ص: ٣٥٧).

رافعون راية المساواة فيما بينهم، لا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى، وإن أول من رفع هذا اللواء في الحج هو رسول الله ﷺ.

٦- سدُّ الذرائع المؤدية إلى تشرُّدِّم وحدة المسلمين.

ويستدل على هذا المَعْلَم بقول الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فُضِّضَ فِيهِمْ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: أي: يجب عليكم أن تعظموا حرمة الإحرام بالحج، وخصوصاً الواقع في أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقضه من الرفث، وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً التكلم في أمور النكاح بحضرة النساء، ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ [البقرة: ١٩٧] وهو جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام، ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ [البقرة: ١٩٧] والجِدال: هو المماراة والمنازعة والمخاصمة؛ لكونها تثير الشر وتوقع العداوة^(١).

٧- تكفير السيئات، وزيادة الحسنات ورفع الدرجات.

فالحجاج يرجعون بعد الحج كيوم ولدتهم أمهاتهم، والحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة، وقد جعله الله تعالى سبباً لصلاح القلوب والأرواح والأبدان^(٢).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»^(٣).

٨- تذكير الناس بيوم الحشر والحساب^(٤).

لأن المتأمل في شعائر الحج يجد شبهاً كبيراً بينها وبين يوم القيامة، فالحج كالصورة المصغرة ليوم القيامة، فكما أن الناس يوم عرفات يقفون على صعيد

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، للسعدي (١/ ١٠١).

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، للسعدي (١/ ١٠١).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (٣٣٥٥).

(٤) علم المقاصد الشرعية، للخادمي (ص: ١٧٤).

عرفات شعثاً غبراً، فإن يوم القيامة يوم يجمع الله تعالى فيه الأولين والآخرين في صعيد واحد حفاةً عراةً غرلاً، فعن ابن عباس قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطِيباً بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَلَا وَإِنَّهُ سَيَجَاءُ بِرَجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي. فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بِعَدِّكَ. فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ فَيَقَالُ لِي: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مِنْذُ فَارَقْتَهُمْ » (١).

٩- تحصيل بعض المنافع والفوائد الاقتصادية (٢).

من محاسن الإسلام أنه جاء ليغذي الجانب الروحي والمادي على حد سواء، فكما أمر الله تعالى بعبادته، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أمر كذلك بتحقيق الاستخلاف في الأرض وعمارتها، فقال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، والحج مع أنه عبادة لله تعالى إلا أن الله تعالى أجاز للناس أن يحققوا منافعهم الاقتصادية والتجارية فيه، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

١٠- إقامة ذكر الله تعالى والإخلاص للمعبود.

فقد شرع الحج لما فيه من ذكر الله تعالى الذي يطمئن القلوب، ويصل به العبد إلى كمال المطلوب (٣)، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا

(١) أخرجه البخاري (٤٧٤٠)، ومسلم (٧٣٨٠).

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، للبسام (٤/٤)، وعلم المقاصد الشرعية، للخدامي (ص: ١٧٤).

(٣) مقاصد الشريعة الجزئية في فقه العبادات، جميل يوسف زريوا، (ص: ٣١)، مجلة البحوث الإسلامية،

السنة الثانية، العدد السادس - جمادى الأولى ١٤٣٧ هـ، فبراير ٢٠١٦ م.

يَذْكُرِ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ [الرعد: ٢٨].

وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَرَمْيِ الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ»^(١).

والمستبوع لآيات الحج في القرآن الكريم؛ يجد أن الله تعالى حثَّ على ذكره في غير ما موضع، منها قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَانَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْ سَكَكِكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

١١- تعدد المشاعر والمناسك وتنقلات الحجاج فيها موضعاً بعد موضع، فيه راحة وإجمام وسبب لتكميل كل نسك منه كأنه عبادة مستقلة.

ولا شك أن التنقلات من أكبر الأسباب لتكميل العبادات، فلو كانت أفعال الحج عملاً واحداً في موضع يتصل بعضه ببعض حتى يتم؛ فهل يوجد هذا النشاط والرغبة واستقبال كل مشعر برغبة تامة وعزيمة صادقة؟^(٢)

١٢- إقامة شعائر الإسلام، ومصالح المسلمين الدنيوية، يقول الله تعالى.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ [المائدة: ٩٧]^(٣).

١٣- التذكير بأحوال الأنبياء والمرسلين والأصفياء والمخلصين.

كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، ولهذا

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٢٩٧٠).

(٢) مقاصد الشريعة الجزئية في فقه العبادات، جميل يوسف زريوا، (ص: ٣٤)، مجلة البحوث الإسلامية، السنة الثانية، العدد السادس - جمادى الأولى ١٤٣٧هـ، فبراير ٢٠١٦م.

(٣) المصدر السابق.

كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في مشاعر الحج «خذوا عني مناسككم»، كما روى ذلك جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَقُولُ: «لِتَأْخُذُوا مِنَّا سَكُكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ»^(١) وهذا التذكير أعلى أنواع التذكير، فإنه تذكير بأحوال مَنْ هم من أولى العزم من الرسل: أبو الأنبياء إبراهيم، وإمام الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم^(٢).

١٤ - التعارف بين المسلمين والسعي في جمع كلمتهم واتفاقهم على مصالح الخاصة والعامة مما لا يمكن تعدادها^(٣).

فالمسلمون يجتمعون في وقتٍ واحدٍ وموضعٍ واحدٍ على عملٍ واحدٍ، ويتصل بعضهم ببعض، ويتم التعاون والتعارف، يحققوا فيهم قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

١٥ - منفعة المساكين المجاورين لبيت الله^(٤).

فقد راعى الإسلام حق فقراء الحرم الذين يشاهدون ذبح الهدي، أو ذبح الفدية، فقال الله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعمُوا الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨] وقال تعالى: ﴿وَالْبُدْبُكُ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

(١) أخرجه مسلم (٣١١٥).

(٢) مقاصد الشريعة الجزئية في فقه العبادات، جميل يوسف زريوا، (ص: ٣٤)، مجلة البحوث الإسلامية، السنة الثانية، العدد السادس - جمادى الأولى ١٤٣٧هـ، فبراير ٢٠١٦ م.

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، للبسام (٤/٤).

(٤) بداية المجتهد، لابن رشد (٣٦٨/١).

١٦- يجتمع في الحج إلى البيت الحرام شرف الزمان، وشرف المكان، وشرف العمل^(١).

أما عن الزمان: أيام عشر ذي الحجة، التي أقسم بها الرب **عَزَّوَجَلَّ** فقال: ﴿وَلَيْلِ عَشْرِ ۖ﴾ [الفجر: ٢]، أما عن المكان: بيت الله الحرام، والمشاعر العظام: منى، ومزدلفة، وعرفة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ۝﴾ [١٦] فِيهِ ءَايَتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا بُرَّهِيْمُ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ۝﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧].

أما عن العمل: فهو أحب العمل إلى الله، قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامِ الْعَشْرِ أَفْضَلَ مِنَ الْعَمَلِ فِي هَذِهِ». قَالُوا: وَلَا الْجِهَادُ؟ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ»^(٢).

وأَيُّ عمل أعظم مما اختصه الله بها، وهو الحج الذي قال فيه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»^(٣).

١٧- شهود حجاج بيت الله الحرام منافع مطلقة، لا حصر لها، ولا حد.

قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝﴾ [٢٧] لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴿[الحج: ٢٧، ٢٨]﴾^(٤).

١٨- تعظيم شعائر الله وحرماته.

قال الله تعالى في سياق آيات الحج: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۝﴾ [الحج: ٣٠]، ثم قال: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ۝﴾ [الحج: ٣٢].

(١) مقاصد الحج، أحمد بن عبد الرحمن القاضي، مجلة البيان، العدد: (٢٣٨)، ذو القعدة ١٤٢٧ هـ.

(٢) أخرجه البخاري (٩٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (٣٣٥٥).

(٤) مقاصد الحج، أحمد بن عبد الرحمن القاضي، مجلة البيان، العدد: (٢٣٨)، ذو القعدة ١٤٢٧ هـ.

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: حرَمَت اللّٰه: كل مال له حرمةٌ، وأمر باحترامه من عبادةٍ أو غيرها؛ كالمناسك كلها، وكالحرم والإحرام، وكالهدايا، وكالعبادات التي أمر الله العباد بالقيام بها؛ فتعظيمها إجلالاً بالقلب، ومحبتها، وتكميل العبودية فيها، غير متهاون ولا متكاسل ولا متثاقل، ثم قال: المراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها: المناسك كلها؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ومنها: الهدايا والقربان للبيت. . . ومنها: الهدايا؛ فتعظيمها باستحسانها، واستسمانها، وأن تكون مكَمَّلة من كل وجه. فتعظيم شعائر الله صادرٌ من تقوى القلوب؛ فالمعظم لها يبرهن على تقواه، وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله^(١).

١٩ - تحقيق الولاء والبراء.

فحين تبعث كل أمة بوفدها إلى بلدٍ واحدٍ، في شهرٍ واحدٍ، لأداء نسكٍ واحدٍ، على صعيدٍ واحدٍ، لباسهم واحدٍ، يلبون لربٍ واحدٍ، نبهم واحدٍ، وكتابهم واحدٍ؛ حين يفعلون ذلك، يتجلى بشكل واضح أحد مقاصد الدين العظام، ألا وهو تحقيق الموالاة بين المؤمنين، وشعورهم برابطة الأخوة الإيمانية التي تجتاح جميع الروابط، وتذيب جميع الفوارق^(٢). قال تعالى: ﴿إِنهَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ۝﴾ [المائدة: ٥٥ - ٥٦]، وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] وهذه الموالاة تفرض حقوقاً وحرماً على أعضاء الجسد الواحد، ولبنات البنين الواحد، جسدها النبي ﷺ في خطبة عرفات، وبين يديه مائة ألف أو يزيدون، حين قال: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»^(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص: ٥٣٧).

(٢) مقاصد الحج، أحمد بن عبد الرحمن القاضي، مجلة البيان، العدد: (٢٣٨)، ذو القعدة ١٤٢٧ هـ.

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠٩).

وبإزاء هذه الموالاة، ومن لازمها ومقتضاها: البراءة من الكفار على اختلاف أصنافهم ومللهم، وقد كان موسم الحج الميدان المناسب لإعلان تلك البراءة، زماناً ومكاناً، حيث أنزل الله تعالى صدر سورة براءة: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝٢﴾ وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ، فَإِنْ بُئْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾ [التوبة: ١ - ٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فِي تِلْكَ الْحَجَّةِ فِي مُؤَدِّينَ يَوْمَ النَّحْرِ نُؤَدُّ بِمَنْى أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. قَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: ثُمَّ أَرْدَفَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عَلَيَّا، فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَدِّنَ بِرَاءَةً؛ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلَى فِي أَهْلِ مَنْى يَوْمَ النَّحْرِ؛ لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ^(١).

٢٠- تحقيق التقوى.

فجميع شرائع الدين تهدف إلى تحقيق التقوى؛ بامثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وآيات الحج، بصفة خاصة، مختمة بالأمر بتقوى الله^(٢). قال سبحانه: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى وَاتَّقُوا يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]. وقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝١٠٣﴾ [البقرة: ٢٠٣]. وقال: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

٢١- تحقيق حسن الخلق.

فالحج سفرٌ، والسفر قطعةٌ من عذاب، وفي الحج من بُعد الشقة، وزيادة

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩).

(٢) مقاصد الحج، أحمد بن عبد الرحمن القاضي، مجلة البيان، العدد: (٢٣٨)، ذو القعدة ١٤٢٧ هـ.

الكلفة، وحصول الازدحام، ما يتطلب مستوى خلقياً رفيعاً، من الصبر والاحتمال، تدفع الضجر، وأريحية بالغة، تتسامى عن الأثرة، وتحمل على الإيثار، والصفح، ومجاهدة ومغالبة للنفس الأمارة، تهزم الشهوات وحظوظ النفس^(١). قال تعالى: ﴿فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]. قال عطاء رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْجِدَالُ: أَنْ تُجَادِلَ صَاحِبَكَ حَتَّى تُغْضِبَهُ وَيُغْضِبَكَ^(٢).

٢٢- تحقيق التوبة والاستقامة^(٣).

فالحج أحد المكفرات الكبار التي تجب ما قبلها.

فعن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلَأُبَايِعَكَ. فَبَسَطَ يَمِينَهُ - قَالَ: - فَقَبَضْتُ يَدِي. قَالَ «مَا لَكَ يَا عَمْرُو». قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ. قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟». قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي. قَالَ: «أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ وَأَنَّ الْهَجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ»^(٤).

فينبغي لمن حظي بهذه الكرامة أن يحافظ عليها، فلا يلطخ صحيفته البيضاء بسواد المعاصي، وقد فسر الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ الحج المبرور بقوله: أن يرجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة. وأنشد:

يَا كَعْبَةَ اللَّهِ دَعْوَةَ اللَّاحِجِي . . دَعْوَةَ مُسْتَشْعِرٍ وَمُحْتَاجٍ
وَدَّعَ أَحْبَابَهُ وَمَسْكَنَهُ . . فَجَاءَ مَا بَيْنَ خَائِفٍ رَاجِي
إِنْ يَقْبَلِ اللَّهُ سَعْيَهُ كَرَمًا . . نَجَا، وَإِلَّا فَلَيْسَ بِالنَّاجِي

(١) مقاصد الحج، أحمد بن عبد الرحمن القاضي، مجلة البيان، العدد: (٢٣٨)، ذو القعدة ١٤٢٧ هـ، وتوضيح الأحكام من بلوغ المرام، للباسم (٤/٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣/٥٦١)، رقم: (١٣٤٠٠).

(٣) مقاصد الحج، أحمد بن عبد الرحمن القاضي، مجلة البيان، العدد: (٢٣٨)، ذو القعدة ١٤٢٧ هـ.

(٤) أخرجه مسلم (٣٣٦).

وَأَنْتَ مِمَّنْ تُرْجَى شَفَاعَتُهُ... فَأَعْطَفَ عَلَى وَافِدِ بْنِ حَجَّاجٍ^(١).

٢٣- انتفاع العلماء بعضهم من بعض في علومهم، وأحوالهم^(٢).

كما لا يخفى أن الحج بمثابة مؤتمر عالمي وعلمي، حيث يجتمع فيه العلماء في شتى التخصصات فيتتبع بعضهم من بعض، ويحققوا قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

٢٤- إعانة أهل الحرمين الشريفين ليكونا مركزين عظيمين للإسلام^(٣).

إن شعاع الإسلام بدأ من مكة أم القرى، فالحرمين هما مركز نشر الدعوة الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

٢٥- التوسعة على المقيمين في هذا البيت.

حيث حرم الله تعالى على المحرمين صيد البر، قال الله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦]، فلا يصح أن يكون وجود الحجاج سبباً للتضييق على أهل مكة ولو كان الصيد مباحاً، وهم يسكنون البادية، ومن موردهم الصيد، ولو فتح باب الإباحة للمحرمين لكان من المتصور أن يستنفذوا كل عام أكثر الصيد الذي يكون حول مكة، فيجيئوا بالحرمان بدل التوسعة، وبالتضييق عليهم بدل الترفيه، فكان لا بد من منع المحرمين من قتل الصيد، حتى لا يكون أهل مكة في ضيق؛ فوق ضيق المكان، وبعده عن الزرع والثمار^(٤).

(١) تفسير القرطبي (٤/ ١٤٢).

(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٦/ ١٧٤)، وتيسير العلام شرح عمدة الأحكام، للبسام (ص: ٣٥٧).

(٣) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٦/ ١٧٤).

(٤) زهرة التفاسير، لأبي زهرة (٥/ ٢٣٥٣).

٢٦- تنمية فضيلتي الصبر والمثابرة.

بل والمبادرة وسرعة الاستجابة على هذا النمط الملحوظ في أداء السعي بين الصفا والمروة، باعتبار أن الاستجابة السريعة هنا؛ عبادة وقربى إلى الله الذي شرعها^(١).

٢٧- يقوم الحاج بهذه العبادة الجليلة، التي تشتمل على أنواع من التذلل والخضوع بين يدي الله تعالى.

فمنها: تقحُّم الأسفار وإنفاق الأموال، والخروج من ملاذ الحياة، بخلع الثياب واستبدالها بإزار ورداء، حاسر الرأس، وترك الطيب والنساء، وترك الترفه بأخذ الشعور والأظفار.^(٢)

٢٨- أن الحج افترضه الله تعالى على المستطيع؛ سواء كانت هذه الاستطاعة بدنية أو مالية^(٣).

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

٢٩- أن طواف القدوم راجع إلى وصول العبد إلى دار سيده يتعرض لرضاه ومغفرته.

فهو يتذلل ويقبّل عتبة الباب، فإذا أكثر من ذلك أته أمارة الرضى المقربة إلى رجائه، بأن أمر بالسعي بين الصفا والمروة؛ لأن أصل ذلك راجع إلى قصة إبراهيم بين هاجر وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَام، وما آل لهم الأمر إلى العاقبة المحمودة من إزالة الضر عن هاجر وإسماعيل، ورزقهم حيث لا ماء ولا شجر ولا زرع ولا

(١) أصول الدعوة وطرقها، لأعضاء لجنة مناهج جامعة المدينة العالمية، الناشر: جامعة المدينة العالمية (ص: ٢٩).

(٢) تيسير العلام شرح عمدة الأحكام، للبسام (ص: ٣٥٦).

(٣) محاسن الشريعة في فروع الشافعية، للقفال الكبير (١٣٩)، واليسر والسماحة في الإسلام، فالح بن محمد الصغير (ص: ٣٢).

ضرع من حيث لم يحتسبا، والامتنان عليهما بحياة ولدهما بعد استسقاءهما على اليأس منه ^(١).

٣٠- أن الحاج إذا دام بهم الوقوف بعرفة جاءت الإجابة بالشفيع.

فأذن لهم بالعودة إلى البيت بالزيارة، كالعبد إذا رضي عنه سيده، أذن له بالزيارة في هيئة الاستكانة و التقشف، فالحاج إذا أفاض من عرفة أدرك هذه المعاني، ثم يجي إلى مزدلفة فيتشفع فيها، ليكون قد دعى الله تعالى وتشفع في الحل والحرم معاً؛ لأن عرفات من الحل، والمزدلفة من الحرم، والحرم هو الذي تتعلق به حرمة البيت، ولهذا قال جل وعلا: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨]، فدل على أن عرفة مشعر حلال، وإنما عم المشعران بالوقوف لذكر الله عندهما، فإذا فعل كملت للعبد أسباب استجلاب الرضى من عند مولاه، وسهل عليه ورود بيته زائراً ^(٢).

٣١- التيسير في الحج بأن افترضه الله تعالى في العمر مرة واحدة ^(٣).

عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يُهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا». فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ - ثُمَّ قَالَ - ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ» ^(٤).

٣٢- التخيير في الترتيب بين الأعمال الثلاثة يوم العيد.

الرمي، والحلق، والطواف، وهذا فيه تيسير على الحاج الذي يعاني من

(١) محاسن الشريعة في فروع الشافعية، للقفال الكبير (١٤٠).

(٢) المصدر السابق (١٤١).

(٣) المصدر السابق (١٣٩).

(٤) أخرجه مسلم (٣٣٢١).

زحمة الناس والمواصلات والأسفار^(١)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زُرْتُ قَبْلَ أَنْ أُرْمَى. قَالَ «لَا حَرَجَ». قَالَ: حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ. قَالَ «لَا حَرَجَ». قَالَ: ذَبَحْتُ قَبْلَ أَنْ أُرْمَى، قَالَ «لَا حَرَجَ»^(٢).

٣٣- أن كل خلل في واجبات الحج من غير قصد يجبر بفدية، ووجهه صحيح إذا كان القصور من هذا الوجه فقط^(٣).

قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ، فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

٣٤- التخيير بين المناسك الثلاثة: التمتع، والقران، والإفراد؛ فيه توسعة على المكلفين^(٤).

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ حَجَّةِ الْوُدَّاعِ، فَمِنَّا مَنْ أَهَلَ بِعُمْرَةٍ، وَمِنَّا مَنْ أَهَلَ بِحَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ، وَمِنَّا مَنْ أَهَلَ بِالْحَجِّ^(٥).

٣٥- إشاعة الأمن بين المسلمين.

فإن أعداد الحجاج تزداد كل عام بسبب رغبة هؤلاء في أداء هذا الركن، كذلك بسبب أمنهم على أنفسهم وأموالهم^(٦)، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾

(١) اليسر والسماحة في الإسلام، فالح بن محمد الصغير (ص: ٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٢٢).

(٣) اليسر والسماحة في الإسلام، فالح بن محمد الصغير (ص: ٣٤).

(٤) المصدر السابق (ص: ٣٣).

التمتع: هو أن يحرم بالعمرة فقط في أشهر الحج فإذا فرغ منها تمتع فيما كان محرماً عليه في حال إحرامه ثم يحرم بالحج في عامه، والقران: هو أن يجمع في إحرامه بين العمرة والحج، والإفراد: وهو أن يهل ويحرم بالحج وحده.

ينظر: القوانين الفقهية، لابن جزي (١/ ١٤٥)، والمغني لابن قدامة (٣/ ٢٦٦).

(٥) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٥٦٢)، ومسلم (٢٩٦٩).

(٦) مقاصد الحج في القرآن الكريم، عادل بن علي الشدي، مجلة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات

[البقرة: ١٢٥]، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

٣٦- شكر النعمة.

لأن العبادات بعضها بدنية وبعضها مالية، والحج عبادة لا تقوم إلا بالبدن والمال؛ ولهذا لا يجب إلا عند وجود المال وصحة البدن، فكان فيه شكر النعمتين، وشكر النعمة ليس إلا استعمالها في طاعة المنعم، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] ^(١).

٣٧- الاعتزاز بدين الإسلام.

فتجد في موسم الحج الآلاف بل الملايين من المسلمين قد اجتمعوا في مكان واحد؛ فتولد العزة في قلب كل مسلم بدين الله تعالى، وأنا لسنا ضعفاء، بل نحن أمة قوية ملئت الكون بأسره، قال تعالى: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] ^(٢).

٣٨- التكافل والتعاون.

حيث يتكافل المسلمون فيما بينهم سواء بتقديم الهدى للفقراء، أو ما تقوم به المؤسسات الخيرية من تحمل نفقة الحج عن الفقراء وغير القادرين ^(٣)، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢].

٣٩- تزكية النفس، وتطهيرها من الأخلاق الذميمة.

الحج بمثابة دورة تدريبية يتعلم فيها الحجاج حسن الخلاق، والبعد عن

الإسلامية، العدد: (٤٤)، ذو القعدة ١٤٢٩ هـ، وتيسير العلام شرح عمدة الأحكام، للبسام (ص: ٣٥٧).

(١) مقاصد الحج في الإسلام، سالم جمال الهنداوي، (ص: ٨)، إصدار شبكة الألوكة.

(٢) المصدر السابق. (ص: ١٣)، إصدار شبكة الألوكة.

(٣) المصدر السابق. (ص: ١٤)، إصدار شبكة الألوكة.

الأخلاق الذميمة^(١)، قال تعالى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

٤٠ - موافقة ما توارث الناس عن سيدنا إبراهيم، وإسماعيل عليهما السلام.

فإنهما إماما الملة الحنيفية، ومُشرِّعاها للعرب، والنبى ﷺ بُعث لتظهر به الملة الحنيفية، وتعلو به كلمتها، وهو قوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية [الحج: ٧٨]، فمن الواجب المحافظة على ما استفاض عن إماميها، كخصال الفطرة، ومناسك الحج، وهو قوله ﷺ: «قِفُوا عَلَى مشاعركم، فإنكم على إرث، من إرث أبيكم إبراهيم»^(٢).



(١) مقاصد الحج في القرآن الكريم، عادل بن علي الشدي، مجلة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد: (٢٠)، ذو القعدة ١٤٢٩ هـ.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود (١٩٢١)، والترمذي (٨٨٣) وقال: حديث حسن صحيح. وانظر: ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (٢٣/ ٢٧٤).

المطلب السادس: محاسن الإسلام في باب المعاملات.

لقد قسم الفقهاء كتب الفقه إلى أربعة أقسام: العبادات، والمعاملات، وأحكام الأسرة، والأقضية والشهادات والجنايات.

والمعاملات في الفقه تطلق على الأحكام الشرعية المنظمة لتعامل الناس في الدنيا^(١)، كالبيع والشراء والإجارة ونحوهم، فالمراد بها المعاملات المالية.

وإن شريعة الإسلام هي خاتمة الشرائع، وجامعة الأصول والشوارد، وهي شاملة لكل زمان ومكان، لا تنحصر في بوتقة واحدة؛ بل فيها من المرونة والتيسير ورفع الحرج ما يدفع أي معضلة عن الأمة.

قال الشافعي: فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]

وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا

(١) معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعه جي (١ / ٣٢٤).

الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿الشورى: ٥٢﴾^(١)

وقد بين علماء الإسلام جملة من محاسن الإسلام في باب المعاملات، اذكر منها ما يلي:

١ - أحكام المعاملات في الإسلام تقوم على جلب مصالح الدارين للعباد، ودريء المفاسد عنهم^(٢).

هذه قاعدة كبرى من قواعد الإسلام عامة وفي باب المعاملات خاصة، بنى عليها العز بن عبد السلام كتابه «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. ومن أمثلة ذلك في باب المعاملات؛ أن الله تعالى أحل البيع المبنى على منفعة كلاً من البائع والمشتري، وحرم الربا؛ لما فيه من ظلم محقق للمدين، قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٢ - انتظام شؤون الخلق في المعاملات؛ بالعدل، والقسط، والإحسان^(٣).

هذه قاعدة كلية ومقصد من مقاصد التشريع الإسلامي، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ عَلَىٰ وَلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

ومن أمثلة ذلك في باب المعاملات تحريم أكل أموال الناس بالباطل، قال

(١) الرسالة ص (١٩).

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام (٥٨/٢)، وتيسير العلام شرح عمدة الأحكام، للبسام (ص: ٤٤٩).

(٣) تيسير العلام شرح عمدة الأحكام، للبسام (ص: ٤٤٩)، والمعاملات والمقاصد، عبد الله بن بيّه، بحث مقدم للدورة الثامنة عشرة للمجلس - باريس، جمادى الثانية/ رجب ١٤٢٩ هـ / يوليو ٢٠٠٨ م، (ص: ٩).

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩]

وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَحِلُّ لِمَرْئِيٍّ مُسْلِمٍ أَنْ يُغَيِّبَ مَا بَسِلَعَتْهُ عَنْ أَخِيهِ إِنْ عَلِمَ بِهَا تَرْكَهَا»^(١).

٣- السكوت^(٢) عن بعض المعاملات دليل على العفو^(٣).

عن أبي ثعلبة الخشني، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلْ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ حُرُمَاتٍ فَلَا تَنْتَهُكُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نَسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا»^(٤).

ومن أمثلة ذلك في باب المعاملات؛ ترك الاستفصال في طعام الذين أوتوا الكتاب، فإنه يدل على جواز ذبائهم.

٤- مراعاة القصد والنية في العقود وتأثيره في التصحيح والإبطال والشروط.

فمن باع بشرط أن لا يبيع المشتري ولا يهب، فهذا شرط يبطل العقد؛ لأنه مناف للتمتع بحقوق الملكية التي منها حرية التصرف في المملوك^(٥).

ومن أمثلة ذلك حديث بريرة، الذي روته عائشة، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إِنَّ بَرِيرَةَ دَخَلَتْ عَلَيْهَا تَسْتَعِينُهَا فِي كِتَابَتِهَا وَعَلَيْهَا خَمْسَةُ أَوَاقٍ، نُجِّمَتْ عَلَيْهَا فِي خَمْسِ سِنِينَ.

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٢٣) واللفظ له، والحاكم في المستدرک (٢١٥٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) المراد بالسكوت هنا: ما لم يرد فيه دليل شرعي يخصصه أو يخص نوعه.

(٣) المعاملات والمقاصد، عبد الله بن بيه، (ص: ٢٠)، بحث مقدم للدورة الثامنة عشرة للمجلس - باريس، جمادى الثانية/ رجب ١٤٢٩ هـ / يوليو ٢٠٠٨ م.

(٤) أخرجه الدارقطني في سننه (٤٣٩٦)، وقال ابن حجر في المطالب العالية (٤١٦/١٢): رجاله ثقات إلا أنه منقطع. وضعفه الألباني في غاية المرام (٤).

(٥) زاد المعاد، لابن القيم (٥/ ١٠٠)، والمعاملات والمقاصد، عبد الله بن بيه (ص: ٢٠).

فَقَالَتْ لَهَا عَائِشَةُ وَنَفَسَتْ فِيهَا: أَرَأَيْتَ إِنْ عَدَدْتُ لَهُمْ عَدَّةً وَاحِدَةً، أَيْبَعُكَ أَهْلُكَ، فَأَعْتَقَكَ، فَيَكُونُ وَلَاؤُكَ لِي؟ فَذَهَبَتْ بِرِيرَةَ إِلَى أَهْلِهَا.
فَعَرَضَتْ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: لَا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَنَا الْوَلَاءُ.

قَالَتْ عَائِشَةُ فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اشْتَرِيهَا فَأَعْتِقِهَا، فَإِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ».
ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ رَجَالٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ، مَنْ اشْتَرَطَ شَرْطًا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ، شَرَطَ اللَّهُ أَحَقُّ وَأَوْثَقُ»^(١).

٥- دعا الإسلام أتباعه إلى مراعاة جانب العفو في المعاملات^(٢).

قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].
ومن أمثلة ذلك في باب المعاملات؛ إبراء المعسر، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ دُورُ عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، وكذلك عفو المرأة عن صداقها، قال تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

٦- النهي عن بيع ماء الفحل من محاسن الشريعة وكمالها.

إن مقابلة ماء الفحل بالأثمان، وجعله محلاً لعقود المعاوضات مما هو مستقبح ومستهجن عند العقلاء، وفاعل ذلك عندهم ساقط من أعينهم في أنفسهم، وقد جعل الله سبحانه فطر عباده لا سيما المسلمين ميزاناً للحسن والقيح، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون قبيحاً،

(١) أخرجه البخاري (٢٥٦٠).

(٢) العفو عند الأصوليين والفقهاء، يوسف صلاح الدين طالب، (ص: ٤٩٣)، دار النوادر، الطبعة الثانية ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

فهو عند الله قبيح. ^(١)

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَسْبِ الْفَحْلِ ^(٢).

٧- عدم صحة رجوع المبرئ عن الإبراء.

وهذه قاعدة يعبر عنه الفقهاء بقولهم: الساقط لا يعود ^(٣)، فعن صفوان بن أمية قال: كُنْتُ نَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ عَلَى خَمِيصَةٍ ^(٤) لِي ثَمَنُهَا ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا، فَجَاءَ رَجُلٌ فَاخْتَلَسَهَا مِنِّي، فَأَخَذَ الرَّجُلُ فَأَتَى بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَ بِهِ لِيُقْطَعَ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَتَقْطَعُهُ مِنْ أَجْلِ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا، أَنَا أَبِيعُهُ وَأُنْسِيهِ ثَمَنَهَا، قَالَ: «أَلَا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ» ^(٥).

دل الحديث على أن صفوان بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان له التنازل عن حقه، وترك الدعوى، لكن حقه هذا سقط بعد بلوغ الحكم الإمام، فلم يعد بعد ما سقط، فلذلك لم يقبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عفوه وشفاعته.

٨- نظام المعاملات قائم على الأخلاق، ومراقبة الخالق ^(٦).

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» ^(٧)، فالنظام الإسلامي ليس مثل الأنظمة الوضعية التي تعتمد قاعدة: الغاية تبرر الوسيلة.

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (٥/ ٧٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٨٤). ومعنى عسب الفحل: هو كراء ضرابه، أي يأخذ على تلقيحه أجرًا نظير ماء الفحل.

(٣) الأشباه والنظائر، لابن نجيم (ص: ٢٧٢).

(٤) الخميصة: ثوب أسود من خز، أو صوف مُعَلَّم. جامع الأصول (٣/ ٦٠٢).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٣٩٤)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٣١٧).

(٦) المعاملات المالية أصالة ومعاصرة، للدبيان (١/ ١٧).

(٧) أخرجه مسلم (٢٩٤).

٩- الإسلام لم يحد المعاملات المالية بحد معين.

وإنما ترك للناس حق التطوير والتجديد وإحداث المعاملات والعقود والشروط الجديدة، بشرط أن تكون تلك المعاملات وفق القواعد والضوابط الشرعية، التي تعمل على إقامة العدل بين الناس^(١).

فالأصل في المعاملات، وأنواع التجارات والمكاسب، الحل والإباحة، فلا يمنع منها إلا ما حرمه الله ورسوله.

فهذا أصل عظيم، يستند إليه في المعاملات والعادات.

فمن حرم شيئاً من ذلك، فهو مطالب بالدليل، لأنه على خلاف الأصل. وبهذا يُعلم سماحة الشريعة وسعتها، وصلاحياتها لكل زمان ومكان، وتطورها حسب مقتضيات البشر ومصالح الناس^(٢).

١٠- النظام المالي الإسلامي ليس من شرط قبوله التبعيد، بل هو صالح للبشرية كافة على اختلاف مللهم ونحلهم.

قال الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فالمسلم كما هو مطالب أن يتعامل بهذا النظام مع أخيه المسلم، هو محكوم بهذا النظام إذا تعامل به مع باقي الطوائف الأخرى^(٣).

١١- النظام الإسلامي المالي وسطي قائم على التوازن.

ففي الوقت الذي يعطي السوق الحرية المشروعة، ينهى عن التدخل في السوق إذا كان هذا التدخل قائماً على الإكراه والظلم^(٤)؛ كما امتنع الرسول ﷺ عن التسعير، فعن أنس قال: غَلَا السَّعْرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا

(١) المعاملات المالية أصالة ومعاصرة، للديبان (١٨/١).

(٢) تيسير العلام شرح عمدة الأحكام، للبسام (ص: ٤٤٩).

(٣) المعاملات المالية أصالة ومعاصرة، للديبان (١٩/١).

(٤) المصدر السابق. (١٩/١).

يَا رَسُولَ اللَّهِ: سَعَرْنَا. فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّزَاقُ وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنَّ أَلْقَى رَبِّي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطْلُبُنِي بِمَظْلَمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ^(١).

١٢ - المعاملات في النظام الإسلامي يشترط فيها الرضى من المتعاقدين^(٢).

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

١٣ - نظام المعاملات في الإسلام مقدّم فيه منفعة السوق على منفعة الجالب^(٣).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ»^(٤).

قال المازري: المصلحة تقتضي أن ينظر للجماعة على الواحد ولا يقتضي أن ينظر للواحد على الواحد، ولمّا كان البادي إذا باع لنفسه انتفع سائر أهل السوق؛ فاشتروا ما يشترونه رخيصةً وانتفع سائر سكان البلد؛ نظر لأهل البلد عليه^(٥).

١٤ - منع النظام الإسلامي من التعامل بالدينون.

فمنع من بيع الدين بالدين^(٦)، فعن ابن عمر قال: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كَالِيٍّ بِكَالِيٍّ؛ الدَّيْنِ بِالْدَّيْنِ^(٧).

قال ابن المنذر: أجمع أهل العلم أن الدين بالدين لا يجوز، فمن ذلك: أن يسلف الرجل للرجل في طعام، فيحل عليه، ليجعله عليه سلفاً في طعام آخر أكثر

(١) أخرجه الترمذي (١٣٦٢)، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في غاية المرام (٣٢٣).

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، للبسام (٢١٣/٤).

(٣) المعاملات المالية أصالة ومعاصرة، للديان (٢٠/١).

(٤) أخرجه مسلم (٣٨٩٩).

(٥) المعلم بفوائد مسلم، للمازري (٢٤٧/٢).

(٦) المعاملات المالية أصالة ومعاصرة، للديان (٢١/١).

(٧) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٣٤٢)، والبيهقي في الكبير (١٠٨٤٥)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

منه، أو يبيعه ذلك الطعام الذي في ذمته بدنانير إلى وقت ثان، فهذا دين انقلب إلى دين مثله^(١).

١٥- اشترط الإسلام في المعاملات المالية أن يكون محل التعاقد معلوماً لكل من المتعاقدين.

فلا يجوز أن يكون الثمن أو المثلث مجهولاً^(٢)، ومن ذلك ما جاء عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ: نَهَى عَنْ بَيْعِ حَبْلِ الْحَبَلَةِ، وَكَانَ يَبِيعُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، كَانَ الرَّجُلُ يَتَّاعُ الْجَزُورَ إِلَى أَنْ تُتَّجَ النَّاقَةُ، ثُمَّ تُتَّجَ الَّتِي فِي بَطْنِهَا^(٣).

١٦- يشترط في النظام المالي الإسلامي؛ أن يكون المبيع مملوكاً للبائع، أو مأذوناً له في البيع.

وبهذا الشرط حدّ من التلاعب والمضاربات على جني الأرباح دون أن يكون هناك سلع حقيقية^(٤)، قال ابن عباس: أَمَّا الَّذِي نَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ فَهُوَ الطَّعَامُ أَنْ يُبَاعَ حَتَّى يُقْبَضَ^(٥).

وعن حكيم بن حزام قال: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ الرَّجُلُ يَسْأَلُنِي مِنَ الْبَيْعِ مَا لَيْسَ عِنْدِي، أَتَبَاعُ لَهُ مِنَ السُّوقِ ثُمَّ أَيْعُهُ؟ قَالَ: «لَا تَبِعْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ»^(٦).

(١) الإشراف على مذاهب العلماء، لابن المنذر (٤٤ / ٦).

(٢) تيسير العلام شرح عمدة الأحكام، للبسام (ص: ٤٤٩)، والمعاملات المالية أصالة ومعاصرة، للديان (٢١ / ١).

(٣) أخرجه البخاري (٢١٤٣) واللفظ له، ومسلم (٣٨٨٢).

(٤) المعاملات المالية أصالة ومعاصرة، للديان (٢١ / ١).

(٥) أخرجه البخاري (٢١٣٥).

(٦) أخرجه الترمذي (١٢٧٧)، وقال أبو عيسى الترمذي: حديث حكيم بن حزام حديث حسن قد روى عنه من غير وجه. وصححه الألباني في الإرواء (١٢٩٢).

١٧- مما يميز النظام الإسلامي؛ أنه جعل هناك تلازماً بين الربح وبين الضمان؛ فمنع من الربح في المعاملات المالية التي لم تدخل ضمان العاقد^(١).

قال **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** «لَا يَحِلُّ سَلَفٌ وَبَيْعٌ وَلَا شَرْطَانِ فِي بَيْعٍ، وَلَا رِبْحٌ مَا لَمْ يُضْمَنْ وَلَا يَبْعُ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ»^(٢).

قال الخطابي: فهو أن يبيعه سلعة قد اشتراها ولم يكن قبضها فهي من ضمان البائع الأول ليس من ضمانه، فهذا لا يجوز بيعه حتى يقبضه فيكون من ضمانه.^(٣)

١٨- حرم الإسلام كل أوجه الكسب غير المشروع.

من ذلك: تحريم الرشوة، وأكل أموال الناس بالباطل، واستغلال أصحاب النفوذ نفوذهم لأكل أموال الناس بغير حق^(٤)، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وعن عبد الله بن عمرو قال: لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** الرَّاشِيَّ وَالْمُرْتَشِيَّ^(٥).

١٩- وضع النظام الإسلامي الضوابط والقواعد التي استنبطها الفقهاء من عموماً النصوص.

ما تستقيم لها أي سوق يقام في العالم، بصرف النظر عن الزمان والمكان^(٦)؛ فقد قال رسول الله **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»^(٧).

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم (٣/ ١١٩)، وحاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٩/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه الترمذي (١٢٧٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) معالم السنن (١٤١/٣).

(٤) المعاملات المالية أصالة ومعاصرة، للديبان (١/ ٢١).

(٥) أخرجه الترمذي (١٣٨٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٦) المعاملات المالية أصالة ومعاصرة، للديبان (١/ ٢١).

(٧) أخرجه ابن ماجه (٢٤٣١) وغيره، وصححه الألباني في الإرواء (٨٩٦).

قال ابن النجار: وهذه القاعدة فيها من الفقه ما لا حصر له، ولعلها تتضمن نصفه؛ فإن الأحكام إما لجلب المنافع، أو لدفع المضار^(١).

٢٠- من محاسن الشريعة وعدلها وقيامها بمصالح العباد؛ ورودها بالشفعة.

ولا يليق بها غير ذلك؛ فإن حكمة الشارع اقتضت رفع الضرر عن المكلفين ما أمكن، فإن لم يمكن رفعه إلا بضرر أعظم منه بقاءه على حاله، وإن أمكن رفعه بالتزام ضرر دونه رفعه به، ولما كانت الشركة منشأ الضرر في الغالب؛ فإن الخلطاء يكثر فيهم بغي بعضهم على بعض شرع الله سبحانه رفع هذا الضرر: بالقسمة تارة وانفراد كل من الشريكين بنصيبه.

وبالشفعة تارة وانفراد أحد الشريكين بالجملة؛ إذا لم يكن على الآخر ضرر في ذلك، فإذا أراد بيع نصيبه وأخذ عوضه؛ كان شريكه أحق به من الأجنبي، وهو يصل إلى غرضه من العوض من أيهما كان؛ فكان الشريك أحق بدفع العوض من الأجنبي، ويزول عنه ضرر الشركة، ولا يتضرر البائع؛ لأنه يصل إلى حقه من الثمن، وكان هذا من أعظم العدل وأحسن الأحكام المطابقة للعقول والفطر ومصالح العباد^(٢).

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالشُّفْعَةِ فِي كُلِّ شَرَكَةٍ لَمْ تُقَسَّمْ رُبْعَةً أَوْ حَائِطًا، لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَبِيعَ حَتَّى يُؤْذَنَ شَرِيكُهُ، فَإِنْ شَاءَ أَخَذَ، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ، فَإِذَا بَاعَ وَلَمْ يُؤْذَنُ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ^(٣).

(١) شرح الكوكب المنير، لابن النجار الفتوحى (٤/٤٤٣).

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم (٢/٩٢).

(٣) أخرجه مسلم (٤٢١٣).

٢١- من محاسن الشريعة - التي لا يهتدي إليها إلا أصحاب العقول المستنيرة؛ -

تحريم الربا.

فالربا نوعان: جلي وخفي، فالجلي حرم لما فيه من الضرر العظيم، والخفي حرم لأنه ذريعة إلى الجلي؛ فتحريم الأول قصداً، وتحريم الثاني وسيلة.

فأما الجلي فربا النسيئة، وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، مثل أن يؤخر دينه ويزيده في المال، وكلما أخره زاد في المال، حتى تصير المائة عنده آلافاً مؤلفة؛ وفي الغالب لا يفعل ذلك إلا معدم محتاج؛ فإذا رأى أن المستحق يؤخر مطالبته ويصبر عليه بزيادة يبذلها له تكلف بذلها ليفتدي من أسر المطالبة والحبس، ويدافع من وقت إلى وقت، فيشتد ضرره، وتعظم مصيبته، ويعلوه الدين حتى يستغرق جميع موجوده، فيربو المال على المحتاج من غير نفع يحصل له، ويزيد مال المرابي من غير نفع يحصل منه لأخيه، فيأكل مال أخيه بالباطل، ويحصل أخوه على غاية الضرر، فمن رحمة أرحم الراحمين وحكمته وإحسانه إلى خلقه أن حرم الربا، ولعن آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه، وأذن من لم يدعه بحربه وحرب رسوله، ولم يجيء مثل هذا الوعيد في كبيرة غيره، ولهذا كان من أكبر الكبائر، قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [١٣٠] وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿[آل عمران: ١٣٠، ١٣١].

وأما ربا الفضل فتحريمه من باب سد الذرائع، كما صرح به في حديث عثمان بن عفان، أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَبِيعُوا الدِّينَارَ بِالدِّينَارَيْنِ، وَلَا الدِّرْهَمَ بِالدِّرْهَمَيْنِ»^(١).

فمنعهم من ربا الفضل لما يخافه عليهم من ربا النسيئة، وذلك أنهم إذا باعوا درهماً بدرهمين، ولا يفعل هذا إلا للتفاوت الذي بين النوعين - إما في الجودة،

(١) أخرجه مسلم (٤٠٦٣).

وإما في السكة، وإما في الثقل والخفة وغير ذلك - تدرجوا بالربح المعجل فيها إلى الربح المؤخر، وهو عين ربا النسيئة، وهذه ذريعة قريبة جداً؛ فمن حكمة الشارع أن سد عليهم هذه الذريعة، ومنعهم من بيع درهم بدرهمين نقداً ونسيئة؛ فهذه حكمة معقولة مطابقة للعقول، وهي تسد عليهم باب المفسدة^(١).

٢٢- من محاسن الشريعة الكاملة الحكمة؛ منع المشتري من التصرف في المبيع حتى يتم استيلاؤه عليه وينقطع عن البائع وينفطم عنه.

فلا يطمع في الفسخ والامتناع من الإقباض، وهذا من المصالح التي لم يهملها الشارع؛ حتى إن من لا خبرة له من التجار بالشرع يتحرى ذلك ويقصده لما في ظنه من المصلحة وسد باب المفسدة^(٢)، عن ابن عباس: أَمَّا الَّذِي نَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ الطَّعَامُ أَنْ يُبَاعَ حَتَّى يُقْبَضَ^(٣).

٢٣- أنه قد ثبت عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه رخص في العرايا^(٤) يبتاعها أهلها بخرصها تمرًا.

فيجوز ابتياع الربوي هنا بخرصه، وأقام الخرص عند الحاجة مقام الكيل، وهذا من تمام محاسن الشريعة، كما أنه في العلم بالزكاة وفي المقاسمة أقام الخرص مقام الكيل، فكان يخرص الثمار على أهلها يحصي الزكاة^(٥)، عن زيد بن ثابت أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رَخَّصَ فِي الْعَرَايَا أَنْ تُبَاعَ بِخَرْصِهَا كَيْلًا^(٦). والعلة التي من أجلها أبيع ذلك؛ أن رجلاً احتاجوا إلى الرطب، وليس

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم (٢/ ١٠٣).

(٢) حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٩/ ٢٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢١٣٥).

(٤) بيع العرايا: أن يشتري رجل من آخر ما على نخلته من الرطب بقدره من التمر تخميناً ليأكله أهله رطباً.

ينظر: معجم لغة الفقهاء، للقلعجي (ص: ٣٠٨).

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٠/ ٣٥٠).

(٦) أخرجه مسلم (٣٩٦٥).

بأيديهم نقود يشترون بها الرطب، وعندهم تمر جاف، فشكوا إلى رسول الله ﷺ أمرهم، فرخص لهم أن يشتروا العرايا بخرصها من التمر الذي بأيديهم؛ ليأكلوا رطباً. (١)

٢٤- ومن محاسن الشريعة في المعاملات والبيوع؛ حفظ المال وصيانتها من الضياع أو الركود أو التناقض.

أهم الأحكام التي شرعت لتحقيق هذا المقصد هو الحث على العمل، والكسب الحلال، والبحث عن الرزق، وإجلاله، وجعله عبادة وقربة يثاب عليها صاحبها. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]. (٢)

٢٥- ومن محاسن الشريعة إباحة البيوع والإجازات.

لأن الحاجة داعية إليه، فلا يحصل الإنسان على ما يحتاجه إذا كان بيد غيره -غالبًا- إلا بطريقه (٣)، وكما يسهم بطريق مشروع في تبادل الأموال وترويجها بين الناس، قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٢٦- تحريم تبذير المال وإضاعته، ولو في المباح المشروع:

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

٢٧- إباحة الدفاع عن المال، والمقاتلة من أجله (٤).

عن عبد الله ابن عمرو قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَنْ قُتِلَ دُونَ

(١) توضيح الأحكام للبسام (٤/٢٩٤).

(٢) علم المقاصد الشرعية، للخادمي (ص: ١٧٥).

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، للبسام (٤/٢١١).

(٤) علم المقاصد الشرعية، للخادمي (ص: ١٧٦).

مَالَهُ فَهُوَ شَهِيدٌ^(١).

٢٨- توثيق الديون والاستشهاد عليها، والحث على الوفاء بها وتسديدها في

آجالها^(٢).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٢٩- أن عقود التبرعات تقوي أواصر المجتمع.

وتعمق الروابط الإسلامية والإنسانية والتضامنية بين القلوب، وفي هذا تحقيق للوحدة والقوة والعزة، وطريق لبناء الأمة الإسلامية والحضارة الإيمانية الراشدة^(٣)، عن ابن عمر وابن عباس يرفعان الحديث قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لَا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُعْطَى عَطِيَّةٌ ثُمَّ يَرْجِعَ فِيهَا إِلَّا الْوَالِدَ فِيمَا يُعْطَى وَلَدَهُ، وَمَثَلُ الَّذِي يُعْطَى الْعَطِيَّةَ ثُمَّ يَرْجِعُ فِيهَا كَمَثَلِ الْكَلْبِ أَكَلَ حَتَّى إِذَا شَبِعَ قَاءَ ثُمَّ عَادَ فِي قَيْئِهِ»^(٤).

٣٠- حاجة الإنسان تتعلق بما في يد صاحبه غالباً، وصاحبه قد لا يبذله له.

ففي تشريع البيع وسيلة إلى بلوغ الغرض من غير حرج^(٥)، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

(١) أخرجه البخاري (٢٤٨٠)، ومسلم (٣٧٨).

(٢) علم المقاصد الشرعية، للخادمي (ص: ١٧٦).

(٣) المصدر السابق. (ص: ١٧٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٢٧٩)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٥) فتح الباري، لابن حجر (٢٨٧/٤).

٣١- إن فطرة الإنسان تتوق إلى التملك وحب المال حباً جماً.

فكان لا بد للإسلام أن يقضي بربط المال بآحاد الناس حتى تنطلق غريزتهم من كسب الحرمان، وبذلك يندفع نشاطهم إلى استثمار المال الذي في حوزتهم وتنميته، وفي ذلك نفع مشترك للجميع أفراداً وجماعات، قال تعالى: ﴿رُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤] ^(١).

٣٢- إثبات خيار الشرط في المعاملات يركز على مساس حاجة الناس إليه؛ لدفع الغبن والظلامة بين المتعاقدين.

وبهذا الخيار يملك المتعاقد الوقت الكافي للتروي والمشورة، بخاصة إذا لم يكن له خبرة بصنف المعقود عليه، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سَمِعْتُ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَكَانَتْ بِلْسَانِهِ لَوْنَةٌ يَشْكُو إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَا يَزَالُ يُغْبَنُ فِي الْبَيْعِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا بَايَعْتَ فَقُلْ: لَا خِلَابَةَ، ثُمَّ أَنْتَ بِالْخِيَارِ فِي كُلِّ سِلْعَةٍ ابْتَعْتَهَا ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَإِنْ رَضِيتَ فَأَمْسِكْ وَإِنْ سَخِطْتَ فَأَرُدْ» ^(٢).

وجاء في شرح المذهب: واعلم أن أقوى ما يحتج به في ثبوت خيار الشرط الإجماع، وقد نقلوا فيه الإجماع وهو كافٍ ^(٣).

٣٣- اتفاق الفقهاء اشتراط معرفة المبيع معرفة نافية للجهالة.

يهدف إلى قطع المنازعات بين المتعاقدين خاصة والناس عامة، والتزام هذا الشرط يحقق شيوع السلم والأمن، واستقرار المعاملات، فتنمو الحياة الاقتصادية، ويزدهر التعامل من غير وقوع أضرار ^(٤)، عن أبي هريرة قال: نَهَى

(١) مقاصد الشريعة في أحكام البيوع، زهر الدين عبد الرحمن (ص: ٥٥).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبير (١٠٧٦٥)، قال في المجموع شرح المذهب (٩/ ١٩٠): هذا الحديث حسن رواه البيهقي بهذا اللفظ بإسناد حسن.

(٣) المجموع شرح المذهب (٩/ ١٩٠).

(٤) مقاصد الشريعة في أحكام البيوع، زهر الدين عبد الرحمن (ص: ١٤٢).

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَيْعِ الْحَصَاةِ وَعَنْ بَيْعِ الْغَرَرِ^(١).

٣٤- مراعاة شعور الآخرين، ونبذ روح العداوة والبغضاء بين المسلمين^(٢).

ومن ذلك ما جاء عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَبِيعُ الرَّجُلُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ وَلَا يَخْطُبُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لَهُ»^(٣). ولا شك أن في دخوله على بيع أخيه ما يوقع العداوة والتنافس والغل بينهما؛ فمنعت الشريعة من هذا الدخول قطعاً للفساد.

٣٥- في حل البيع دليل على شمول الشريعة الإسلامية.

وأنها ليست كما قال أعداؤها: لا تنظم إلا المعاملات التي بين الخالق والمخلوق، بل هي تنظم المعاملات بين الخالق والمخلوق، وبين المخلوقين بعضهم مع بعض، وتنظيمها للمعاملة بين المخلوقين بعضهم مع بعض من أهم الأمور؛ لأنه لولا ذلك لأكل الناس بعضهم بعضاً، واعتدى الناس بعضهم على بعض، فكان من الحكمة ومن مقتضى عدل الله عز وجل أن تنظم المعاملات بين الخلق؛ لئلا ترجع إلى أهوائهم وعدوانهم، ثم إن أطول آية في كتاب الله هي آية الدين، وهي في المعاملات بين الخلق فكيف يقال: إن الشريعة الإسلامية تنظم المعاملة بين الخالق والمخلوق فقط؟^(٤).

٣٦- من محاسن البيع والشراء: وصول الإنسان إلى ما يحتاج إليه من مأكَل ومشرب وملبس ومسكن^(٥).

فلا تستقيم حياة الإنسان إلا بالتعاون والتبادل التجاري؛ وبهذا تنظم حياة الفرد والجماعة، ويرزق الله بعضهم ببعض.

(١) أخرجه مسلم (٣٨٨١).

(٢) مقاصد الشريعة في أحكام البيوع، زهر الدين عبد الرحمن (ص: ١٦٨).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٣٩)، ومسلم (٣٥٢١) واللفظ له.

(٤) الشرح الممتع على زاد المستقنع، لابن عثيمين (٩٣/٨).

(٥) موارد الظمان لدروس الزمان (٣٧٩/٦).

٣٧- ومن محاسنه: قطع مسافة الطلب.

فإن من طلب الشيء من معدنه يحتاج إلى الأسفار، وركوب المركوب، وتحمل الأخطار، ومتى وجده بالبيع سلم من الأخطار وسقط عنه مؤنة الأسفار، فانظر إلى العود والمسك، والسيارات والمكائن والأقمشة والهيل والسكر ونحو ذلك، معادنها بعيدة، فمن لطف الله بعباده أن سخر بعض الناس لبعض، وجاءت الشريعة الكاملة بحل أنواع المعاملات كالإيجارات والشركات، إلا ما دل الدليل على تحريمه مما فيه ضررٌ أو ظلمٌ أو جهالةٌ أو نحو ذلك، فمن تأمل المعاملات الشرعية، رأى ارتباطها بصلاح الدين والدنيا وشهد لله بسعة رحمته ولطفه بعباده، وحكمته حيث أباح لعباده جميع الطيبات، ولم يمنع من ذلك إلا كل خبيث ضار على الدين أو العقل أو البدن أو المال.

٣٨- من محاسن الإجارة دفع حاجات العباد بقليل من الإبدال ويسير من الأموال.

فلا كل أحد يملك داراً يسكنها، ولا سيارةً يركبها، ولا طائفةً يركبها، ولا طاحونةً يطحن فيها، ولا مخزنًا لأمواله، ونحو ذلك مما يطول تعدادُه؛ فجوزت الإجارة.

٣٩- أما الوكالة والكفالة ففيهما من الإحسان ما لا يخفى على أحد ممن اعتقد الشرع ومن لم يعتقد، وعقل الشرائع، أو لم يعقل.

فإن الله تعالى خلق الخلائق، وجعلهم مختلفين في القصد والهمم، فليس كل أحد يرغب أن يباشر الأعمال بنفسه، ولا كلٌ يهتدي إلى المعاملات؛ فمن لطف الله بخلقه إباحتها، فلا يليق بأصحاب المروآت وأولياء الأمور مباشرة البياعات كلها بأنفسهم؛ فالنبي ﷺ باشر بعض الأمور إلى غيره، وباشر ذبح الأضحية بنفسه، وفوض إلى علي ذبح قسم من هديه ﷺ.

وأما الحسن في الكفالة فإن فيها إظهار الشفقة والرحمة ومراعاة الأخوة.

يبدل الذمة ليضمها إلى الذمة فينفسح وجه المطالبة، ويسكن قلب المطالب بسبب السعة؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيماً﴾ إلى

أن جعل كافلها زكريا كما قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وإذا علمت محاسن الوكالة والكفالة، فالحوالة واضحة محاسنها ففي الحوالة كفالة ووكالة وزيادة فراغ ذمة الأصيل عن الحزن الطويل، فإذا قبلت حوالته أدخلت على قلب أخيك - بفراغ ذمته - سروراً، ولا يخفى ما في إدخال السرور على المسلم من الأجر.

٤٠- ومن محاسن الشفعة أن الجار ربما يكون في حاجة إلى هذه الحصبة المبيعة.

كأن يكون بيته ضيقاً، ويريد اتساعه، أو تكون الأرض المشتركة بجوار مزارعه ويحتاج إليها.

ومن محاسنها؛ التنبيه على عظم حق الجار والشريك، حيث إن له الحق في التقدم على غيره في الشراء، إلا إذا أسقط حقه بامتناعه عن الشراء.

ومنها دفع ضرر الجار، قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لا ضرر ولا ضرار» ولا شك عند أحد في حسن دفع ضرر التأذي بسبب المجاورة على الدوام من إيقاد نيران، وإعلاء جدار، وإثارة غبار ودخان.

٤١- أما الوديعة فمحاسنها ظاهرة، إذ فيها إعانة عباد الله في حفظ أموالهم، ووفاء الأمانة.

وهو من أشرف الخصال عقلاً وشرعاً، ومن محاسنها أنها إحسان إلى عباد الله، والله يحب المحسنين، ومنها أنها سبب للتآلف والتآخي بين المسلمين، وسبب لمحبة بعضهم لبعض.

٤٢- وأما الهبة فمستحبة؛ إذا أريد بها وجه الله.

والأصل فيها قبل الإجماع؛ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾، وقوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ والله سبحانه كريمٌ جوادٌ وهاب.

٤٣- ومن محاسنها أنها سبب للتحاب والتواد.

كما في الحديث: «تهادوا تحابوا»^(١). وقد أهدى **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** للنجاشي حلة

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤)، وصححه الألباني في الإرواء (١٦٠١).

وأواقي من مسك، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقبل الهدية ويثيب عليها.

٤٤- ومن محاسنها أنها تقوي الصلة بين أفراد الأمة.

ومتى قويت الصلة سارت الأمة بقدّم ثابت، فحسن الصلة بين أفراد الأمة سر نجاحها.

ومن محاسنها وفرة الثقة بين المتهادين، إلى غير ذلك من المحاسن. ^(١)

٤٥- ومن محاسن الشريعة؛ تحريم كل بيع ومعاملة فيها إضرار بالنفس أو بالغير.

المعاملات والعقود المحرّمة: ترجع إلى ظلم الطرفين، أو أحدهما، وذلك راجع إلى قواعد ثلاث هي:

١ - قاعدة الربا.

٢ - قاعدة الغرر والجهالة.

٣ - قاعدة الخداع والتغير.

فهي أساس المعاملات المحرّمة، ويدخل تحتها من الصور والجزئيات الشيء الكثير، من العقود والأحكام التي يحرمها الإسلام، وقد فصلت الشريعة أحكام المعاملات والأحوال الشخصية، والجنايات والعقوبات، مما يدل على أنّ الإسلام دين ودولة، فكما أنّه يُعنى فيما بين العبد وبين ربه من عبادات، كذلك ينظم أعماله وتصرفاته في أعمال الحياة الدنيا.

فالإسلام لم يدع شيئاً مما يصلح أحوال هذا المجتمع إلّا نظّمه أحسن نظام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. ^(٢)

(١) موارد الظمان لدروس الزمان (٦/ ٣٨٢).

(٢) توضيح الأحكام للبسام (٤/ ٢١٢-٢١٣).

المطلب السابع: محاسن الإسلام في باب الجهاد.

الجهاد سَنَّةُ الله الماضية بين العباد، وهو ذُرْوَةُ سنام الإسلام، وطريق العزة والرفعة بين الأنام، كتبه الله على عباده المؤمنين لنشر دعوة الإسلام، وحماية بيضة المسلمين، وقد فُرض القتال على النبي ﷺ في العام الثاني من الهجرة، أي بعد بعثته ﷺ بخمسة عشر عامًا.

وحقيقة الجهاد؛ هو الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان^(١).

وقد بين علماء الإسلام جملة من محاسن الإسلام في باب الجهاد، ومنها ما يلي:

عند ذكر كلمة الجهاد فالمتبادر إلى الذهن هو القتال - وهذا ما اصطلح عليه الفقهاء خاصة^(٢) -، فصار مصطلح الجهاد مرادفًا للقتال فقط، وإن من محاسن شريعة الإسلام

١ - أن الجهاد أنواع وأقسام.

قال ابن حزم: الجهاد ينقسم أقسامًا ثلاثة:

أحدها: الدعاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ باللسان.

والثاني: الجهاد عند الحرب بالرأي والتدبير.

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٠ / ١٩١).

(٢) عرف الفقهاء مصطلح الجهاد بتعريفات عديدة، إن اختلفت في المبنى فقد اتفقت في المعنى غالبًا، ومن هذه التعريفات: قتال مسلم كافرًا غير ذي عهد؛ لإعلاء كلمة الله، أو حضوره له، أو دخول أرضه له. ينظر: شرح حدود ابن عرفة، للرصاع (ص: ١٣٩).

والثالث: الجهاد باليد في الطعن والضرب.

فوجدنا الجهاد في اللسان لا يلحق فيه أحدٌ بعد رسول الله ﷺ أباً بكر وعمر، أما أبو بكر؛ فإن أكابر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أسلموا على يديه، فهذا أفضل عمل، وأما عمر فإنه من يوم أسلم عز الإسلام، وعَبِدَ الله تعالى بمكة جهراً، وجاهد المشركين بمكة بيديه فضرب وضربَ حتى ملوه فتركوه فَعَبِدَ الله تعالى علانية، وهذا أعظم الجهاد؛ فقد انفرد هذان الرجلان بهذين الجهادين الذين لا نظير لهما.

وبقي القسم الثاني: وهو الرأي والمشورة فوجدناه خالصاً لأبي بكر ثم لعمر.

وبقي القسم الثالث: وهو الطعن والضرب والمبارزة فوجدناه أقل من مراتب الجهاد ببرهان ضروري، وهو أن رسول الله ﷺ لا شك عند كل مسلم أنه المخصوص بكل فضيلة؛ فوجدنا جهاده ﷺ إنما كان في أكثر أعماله وأحواله القسمين الأولين: من الدعاء إلى الله عَزَّجَلَّ، والتدبير والإرادة، وكان أقل عمله ﷺ الطعن والضرب والمبارزة، لا عن جبن بل كان ﷺ أشجع أهل الأرض قاطبةً نفساً ويداً وأتمهم نجدةً، ولكنه كان يؤثر الأفضل فالأفضل من الأفعال فيقدمه عليه السلام ويشغل به ^(١).

وقال ابن القيم: الجهاد أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين ^(٢).

٢- الجهاد مقصوده أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله.

فمقصوده إقامة دين الله لا استيفاء الرجل حظه؛ ولهذا كان ما يصاب به المجاهد في نفسه وماله أجره فيه على الله؛ فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم (١٠٧/٤)، ومنهاج السنة النبوية، لابن تيمية (٨٧/٨).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (٩/٣).

بأن لهم الجنة^(١)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يَنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٢).

٣- الكفار إذا أسلموا أو عاهدوا لم يضمنوا ما أتلفوه للمسلمين من الدماء والأموال.

بل لو أسلموا وبأيديهم ما غنموه من أموال المسلمين كان ملكاً لهم عند جمهور العلماء: كمالك وأبي حنيفة وأحمد وهو الذي مضت به سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنة خلفائه الراشدين^(٣)، عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلَأُبَايِعَكَ. فَبَسَطَ يَمِينَهُ - قَالَ: - فَقَبَضْتُ يَدِي. قَالَ «مَا لَكَ يَا عَمْرُو». قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ. قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا». قُلْتُ: أَنْ يُعْفَرَ لِي. قَالَ: «أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهَجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ»^(٤).

فالكافر إذا أسلم هدم الإسلام ما كان قبله، دخل في ذلك ما اعتدي به على المسلمين في نفوسهم وأموالهم؛ لأنه ما كان يعتقد ذلك حراماً؛ بل كان يستحله، فلما تاب من ذلك غفر له هذا الاستحلال وغفرت له توابعه.

٤- المقام في ثغور المسلمين للدفاع عن الدين والأرض والعرض أفضل من المجاورة في المساجد الثلاثة - أي: المسجد الحرام، والنبوي، والأقصى -.

وقد نص على ذلك غير واحد من الأئمة؛ وذلك لأن الرباط من جنس الجهاد، والمجاورة غايتها أن تكون من جنس الحج^(٥)؛ كما قال تعالى: ﴿أَجْعَلْتُكُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٧٠ / ١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٦١٩٥).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٧٠ / ١٥).

(٤) أخرجه مسلم (٣٣٦).

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٥ / ٢٨).

اللَّهُ لَا يَسْتَوْوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴿[التوبة: ١٩].

وعن مجاهد قال: كان أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الرِّبَاطِ فَفَزَعُوا إِلَى السَّاحِلِ، ثُمَّ قِيلَ: لَا بَأْسَ، فَأَنْصَرَفَ النَّاسُ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَقَفَ فَمَرَّ بِهِ إِنْسَانٌ، فَقَالَ: مَا يُوقِفُكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَوْقِفُ سَاعَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ الْقَدَرِ عِنْدَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ»^(١).

٥- نفع الجهاد عامٌ لفاعله ولغيره في الدين والدنيا.

ومشتملٌ على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، فإنه مشتملٌ من محبة الله تعالى، والإخلاص له، والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له، والصبر والزهد، وذكر الله، وسائر أنواع الأعمال؛ على ما لا يشتمل عليه عمل آخر^(٢).

عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادُ؟ قَالَ «لَا أَجِدُهُ» - قَالَ - هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَقْرَأَ وَتَصُومَ وَلَا تَفْطِرَ؟ «قَالَ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟!»^(٣).

٦- قد جعل الله أساس محبته ومحبة رسوله الجهاد في سبيله، والجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به، وكمال بغض ما نهى الله عنه.

ولهذا قال في صفة من يحبهم ويحبونه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]^(٤).

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٦٠٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٦٨).

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٣٥٣/٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٨٥) واللفظ له، ومسلم (٤٩٧٧).

(٤) العبودية، لابن تيمية (ص: ١١٥).

٧- فرض الله على المسلمين الجهاد بالأموال والأنفس.

والجهاد واجب على كل مسلم قادر، ومن لم يقدر أن يجاهد بنفسه؛ فعليه أن يجاهد بماله إن كان له مال يتسع لذلك، فإن الله فرض الجهاد بالأموال والأنفس^(١)، قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨].

٨- متى جاهدت الأمة عدوها أَلَفَ الله بين قلوبها، وإن تركت الجهاد شغل بعضها ببعض^(٢).

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۖ وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

٩- اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس بالجهاد ويبتليها.

فيظهر بالامتحان طيها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكراماته ومن لا يصلح، وليمحص النفوس التي تصلح له، ويخلصها بكبير الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان، إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار؛ وإلا ففي كير جهنم، فإذا هُذب العبد ونُقِيَ أذن له في دخول الجنة^(٣)، قال تعالى: ﴿وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ ۖ﴾ أم حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿[آل عمران: ١٤١، ١٤٢].

(١) رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار، لابن تيمية (٥/ ٢٩٨).

(٢) المصدر السابق. (٥/ ٣٠٠).

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (٣/ ١٦).

١٠- ومن محاسن الجهاد دفع العدوان وحسر الظلم وحفظ نفوس المسلمين وبلداتهم.

وهذا مقصد من المقاصد الضرورية المراعاة في كل ملة، وهي حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، وقد أضاف القرآن الكريم بتشريع الجهاد إضافة نوعية في هذا الصدد؛ بأن أوجب دفع العدوان ولو في البقع المقدسة والأزمنة المحرمة، قال تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

١١- إنقاذ المستضعفين وتخليص الأسرى المقهورين، وحمايتهم من اضطهاد الطغاة الذين يسومونهم سوء العذاب والإذلال.

فأوجب الله على المسلمين هذا الواجب بعد استنفاد كل الوسائل السلمية لإنقاذهم، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥] ^(١).

١٢- تأمين حرية نشر الدعوة الإسلامية والقضاء على الفتنة.

وهذا مقصد من أهم مقاصد الجهاد في الإسلام، وهو حرية تأمين الدعوة، وممارسة الشعائر التعبدية دون فتنة، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩] فإذا وقف غير المسلمين في وجه المسلمين ومنعواهم من حرية الاعتقاد والتعبد، أو وقفوا أمام حرية نشر الدعوة الإسلامية، ومنعوا الدعاة من تبليغها للناس، فهنا يشرع الجهاد لإزالة هذا الخطر المفروض على المسلمين، أو المفروض على تبليغ الدعوة.

(١) الجهاد بين المقاصد والوسائل، ناهض إسماعيل فرحات، بسام حسن العف، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الحادي والعشرون، العدد الثاني، يونيو ٢٠١٧م، ص: ١١٧.

١٣ - مقاومة الاحتلال ودحر المحتل.

فإذا احتل العدو بعض بلاد المسلمين بهدف القضاء على الإسلام وأهله، أو استغلال ثروات البلاد الإسلامية، يكون دحر المحتل في هذه الحالة مقصداً من مقاصد تشريع الجهاد في الإسلام، بل يكون الجهاد في هذه الحالة فرض عين بإجماع الفقهاء^(١).

قال شيخ الإسلام: دفع الصائل عن الحرمه والدين؛ فواجب إجماعاً^(٢).

١٤ - معاقبة ناقصي العهود والمواثيق من مقاصد الجهاد في الإسلام.

برهان ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ۗ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢، ١٣]^(٣).

١٥ - الجهاد وسيلة وليس غاية.

فالجهاد مطلوب طلب وسائل لا غايات، أما كون الجهاد ليس غاية في ذاته بمعنى لم يشرع لعينه؛ فلائنه ليس حسناً في نفسه إنما هو إفساد في نفسه، وتعذيب عباده وتخريب بلاده، ولكن حسنه؛ لما يؤول إليه حسن لمقصد الدعوة والهداية^(٤).

قال العز بن عبد السلام: فإن قيل: الجهاد إفساد، وتفويت النفوس والأطراف والأموال، وهو مع ذلك قرينة إلى الله؟

(١) المصدر السابق. ص: ١١٩.

(٢) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٥/ ٥٣٨).

(٣) الجهاد بين المقاصد والوسائل، ناهض إسماعيل فرحات، بسام حسن العف، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الحادي والعشرون، العدد الثاني، يونيو ٢٠١٧م، ص: ١٢٠.

(٤) المصدر السابق. ص: ١٢٢.

قلنا: لا يتقرب به من جهة كونه إفساداً، وإنما يتقرب من جهة كونه وسيلة إلى درء المفاسد وجلب الصلاح، كما أن قطع اليد المتأكلة وسيلة إلى حفظ الأرواح، وليس مقصوداً من جهة كونه إفساداً للبدن^(١).

وقال أسامة بن زيد **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** إِلَى الْحُرْقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشِيَنَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنَتْهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدَمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فَقَالَ لِي «يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا. قَالَ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». قَالَ فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ^(٢).

فدل الحديث دلالة واضحة على عدم جواز قتل من نطق بالشهادتين أثناء القتال؛ لأن القتل ليس مقصوداً في ذاته، وإنما هو وسيلة لنشر الدين، فإذا أسلم الكافر وجب الكف عنه.

١٦- إصلاح النفس البشرية.

لأن النفس دائماً تركز إلى الشهوات، وتثاقل إلى الأرض كلما دعاها داعي الجهاد، فالنفس سرعان ما تستجيب لشواتها، وتؤثر السلامة بعيداً عما يتعب النفس ويرهقها، ويبعدها عن الوطن والأهل والمال والضيقات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]^(٣).

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام (١/ ١٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٧٢)، ومسلم (٢٨٨).

(٣) الجهاد في سبيل الله مقاصد وآثار، وصفي عاشور أبو زيد، ص ٦، إصدار شبكة الألوكة.

١٧- السعي لمرضاة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] ^(١).

قام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبّين وأموالهم ليست لهم، فسلموا ما وقع عليه العقد، ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١]، وعقد التبائع يوجب التسليم من الجانبين.

فلما رأى التجار عظمة المشتري وقدر الثمن، وجلالة قدر من جرى عقد التبائع على يديه، ومقدار الكتاب الذي أُثبت فيه هذا العقد، عرفوا أن للسلعة قدراً وشأناً ليس لغيرها من السلع، فرأوا من الخسران البين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة، تذهب لذتها وشهوتها، وتبقى تبعها وحسرتها، فإن فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء، فعقدوا مع المشتري ببيعة الرضوان رضياً واختياراً من غير ثبوت خيار. وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، فلما تم العقد، وسلموا المبيع.

قيل لهم: قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا، والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم معها ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، لم نبتع منكم نفوسكم وأموالكم طلباً للربح عليكم، بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المعيب والإعطاء عليه أجل الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمن.

تأمل قصة جابر بن عبد الله حيث قال: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَسْجِدَ فَدَخَلْتُ إِلَيْهِ وَعَقَلْتُ الْجَمَلَ فِي نَاحِيَةِ الْبَلَاطِ ^(٢). فَقُلْتُ: هَذَا جَمَلُكَ، فَخَرَجَ

(١) الجهاد في سبيل الله مقاصد وآثار، وصفي عاشور أبو زيد، ص ٧، إصدار شبكة الألوكة.

(٢) البلاط: ما يُقرش به الأرض من حجر أو غيره، ثم سمي المكان بلاطاً على المجاز. ينظر: جامع الأصول (١/ ٥١٩).

فَجَعَلَ يُطِيفُ بِالْجَمَلِ. قَالَ: الثَّمَنُ وَالْجَمَلُ لَكَ ^(١).

وكان أبوه قد قتل مع النبي ﷺ في وقعة أحد، فذكره بهذا الفعل حال أبيه مع الله، وأخبره: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا فَقَالَ يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَى أُعْطِكَ. قَالَ يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً» ^(٢).

فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علم الخلائق، فقد أعطى السلعة، وأعطى الثمن، ووفق لتكميل العقد، وقبل المبيع على عيبه، وأعاض عليه أجل الأثمان، واشترى عبده من نفسه بماله، وجمع له بين الثمن والمثمن، وأثنى عليه، ومدحه بهذا العقد، وهو سبحانه الذي وفقه له، وشاء منه ^(٣).

١٨- ومن محاسن الجهاد الأمر بتأثير الأنفع لقيادة الجهاد.

قال شيخ الإسلام: وإذا لم يمكن في الغزو إلا تأمير أحد رجلين: أحدهما: فيه دين وضعف عن الجهاد، والآخر: فيه منفعة في الجهاد مع ذنوب له، كان تولية هذا الذي ولايته أنفع للمسلمين، خيراً من تولية من ولايته أضر على المسلمين ^(٤).

١٩- أن الأمر بالجهاد من مهمات وحقوق الإمام ^(٥)، وليس لأحد أن يتعدى على حق ولي الأمر.

قال الحسن البصري في الأمراء: هم يلون من أمورنا خمساً: الجمعة، والجماعة، والعيد، والثغور، والحدود، والله ما يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا وظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون ^(٦).

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٨١)، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٣) زاد المعاد، لابن القيم (٣/٧٣-٧٥) - بتصرف -.

(٤) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية (٤/٥٢٦).

(٥) مهمات حول الجهاد، صالح الفوزان (ص: ٤٦).

(٦) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي (٢/١١٧).

٢٠- الجهاد يكشف لنا حال المنافقين وثاقلهم عن الجهاد وسوء نيتهم^(١).

قال تعالى في معرض الحديث عن المنافقين: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۖ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٢، ٤٣].

٢١- الجهاد خير للبشرية.

والدليل على ذلك قول الحق **عَزَّوَجَلَّ** ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢١٦].

ومن خيرية الجهاد للمؤمنين أنه سبيل لإحدى الحسنين إما النصر وإما الشهادة، فهو مضمار إلى طاعة الله ورضوانه بتحصيل أجر الجهاد، وبه تغفر الذنوب وترفع الدرجات^(٢).

٢٢- ترك الجهاد سبب للمذلة، والهوان، وضياع الدار، وتسلب الكافرين، وتحكمهم في رقاب المسلمين، وتدخلهم في شؤون حياتهم.

وهذا هو ما نراه واقعاً عملياً في هذا العصر، وصدق المولى **عَزَّوَجَلَّ** إذ يقول: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة التوبة: ٣٩]^(٣)، وعن ابن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** قال: قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لَسِنِ تَرَكْتُمُ الْجِهَادَ وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ الْبَقَرِ وَتَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ لِيُزِمَنَّكُمُ اللَّهُ مَذَلَّةً فِي رِقَابِكُمْ لَا تَنْفَكُ عَنْكُمْ حَتَّى تَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ وَتَرْجِعُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ»^(٤).

(١) فضل الجهاد والمجاهدين لابن باز (ص: ٢).

(٢) حكمة الجهاد في الإسلام، أحمد محمد الشرقاوي (ص: ٥).

(٣) المصدر السابق. (ص: ٥).

(٤) أخرجه أحمد (٥١٠٢)، وصححه ابن القطان الفاسي في بيان الوهم والإيهام (٥/ ٢٩٥).

٢٣- لما شرع الله الجهاد لعباده، بين أن له فيه حكمة.

وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟ فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه^(١)، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦].

٢٤- أنه عند محاربة الكفار الحربيين راعى حقوق الإنسان في قتالهم.

فلا يمثل بهم ولا يقتل الأطفال ولا النساء، عن بريد الأسلمي قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَلَا تَغْلُوا وَلَا تَغْدُرُوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيُّهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلِّهِمُ الْجَزِيَّةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ^(٢).

والألباني في الصحيحة (١١).

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١١٩).

(٢) أخرجه مسلم (٤٦١٩).

٢٥ - الجهاد عبادة أظهر من كونه انتقاماً وردعاً، ولهذا جاءت النصوص الكثيرة في فضله وثوابه والحث عليه.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ «الصَّلَاةُ عَلَى مِيقَاتِهَا». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ».

قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». فَسَكَتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَوْ اسْتَزِدَّتْهُ لَزَادَنِي^(١).

فجعل الفقهاء الجهاد من قسم العبادات وليس من القسم الحدود والديات^(٢).

٢٦ - قمع أعداء الله، ونصر أوليائه، وإعلاء كلمة الإسلام.

وحمل الكافر على ترك الكفر الذي هو أقبح الأشياء، والإقبال على ما هو أحسن الأشياء، وفيه إخراج البشر عن درجة الأنعام، قال تعالى في حق الكفرة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٣).

٢٧ - ومن محاسنه اكتساب حياة الأبدية في دار كرامته.

فإنه إن قُتِلَ فَقَدْ أَعْلَى دِينَ اللَّهِ، وَإِنْ قُتِلَ فَقَدْ أَحْيَا نَفْسَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٢).

(٢) الشرح الممتع على زاد المستقنع، لابن عثيمين (٩١ / ٨).

(٣) موارد الظمان لدروس الزمان (٣٧٨ / ٦).

المطلب الثامن: محاسن الإسلام في باب أحكام الأسرة.

الأسرة هي المجتمع الصغير الذي تنبثق منه الأمة الإسلامية؛ لذلك اعتنى الإسلام بالقواعد والأحكام التي تنظم الأسرة المسلمة على نظام دقيق، حتى يعيش المجتمع المسلم حياة أمنة مستقرة، يتميز فيها بالترابط والتماسك الاجتماعي بين أفرادهِ.

وقد بين علماء الإسلام جملة من محاسن الإسلام في باب أحكام الأسرة، نذكر منها ما يلي:

١- حفظ النسل وتكثيره؛ بغرض إعمار الكون وبقاء النوع والإنساني.

وهذا أول مقصدٍ من مقاصد النكاح^(١)، وكذلك إكثار أفراد الأمة المسلمة وتقويتها وتمكينها في الوجود الحياتي والكوني حتى تكون مرهوبة الجانب، عزيزة الذات، فاعلة الأثر والتأثير، وحتى تؤدي رسالة الاستخلاف في الأرض، والشهادة على الناس.

لذلك جاءت الأدلة الشرعية تحث على الزواج والإنجاب، وترغب في التناسل، وتحرم قتل الأولاد والبنات بسبب الفقر أو العار أو ما شابه ذلك، وتحظر الإجهاض إلا عند الضرورات القصوى؛ كأن يخشى على الأم من الموت بسبب خطر الجنين، فيباح إجهاضه؛ لأن المحافظة على الأصل مقدمة على المحافظة على الفرع^(٢).

(١) الموافقات، للشاطبي (١/ ٥٤٠)، وتوضيح الأحكام من بلوغ المرام، للبسام (٥/ ٢١٠).

(٢) علم المقاصد الشرعية، للحازمي (ص: ١٧٩).

فعن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ وَمَنْصَبٍ وَمَالٍ، إِلَّا أَنَّهَا لَا تَلِدُ أَفَأَتَزَوَّجُهَا؟ فَهِيَ؟ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَهِيَ؟ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّلَاثَةَ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ»^(١).

٢- ومن محاسن الشريعة اعتبار الكفاءة في الزواج.

وقد كانت قضية المساواة في الكفاءة تقتضي كون المرأة كفوًّا للرجل كما يكون الرجل كفوًّا لها، ولكن لما كان الرجال قوامين على النساء، والنساء عوان عندهم لم يشترط مكافأتهن للرجال، وجاز للرجل أن يتزوج من لا تكافئه لحاجته إلى ذلك، فإذا فقدت صفات الكفاءة جملة بحيث لم يوجد منها صفة واحدة في دين ولا حرية ولا عفة؛ اقتضت محاسن الشريعة صيانتها عنها بتحريمها عليه، فهذا غاية ما يقال في هذه المسألة^(٢)، عن عائشة قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ، وَأَنْكِحُوا الْأَكْفَاءَ، وَأَنْكِحُوا إِلَيْهِمْ»^(٣).

٣- ومن محاسن الشريعة الاهتمام بالنسل بعد النكاح.

فالولاية على الطفل نوعان:

نوع يُقدم فيه الأب على الأم ومن في جهتها، وهي ولاية المال والنكاح.
ونوع تُقدم فيه الأم على الأب، وهي ولاية الحضانة والرضاع، وقدم كل من الأبوين فيما جعل له من ذلك لتمام مصلحة الولد، وتوقف مصلحته على من يلي ذلك من أبويه، وتحصل به كفايته.

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٤٢٤٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٤٠).

(٢) أحكام أهل الذمة، لابن القيم (٨٠٨/٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٩٦٨)، والحاكم في المستدرک (٢٧٢٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٦٧).

ولما كان النساء أعرف بالتربية، وأقدر عليها، وأصبر وأرأف وأفرغ لها؛ لذلك قدمت الأم فيها على الأب.

ولما كان الرجال أقوم بتحصيل مصلحة الولد والاحتياط له في البضع، قدم الأب فيها على الأم، فتقديم الأم في الحضانة من محاسن الشريعة والاحتياط للأطفال، والنظر لهم، وتقديم الأب في ولاية المال والتزويج كذلك^(١).

٤- ومن ذلك تحريم نكاح المتعة الذي يعقد فيه المتمتع على المرأة مدة يقضي وطره منها فيها.

فحرم هذه الأنواع كلها سداً لذريعة السفاح، ولم يبح إلا عقداً مؤبداً يقصد فيه كلٌّ من الزوجين المقام مع صاحبه، ويكون بإذن الولي وحضور الشاهدين أو ما يقوم مقامهما من الإعلان؛ فإذا تدبرت حكمة الشريعة وتأملتها حق التأمل رأيت تحريم هذه الأنواع من باب سد الذرائع، هي من محاسن الشريعة وكمالها^(٢)، عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَهَى عَنْ نِكَاحِ الْمُتَعَةِ يَوْمَ خَيْبَرَ وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ»^(٣).

٥- من محاسن الشريعة تحريم نكاح البغايا.

فإنه من أقبح الأمور، والناس إذا اجتهدوا في تعيير الرجل قالوا: زوج بغي، ومثل هذا فطرة فطر الله عليها الخلق، فلا تأتي شريعة بإباحته^(٤).

وقال ابن القيم: هذه الجناية من المرأة تعود بفساد فراش الزوج وفساد النسب الذي جعله الله تعالى بين الناس لتمام مصالحهم، وعده من جملة نعمه عليهم، فالزنا يفضي إلى اختلاط المياه، واشتباه الأنساب، فمن محاسن الشريعة:

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (٥/ ٣٩٢).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٣/ ١٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٩٩)، ومسلم (٥١١٥).

(٤) أحكام أهل الذمة، لابن القيم (٢/ ٨٠٥).

تحريم نكاح الزانية، حتى تتوب وتستبرأ.

وأيضاً فإن الزانية خبيثة، والله سبحانه جعل النكاح سبباً للمودة والرحمة وخالص الحب، فكيف تكون الخبيثة مودودةً للطيب، زوجاً له، والزوج سمي زوجاً من الأزواج وهو الاشتباه فالزوجان الاثنان المتشابهان، والمنافرة ثابتة بين الطيب والخبيث شرعاً وقدرًا، فلا يحصل معها الأزواج والتراحم والتواد^(١)، قال الله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

٦- في النكاح حفظ النسب والعرض، وصيانتها من الفوضى والاختلاط والتداخل والتلاعب.

والمقصود بالنسل هو النسل المضبوط والمنضبط بمعرفة النسب الصحيح، وإلحاق الفروع بأصولها الحقيقية، ومراعاة الكرامة والعفة والحياء، ومنع كل ما يخل بحق الإنسان في النسب الصحيح، والعرض الشريف والنظيف والعفيف؛ لذلك شرعت أحكام الزواج الشرعي الصحيح، ومنع الزنا واللواط والسحاق، ومعاقبة الشاذين والمنحرفين، ومنع التبني.

ولذلك أيضاً مُنعت الذرائع والأسباب المؤدية إلى الإخلال بمقصد حفظ النسب والعرض، كالخلوة والنظر بشهوة، وكذلك مُنعت بعض الحوادث والنوازل المعاصرة، لكونها مفضية إلى هتك هذا المقصد وخدشه وتفويته، كتجميد الخلايا الجنسية واستئجار الأرحام^(٢).

٧- تحقيق السكن والمودة والرحمة بين الزوجين.

وتحقيق التآلف والتعاون على البر والتقوى ودوام العشرة بالمعروف^(٣)،

(١) إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان، لابن القيم (١/ ٦٦).

(٢) علم المقاصد الشرعية، للخادمي (ص: ١٨٠).

(٣) الموافقات، للشاطبي (١/ ٢٠٤)، وتوضيح الأحكام من بلوغ المرام، للبسام (٥/ ٢١٠).

ومما يكون له الأثر الكبير في عبادتهما وانقيادهما لله تعالى، وفي إعمار الأرض وإصلاحها وتجميلها وجعلها مزرعة للأخرة وممرًا لها.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

ولم يُعد خفيًا ما تعانيه المجموعة الدولية -بتفاوت ملحوظ بحسب الاعتبار الدينية والأخلاقية- من آثار الشذوذ الجنسي، وتعاطي المخدرات، ومزاولة العنف والتقتيل والترويع، وغير ذلك مما هو نتيجة حتمية في الغالب لتفكك الأسرة، وتهميش دورها التربوي والوجداني والحضاري بصورة عامة^(١).

٨- ومن محاسن الإسلام أنه شرع حكم اللعان^(٢).

فقد جعل للقاذف إسقاط الحد باللعان في الزوجة دون الأجنبية، وكلاهما قد ألحق بهما العار، فهذا من أعظم محاسن الشريعة؛ فإن قاذف الأجنبية مستغن عن قذفها، لا حاجة له إليه ألبتة؛ فإن زناها لا يضره شيئًا، ولا يفسد عليه فراشه، ولا يعلق عليه أولادًا من غيره، وقذفها عدوان محض، وأذى لمحصنة غافلة مؤمنة، فترتب عليه الحد زجرًا له وعقوبة.

وأما الزوج فإنه يلحقه بزناها من العار والمسبة وإفساد الفراش وإلحاق

(١) علم المقاصد الشرعية، للخادمي (ص: ١٨٠).

(٢) اللعان مصدر لاعن، وفعله الثلاثي لعن مأخوذ من اللعن، وهو الطرد والإبعاد من الخير، وقيل: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق السب. والملاعنة بين الزوجين: إذا قذف الرجل امرأته أو رماها برجل أنه زنى بها. وعرفه الحنفية والحنابلة بأنه: شهادات تجري بين الزوجين مؤكدة بالإيمان مقرونة باللعن من جانب الزوج وبالغضب من جانب الزوجة. وعرفه المالكية بأنه: حلف زوج مسلم مكلف على زنا زوجته أو على نفي حملها منه، وحلفها على تكذيبه أربعًا من كل منهما بصيغة أشهد الله بحكم حاكم. وعرفه الشافعية بأنه: كلمات معلومة جعلت حجة للمظطر إلى قذف من لطح فراشه وألحق العار به أو إلى نفي ولد. انظر الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٤٦/٣٥).

ولد غيره به، وانصراف قلبها عنه إلى غيره؛ فهو محتاج إلى قذفها، ونفي النسب الفاسد عنه، وتخلصه من المسبة والعار؛ لكونه زوج بغي فاجرة، ولا يمكن إقامة البينة على زناها في الغالب، وهي لا تقر به، وقول الزوج عليها غير مقبول؛ فلم يبق سوى تحالفها بأغلظ الأيمان، وتأكيدا بدعائه على نفسه باللعة ودعائها على نفسها بالغضب إن كانا كاذبين.

ثم يفسخ النكاح بينهما؛ إذ لا يمكن أحدهما أن يصفو للآخر أبداً؛ فهذا أحسن حكم يفصل به بينهما في الدنيا، وليس بعده أعدل منه، ولا أحكم، ولا أصلح، ولو جمعت عقول العالمين لم يهتدوا إليه، فتبارك من أبان ربوبيته ووحدانيته وحكمته وعلمه في شرعه وخلقه^(١).

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ④﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ⑤ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ⑥ وَالْخَامِسَةُ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ⑦ وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ⑧ وَالْخَامِسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⑨ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿[النور: ٤ - ١٠].

٩- ومن محاسن الشريعة؛ جعل عدة المطلقة ثلاثة قروء.

لأنها ربما كانت حاملاً وهو لا يشعر، فإن الحامل قد ترى الدم بلا ريب، وهل حكمه حكم الحيض أو دم فساد على الخلاف فيه، فأراد الشارع أن يستبرئها بعد تلك الحيضة بطهر تام ثم بحيض تام، فحينئذ تعلم هل هي حامل أو حائل؟ فإنه ربما يمسكها إذا علم أنها حامل منه، وربما تكف هي عن الرغبة في الطلاق إذا علمت أنها حامل، وربما يزول الشر الموجب للطلاق بظهور الحمل، فأراد

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٢/ ٨٥).

الشارع تحقيق علمها بذلك نظراً للزوجين ومراعاة لمصلحتهما وحسماً لباب الندم، وهذا من أحسن محاسن الشريعة^(١).

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨].

١٠ - جعل الله تعالى الطلاق إلى الرجال.

ولم يجعل للنساء فيه حظاً؛ لنقصان عقولهن وأديانهن، فلو جعله إليهن لكان فيه فسادٌ كبيرٌ تأباه حكمة الرب تعالى ورحمته بعباده، فكانت المرأة لا تشاء أن تستبدل بالزوج إلا استبدلت به، بخلاف الرجال؛ فإنهم أكمل عقولاً وأثبت، فلا يستبدل بالزوجة إلا إذا عيل صبره^(٢).

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

وقال ابن عبد البر: والأصل المجتمع عليه أن الطلاق بيد الزوج، أو بيد من جعل ذلك إليه^(٣).

١١ - أن الله تعالى وسَّع على الزوج أمر الطلاق فجعله واحدةً بعد واحدةً ثلاث مراتٍ لئلا يندم^(٤).

قال تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

(١) حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٦/ ١٧٥).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٥/ ٢١٨).

(٣) الاستذكار، لابن عبد البر (٦/ ١٨٤).

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٥/ ٢١٨).

١٢- ومن محاسن النكاح التمتع باللذات، والانغمار في نعم يتنعم بها المكلف كاملة.

فالتمتع بالحلال من جملة ما قصده الشارع^(١)، قال تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

١٣- من محاسن النكاح التحفظ من الوقوع في المحظور من شهوة الفرج ونظر العين^(٢).

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۖ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦].

قال الشيخ البسام: ما فيه -أي: الزواج- من تحصين فرجَي الزوجين، وقصر نظر كل منهما بهذا العقد المبارك على صاحبه عن الخلان والخيلات^(٣).

١٤- حث الإسلام جمهور المؤمنين من الرجال على حسن المعاشرة التي تعلقو إلى مستواها الإنساني.

في مراعاة حالة المرأة النفسية والجسدية، فأمر باعتزال النساء في وقت الحيض^(٤)، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَظْهَرْنَ فَإِذَا تَظَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. فهذا من الطهارة التي أمر بها الإسلام لئلا يرى من المرأة ما يكرهه فيكرهها لهذا، وأيضاً لما في الوقوع وقت الحيض من الأذى البدني والطبي للزوجين فمنع من ذلك حسماً لمادة الفرقة بينهما.

(١) الموافقات، للشاطبي (٢/ ٣٧٥).

(٢) الموافقات، للشاطبي (٣/ ١٣٩).

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، للبسام (٥/ ٢١٠).

(٤) الأسرة في مقاصد الشريعة قراءة في قضايا الزوج والطلاق في أمريكا، زينب طه العلواني، المعهد العالي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٣٢ هـ / ٢٠١٢ م، ص: ٨٧.

١٥- القوامة في ظل منظومة الزوجية يصبح فيها الرجل قائماً على أمور المرأة، ورعايتها وحفظها تحت مظلة المعروف.

قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]، ويأتي التخصيص ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤] وكأن المعنى هنا: بما فضل الله بعض الرجال على بعض، فمنهم من حاز فضل العلم، ومنهم من ملك القوة أو المال أو الخلق، فقام على رعاية زوجه بهذا الفضل الإلهي^(١).

١٦- العلاقة الزوجية في ظل تعاليم الوحي تحولت إلى نوع من أنواع العبادة، تتحقق في ظلها معاني الإحصان والاستغناء بالحلال الطيب.

عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال: وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ^(٢).

وفي هذا الحديث رفع لمستوى العلاقة من الحيوانية إلى الإنسانية؛ إذ يتوجه المؤمن إلى الله بالدعاء قبل إتيان زوجه، ويلتزم بالغسل بعدها، وقد جعلها الله من خصوصيات الإنسان، ولا ينبغي لأحد الاطلاع على أسرار الزوجية^(٣).

١٧- من قوامة الزوج على المرأة أن يستقصي مشاعر زوجته، وأن يراعي الجانب المعنوي والنفسي^(٤).

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنِّي لَأَعْلَمُ إِذَا كُنْتُ

(١) الأسرة في مقاصد الشريعة قراءة في قضايا الزوج والطلاق في أمريكا، زينب طه العلواني، (ص: ٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٩٢).

(٣) الأسرة في مقاصد الشريعة قراءة في قضايا الزوج والطلاق في أمريكا، زينب طه العلواني، (ص: ٩٥).

(٤) الأسرة في مقاصد الشريعة قراءة في قضايا الزوج والطلاق في أمريكا، زينب طه العلواني، (ص: ٩٢).

عَنِّي رَاضِيَةً، وَإِذَا كُنْتُ عَلَيَّ غَضَبِي. قَالَتْ: فَقُلْتُ: مَنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: أَمَّا إِذَا كُنْتُ عَنِّي رَاضِيَةً، فَإِنَّكَ تَقُولِينَ: لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا كُنْتُ غَضَبِي، قُلْتُ: لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ. قَالَتْ: قُلْتُ: أَجَلُ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ ^(١).

١٨ - دعم الإسلام الترابط الاجتماعي، وحد من عوامل الصراع والتفكك، فحرم أي علاقة تؤدي إلى الصراع.

ومنها تحريم الزواج من المحارم والمحرمات، وتحريم أن يخطب الرجل على خطبة أخيه المسلم وهو يعلم مسبقاً ^(٢)، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَبِيعُ الرَّجُلُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ وَلَا يَخْطُبُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لَهُ» ^(٣).

١٩ - ضبط الإسلام العلاقة بين الرجل والمرأة، فقد شدد الشارع في تحريم أي علاقة خارج إطار النكاح الشرعي.

فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۖ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦]؛ لذلك حرم الله سبحانه أي علاقة موازية للزواج، مثل الزنا، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] ^(٤).

قال ابن تيمية: وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ فلم تبح إلا المرأة التي هي زوج أو ملك يمين، وقد ذكر ما اشترطه في الحلال بقوله: ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ﴾ وقوله: ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ ^(٥).

(١) أخرجه البخاري (٥٢٢٨)، ومسلم (٦٣٦٦).

(٢) الأسرة في مقاصد الشريعة قراءة في قضايا الزوج والطلاق في أمريكا، زينب طه العلواني، (ص: ٩٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢١٣٩)، ومسلم (٣٥٢١) واللفظ له.

(٤) الأسرة في مقاصد الشريعة قراءة في قضايا الزوج والطلاق في أمريكا، زينب طه العلواني، (ص: ٩٨).

(٥) قاعدة في المحبة، لابن تيمية (ص: ١٠٨).

٢٠- أقرَّ الإسلام العديد من الوسائل التشريعية الرادعة التي تحمي الأسرة من التفكك بما في ذلك التصدي للشائعات^(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، ومن ذلك أيضاً تشريع حدِّ القذف، فضلاً عن الإجراءات المشددة الخاصة بادعاء الزنا بين الزوجين، باتخاذ إجراء الملاءنة^(٢).

٢١- من كرم الله تعالى أنه لم يدع إنساناً، سواء أكان يتيماً أم ولد زنا من غير أن يكون منضوياً في شبكة علاقات، فأعاد تنظيم نظام التبني على نحو منهجي يرتبط بجزئياته.

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ ۝ اذْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤، ٥]، وفي هذا السياق دعا الإسلام إلى التلطف في معاملة اليتيم وعدم الإساءة إليه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ». وأشار مالك بالسبابة والوسطى^(٣).

ولم يترك الإسلام ولد الزنا^(٤) الذي لا ذنب له في جريمة والديه، وإنما وصله بشبكة أمه فيرثها وترثه، وله الحقوق وعليه الالتزامات لتلك الشبكة^(٥).

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٨/ ٢١٥).

(٢) الأسرة في مقاصد الشريعة قراءة في قضايا الزوج والطلاق في أمريكا، زينب طه العلواني، (ص: ٩٨).

(٣) أخرجه مسلم (٧٦٦٠).

(٤) نسب ولد الزنا من المسائل المختلف فيها بين الفقهاء، وقول الجمهور: أن ولد الزنا يلحق أمه، وهو ترجيح اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء. ينظر: المغني لابن قدامة (٧/ ١١٩)، وفتاوى اللجنة الدائمة - المجموعة الأولى (١٦/ ٥١٦).

(٥) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (٥/ ٤٨٦).

٢٢- من متممات تقوية أصرة القرابة؛ تأكيد تفعيل أحكام النفقة على الأبناء، والآباء عند فقرهم باتفاق العلماء^(١).

قال المهلب: النفقة على الأهل والعيال واجبة بإجماع، وهذا الحديث: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ مِنْهَا عَنْ ظَهْرِ غَنَى»^(٢) حجة في ذلك^(٣).

وقال ابن القطان الفاسي: أجمع أهل العلم على أن نفقة الوالدين الفقيرين للذين لا كسب لهما ولا مال واجبة في مال الولد^(٤).

٢٣- تعظيم الإسلام جانب الأسرة، ويظهر ذلك بوضوح بربط الآيات القرآنية بين التوحيد وبرّ الوالدين، وصلة الرحم^(٥).

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

٢٤- ضبط تشريع تعدد الزوجات.

فقد أصبح تعدد الزوجات في ظل مؤسسة الأسرة في الإسلام حلاً لمشكلات اجتماعية مصحوبة بضوابط صارمة، تحمي دعائم الأسرة والمجتمع، خاصة في حال حدوث الكوارث الطبيعية والحروب، التي قد تدهم المجتمع وتترك وراءها نساء وأولاداً بلا معيل، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا

(١) الأسرة في مقاصد الشريعة قراءة في قضايا الزوج والطلاق في أمريكا، زينب طه العلواني، (ص: ١١٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٦).

(٣) الإقناع في مسائل الإجماع (٢/ ٥٥)، ومراتب الإجماع (ص: ٧٩)، والتوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٦/ ٢٦)، وشرح صحيح البخاري لابن بطال (٧/ ٥٣٠).

(٤) الإقناع في مسائل الإجماع (٢/ ٥٥)، ومراتب الإجماع (ص: ٧٩).

(٥) الأسرة في مقاصد الشريعة قراءة في قضايا الزوج والطلاق في أمريكا، زينب طه العلواني، (ص: ١١٤).

مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿النساء: ٣﴾،

عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن قول الله تعالى: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾. فَقَالَتْ يَا ابْنَ أُنْتِي، هَذِهِ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حَجَرٍ وَلِيَّهَا، تَشْرِكُهُ فِي مَالِهِ وَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالُهَا، فَيُرِيدُ وَلِيَّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، بَعِيرٌ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا، فَيُعْطِيَهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ، فَتُهْوَا عَنْ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ، إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ، وَيَبْلُغُوا لَهُنَّ أَعْلَىٰ سُنَّتِهِنَّ فِي الصَّدَاقِ، فَأَمَرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ.

قال عروة: قالت عائشة: وَإِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فَانْزَلَ اللَّهُ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾.

قالت عائشة: وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي آيَةِ أُخْرَىٰ: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ عَنْ يَتِيمَتِهِ حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةُ الْمَالِ وَالْجَمَالِ، قَالَتْ: فَتُهْوَا أَنْ يَنْكِحُوا عَنْ مَنْ رَغِبُوا فِي مَالِهِ وَجَمَالِهِ فِي يَتَامَىٰ النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ، مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ إِذَا كُنَّ قَلِيلَاتِ الْمَالِ وَالْجَمَالِ ^(١).

وهذا دليل واضح على أن إباحة التعدد في الإسلام ليست لإشباع رغبات الرجل فحسب، وإنما هي مسؤولية وتكليف، يتحمل أعباءها الرجل لحماية نساء المجتمع وأطفاله ^(٢).

٢٥- ومن محاسن النكاح: تشريع الخطبة قبل العقد.

فرؤية المخطوبة قبل الزواج، يقع بالنظر إلى الوجه ثم إلى الكف، وهذا يؤدي إلى الائتلاف بين الزوجين ^(٣)، عن المغيرة بن شعبة، أَنَّهُ خَطَبَ امْرَأَةً فَقَالَ

(١) أخرجه البخاري (٤٥٧٤).

(٢) الأسرة في مقاصد الشريعة قراءة في قضايا الزوج والطلاق في أمريكا، زينب طه العلواني (ص: ١١٥).

(٣) محاسن الشريعة في فروع الشافعية، للقفال الكبير (٢٦٥)، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (٣٥٥/٢٩).

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ آخَرَى أَنْ يُؤَدَمَ بَيْنَكُمَا»^(١).

أمر الله - جل ثناؤه - أن يسوي بين الضرائر في القسم، فبيت عندها كما يبيت عندهن، فإن إثارة بعضهن حيف، والحيف حرام^(٢)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِسْعُ نِسْوَةٍ، وَكَانَ إِذَا قَسَمَ بَيْنَهُنَّ لَا يَنْتَهِي إِلَى الْمَرْأَةِ الْأُولَى إِلَى تِسْعٍ، فَكُنَّ يَجْتَمِعْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي بَيْتِ الَّتِي يَأْتِيهَا»^(٣)، وقد أجمع أهل العلم على أن العدل في القسمة بين الزوجات واجب^(٤).

٢٧- ترسيخ قواعد يقوم عليها الاختيار الصحيح بين الزوجين واعتبار الكفاءة في الزواج^(٥).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرُبَّتْ يَدَاكَ»^(٦)، وعن أبي حاتم الْمُزْنِيَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَإِنْ كَانَ فِيهِ؟ قَالَ: «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(٧).

٢٨- من محاسن النكاح: طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده^(٨).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ

(١) أخرجه الترمذي (١١١٠)، وقال: هذا حديث حسن. وصححه الألباني في الصحيحة (٩٦).

(٢) محاسن الشريعة في فروع الشافعية، للقفال الكبير (٣٠٦)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٧١ / ٣٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٦٢).

(٤) مراتب الإجماع، لابن حزم (ص: ٦٥)، والمغني لابن قدامة (٨ / ١٣٩).

(٥) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (٥ / ١٥٨).

(٦) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (٣٧٠٨).

(٧) أخرجه الترمذي (١١٠٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وأبو حاتم المزني له صحبة ولا نعرف له عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير هذا الحديث. وحسنه الألباني بطرقه وشواهده في الإرواء (١٨٦٨).

(٨) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي (٢ / ٢٤)، وقاعدة جلية في التوسل والوسيلة، لابن تيمية (٢ / ٧١).

انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ وَعِلْمٌ يَنْتَفَعُ بِهِ وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»^(١).

٢٩- من محاسن النكاح: طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله^(٢).

عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبِضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي. فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَبِضْتُمْ ثَمَرَةً فُؤَادِهِ. فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي. فَيَقُولُونَ: حَمْدُكَ وَاسْتَرْجَع. فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ»^(٣).

٣٠- من محاسن أحكام الأسرة في الإسلام؛ التسريح بإحسان.

فقد أباح الإسلام الطلاق، فهو الحل النهائي بعد استنفاد جميع وسائل الصلح والإصلاح بين الزوجين، لإنقاذ مؤسسة الأسرة من الانحلال، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

قال علاء الدين الكساني^(٤): شرع الطلاق في الأصل لمكان المصلحة؛ لأن الزوجين قد تختلف أخلاقهما وعند اختلاف الأخلاق لا يبقى النكاح مصلحة؛ لأنه لا يبقى وسيلة إلى المقاصد فتقلب المصلحة إلى الطلاق؛ ليصل كل واحد منهما إلى زوج يوافقه فيستوفي مصالح النكاح منه، إلا أن المخالفة قد تكون من جهة الزوج وقد تكون من جهة المرأة.

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

(٢) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي (٢/ ٢٤)، وعدة الصابرين، لابن القيم (ص: ٦٣).

(٣) أخرجه الترمذي (١٠٣٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وصححه الألباني في الصحيحة (١٤٠٨).

(٤) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لعلاء الدين الكساني (٣/ ١١٢).

٣١- من محاسن الإسلام: أنه قسم الطلاق باعتبار ذاته إلى طلاق رجعي، وطلاق بائن، وجعله بيد الرجل.

قال علاء الدين الكساني^(١): فالشرع شرع الطلاق وفوض طريق دفع المخالفة والإعادة إلى الموافقة إلى الزوج؛ لاختصاصه بكمال العقل والرأي، فينظر في حال نفسه، فإن كانت المخالفة من جهته يطلقها طلاقاً واحداً رجعيّاً أو ثلاثاً في ثلاثة أطهار، ويجرب نفسه في هذه المدة، فإن كان يمكنه الصبر عنها ولا يميل قلبه إليها يتركها حتى تنقضي عدتها، وإن كان لا يمكنه الصبر عنها راجعها.

وإن كانت المخالفة من جهتها تقع الحاجة إلى أن تتوب وتعود إلى الموافقة وذلك لا يحصل بالطلاق الرجعي؛ لأنها إذا علمت أن النكاح بينهما قائم لا تتوب فيحتاج إلى الإبانة التي بها يزول الحل والملك؛ لتذوق مرارة الفراق فتعود إلى الموافقة عسى، وإذا كانت المصلحة في الطلاق بهذين الطريقين مست الحاجة إلى شرع الإبانة عاجلاً وآجلاً تحقيقاً لمصالح النكاح بالقدر الممكن.

٣٢- حدد الإسلام وسائل تساعد على إقامة العدل للخروج من تجربة الطلاق بسلام.

وأهم الوسائل لتحقيق هذا المقصد، توثيق عقد الطلاق والإشهاد عليه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢].

عن مطرف بن عبد الله بن الشَّخِير أن عمران بن الحصين: سئل عن رجلٍ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ ثُمَّ يَقَعُ بِهَا وَلَمْ يُشْهَدْ عَلَى طَلَاقِهَا وَلَا عَلَى رَجْعَتِهَا. فَقَالَ عِمْرَانُ: طَلَّقْتَ بَغَيْرِ سُنَّةٍ، وَرَاجَعْتَ بَغَيْرِ سُنَّةٍ، أَشْهَدْ عَلَى طَلَاقِهَا وَعَلَى رَجْعَتِهَا^(٢).

٣٣- من وسائل تحقيق مقصد التسريح بإحسان، مشروعية الخلع.

وهو حق للمرأة في طلب الطلاق وإنهاء العلاقة، قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لعلاء الدين الكساني (٣/ ١١٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٢١٨٨)، وابن ماجه (٢١٠٣). وصححه الألباني في الإرواء (٢٠٧٨).

يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ [البقرة: ٢٢٩]، عن ابن عباس أَنَّ امْرَأَةً ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ مَا أَعْتَبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلَا دِينٍ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتُرَدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ». قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْبَلِ الْحَدِيثَ وَطَلِّقِيهَا تَطْلِيقَةً»^(١).

ويتبين من الحديث السابق حرص الإسلام على مراعاة المقاصد التي تحفظ مؤسسة الأسرة، وأحدها تحقيق السكن والمودة والرحمة بين الزوجين، فامرأة ثابت لم تشتك من ظلم وقع عليها أو نحوه، وإنما جاءت تشكي فقدانها لمشاعر الحب تجاه زوجها، وفقد الحب بين الزوجين يؤثر في تحقيق السكينة في الأسرة، ولذلك منحها رسول الله ﷺ الخروج من عقدة النكاح بسلام بردّ المهر إليه، وذلك من حكمة الله تعالى في تثبيت مبدأ العدالة، أن أوجب على كل من يبدأ بحل مؤسسة الأسرة تحمل أعباء الفرقة المادية^(٢).

٣٤- جاء الإسلام وحرّم سفاح الجاهلية، وأمر بنكاح أهل الإسلام^(٣).

فقد كان النكاح قبل الإسلام يقع بصور كثيرة لا تحقق مصالح الزواج بل كانت بعض صورته شبيهة بالسفاح والزنا فأتى الإسلام وأقر الصحيح منها وأبطل الفاسد، عن عروة بن الزبير أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أخبرته: أَنَّ النَّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ:

فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ، يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلَيْتَهُ أَوْ ابْنَتُهُ، فَيُضَدِّقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا.

(١) أخرجه البخاري (٥٢٧٣).

(٢) الأسرة في مقاصد الشريعة قراءة في قضايا الزوج والطلاق في أمريكا، زينب طه العلواني (ص: ١٢٩).

(٣) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٣٧ / ٦).

وَنِكَاحٌ آخَرُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لَامْرَأَتِهِ إِذَا طَهَّرَتْ مِنْ طَمَثِهَا أَرْسَلِي إِلَى فُلَانٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ. وَيَعْتَزُّلُهَا زَوْجَهَا، وَلَا يَمَسُّهَا أَبَدًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الْوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الْإِسْتِبْضَاعِ.

وَنِكَاحٌ آخَرُ: يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشْرَةِ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا. فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ عَلَيْهَا لِيَالِي بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ، وَقَدْ وَلَدْتُ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلَانُ. تُسَمَّى مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ، فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ.

وَنِكَاحُ الرَّابِعِ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ لَا تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا وَهِنَّ الْبُعَايَا كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمُ الْقَافَةَ ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ فَالْتَأَطَ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنُهُ لَا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ.

فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ، إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ ^(١).

٣٥- وخص الله -جل ثناؤه- المناكح بأشياء فرق بها بين النكاح والسفاح.

منها: الإشهار والإذاعة والولي والشاهد ورضا المنكوحه، ورضا من هو موضوع الاختيار له وهم الآباء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْثِيْبُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا، وَالْبِكْرُ تُسْتَأْذَنُ فِي نَفْسِهَا، وَإِذْنُهَا صُمَاتُهَا» ^(٢).

٣٦- وقد حرم الإسلام الجمع بين الأختين، وبين المرأة وعمتها، وخالتها.

والمعنى في ذلك ما يؤمن من وقوع الغيرة من إحداهما على الأخرى، فإن

(١) صحيح البخاري (٥١٢٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٢١).

القربة تجري بينهما التنافس والتحاسد ما لا يجري مثله في الأجانب، والأصل في النكاح إنما هو وقوع التآلف والتواصل، فلما لم يحصل هذا فيه فلا معنى^(١)، قال الله تعالى في آية المحرمات من النساء: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣]، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا وَلَا عَلَى خَالَتِهَا»^(٢).

٣٧- ومن محاسن النكاح؛ منعه لاختلاف الدين.

وذلك أن تكون مرتدة، فلا تحل لأحد من المسلمين، ولا يحل للمسلم من المشركات إلا الحرة الكتابية، وهذا مبني على أن البغية من النكاح الائتلاف، ولا ائتلاف مع وقوع الاختلاف في الدين، لقطع الله الغرابة بين المسلمين وبين الكفار، فلم يبح لمسلمة أن تتزوج كافرًا، فتكون قد أباحت فرجها عدونا في الدين، ولم يختلف في هذا المعنى أن يكون كتابيًا أو مشركًا؛ لأن الأنساب واقعة بالآباء، فيكون ولدها ابن كافر، فيلحقها العار^(٣)، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُنْكَحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَا أُمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكَحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

٣٨- أبيض للمرأة أن تهب صداقها للزوج على جهة التبرع منها إليه^(٤).

قال الله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

(١) محاسن الشريعة في فروع الشافعية، للقفال الكبير (٢٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥١١٠)، ومسلم (٣٥٠٦) واللفظ له.

(٣) محاسن الشريعة في فروع الشافعية، للقفال الكبير (٢٨٨)، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٢/ ٢٥٤).

(٤) محاسن الشريعة في فروع الشافعية، للقفال الكبير (٢٩٧)، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٩/ ١٥٥).

٣٩- أمر الله - جل ثناؤه - بالعدل بين النساء ومعاشرتهن وإسكانهن بالمعروف، وأخبر أنه جعل للنساء على الرجال مثل ما جعل للرجال عليهن بالمعروف^(١).

قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا﴾ [النساء: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

٤٠- الإسلام نهى أن يعزل الرجل عن الحرية إلا بإذنها.

وذلك لما لها من الحق في الولد والمقصد فيه بمثل ما فيه للزوج؛ ولأن في العزل اقتصاعاً لها عن استكمال اللذة، وفي ذلك ضرر يشاكل التعذيب والأذى، وهو خارج عن حسن المعاشرة^(٢)، عن عمر بن الخطاب قال: نهى رسول الله ﷺ أن يُعزل عن الحرية إلا بإذنها^(٣).

٤١- الظهار كان طلاقاً في الجاهلية وأبطله الإسلام.

حيث نقل حكمه عن وقوع الفراق به إلى أن يجب عليه فيه التكفير؛ تعظيماً للذم في قوله المنكر والزور، لأنه لا أنكر من أن يعد الإنسان إلى حليلته التي قد جعلها الله فراشاً أو محرثاً، فيشبهها في التحريم بأمه التي هي محرمة عليه من كل وجه^(٤)، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ ۝ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ

(١) محاسن الشريعة في فروع الشافعية، للقفال الكبير (٣٠٥)، وبدائع الفوائد، لابن القيم (١٦٨/٣).

(٢) محاسن الشريعة في فروع الشافعية، للقفال الكبير (٣١١)، وزاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (١٣٣/٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٠٠٣)، والبيهقي في الكبير (١٤٧١٢)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١١١/٢): هذا إسناد ضعيف؛ لضعف ابن لهيعة. وضعفه الألباني في الإرواء (٢٠٠٧).

(٤) محاسن الشريعة في فروع الشافعية، للقفال الكبير (٣٢١).

يَتَمَاسَا ذَلِكُمْ تُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿المجادلة: ٢ - ٤﴾.

٤٢- شرع الإسلام إحداث الزوجة على زوجها إذا مات.

وذلك بأن تترك الزينة في بدنها وثيابها ولا تدهن رأسها بدهن، والمعنى في ذلك المحافظة على ذمام الزوج، وإظهار التحزن عليه، وفي ذلك ما يهتم المرأة بالوفاء وحسن العهد، وكان نساء العرب يحددون سنَّه، فنسخ الإسلام ذلك عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ، لَمَّا جَاءَهَا نَعْيُ أَبِيهَا، دَعَتْ بِطِيبٍ فَمَسَحَتْ ذِرَاعَيْهَا، وَقَالَتْ: مَا لِي بِالطَّيِّبِ مِنْ حَاجَةٍ، لَوْلَا أَنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تُحَدُّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»^(١)، وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

٤٣- والنكاح يحفظ الأنساب التي يحصل بها التعارف والتألف والتعاون والتناصر.

فلولا عقد النكاح وحفظ الفروج به، لضاعت الأنساب والأصول، ولأصبحت الحياة فوضى لا وراثه، ولا حقوق، ولا أصول، ولا فروع^(٢).

٤٤- من محاسن النكاح ما يحصل في اجتماع الزوجين من قيام البيت والأسرة الذي هو نواة قيام المجتمع وصلاحه.

فالزوج يكد ويكدح ويتكسب، فينفق ويعول.

والمرأة تدبر المنزل، وتنظم المعيشة، وتربي الأطفال، وتقوم بشؤونهم، وبهذا

(١) أخرجه البخاري (٥٣٤٥) وغيره.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، للبسام (٢١٠/٥).

تستقيم الأحوال، وتنظم الأمور.

وبهذا نعلم أنَّ للمرأة في بيتها عملاً كبيراً، لا يقل عن عمل الرجل في خارج البيت، وأنها إذا أحسنت القيام بما نيظ بها، فقد أدَّت للمجتمع كله أعمالاً كبيرةً وجليلةً.

فتبين أن الذين يريدون إخراجها من بيتها ومقر عملها، لتشارك الرجل في عمله، قد ضلوا عن معرفة مصالح الدين والدنيا، ضلالاً بعيداً^(١).

٤٥- من محاسن الإسلام النهي عن سوء معاملة الزوج لزوجته.

وأن عليه أن يقارن بين المحاسن والمساوي، فإذا كان منصفاً غض بصره عن المساوي؛ إذا كانت محاسنها تغمرها لاضمحلالها فيها، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَفْرُكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»^(٢).

٤٦- ومن جملة المحاسن أن ألحق السبب بالنسب؛ فالسبب المناكحة والولاء.

ولما جعل الله سبحانه عقد النكاح ذريعة المحبة والألفة والازدواج والاستئناس بين الناس، فلا يحسن أن يلحقها عند موت أحدهما مضاضة ألم الفراق من غير أن يرتفق أحدهما بما فضل عنه نوع ارتفاق، ثم جعل للزوج ضعف ما للمرأة من الزوج.

٤٧- ومن جملة المحاسن أنه لم يورث عند اختلاف الدين.

إذا مات المسلم فالكافر لا يورث منه؛ لأن الكافر وإن كان قريباً نسباً، فهو بعيد ديناً، لأن الكافر ميت لا يرث الميت، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيْتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾، وأما الكافر فيرث الكافر لاستواء حالهما وماليهما.

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، للبسام (٢١١/٥).

(٢) مسلم (١٤٦٩).

٤٨- وأما النكاح فمستحب، ومحاسنه كثيرة؛ منها:

تحصين الفرج، ومنه تحصين الزوجة، ومنه حفظها والقيام بها، ومنه محاسنه أنه طريقة الرسل، ومنه محاسنه تكثير الأمة، وتكثير النسل، ومنه تحقيق مباحاة النبي ﷺ، ومنه قضاء حوائجه من طبخ ونحوه، ومنه حفظ بيته وأولاده، ومنه سكونه وطمأنينته إليها، واستئناسه بها، ومعاشرتها؛ وغير ذلك من المصالح التي لا يتسع هذا المقام لعددها.

٥٠- وأما الطلاق فمن محاسنه.

أ- أن جعل الله عزَّجَلَّ ملك الطلاق إلى الزوج، ومن محاسنه أن حكم بالحرمة الغليظة بعد الطلقات الثلاث، لأن الظاهر أن من طلق ثلاثاً رأى الصلاح في الفراق، وعلق الشرع حل المطلقة ثلاثاً بالتزويج بزواج آخر والدخول بها؛ ليصير هذا الشرط مانعاً له من العود إليها، ويثبت على رأي من الصلاح في مفارقتها.

- ومن المحاسن أنه لم يحكم بحرماتها على وجه لا رجوع فيه أصلاً، فإنه ربما لا يصبر عنها فيهلك في ذلك، فالشرع جعل للوصول إليه سبيلاً لكن بعدما يذوق الآخر عسيلتها، وتذوق عسيلته، ولا يجوز عن طريق التحليل لحديث: «لعن الله المحلل والمحلل له»^(١).

- ومن محاسن الطلاق أن يكون في طهر لم يجامعها فيه هذا هو السنة، فإنه إذا قضى وطره منها انتقص ميله إليها طبعاً فيبادر إلى مفارقتها بقليل داعية ويسير أذية، فإن المرء إذا شبع من شيء سقط من عينه، وهان عليه، وإذا جاع قوي ذلك في قلبه فلا يحصل الطلاق عن روية، وربما يندم على ذلك فيحتاج إلى نقض الطلاق، فكان الطلاق الحسن المسنون، أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه، فإن هذه الحال حالة كمال الرغبة وتمام الميل، فالظاهر أنه لا يقدم على الطلاق في هذه الحالة إلا لحاجة داعية فرخص له في الطلاق.

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٧٦)، وصححه الألباني في الإرواء (١٨٩٧).

- ومن محاسنه أن جعل هزله جدًّا؛ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثُ جَدَهْنِ جَدٌّ وَهَزْلُهُنَّ جَدٌّ: النكاحُ، والطلاقُ، والرَّجْعَةُ»^(١). فإذا عرف الإنسان أنه بمجرد تلفظه به، ولو مازحًا يقع، امتنع بإذن الله إذا كان عاقلًا.

٥١- ومن محاسن الإسلام أنه أثبت على الأزواج حقوقًا.

مثل الحقوق التي للرجال بالمعروف، وحسن العشرة، وترك الإضرار، وجعل ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي في الفضيلة في الخلق والمنزلة، وطاعة الأمر، والإنفاق، وأداء المهر، والقيام بالمصالح، والفضل في الدنيا والآخرة.^(٢)

٥٢- ومن محاسن الإسلام: أن المرأة عند بعض العرب في الجاهلية كانت تعد جزءًا من ثروة أبيها أو زوجها؛ فأبطل الإسلام ذلك.

فكان ابن الرجل يرث أرملة أبيه بعد وفاتها، وكان العرب قبل الإسلام يرثون النساء كرهًا، بأن يأتي الوارث ويلقي ثوبه على زوجة أبيه، ثم يقول: ورثتها كما ورثت مال أبي، فإذا أراد أن يتزوجها تزوجها بدون مهر، أو زوجها لأحد من عنده وتسلم مهرها ممن يتزوجها، أو حرم عليها أن تتزوج كي يرثها، فمُنعت الشريعة الإسلامية هذا الظلم وهذا الإرث، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ وكان العرب في الجاهلية يمنعون النساء من الزواج، فالابن الوارث كان يمنع زوجة أبيه من الزواج، كي تعطيه ما أخذته من ميراث أبيه، والأب يمنع ابنته من الزواج حتى تترك له ما تملكه، والرجل يطلق زوجته ويمنعها من الزواج، حتى يأخذ منها ما يشاء. والزوج المبغض لزوجته يسيء عشرتها، ويمللها، ولا يطلقها حتى ترد إليه مهرها، فالعرب قبل الإسلام يظلمون المرأة ويتحكمون فيها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ وكانوا لا يعدلون بين النساء في النفقة والكسوة والمعاشرة، فأمر الإسلام بالعدالة

(١) أخرجه أبو داود (٢١٩٤)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٨٢٦).

(٢) موارد الظمان لدروس الزمان (٦/ ٤٠٠).

بينهن قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الآية، وقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، وقال: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ وقال في ناحية الدين: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧) وحسب الإسلام ما كفل للمرأة من مساواة دينية، ومن مساواة في التملك والكسب، وما حقق لها من ضمانات في الزواج بإذنها ورضاها دون إكراه ولا إهمال. (١)

(١) موارد الظمان لدروس الزمان (٦ / ٤٠١).

المطلب التاسع:

محاسن الإسلام في باب إقامة الحدود وأحكام الديات.

لقد بين علماء الإسلام جملة من محاسن الإسلام في باب إقامة الحدود وأحكام الديات، أذكر منها ما يلي:

١ - العقوبات هي جوائز لأصحابها.

وهذه الجوائز قد تكون حسية ومادية كما هو الحال في وجوب ضمان ما أخذه السارق أو الغاصب، وفي الدية للقتل، وغير ذلك.

وقد تكون معنوية ونفسية؛ وذلك بحصول الارتياح وذهاب الغيظ والتشفي والتأثر^(١).

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وَحَوْلَهُ عَصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: «بَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ، فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ»^(٢).

٢ - العقوبات هي زواجر.

أي: أنها موضوعة لأجل زجر المعتدين والجناة وردعهم؛ ولأجل انزجار غير المعتدين وغير الجناة؛ كيلا يفكروا أو يعزموا على الاعتداء والتعدي والانحراف^(٣).

(١) علم المقاصد الشرعية، للخادمي (ص: ١٨٦)، وتيسير العلام شرح عمدة الأحكام، للبسام (ص: ٦٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٨).

(٣) علم المقاصد الشرعية (ص: ١٨٧)، وتيسير العلام شرح عمدة الأحكام، للبسام (ص: ٦٥٤).

قال ابن القيم^(١): فكان من بعض حكمته سبحانه ورحمته أن شرع العقوبات في الجنايات الواقعة بين الناس من بعضهم على بعض، في النفوس والأبدان والأعراض والأموال، كالقتل والجرح والقذف والسرقة؛ فأحكم سبحانه وجوه الزجر الرادعة عن هذه الجنايات غاية الأحكام، وشرعها على أكمل الوجوه المتضمنة لمصلحة الردع والزجر، مع عدم المجاوزة لما يستحقه الجاني من الردع؛ فلم يشرع في الكذب قطع اللسان ولا القتل، ولا في الزنا الخصاء، ولا في السرقة إعدام النفس.

وإنما شرع لهم في ذلك ما هو موجب أسمائه وصفاته من حكمته ورحمته ولطفه وإحسانه وعدله لتزول النوائب، وتنقطع الأطماع عن التظالم والعدوان، ويقنع كل إنسان بما آتاه ماله وخالفه؛ فلا يطمع في استلاب غير حقه.

٣- العاقلة^(٢) إنما تحمل الخطأ، ولا تحمل العمد بالاتفاق.

ولا شبهة على الصحيح، والخطأ يعذر فيه الإنسان، فإيجاب الدية في ماله فيه ضرر عظيم عليه من غير ذنب تعمده، وإهدار دم المقتول من غير ضمان بالكلية فيه إضرار بأولاده وورثته، فلا بد من إيجاب بدله؛ فكان من محاسن الشريعة وقيامها بمصالح العباد أن أوجب بدله على من عليه مولاة القاتل ونصرته، فأوجب عليهم إعانتة على ذلك^(٣).

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٣/ ٣٣٨).

(٢) العاقلة مأخوذة من العقل؛ لأنها تعقل الدماء؛ أي؛ تمسكها من أن تسفك، يقال: عقل البعير عقلاً. أي: شدّه بالعقال، ومنه العقل؛ لأنه يمنع من التورط في القبائح. والعاقلة: هي الجماعة الذين يعقلون العقل، وهي الدية، يقال: عقلت القتيل، أي: أعطيت ديته، وعقلت عن القاتل، أديت ما لزمه من الدية.

والعاقلة هم عصبة الرجل، أي: قرابته الذكور، البالغون من قبل الأب الموسرون، العقلاء ويدخل فيهم الأعمى والزمن، والهرم إن كانوا أغنياء، ولا يدخل في العاقلة أنثى، ولا فقير ولا صغير ولا مجنون، ولا مخالف لدين الجاني؛ لأن مبنى هذا الأمر على النصرة، وهؤلاء ليسوا من أهلها. الموسوعة الفقهية الكويتية (٦/ ٢٢٦).

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٢/ ١٣).

٤- العقوبة في الشريعة الإسلامية لا تصيب إلا من ارتكب موجبها.

ولا تتعداه إلى غيره، وقد التزمت الشريعة الإسلامية بهذا استناداً إلى نصوص شرعية متعددة^(١)، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

عن أبي رُمثة قال: انطلقت مع أبي نَحْوِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَبِي: «ابْنُكَ هَذَا». قَالَ: إِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. قَالَ: «حَقًّا». قَالَ: أَشْهَدُ بِهِ. قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَاحِكًا مِنْ ثَبَّتَ شَبَّهِي فِي أَبِي وَمِنْ حَلَفَ أَبِي عَلَيَّ. ثُمَّ قَالَ «أَمَّا إِنَّهُ لَا يَجْنِي عَلَيْكَ وَلَا تَجْنِي عَلَيْهِ»، وَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾^(٢)

٥- العقوبات المقررة في الإسلام؛ عقوبات ملائمة للجرائم المرصودة لها.

وقد شرعت على أساس محاربة الدوافع الخاصة بكل جريمة، فهي في الزنا الرجم للمحصن، والجلد لغير المحصن وتغريب عام، وهي في السرقة القطع، وفي القذف والشرب الجلد، وهي في الحرابة وقطع الطريق كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [سورة المائدة ٣٣]. وهي في الردة والبغي القتل، وهي في القتل والجرح العمد القصاص، وفي القتل الخطأ الدية، وعلة التشديد في هذه الجرائم بالذات أنها من الخطورة بمكان، والتساهل فيها يؤدي إلى انهيار الأخلاق، وفساد المجتمعات^(٣).

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية من عقوبة الجلد مقابلة بالمواثيق الدولية والقوانين الوضعية، محمد عبد الرحيم علي الدهوان، بحث مقدم لجامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، (ص: ٣١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٤٩٧)، وقال ابن الملقن في البدر المنير (٨/ ٤٧٢): هذا الحديث صحيح. وصححه الألباني في الإرواء (٢٣٠٣).

(٣) أبحاث حول الحدود في الإسلام، جمعة على الخولي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ربيع الآخر - رمضان ١٤٠١ هـ (ص: ٣).

٦- إن الذي شرع الحدود، وحدد العقوبات هو عالم الغيب والشهادة.

الخير بمسالك النفوس ودروبها، العليم بما يصلحها ويقومها: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك: ١٤]، إذا كان الأمر كذلك فتشريع الله لعباده أمراً أو نهياً، حكماً أو حداً بعيداً عن كل معاني النقص والقصور والمبالغة والهوى، وغير ذلك من صفات الجهل والعجز التي يتصف بها البشر وتتسم بها مناهجهم، وإذا كانت الحدود من تشريع الله، فإن الله أرأف بعباده وأرحم مما يظن القاصرون، وهو أخبر بما يصلح حياتهم ويهذب طباعهم، فليس لمتشدق أن يتحدث عن قسوة الحدود، وشدة العقوبات، لأنه ليس أبصر بمصلحة الخلق. وأرحم بهم من خالقهم، ومن يظن غير ذلك فقد خرج من الإيمان^(١).

٧- المتأمل في تشريع الحدود؛ يجد أن علاج النفس الإنسانية بها يتسم بالحكمة والرحمة معاً.

أما الحكمة فتتجلى في أن لكل جرم حداً معيناً، ولكل مخالفة عقوبة خاصة دون غلو أو زيادة ودون مبالغة أو إفراط، بحيث تلاحظ أن الشارع قد سار في هذه الأمور كما سار في غيرها على أدق المقاييس، وأعدلها، فالذي يريد أن يستمتع بنشوة اللذة عليه أن يتوقع أنه سيذوق من الألم أشده. . والذي يريد الثراء من كسب غيره يعامل بنقيض مقصوده، وتقطع منه أداة كسبه. . والذي يريد أن يحقر غيره بالكذب سيجد التحقير من الجماعة كلها، فتسقط شهادته، ويمشي بينهم لا يوثق له بكلام^(٢).

٨- لا يرى الإسلام العقوبة غاية في ذاتها، ولكنه يراها وسيلة ضمن وسائل كثيرة أخرى لتقويم النفس الإنسانية وكفها عن الانحراف.

ولذلك فإن الإسلام لا يتربص بالمجرم لكي يوقع عليه العقاب، ولا ينتظر

(١) أبحاث حول الحدود في الإسلام، جمعة على الخولي (ص: ٦).

(٢) أبحاث حول الحدود في الإسلام، جمعة على الخولي (ص: ٦).

عشرة العاشر ليطش به أو يتقم منه، إنه طالما نصح بالستر عليه لعله يتوب أو يستغفر، دليل ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «تَعَاَفَوْا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ فَمَا بَلَغَنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ»^(١).

ويكره الإسلام أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا حتى لا تجرح أعراض الجماعة المسلمة. ويلوث جَوْهَا بالقليل والقال^(٢).

٩- إذا ضُبطَ الجاني وجيء به إلى القاضي هل يقام عليه الحد فوراً؟ لا إنه يدرأ ما كان هناك مخرج منه^(٣).

فلما أتى ماعز معترفاً بالزنا صرفه النبي ﷺ أكثر من مرة حتى تيقن من اعترافه وأنه ليس له عذر فعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: رَأَيْتُ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ حِينَ جِيءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ قَصِيرٌ، أَعْضَلُ، لَيْسَ عَلَيْهِ رِداءٌ، فَشَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ أَنَّهُ زَنَى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَلَعَلَّكَ؟» قَالَ: لَا، وَاللَّهِ إِنَّهُ قَدْ زَنَى الْأَخْرُ، قَالَ: فَرَجَمَهُ، ثُمَّ خَطَبَ، فَقَالَ: «أَلَا كُلَّمَا نَفَرْنَا غَازِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، خَلَفَ أَحَدُهُمْ لَهُ نَيْبٌ كَنَيْبِ التَّيْسِ، يَمْنَحُ أَحَدَهُمُ الْكُثْبَةَ، أَمَا وَاللَّهِ، إِنْ يُمْكِنُنِي مِنْ أَحَدِهِمْ لَأُنْكَلَنَّهُ عَنْهُ»^(٤).

١٠- يوفر الإسلام الضمانات الكاملة والكافية لكل متهم.

حتى لا يؤخذ بغير دليل ثابت ولذلك كان من المبادئ المقررة في الشريعة أنه لا يصح الحكم بالعقوبة إلا بعد التثبت من أن الجاني ارتكب جريمته، فإن كان هناك شك في ارتكاب الجاني لجريمته، ولم تتقرر بالنسبة له أدلة الإثبات

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٧٨)، وقال ابن عبد الهادي في تنقيح التحقيق (٥٦٣/٤): إسناده حسن. وحسنه الألباني كما في صحيح الجامع (٢٩٥٤).

(٢) أبحاث حول الحدود في الإسلام، جمعة على الخولي (ص: ٨).

(٣) أبحاث حول الحدود في الإسلام (ص: ٨).

(٤) أخرجه مسلم (١٦٩٢).

وجب العفو عنه^(١)، وأصل ذلك المبدأ قول النبي ﷺ: «فَإِنَّ الْإِمَامَ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ»^(٢).

١١ - أدلة الإثبات التي قررتها الشريعة في الحدود دقيقة قلما ثبتت إلا على محترفي الإجرام.

فهي في الزنا مثلاً: الإقرار أو أربعة شهود رجالاً يقرون برؤية الفعل، فإذا لم يتكامل العدد أربعة وأصر واحد أو اثنان أو ثلاثة على قولهم؛ اعتبر من أصر قاذفاً ويحد حد القذف، وذلك لقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤]، وفي القذف بشهادة اثنين أو بالإقرار بعد الدعوى، وفي السرقة الاعتداء على مال الغير المتقوم المحرز خفية. . إلخ تلك الشروط، ولا بد معها من الإقرار وشهادة اثنين، وفي الشرب مثل السرقة بالإقرار أو بشهادة اثنين، ومثل هذه الشروط لا تنطبق إلا على المصر المجاهر بمعصيته الذي تكررت منه حتى أمكن أن تقع منه علناً^(٣).

١٢ - كثير من هذه العقوبات منصوص عليها في التوراة، وصدق عليها الإنجيل.

لأن ما لا نص عليه في الإنجيل بالمنع أو الإباحة تتبع به نصوص التوراة، لأن عيسى عليه السلام قال كما هو مدون عندهم: «ما جئت لألغي ناموس بل جئت لأحيي الناموس».

ويقول الله عز وجل في هذا الشأن ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ٥٥ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ

(١) أبحاث حول الحدود في الإسلام (ص: ١٠).

(٢) أخرجه الترمذي (١٤٨٩). وتقديم.

(٣) أبحاث حول الحدود في الإسلام (ص: ١٠).

بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ﴿سورة المائدة: ٤٥-٤٦﴾، فالذي يهاجم الإسلام من الأوربيين في تشريع العقوبات فهو يهاجم الشرائع السابقة كذلك^(١).

١٣- تحريم الاعتداء على النفس والقصاص في القتل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨].
والهدف منه المحافظة على أرواح الناس: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

لكنه أبقى الباب مفتوحاً أمام ولي أمر الضحية فخيره بين العفو وأخذ الدية وتنفيذ الحد: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]^(٢).

١٤ - يحافظ الاسلام على ممتلكات الغير.

فيمنع السرقة ويعاقب عليها عقوبة شديدة، قال الله ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]^(٣).

١٥ - من الأسس التي قامت عليها العقوبة في الشريعة الإسلامية، المساواة في تطبيقها على الناس جميعاً.

ولا اعتبار لانتماء الإنسان الطبقي الذي راعته التشريعات الوضعية القديمة في نصوصها^(٤)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومَةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يَكْلَمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ،

(١) المصدر السابق. (ص: ١٤).

(٢) محاسن الإسلام جعلتني أحب أن أكون مسلماً (ص: ٣٥).

(٣) المصدر السابق. (ص: ٣٦).

(٤) مقاصد الشريعة الإسلامية من عقوبة الجلد مقابلة بالمواثيق الدولية والقوانين الوضعية، محمد عبد الرحيم علي الدهوان (ص: ٣٢).

حَبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ». ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»^(١).

١٦- راعت الشريعة الإسلامية في حدّ جلد القاذف الآثار المترتبة على انتهاك حقوق المجني عليهم، والأخطار المحدقة بهم.

فكان في تطبيق حدّ الجلد؛ حفظ لنظام المجتمع من الفساد، وصيانة لمقوماته الاجتماعية، ورعاية لأفراده، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤]^(٢).

١٧- ينبغي إقامة الحدود لداعي التأديب والتطهير والمعالجة، لا لغرض التشنفي والانتقام، لتحصل البركة والمصلحة، فهي نعمة من الله تعالى كبيرة على خلقه^(٣).

١٨- وهي مانعة وحاجزة من انتشار الشرور، والفساد في الأرض.

وبإقامتها يصلح الكون، وتعمر به الأرض، ويسود الهدوء والسكون، وتتم النعمة، بانقماص أهل الشر والفساد، وبتركها -والعياذ بالله- ينتشر الشر، ويكثر الفساد، فيحصل من الفضائح، والقبائح، ما معه يكون بطن الأرض خيراً من ظهرها^(٤).

١٩- ولا شك أن الحدود من حكمة الله تعالى ورحمته، والله عزيز حكيم، وهو الشارع الرحيم حين شرع الحدود سبقت رحمته فيها عقابه، فعفا عن الصغار،

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (٤٥٠٥).

(٢) مقاصد الشريعة الإسلامية من عقوبة الجلد مقابلة بالمواثيق الدولية والقوانين الوضعية، محمد عبد الرحيم علي الدهوان (ص: ١٠٨).

(٣) تيسير العلام شرح عمدة الأحكام، للبسام (ص: ٦٥٤).

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، للبسام (٦/ ٢١٠).

وذاهبي العقول، والذين فعلوها لجهل بحقيقتها.

وصعبَ أيضًا ثبوتها، فاشتراط في الزنا أربعة رجال عدول، يشهدون بصريح وقوع الفاحشة، أو اعترافًا من الزاني بلا إكراه، وبقاء منه على اعترافه حتى يُقام عليه الحد.

وفي السرقة لا قطع إلا بالثبوت التام، وانتفاء الشبهة، إلى غير ذلك مما هو مذكور في بابهِ، وأمر بدرء الحدود بالشبهات، كل هذا لتكون توبة العبد بينه وبين نفسه، والله غفور رحيم^(١).

٢٠- العقوبات الشرعية إنما شرعت رحمة من الله تعالى بعباده.

فهي صادرة عن رحمة الخلق وإرادة الإحسان إليهم، ولهذا ينبغي لمن يعاقب الناس على ذنوبهم أن يقصد بذلك الإحسان إليهم والرحمة لهم، كما يقصد الوالد تأديب ولده وكما يقصد الطبيب معالجة المريض^(٢).

٢١- هي من أعظم مصالح العباد في المعاش والمعاد.

فلا تتم سياسة الملك إلا بزواج عقوبات لأصحاب الجرائم، منها ينزجر العاصي ويطمئن المطيع وتتحقق العدالة في الأرض ويأمن الناس على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، كما هو المشاهد في المجتمعات التي تقيم حدود الله؛ فإنه يتحقق فيها من الأمن والاستقرار وطيب العيش ما لا ينكره أحد.؛ بخلاف المجتمعات التي عطلت حدود الله، وزعمت أنها وحشية، وأنها لا تليق بالحضارة المعاصرة، فحرمت مجتمعاتها من هذه العدالة الإلهية، ومن نعمة الأمن والاستقرار^(٣).

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، للبسام (٦/ ٢١١).

(٢) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٥/ ٥٢١).

(٣) الملخص الفقهي، للفوزان (٢/ ٥٢١).

٢٢- من شروط إقامة الحدود على الجاني أن يكون مرتكب الجريمة عالماً بالتحريم.

فلا حد على من يجهل التحريم؛ لقول عمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّمَا الْحَدُّ عَلَى مَنْ عَلِمَهُ»^(١)، ولم يعلم لهم مخالف من الصحابة^(٢).

٢٣- من محاسن القصاص، وفرض العقوبات.

- زجر النفوس الباغية.

- ردع القلوب القاسية، الخالية من الرحمة والشفقة

- تأديب الجماعات الطاغية فحكم بقتل القاتل، وأمر بقطع يد السارق، ليحقن الدماء.

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ الآية، والقطع لحفظ الأموال، فيعيش الناس آمنين مطمئنين قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

- وحرّم الزنا ومقدماته، كالنظر إلى الأجنبية، والخلوة بها، والقبلة واللمس وأمر برجم الزاني وقتل اللوطي على رؤوس الأشهاد، وحكم بجلد الزاني البكر مائة جلدة والتغريب؛ كل ذلك محافظة على الأنساب والأعراض، وحماية للأخلاق، وصيانة للأمة من الفناء والفساد، وحرّم الخمر وعدها أم الخبائث، وحكم على متعاطيها بالجلد لارتكابه النقائص والخصائص، كل ذلك ليبقى العقل سليماً، ويظل المال مصوناً، ويدوم الشرف والخلق طاهراً نقيّاً.^(٣)

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٣٦٤٧).

(٢) الملخص الفقهي، للفرزاني (٥٢٣/٢).

(٣) موارد الظمان لدروس الزمان (٣٨٣/٦).

الباب الثامن: محاسن الإسلام في القضاء.

علم القضاء من أجل العلوم قدرًا وأعزها مكانًا وأشرفها ذكرًا؛ لأنه مقام عليٌّ ومنصبٌ نبويٌّ؛ به الدماء تُعصم وتُسْفَح، والأبضاع تحرم وتُنكح، فهو أعلي درجة استطاع البشر الارتقاء إليها، لتعيش الأمة في اطمئنان وسعادة ورخاء، فلا تحفظ الحقوق وتضان الأعراض والدماء إلا بالقضاء، ولا يوقف كل عند حده إلا بالقضاء، ولا يتحقق التعاون على جلب المصالح ودرء المفاسد إلا بالقضاء، فهو إظهار للعدل وبالعدل قامت السموات والأرض.

وإذا عددت مفاخر أية أمة وأمجادها فالقضاء في قمة تلك المفاخر، ويكون القاضي العالم رمزًا على مكارم أهل بلده ونبل أمته، وقد وصف الله نفسه به، فقال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ يَخُكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [النمل: ٧٨] ^(١).

ومن تعريف القضاء لغة واصطلاحاً يتبين محاسن الدين في هذا الباب الجلل.

فالقضاء هو: منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي، وقطعاً للتنازع، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة. ^(٢)

يقول ابن تيمية: المقصود من القضاء وصول الحقوق إلى أهلها وقطع المخاصمة. فوصول الحقوق هو المصلحة وقطع المخاصمة إزالة المفسدة.

(١) النور الوضاء في بيان أحكام القضاء (ص: ٢).

(٢) تاريخ ابن خلدون (١/ ٢٧٥).

فالمقصود هو جلب تلك المصلحة وإزالة هذه المفسدة، ووصول الحقوق هو من العدل الذي تقوم به السماء والأرض، وقطع الخصومة هو من باب دفع الظلم والضرر^(١).

ويجمع هذا مقصدان مهمان، وهما من مقاصد العقلاء، في كل شريعة، وفي القضاء خاصة، وهما:

١- جلب المصالح وتحصيلها.

٢- درء المفاسد وتقليلها.

قال الشيخ عطية محمد سالم: من الناحية الفعلية للشريعة، نجد في مقاصدها البرهان القائم على ذلك؛ لأن جميع حكماء العالم يقولون: مقاصد العقلاء في أمرين: جلب النفع، ودفع الضرر.

والشريعة جاءت بتحقيق هذين المطلبين وزادت مطلباً ثالثاً؛ وهو: الحث على مكارم الأخلاق ومحاسن العبادات.^(٢)

ويوجب الإسلام على القضاة أن يتصدوا لشرعية القوانين والنصوص، وأن لا يحكموا إلا بما أنزل الله، وبما هو تطبيق لمبادئ الإسلام العامة، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ويحرم الإسلام على المسلمين أن يحكموا بغير ما أنزل الله، ويعتبر من لم يحكم بما أنزل الله كافراً ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٥٥).

(٢) محاسن الشريعة ومساوئ القوانين الوضعية، لعطية بن محمد سالم (ص: ٢٣).

وهكذا نزلت نصوص القرآن بوجوب تصدي القضاة لشرعية القوانين التي يطلب إليهم تطبيقها، فإن كانت شرعيةً طبقوها وإلا أهملوها وطبقوا نصوص الشريعة، أو تطبيقاً لمبادئها العامة وروحها التشريعية. وبذلك سبق الإسلام القوانين الوضعية بحوالي ثلاثة عشر قرناً في تقرير نظرية شرعية القوانين أو ما نسميه اليوم في عرفنا القانوني بنظرية دستورية القوانين.^(١)

ومن خلال ما سبق يتبين لنا الغرض من القضاء في الإسلام يتمثل في:

تحقيق العدالة، ورفع الظلم، والمساواة بين الخصوم.

قال الشيخ عطية محمد سالم: «الغرض من منهج القضاء هو تحقق العدل، والإنصاف، والمساواة. فإن ما رسمه القرآن بصريح النصوص ليغني عن البيان، منها:

١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] ففيه الأمر بالحكم بالعدل بين الناس عموماً.

٢ - ثم يأتي أخص من هذا وهو في خصوص العدول والخصوم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢].

٣ - ومع غير المسلمين أيضاً: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].^(٢)

(١) الإسلام وأوضاعنا السياسية (ص: ٢٣٨)

(٢) محاسن الشريعة ومساوئ القوانين الوضعية، لعطية بن محمد سالم (ص: ٣٧).

ومن محاسن القضاء في الإسلام: وضوح مقاصده للمسلمين، فمن مقاصده:

١- دفع الظلم وإقامة العدل وإشاعته سواء كان بين الأفراد إذا كان حقاً خاصاً، أو في المجتمع إذا كان حقاً عاماً، أو بين الراعي والرعية إذا كان الحق بين الرعية والسلطان، فهذه الخاصية هي الغاية من القضاء.

وهذه أمانة من أعظم الأمانات التي كُلف بها المكلفون، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]

قال ابن تيمية: إن جماع الحسنات: العدل، وجماع السيئات: الظلم، وهذا أصل جامع عظيم. ^(١)

٢- الفصل في المنازعات، وإنهاء الخصومات، وذلك بحسب الظاهر لا في حقيقة الأمر، فقول القاضي لا يحل حراماً، ولا يحرم حلالاً، فالقاضي مظهر للحق وليس منشأ له.

ولذا قال النبي ﷺ: «إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً، بقوله: فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها» ^(٢).

٣- إقامة الشريعة وحراستها وتنفيذها.

قال الطاهر بن عاشور: من أهم مقاصد الشريعة بعد تبليغها وإقامتها وحراستها وتنفيذها. ولذلك لزم إقامة علماء للشريعة لقصد تبليغها وإقامتها. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]

وتعين إقامة ولاية لأمرها، وإقامة قوة تُعين أولئك الولاية على تنفيذها.

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فكانت الحكومة والسلطان من لوازم الشريعة لئلا تكون في بعض الأوقات معطلةً. وقد أشار إلى هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥] ^(١).

٤ - القضاء بإقامة الحدود، التي تحفظ بها النفوس، وتصان بها الأعراس، وتعجل بها الحقوق، وتدفع بها المفاسد.

وبالجملة فالقضاء من وسائل حفظ الكليات الخمس: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، فهو من محاسن هذه الشريعة الغراء ^(٢). ولذا فقد كان من أهم ما ينبغي أن يقيمه السلطان في الإسلام؛ إقامة قاضٍ ينظر في الخصومات ويمضي ما ثبت عنده من الحكومات على موافقة الشريعة في القضاء ^(٣).

٥ - إقامة القضاء يحفظ نظام الأمة، ويمنع التهاجر، ويسد باب الفتن، ويوقف أو يقلل باب التعدي على الأنفس، والأموال، والأعراس.

وجماع مقاصد الشرائع الإلهية على جلب المصالح وتكثيرها، ودفع المضار وتقليلها، وهذا الأمر هو جماع أمر القضاء سواء كان في تحصيل الحقوق وحفظها وتعجيلها، أو رد المظالم، وردع الجناة بإقامة الحدود والتعزيرات.

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية، للطاهر بن عاشور (٣/ ٥١٩).

(٢) مقاصد القضاء في الإسلام، لحاتم محمد بوسمة (١/ ١١).

(٣) محاسن الشريعة، للقفال (ص: ٥٩٧).

٦- ومن محاسن الإسلام في أدب القضاء؛ ألا يجلس القاضي في مجلس القضاء وهو مشوش الذهن بغضب، أو جوع، أو نعاس، أو ضجر، أو غم، أو هم يطفئ الفطنة أو يؤثر في كمال الفهم، ويخرج به عن طبع الهدوء والحلم؛ لأن ذلك قد يؤثر في تصويره للقضية ونظره في البيانات، فيخطيء الحكم.

فعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كَتَبَ إِلَى ابْنِهِ، وَكَانَ بِسَجِسْتَانَ، بَأَنَّ لَا تَقْضِي بَيْنَ اثْنَيْنِ وَأَنْتَ غَضْبَانُ، فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا يَقْضِيَنَّ حَكْمٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ» ^(١)

والغضب المانع من الحكم هو: الغضب الكثير المشوش على الذهن، وكذلك ما كان في معناه.

قال البسام: الحديث فيه النهي عن القضاء وهو غاضب؛ لأنَّ الغضب يخرجُه عن دائرة العدل، وإصابة الحق ^(٢).

٧- من محاسن الإسلام في أدب القضاء؛ أن يسوي بين الخصمين في سماع الدعوى بلا تمييز بين سلطان وغيره فتسمع الدعوى عند نفس القاضي.

فمن ذلك ما حكاه أبو بكر الضبي -المعروف بوكيع- من أخبار شريح القاضي أنه قال: لما توجه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى قتال معاوية افتقد درعا له، فلما رجع وجدها في يد يهودي يبيعها بسوق الكوفة، فقال: يا يهودي الدرع درعي لم أهب ولم أبع، فقال اليهودي: درعي وفي يدي، فقال: بيني وبينك القاضي، قال: فأتياني، ففقد علي إلى جنبي واليهودي بين يدي، وقال: لولا أن خصمي ذمي لاستويت معه في المجلس، ولكني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: أصغروا بهم كما أصغر الله بهم، ثم قال: هذه الدرع درعي، لم أبع، ولم أهب، فقال لليهودي: ما تقول؟ قال: درعي وفي يدي، وقال شريح: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟ قال: نعم الحسن

(١) أخرجه البخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧).

(٢) توضيح الأحكام، للبسام (١٧٠/٧).

ابني، وقنبر يشهدان أن الدرع درعي، قال شريح: يا أمير المؤمنين، شهادة الابن للأب لا تجوز، فقال علي: سبحان الله! رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته، سمعت رسول الله ﷺ يقول: الحسن والحسين سيदा شباب أهل الجنة، فقال اليهودي: أمير المؤمنين قدمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه! أشهد أن هذا الدين على الحق، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الدرع درعك يا أمير المؤمنين، سقطت معك ليلاً، وتوجه مع علي يقاتل معه بالنهروان فقتل^(١).

٨- ومن محاسن الإسلام في أدب القضاء أن يسوي بين الخصمين في مجلسه.

فيجلسان أمامه بلا تمييز بينهما، كما يسوي بينهما في القضاء، فهذه صورة من صور العدل بينهما.

فعن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعثني رسولُ الله ﷺ إلى اليمن قاضياً، فقلت: يا رسولَ الله، تُرسلني وأنا حديث السنن ولا علم لي بالقضاء؟ فقال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَهْدِي قَلْبَكَ وَيُثَبِّتَ لِسَانَكَ، فَإِذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْكَ الْخَصْمَانِ، فَلَا تَقْضِينَ حَتَّى تَسْمَعَ مِنَ الْآخِرِ كَمَا سَمِعْتَ مِنَ الْأَوَّلِ، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ الْقَضَاءُ» قال: فما زلتُ قاضياً، أو ما شككتُ في قضاء بعد^(٢).

٩- من محاسن الإسلام في أدب القضاء ألا يقضي حتى يسمع من الخصمين ما عندهما، وينظر في البيّنات التي يقدمانها.

فهذا من مظاهر العدل والمساواة، فعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «فلا تقضين حتى تسمع من الآخر، كما سمعت من الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء»^(٣).

قال القرافي: والعدل التسوية في كل شيء حتى يقوم المخصص، فلا تسمع

(١) أخبار القضاة، لوكيع (٢/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٨٢)، والترمذي (١٣٣١). وصححه الألباني في الإرواء (٢٥٠٠).

(٣) الحديث السابق.

بينة أحدهما دون الآخر. (١)

١٠- ومن محاسن الإسلام في أدب القضاء، ألا يقضي بعلم نفسه ولو تيقنه سداً للذريعة، ولكن يقضي بالبينات على اختلاف أنواعها فهي وسيلة الإثبات.

ففي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو رجعت أحداً بغير بينة، رجمت هذه». (٢)

قال ابن قدامة: ظاهر المذهب أن الحاكم لا يحكم بعلمه في حد ولا غيره، لا فيما علمه قبل الولاية ولا بعدها. هذا قول شريح، والشعبي، ومالك، وإسحاق، وأبي عبيد، ومحمد بن الحسن. وهو أحد قولي الشافعي، وعن أحمد رواية أخرى: يجوز له ذلك. وهو قول أبي يوسف، وأبي ثور، والقول الثاني للشافعي، واختيار المزني؛ «لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قالت له هند: إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي. قال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»، فحكم لها من غير بينة ولا إقرار، لعلمه بصدقها. (٣)

ولنا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه» (٤). فدل على أنه إنما يقضي بما يسمع، لا بما يعلم.

وعن أبي وائل، قال: قال عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ يَسْتَحِقُّ بِهَا مَالًا وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] فَقَرَأَ إِلَى

(١) الذخيرة (١٠/ ١٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣١٠)، ومسلم (١٤٩٧).

(٣) المغني (١٠/ ٤٨، ٤٩).

(٤) البخاري (٧١٦٨)، مسلم (١٧١٣).

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]، ثُمَّ إِنَّ الْأَشْعَثَ بْنَ قَيْسٍ خَرَجَ إِلَيْنَا، فَقَالَ مَا يُحَدِّثُكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: فَحَدَّثَنَا، قَالَ: فَقَالَ: صَدَقَ، لَفِيَّ وَاللَّهِ أَنْزَلْتُ، كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ خُصُومَةٌ فِي بَيْتٍ، فَاخْتَصَمْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «شَاهِدَاكَ أَوْ يَمِينُهُ»، قُلْتُ: إِنَّهُ إِذَا يَحْلِفُ وَلَا يُبَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ يَسْتَحِقُّ بِهَا مَالًا، وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لَفِيَّ اللَّهِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ، ثُمَّ افْتَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] إِلَى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١)

١١- ومن محاسن الإسلام في القضاء ألا يقضي للمدعي بمجرد دعواه، ولو تيقن صدق دعواه، بل لا بد أن يأتي ببينة على مدعاه.

عن ابن عباس، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لَادَّعَى نَاسٌ دِمَاءَ رِجَالٍ وَأَمْوَالَهُمْ، وَلَكِنَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ»^(٢).

قال ابن عبد البر: وأجمعوا أنه لا يعطى أحد بدعواه، وأن البينة عليه فيما يدعيه إذا لم يقر له به المدعى عليه^(٣).

١٢- من محاسن الإسلام في أدب القضاء أن يحكم بمختلف أنواع البينات والقرائن والأمارات وهي غير محصورة.

عدَّ منها ابن القيم في الطرق الحكمية ستاً وعشرين طريقة، ولم يحصرها في ذلك بل ذكرها إرشاداً إلى غيرها، وقد حكم الخلفاء في ثبوت حد الزنا بالحبل، وفي ثبوت حد الخمر بالرائحة والقيء فلم يوقفوا إقامة الحد على مجرد الشهود أو الاعتراف.

وقد قال ابن القيم: فإذا ظهرت أمارات العدل، وأسفر وجهه بأي طريق كان،

(١) البخاري (٢٥١٥)، مسلم (٢٢١).

(٢) البخاري (٤٥٥٢)، مسلم (١٧١١).

(٣) الاستذكار (٢٠٩/٧).

فثم شرع الله ودينه، والله سبحانه أعلم وأحكم وأعدل أن يخص طرق العدل وأماراته وأعلامه بشيء، ثم ينفي ما هو أظهر منها وأقوى دلالة، وأبين أمانة، فلا يجعله منها، ولا يحكم عند وجودها وقيامها بموجبها، بل قد بين سبحانه بما شرعه من الطرق، أن مقصوده إقامة العدل بين عباده، وقيام الناس بالقسط، فأى طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين، وليست مخالفة له ^(١).

فكل ما أثبت الحقوق من القرائن والبيئات والأمارات فالشرع يقره ولو لم ينص عليه في كتب الفقهاء السابقين، كالعمل ببصمات اليد والعين، والبصمة الوراثية، والتصوير بأنواعه، وغيرها فإنه لا تعارض شرعاً وهي أقوى في الإثبات من كثير من الأمارات والقرآن والبيئات التي ذكرها كثير من الفقهاء ^(٢).

١٣- ومن محاسن الإسلام في التقاضي أنه طلب من الشهود إقامة الشهادة على وجهها.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾ [المائدة: ١٠٨].

ثم اعتبر في الشهود شروطاً كثيرة لتحمل الشهادة من أهمها العدالة، لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، وقال: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وذلك لأنها تنفيذ لقول الغير على الغير، كاشفة للحق، فكان لزاماً أن يتحلى الشاهد بفضائل تجعل لقوله مزية على غيره ^(٣).

ولذا وصف شريح الشهود بالشفاء، قال الموفق: قال شريح: القضاء جمر، فنحه عنك بعودين يعني الشاهدين وإنما الخصم داء، والشهود شفاء، فأفرغ

(١) الطرق الحكمية، لابن القيم (ص: ١٣).

(٢) ينظر: مقاصد القضاء في الإسلام، للدكتور: حاتم محمد بوسمة (٢/ ١٤).

(٣) ينظر: مقاصد القضاء في الإسلام، د/ حاتم محمد بوسمة (٢/ ٢٩).

الشفاء على الداء.^(١)

١٤- ومن محاسن الإسلام؛ في التقاضي أنه أقام موانع لقبول الشهادة.

منها:

❖ شهادة الابن لوالده وإن علا.

❖ شهادة الوالد لابنه وإن نزل.

❖ شهادة الزوجة لزوجها؛ لأن المرأة تتسع بمال زوجها.

❖ شهادة الزوج لزوجته؛ لأن الزوج يتجمل بمال امرأته.

❖ شهادة الخصم على غريمه.

❖ شهادة الظنّين، وهو المتهم المغموص في خلائقه.

وقد ذكر القرافي في الذخيرة عشرة موانع لقبول الشهادة، وهي ترجع للقاعدة الفقهية: لا حجة في الاحتمال الناشئ عن دليل.^(٢)

١٥- ومن محاسن الإسلام في التقاضي؛ أنه حصن أحكام القاضي من الطعن عليها إلا لو تبين خطؤه، أو خالف نصًّا أو إجماعًا، فجعل لأحكامه المهابة، وحفظ مع ذلك حقوق المتقاضين.

ومجمل ذلك أن قضاءه له حالان:

الأول: أن يكون خلافه في الحكم القضائي فيما يسوغ فيه الاجتهاد، فحكمه محصن لا ينقض، بل يكون رافعًا للخلاف.

الآخر: أن يكون خلافه في الحكم القضائي فيما لا يسوغ فيه الاجتهاد،

(١) المغني (١٠/ ١٢٨).

(٢) ينظر: الذخيرة (١٠/ ٢٥٩ وما بعدها).

فحكمه ينقض بلا خلاف، وكذا لو كان ظلمًا بينًا.

ففي رسالة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن تراجع الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التماسي في الباطل. ^(١)

وقال الرافعي: فمهما قضى القاضي بالاجتهاد، ثم بان له الخطأ في قضاؤه، فله حالتان:

إحدهما: أنه، إذا بان أنه خالف أمرًا مقطوعًا به، كنص كتاب، أو سنة متواترة أو إجماع، أو مظنونًا ظنًا محكمًا بخبر الواحد، وبالقياس الجلي؛ لزمه نقض قضاؤه.

الحالة الثانية: إذا ظهر بقياس خفي، رجح عنده على ما حكم به، ورأى الصواب، فيحكم من بعد في أخوات الحادثة، بما ظهر له، ولكن لا ينقض قضاؤه الأول، بل يمضيه؛ لأن الظنون المتعادلة لو نقض بعضها ببعض؛ لما استمر حكم، ولشق الأمر على الناس. ^(٢)

١٦- ومن محاسن الإسلام في التقاضي؛ مراعاة التوازن في مخالفة القاضي للحق، فإذا أخطأ القاضي كان خطؤه على المقضي له، وإن تعمد كان عليه. ^(٣)

لكن مع القول بعدم تضمين القاضي في حال الخطأ، فإن الشريعة ضمنت حق المظلوم في بيت مال المسلمين فصانت الحقوق من الضياع، وهذا من تمام العدل. ^(٤)

(١) أخرجه الدارقطني (٤٤٧١)، والبيهقي (٢٠٣٧٢).

(٢) ينظر: العزيز شرح الوجيز المعروف بالشرح الكبير، للرافعي (٤٨٠/ ١٢).

(٣) ينظر: الأشباه والنظائر، لابن نجيم (ص: ١٨٩).

(٤) ينظر: مقاصد القضاء في الإسلام، للدكتور: حاتم محمد بوسمة (١٥٨/ ٢).

١٧- ومن محاسن الإسلام في القضاء أنه جعل القضاء عبادة من أجل العبادات وأنفعها للناس.

فشرف العبادة بحسب نفعها وتعدي نفعها، وهذا يجعل القاضي مراقباً لربه في سائر ما يعرض عليه.

١٨- ومن محاسن الإسلام في القضاء ألا يحكم القاضي لنفسه، ولا لمن لا تقبل شهادته له: كوالده وولده وزوجته ولا يحكم على عدوه؛ لقيام التهمة في هذه الأحوال.

ومتى عرضت قضية تختص به أو لمن لا تقبل شهادته له؛ أحوالها إلى غيره؛ فقد حاكم عمر أبياً إلى زيد بن ثابت، وحاكم عليّ رجلاً عراقياً إلى شريح، وحاكم عثمان طلحة إلى جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ^(١).

١٩- ومن محاسن الإسلام في القضاء؛ أن أحكامه تجمع بين الثبات في أصولها، والمرونة في قواعد التقاضي والإثبات وغيرها.

٢٠- ومن محاسن القضاء؛ أن لا يقبل القاضي الهدية.

لأن قبوله الهدية يقصد بها استمالة قلبه، ليعتني به في الحكم، فتشبه الرشوة. قال مسروق: إذا قبل القاضي الهدية: أكل السحت، وإذا قبل الرشوة: بلغت به الكفر.

فعن أبي حميد الساعدي قال: استعمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلاً من بني أسد، يقال له ابن اللبية على صدقة، فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول: هذا لك وهذا لي، فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده، لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتة: إن كان بغيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر» ثم رفع يديه حتى

(١) الملخص الفقهي (٢/ ٦٢٧).

رأينا عورتي إبطيه: «ألا بلغت» ثلاثاً. (١)

وقال السرخسي: فعرفنا أن قبول الهدية من الرشوة إذا كان بهذه الصفة يدخل به عليه التهمة، ويطمع فيه الناس، فليتحرز من ذلك إلا من ذي رحم محرم منه، فقد كان التهادي بينهم قبل ذلك عادة؛ ولأنه من جوالب القرابة، وهو مندوب إلى صلة الرحم، وفي الرد معنى قطيعة الرحم، وقطيعة الرحم من الملائع، فأما في حق الأجانب قبول القاضي الهدية من جملة ما يقال: «إذا دخلت الهدية من الباب، خرجت الأمانة من الكوة». (٢)

قال الشوكاني: الظاهر أن الهدايا التي تهدى للقضاة ونحوهم هي نوع من الرشوة؛ لأن المهدي إذا لم يكن معتاداً للإهداء إلى القاضي قبل ولايته لا يهدي إليه إلا لغرض، وهو إما التقوي به على باطله، أو التوصل إلى حقه والكل حرام، وأقل الأحوال أن يكون طالباً لقربه من الحاكم، وتعظيمه ونفوذ كلامه، ولا غرض له بذلك إلا الاستطالة على خصومه، أو الأمن من مطالبته، فيحتشمه من له حق عليه، ويخاف من لا يخافه قبل ذلك، وهذه الأغراض كلها تؤول إلى ما آلت إليه الرشوة، فليحذر الحاكم المتحفظ لدينه، المستعد للوقوف بين يدي ربه من قبول هدايا من أهدي إليه بعد توليه للقضاء، فإن للإحسان تأثيراً في طبع الإنسان، والقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، فربما مالت نفسه إلى المهدي إليه ميلاً يؤثر على الحق عند عروض المخاصمة بين المهدي وبين غيره، والقاضي لا يشعر بذلك، ويظن أنه لم يخرج عن الصواب بسبب ما قد زرعه الإحسان في قلبه، والرشوة لا تفعل زيادة على هذا، ومن هذه الحيثية امتنعت عن قبول الهدايا بعد دخولي في القضاء ممن كان يهدي إليّ من قبل الدخول فيه، بل من الأقارب فضلاً عن سائر الناس، فكان لذلك من المنافع ما

(١) أخرجه البخاري (٧١٩٧)، ومسلم (١٨٣٢). وانظر: القضاء في مكة المكرمة قديماً وحديثاً (ص: ٥٣).

(٢) المبسوط (٨٢/١٦).

لا يتسع المقام لبسطه أسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه^(١).

٢١- ومن محاسن القضاء إفساح الوقت للمتخاصمين في الدفاع عند التقاضي.

نصَّ الفقهاء على أنه ينبغي على القاضي أن يعطي كلاً من الخصمين الوقت الكافي لتحضير حججه أو دفعه، أو إكمالها، فإذا ادعى المدعي أن معه بينة، ولكنها غير حاضرة، فطلب المهلة لإحضارها صحَّ طلبه، ووجب تلبيته، وكذلك المدعى عليه إذا طلب إمهاله ليأتي بالوجه الذي يرويه على بينة خصمه، فيعطيه القاضي من الوقت ما يكفي لذلك، حسب اجتهاده وتقديره.

ولكن لا ينبغي أن يفهم من هذا المبدأ إعطاء الفرصة للمدعى عليه في التهرب من إجابة دعوى المدعي، كأن يسكت أو يصر على عدم الإقرار والإنكار معاً، إذ لا يمكن بذلك معرفة وجه الحق والحكم به؛ ولذلك قال بعض الفقهاء: إن المدعى عليه إن لم يجب على دعوى المدعي بإقرار، أو إنكار، أو حبس؛ أدب، فإن أصرَّ على عدم الجواب حكم عليه بالحق؛ لأن الإصرار على ذلك في قوة الإقرار.

وأما عن رأي علماء المرافعات في هذا المبدأ، فذهبوا إلى أنه يقتضي تمكين المدعي من بسط ادعاءاته بما لديه من أدلة وتمكين المدعى عليه من شرح دفاعه، وتدعيمه بما لديه من أدلة أيضاً، وللمحكمة سلطة واسعة في تقدير اللازم لتطبيق هذا المبدأ.

وجاء في أصول المحاكمات الشرعية: يثبت لكل خصم حق الدفاع عما أورده الآخر لدحض أقواله، وإبطال بياناته، ويجب على المحكمة أن تستمع إلى مرافعة الخصوم كاملة ليكون المدعى عليه آخر من يتكلم في الدعوى المدنية المحضة، فإن كانت النيابة ممثلة في الدعوى كانت آخر من يتكلم، ويجب على

(١) نيل الأوطار (٨/ ٣٧٥).

المحكمة أن تستمع إلى أقوال الخصوم ودفاعهم، وكل ما يريدون قوله حال المرافعة، ولا يجوز مقاطعتهم إلا إذا خرجوا عن الموضوع، أو مقتضيات الدفاع، فيقاطعونهم القاضي. ^(١)

٢٢- ومن محاسن الإسلام؛ تعيين القاضي وعزله.

إن مقتضيات الخلافة أن يتولى الخليفة كل النظم القضائية، ويحكم في المشكلات بنفسه، فقد تولى النبي ﷺ أمر القضاة بين المسلمين، ومن بعده الخلفاء الراشدون.

ولكن مع اتساع العالم الإسلامي كان لابد أن يعين الخليفة قضاة يحملون معه أو عنه مسئولية الفصل في الأحكام.

فكان يعين ولاية للأقاليم وقضاة يتولون القضاء في كل إقليم، وأمر تعيينهم يصدر من الخليفة مباشرة.

وتكون ولاية القاضي محدودة من ناحية العموم والخصوص، فقد يكون قاضياً لكل البلاد الإسلامية، أو قاضياً في إمارة معينة، وقد يكون عام النظر، خاص المحل، فيقلد النظر في جميع الأحكام في منطقة معينة أو إمارة محددة، كما يمكن أن تكون ولاية القاضي مقصورة على حالة معينة بأن يولى للفصل في خصومة بذاتها، وتستمر ولايته حينئذ على النظر في هذه الخصومة ما دام الخلاف موجوداً، فإذا أصدر حكمه النهائي توقفت ولايته، ولا يجوز أن يجدد النظر إذا تجددت المشاجرة إلا بعد تعيين جديد ^(٢).

فالقضاء من الوظائف الداخلة تحت الخلافة، لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات، حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة ^(٣).

(١) التسوية بين الخصوم في مجلس القضاء (ص: ٣٤).

(٢) الأحكام السلطانية (ص: ٥٦ - ٥٧).

(٣) مقدمة ابن خلدون (ص: ٢٢٠).

فمنصب القضاء منصبٌ جليل القدر، فمن الواجب أن لا يتولاه إلا من كان أهلاً له.

إن القاضي يتمتع في ظل النظام الإسلامي بحصانة تحول بينه وبين عزله من منصبه، إلا إذا كانت هناك أسباب قوية تستوجب العزل.

فالقاضي إذا تغيرت حالته، وعجز عن القيام بأعباء وظيفته بسبب زوال عقله، أو مرضه مرضاً يمنعه من القضاء، أو إذا اتصف بما ينافي الأهلية، أو اختلت فيه إحدى شرائطها، فإنه يعزل تلقائياً، وتبطل أحكامه اللاحقة. ^(١)

٢٣- من محاسن القضاء؛ كفالة الشريعة الإسلامية لحق التقاضي لكل الناس بلا عنصرية.

منحت الشريعة الغراء لكل إنسان داخل دار الإسلام الحق في أن يتداعى أمام القضاء الإسلامي لإنصافه، ودفعاً لأي ظلم يقع عليه، وجميع الأفراد متساوون في ذلك، لا فرق بينهم بسبب الأصل أو الجنس أو الطبقة أو اللون أو الثروة، ولا يقتصر هذا الحق على المسلمين فقط بل هو للذميين أيضاً، بل لقد منحت شريعة الإسلام للمستأمنين وهم في الأصل من رعايا دار الحرب. ^(٢)

وتمتع كل إنسان داخل دار الإسلام بحق التقاضي بلا تفاضل بين الناس في ذلك، إنما ينبثق من عدالة هذه الشريعة وإعلانها لمبدأ المساواة بين بني الإنسان، إذ منع الفرد من اللجوء للقضاء للمحافظة على حقوقه يمثل انتهاكاً خطيراً لمبدأ المساواة الذي يعتبر سمة من سمات الشريعة الإسلامية كما أن هذا المنع في ذاته -أياً كان- سببه ظلمٌ تأباه عدالة الإسلام.

ففي شريعة الإسلام لا يوصد باب التقاضي أمام البعض ويفتح أمام البعض

(١) النظام القضائي في الفقه الإسلامي (ص: ٢٠٤)، تاريخ القضاء في الإسلام (ص: ١٧٠)، القضاء في مكة المكرمة قديماً وحديثاً (ص: ٦٩).

(٢) النظام القضائي الإسلامي د. أحمد محمد مليجي (ص: ١١٧).

الآخر، ولا يجوز إنشاء محاكم خاصة بفئات خاصة أو طبقات معينة من الناس على أساس إنشاء امتياز لهذه الفئات أو الطبقات على غيرهم من الأفراد، لما يمثله ذلك من إخلال بمبدأي العدل والمساواة.

وتيسير التقاضي من مميزات النظام القضائي الإسلامي، فلا توجد أية عوائق أو عراقيل أمام الفرد في لجوئه للقضاء، لدرجة أن بعضاً من الفقهاء لم يجز للقاضي أن يتخذ حاجباً، حتى لا يكون هذا الحاجب عائقاً أمام المتقاضي، ومنهم من اشترط في مجلس القضاء أن يكون في مكان بارز غير مستتر بحيث يصل إليه كل قاصد للتقاضي، كذلك لا مجال للرسوم القضائية في النظام القضائي الإسلامي لما قد تمثله هذه الرسوم من مشقة مادية على بعض المتقاضين.

ولا يستثنى القضاء الإسلامي أحداً مهما كان شأنه من المثل أمامه حتى لو كان الخليفة نفسه، إذ جرى العمل في ظل النظام القضاء الإسلامي على مقاضاة الخلفاء والولاة تماماً كما يحاكم سائر الأفراد، ففي شريعة الإسلام لا حصانة لأشخاص أو أعمال معينة من الخضوع للقضاء الإسلامي، لما يترتب على هذه الحصانة من ظلم تأباه روح العدل التي تسود أحكام هذه الشريعة^(١).

٢٤- من محاسن القضاء؛ مراعاة الخلفية العقدية.

لكل مجتمع من المجتمعات خصائص تميزه عن غيره، ومقومات أساسية تقوم عليها حياة أفراد، ومجتمعنا الإسلامي ينبغي أن يكون مصبوغاً بالصبغة الإسلامية التي وصفها ربنا **عَزَّوَجَلَّ** بقوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، هذه الصبغة تميز مجتمع المسلمين عن مجتمعات غير المسلمين، وتطبع المسلمين بطابع خاص يفترون به عما عداهم ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٥٥]. فالتصور الإسلامي عن الله والكون والحياة والإنسان والعالم الآخر يخالف سبيل المجرمين وتصوراتهم

(١) عوامل انحسار القضاء الشرعي في بعض المجتمعات الإسلامية في العصر الحاضر (٣٨ / ٧).

ومناهج حياتهم كلها، وبذلك يتميز أولياء الرحمن عن أتباع الشيطان.

ويعد القضاء الشرعي الذي يعني الرجوع إلى قوانين الشريعة والاحتكام إلى منهج الله ملمحاً من ملامح الصبغة الإسلامية للمجتمع المسلم، ومقوماً من مقوماته لا غنى لأفراد هذا المجتمع عنه ما داموا يؤمنون بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبياً ورسولاً.

وإذا كان من حق كل مجتمع أن يحكم بالتشريع الذي يؤمن به بعدالته وتفوقه وسموه على غيره من التشريعات، فإن ذلك بالنسبة للمجتمع المسلم يعتبر واجباً وفرضاً عليه، وليس مجرد حق له.

وبهذه الفرضية لا يكون المسلم مسلماً؛ إلا إذا اختار الالتزام بشريعة الإسلام، وأيقن أن ما ثبت عن الله تعالى أو عن نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو المصلحة بعينها، والرحمة كلها والعدل كله.

فالمسلمون ليس لهم خيار في الالتزام بالقوانين الإسلامية والاحتكام إلى شرع الله تعالى في تنظيم حياتهم وتسيير أمورهم كلها. فإيماننا بالله عَزَّ وَجَلَّ يفرض علينا الإقرار بأن الدين هو موجه الحياة، وأن الحاكمية فيه لله رب العالمين، إذ إن معنى الألوهية لله أن تكون الحاكمية لله فلا أحبار ولا رهبان، يشرعون للناس ما لم يأذن به الله، ولا حزب ولا أحزاب يضعون من التوجيهات والتشريعات ما لم يأمر به الله، ولا سيادة للشعب، وإنما هي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والشعب له السلطان في اختيار من ينفذ شرع الله، ولا طبقة تحكّم وطبقة تُحكّم، ولا شخصيات مقدسة فوق القانون ولا محاكم تختص بطبقة من الحكام دون آخرين، ولا تشريعات تفرق بين جنس وجنس ولون ولون. والقادة والأحزاب والحكام والشعوب كلها تخضع للنظام الذي أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.^(١)

(١) المجتمع المتكافل في الإسلام. د/ عبد العزيز الخياط ص ١٤.

الباب التاسع: محاسن الإسلام في أخلاقه وآدابه.

إن موضوع الخُلُق من الموضوعات العظيمة في ديننا الحنيف، وعليه يدور نجاح المسلم، فكيف ينجح العالم في وظيفته إذا لم يكن علي خلق؟! وكيف ينجح الزوج في حياته إذا لم يكن علي خلق؟! وكيف ينجح الداعية في دعوته إذا لم يكن علي خلق؟! وكيف ينجح الأخ مع إخوانه إذا لم يكن علي خلق؟! والإنسان يحتاج إلى هذا الخلق في كل ميادين الحياة بعد توحيده لله رب العالمين وعبادته له.

وهذه الأخلاق لابد أن تتجلى في حياته ومع محيطه الذي هو يعيش فيه. ^(١)
ولا تخلو أحكام هذه الشريعة المطهرة من التركيز على قضايا الخُلُق وربط العبادات بها، بل وجعل الأخلاق الحسنة ثمرة من ثمرات العبودية.

ومعنى الخُلُق: السَّجِيَّةُ والطَّبْعُ، والمُرُوءَةُ والدينُ. ^(٢)

واصطلاحاً: عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسرٍ من غير حاجة إلى فكرٍ وروية. ^(٣)

قال الحسن البصري: حقيقة حسن الخُلُق بذل المعروف، وكف الأذى وطلاقة الوجه. ^(٤)

(١) مكارم الأخلاق لمن أراد الخلاق (ص: ٣).

(٢) القاموس المحيط (ص: ٨٨١).

(٣) التعريفات الفقهية (ص: ٨٩).

(٤) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/ ٢٠٧).

وقال الماوردي: حسن الخُلُق أن يكون سهل العريكة، لين الجانب، طلق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة. ^(١)

وقال أيضًا: في الخُلُق العظيم ثلاثة أوجه: أحدها: أدب القرآن، والثاني: دين الإسلام، والثالث: الطبع الكريم وهو الظاهر، وحقيقة الخُلُق ما يأخذ به الإنسان نفسه من الآداب، سمى بذلك لأنه يصير كالخُلُق فيه. ^(٢)

والأخلاق الحسنة هي الدعامة الأولى لحفظ كيان الأمم، فلا تنهض الجماعات البشرية، ويعلو بنيانها، وتستقيم أحوالها، وتسمو حضارتها؛ إلا بالأخلاق الحسنة الفاضلة، فهي الركيزة الأساس في بناء كل مجتمع ينشد المحبة والإخاء، ويحرص على النهضة والبناء، ومن أجل ذلك كانت رسالة الأنبياء تحث على الأخلاق الفاضلة، وفي الحديث النبوي الشريف: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ». ^(٣)

ولمحاسن الأخلاق في الإسلام خصائص متعددة ومنها:

١ - ربانية المصدر.

فالأخلاق في الإسلام لم تنبع من عادات أو تجارب وأبحاث تتغير بتغير الظروف والبيئات؛ وإنما مصدرها الوحي المعصوم. واتفقوا على أن للأخلاق الإسلامية مصدرين رئيسين، هما أعظم ما تستمد منه هذه الأخلاق.

الأول: كتاب الله عزَّ وجلَّ.

فالقرآن الكريم هو المصدر الأول للأخلاق، والآيات التي تضمنت الدعوة

(١) غذاء الألباب (١/٣٥٣ - ٣٥٤).

(٢) تفسير الماوردي (٦/٦١ - ٦٢).

(٣) أخرجه أحمد (٨٥٩٥). وصححه الألباني كما في صحيح الجامع (٢٨٣٣). وانظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال (١/٦٨٩).

إلى مكارم الأخلاق والنهي عن مساوئها كثيرة:

منها؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]

ومنها: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] إلى غير ذلك من الآيات

ويدلنا على أصالة هذا المصدر أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي وصفه الله عَزَّوَجَلَّ بالخلق العظيم تصفه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بقولها: كان خلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن ^(١).

ومعنى ذلك كما يقول ابن كثير: أنه قد ألزم نفسه ألا يفعل إلا ما أمره به القرآن ولا يترك إلا ما نهاه عنه القرآن؛ فصار امتثال أمر ربه خلقاً له وسجية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يوم الدين. ^(٢)

إن القرآن الكريم كتاب الله الخالد، قد اشتمل على جزء كبير من الآيات التي رسمت المنهج الأخلاقي للمسلمين بشكل يتناول المعايير الأخلاقية للسلوك الإنساني، وتقدر جملة الآيات التي احتوت على ذلك (١٥٠٤ آية) وهي تمثل ما يقرب من ربع آيات القرآن الكريم. ^(٣)

الثاني: سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحيحة.

فالمصدر الثاني هو السنة النبوية: والمراد من السنة ما أضيف إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أقوال وأفعال وتقريرات، وتعتبر السنة النبوية الصحيحة هي المصدر الثاني للأخلاق يقول الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر: ٧].

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) دستور الأخلاق في القرآن (ص: ٣٧)، موسوعة الأخلاق - الخراز (ص: ٣٠).

(٣) الأخلاق الإسلامية والمحاسبة (ص: ١١).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قال إبراهيم الحربي: ينبغي للرجل إذا سمع شيئاً من آداب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتمسك به. ^(١)

ولذا، حرص الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ واهتموا اهتماماً كبيراً، وتخلقوا بالأخلاق الحسنة مستندين في ذلك إلى ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم قدوتنا وسلفنا الصالح في الأخلاق.

والله تعالى فطر الإنسان في أصل خلقته على حب الأخلاق الحسنة وكره الرذائل. ولقد علمنا القرآن الكريم أن النفس الإنسانية قد تلقت في تكوينها الأولي الإحساس بالخير والشر، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس ٧، ٨] وكما وهب الإنسان ملكة اللغة، والحواس الظاهرة، فإنه زود ببصيرة أخلاقية، قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۚ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة ١٤، ١٥]

ولقد هدي الإنسان طريقي الفضيلة والرذيلة قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۚ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۚ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨-١٠]. ^(٢)

٢- ومن محاسن الأخلاق في الإسلام: تنوع علاقتها ووجوه نفعها.

تنقسم الأخلاق باعتبار علاقاتها إلى أربعة أقسام:

(١) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي (١٤٢/١).

(٢) الفصول في السيرة لابن كثير (ص: ٢٦٤).

القسم الأول: ما يتعلق بوجوه الصلة القائمة بين الإنسان وخالقه، والفضيلة الخُلُقِيَّة في حدود هذا القسم تفرض على الإنسان أنواعاً كثيرةً من السلوك الأخلاقي؛ منها: الإيمان به لأنه حق، ومنها الاعتراف له بكمال الصفات والأفعال، ومنها تصديقه فيما يخبرنا به، لأن من حق الصادق تصديقه، ومنها التسليم التام لما يحكم علينا به، لأنه هو صاحب الحق في أن يحكم علينا بما يشاء.

فكل هذه الأنواع من السلوك أمورٌ تدعو إليها الفضيلة الخُلُقِيَّة.

أما دواعي الكفر بالخالق بعد وضوح الأدلة على وجوده؛ فهي حتمًا دواع تستند إلى مجموعة من رذائل الأخلاق، منها: الكبر، ومنها ابتغاء الخروج على طاعة من تجب طاعته، استجابةً لأهواء الأنفس وشهواتها، ومنها نكران الجميل وجحود الحق.

القسم الثاني: ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان وبين الناس الآخرين.

وصور السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم معروفة وظاهرة: منها الصدق، والأمانة، والعفة، والعدل، والإحسان، والعفو، وحسن المعاشرة، وأداء الواجب، والاعتراف لذي الحق بحقه، والاعتراف لذي المزية بمزيتة، والمواساة، والمعونة، والجود وهكذا إلى آخر جدول فضائل الأخلاق التي يتعدى نفعها إلى الآخرين من الناس.

أما صور السلوك الأخلاقي الذميم في حدود هذا القسم فهي أيضًا معروفة وظاهرة؛ منها الكذب، والخيانة، والظلم، والعدوان، والشح، وسوء المعاشرة، وعدم أداء الواجب، ونكران الجميل، وعدم الاعتراف لذي الحق بحقه، وهكذا إلى آخر جدول رذائل الأخلاق التي يتعدى ضررها إلى الآخرين من الناس.

القسم الثالث: ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان ونفسه.

وصور السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم كثيرة: منها الصبر

على المصائب، ومنها الأناة في الأمور، ومنها النظام والإتقان في العمل، ومنها عدم استعجال الأمور قبل أوانها، وكل ذلك يدخل في حسن إدارة الإنسان لنفسه، وحكمته في تصريف الأمور المتعلقة بذاته.

وصور السلوك الأخلاقي الذميمة في حدود هذا القسم تأتي على نقيض صور السلوك الأخلاقي الحميد.

القسم الرابع: ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان والأحياء غير العاقلة.

ويكفي أن تتصور من السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم، الرحمة بها، والرفق في معاملتها، وتأدية حقوقها الواجبة. أما الظلم والقسوة وحرمانها من حقوقها؛ فهي من قبائح الأخلاق، عن ابن عمر، قال رسول الله ﷺ: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَأَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا، إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»^(١).

ولابد من ملاحظة أن كثيراً من الأخلاق لها عدد من الارتباطات والتعلقات، ولذلك فقد تدخل في عدد من هذه الأقسام في وقت واحد، إذ قد تكون لفائدة الإنسان نفسه، وتكون في نفس الوقت لفائدة الآخرين، وتكون مع ذلك محققة مرضاة الله تعالى.^(٢)

قال العلامة محمد صالح بن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

حسن الخُلُق في معاملة الخالق يجمع ثلاثة أمور:

١- تلقي أخبار الله تعالى بالتصديق.

٢- وتلقي أحكامه بالتنفيذ والتطبيق.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨٢)، ومسلم (٢٢٤٢) اللفظ للبخاري.

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حبنكة الميداني (٣٧/١)، وينظر: موسوعة الأخلاق الإسلامية لأشرف علوي (القاف) (١٠/١).

٣- وتلقي أقداره بالصبر والرضا.

فهذه ثلاث أشياء عليها مدار حسن الخُلُق مع الله عَزَّوَجَلَّ. ^(١)

٣- الأخلاق الإسلامية تقوم على مبدأ العطاء.

الأخلاق الإسلامية أريحية، ينكر المسلم ذاته وحظ نفسه في سبيل الآخرين، وقد أطلعنا القرآن الكريم على عينات رائعة من نماذج ليست مقصورة على أفراد، بل أصبحت صفة الجيل المسلم حيث قال الله في كتابه الكريم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]

ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝﴾ [الإنسان: ٨، ٩]

لقد ضرب المسلمون أروع الأمثلة في العطاء أفراداً وجماعات، فلما هاجر الرسول ﷺ من مكة المكرمة، إلى المدينة المنورة وأخى بين المهاجرين والأنصار، كان الأنصاري يشاطر أخاه المهاجر بنصف ماله.

وفي معركة اليرموك، يقول حذيفة العدوي: خرجت عصر يوم اليرموك، ألتمس ابن عم لي بين الجرحى، ومعني سقاء، فمررت بين القتلى، فسمعت صوت جريح يقول: ماء، دنوت منه لأسقيه فإذا هو ابن عمي، قربت من فمه الماء، فسمع صوت جريح إلى جانبه يقول: ماء. فأشار إليّ: أن اسق ذاك الجريح، فذهبت إليه فإذا هو هشام بن العاص، قربت من فمه الماء، فسمع صوت جريح قربه يقول: ماء، فأشار إليه، فذهبت إليه، إذا هو عكرمة، وإذا هو قد مات، عدت إلى هشام، فإذا هو قد مات، عدت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات.

الفلسفات القديمة، ولاسيما الفلسفة اليونانية، كانت تصوغ الحياة وفقاً لما يراه عقل فلاسفتهم؛ أرسطو وأفلاطون وسقراط... وقد كانت السعادة في رأي

(١) حسن الخلق وأهميته لطالب العلم لابن عثيمين (ص: ٣٢).

هذه الفلسفة تعني اللذة، وعلى هذه النظرة سارت الحضارة الرومانية، وقد ورثت هذه النظرة الحضارة الغربية.

في الحضارة الغربية الحديثة، سيطرت المادة على كل شيء، فأصبح تحصيل المنافع الدنيوية الهدف الأسمى، والغاية التي تسوغ الوسيلة، فالقيم الأخلاقية ليس لها أساس روحي، بل تتبع في مضمونها تحقيق الأرباح، ولذلك نجد أن الأخلاق ليست ثابتة، بل تتغير تبعاً للمنافع والمكاسب الدنيوية، ويحل محلها نظريات وقيم جديدة، ولذلك نجد أن الغرب إذا اهتم ببعض الأخلاق والفضائل، إنما يهتم بها لجلب المكاسب؛ كالأمانة في التجارة، والاهتمام بالوقت، والانضباط في العمل، ولا يعير أهمية للقيم الأخلاقية الشخصية والاجتماعية؛ كالعفة والشرف والحياء والإخلاص وبر الوالدين وحقوق الأسرة.

فالإنسان في الحياة المادية لا يهتم إلا بتحقيق الثراء المادي.

من هنا جاء فساد الحضارة الغربية، وانفصالها الكامل عن الأخلاق على مستوى العلاقات بين الدول، أو على مستوى العلاقات بين الأفراد^(١).

٤- ومن محاسن الأخلاق في الإسلام الوسطية في السلوك.

وللإسلام خصائص تميز بها عن أخلاقيات الديانتين اليهودية والنصرانية، وعن باقي الديانات الوضعية، جاء الإسلام بالوسطية، وهي فضيلة بين رذيلتين؛ بين تطرف المادة اليهودية، حتى إنهم عبدوا المال، وعبادة المال لم تعرف في شعوب الأرض إلا عند اليهود، واحتقروا الروح والقيم والأخلاق الفاضلة، كالصدق والوفاء بالعهد والمحافظة على الشرف، لقد ضرب اليهود بهذه القيم وغيرها من القيم السامية عرض الحائط، فإن تكلموا كذبوا، وإن عاهدوا غدروا. أما النصرانية؛ فإنها أوجدت الرهبانية بصفتها رد فعل على المادية اليهودية،

(١) الأخلاق الإسلامية وأهميتها للحياة الإنسانية (ص: ٢٩).

فالرهبنة لم تتعلق بعبادة المال، وإنما تركز على تطهير الجسد، لترتقي الروح بالأخلاق كما يزعمون، ولذلك يحرم على الراهب والراهبة الزواج، وهذا تنكر لمتطلبات الجسد الفطرية، فالزواج تلبية حاجات الجسد الجسمية الغريزية عن طريق مشروع.

لقد وقع الرهبان في مفارقة خطيرة؛ حيث إنهم في الظاهر لا يتزوجون، ولكنهم في حقيقة الأمر يصرفون هذه الطاقة عن طريق لا يدرى كنهها. جاء الإسلام بالوسطية، فأعطى الجسم حقه من المتطلبات الفطرية الغريزية، كأكل الطيبات الحلال، ولقد حرم الإسلام كل ما هو فاسد، وأحل كل ما هو طيب. جاء الإسلام بالوسطية في كل شيء، في معاملة الإنسان ربه ومع نفسه، وفي معاملته مع الناس.

حرم الإسلام التطرف حتى في العبادة، فلا غلو في الدين، كما في خبر أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُوهَا، فَقَالُوا: وَإِنَّ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَدْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذًا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي». ^(١)

فالزواج سنة الأنبياء، فإذا اعتقدت بعض المذاهب الفلسفية إمكانية الاستغناء عن الزواج كالرهبان وأمثالهم؛ فهذا تطرف، والتطرف مرض نفسي.

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣).

٥ - لا تقتصر الأخلاق الإسلامية على معالجة السلوك الظاهر، بل تأخذ بعين الاعتبار، النيات والمقاصد.

إن القانون ينظر إلى السلوك الظاهر، فيحاسب عليه، إن تخطاه أحد عاقبه، وربما يخالف الإنسان القانون دون أن يراه أحد، من سرقة، وشرب المسكر، أو الإضرار بالآخرين لسبب ما، فإذا لم يضبط المخالف نجا من العقاب في غفلة القانون عنه، وربما يحتاج العقاب إلى شاهد يشهد على الجريمة، أو يقوم المحامي بالدفاع عنه، وقد يتحول الحق إلى باطل، والباطل إلى حق في نظر القضاء لاعتبارات متعددة.

أما الأخلاق الإسلامية، فشأنها مختلف عن القانون، بأنها تراعي الظاهر من السلوك، والتصرفات والأقوال والأفعال، وتتعدى ذلك كله إلى النيات والبواعث والمقاصد، فيكون فعل الخير؛ كالجود ومساعدة الآخرين والتبرع بالمال أو بالدم، وقول الحق لإنصاف مظلوم لجلب خير، أو دفع شر. . إن كل هذه السلوكيات في الإسلام، لا تكون لأجل المنفعة أو الرياء والسمعة، أو الأمل بمكافأة مادية أو معنوية، وإنما تكون بدافع النية الخالصة لله تعالى.

فالنية مناط الحكم في الأعمال كلها. عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(١) وهو أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام.

قال الإمام أحمد والشافعي رَحِمَهُمَا اللَّهُ: يدخل في حديث الأعمال بالنيات ثلث العلم، وقال جماعة من العلماء: هذا الحديث ثلث الإسلام.

والنية تحول العادة إلى عبادة، فالمسلم يشترك مع غيره في السلوك اليومي

(١) أخرجه البخاري (١) وغيره.

بتحقيق متطلبات الجسد كالطعام والشراب والدراسة والتعليم، فإذا نوى الطالب أنه يتعلم لله؛ لينشر العلم، ويفيد به الآخرين، فإن الملائكة لتضع أجنتها لطالب العلم، رضا بما يصنع. . . . فإلنية أساس الفعل، فقد يطلب أحدهم العلم للدنيا، ليصبح ثرياً، وآخر يطلب العلم لينصر الحق، وكلاهما يأتيه رزقه، فواحد يثاب، والآخر لا يثاب. ومدار الحكم على ذلك هو النية.

٦ - الأخلاق في الإسلام تمتاز بالشمول.

قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو: «صُمْ وَأَفْطِرْ، وَتَمِّمْ وَتَمِّمْ، فَإِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرِزْوَرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(١).

وهذا الحديث الشريف بالنسبة للمسلم، منهج حياة كامل. وهذا خلاف الفلسفة القائلة: أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله.

هذا الشمول الذي يجعل الإسلام منهجاً كاملاً يشمل جميع مظاهر النشاط الحيوي للفرد والمجتمع وجميع علاقات الإنسان، وكافة جوانب حياته، وجميع جوانب ارتباطاته بالحياة والأحياء.

فالإسلام يشمل العقيدة والعبادات والقوانين والنظم والآداب للسلوك والأخلاق. والأخلاق الإسلامية تستمد شموليتها من شمولية الدين الإسلامي ومبادئه. فهي بذلك تُعنى بالجانب الروحي والعقلي والجسمي والخلقي والاجتماعي والجمالي، وهي عندما تتعهد هذه الجوانب بالتربية، فإنما تستهدف في الوقت نفسه تكاملها، وحركة نموها وتناسقها بحيث يصبح الإنسان الذي تعدّه متكاملًا في شخصية ذات نظرة شمولية للأمور في الحياة وما بعد الحياة.

(١) رواه البخاري (١٩٧٥).

٧ - ومن محاسن الأخلاق في الإسلام الديمومة.

الديمومة: هي الاستمرار بلا انقطاع. وهذه صفة مستمدة من الإيمان بالله تعالى، فالعلاقات الإنسانية متشعبة المقاصد والغايات، وإن العلاقات في المجتمع المسلم لتتميز بأنها تستظل بظلال هذه العقيدة التي ربطت أفرادها برباط الأخوة، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] فالأخوة في النسب تبقى مدى الحياة، والأخوة في العقيدة أقوى رابطة من أخوة النسب، حدثنا كتب السيرة عن تأخي قلوب المهاجرين والأنصار، كما حدثنا أن غزوة بدر تقابل فيها الأب مع ابنه مع اختلاف العقيدة، بينما نرى أن الإسلام قد وحد قلوب المؤمنين؛ عرباً وعجمًا.

وما أكثر ما نشاهد صداقات تجمعها أسباب شتى كالتجارة وغيرها، وما إن تزول أسباب الرابطة حتى تضمحل هذه الصلة، ما كان لله فهو المتصل، وما كان غيره فهو المنقطع. ^(١)

٨ - ومن محاسن الإسلام في تنمية الأخلاق عمومًا؛ أن أحكامها معللة مفهومة.

فهي ليست تحكيمية غير معللة ولا مفهومة مجردة من أي تفسير، ولكنها جاءت معللة للأوامر كما في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]

وقوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

(١) الأخلاق الإسلامية وأهميتها للحياة الإنسانية (ص: ٢٩).

٩- والأخلاق في الإسلام وسطية متوازنة.

فالإسلام جاء بالتوازن الأخلاقي جامعاً بين الدنيا والآخرة، والروح والمادة، والعقل والقلب، والحق والواجب، بعيداً عن الشهوانية المادية المجردة، والرهبانية السلبية المصادمة للفطرة السليمة التي وقعت دائماً بين امتداد فاحش مدمر كالشهوانية، أو تقلص متلف مهلك كالرهبانية، فالقرآن أنكر الشهوانية المادية المجردة فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢] كما أنكر الرهبانية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ولذلك كان من وسطية القرآن في الجانب الخلقي؛ جعل المولى عز وجل أمهات الأخلاق والفضائل واضحة في أذهان المسلمين، فأمهات الفضائل التي أمر الشارع بها، وحث عليها معروفة، وأمهات الرذائل التي حذر الشرع منها، ونهى عنها معلومة غير مجهولة.

يقول أبو الأعلى المودودي: والإسلام لا يدعو الناس لممارسة الفضيلة فحسب، وإنما يدعوهم أيضاً ليقيموا الفضيلة ويمحوا الرذيلة، ويدعوهم أيضاً إلى الدعوة إلى الخير ومنع الشر، إنه يريد لحكم الضمير أن يسود، ويوجب على المسلمين ألا يجعلوا دور الفضيلة ثانوياً ودور الشر أولياً في حياتهم، والغاية الوحيدة التي تتأسس هذه الأمة من أجل بلوغها؛ هي تحقيق الخيرات وتعزيزها، واجتثاث الشرور ومحوها. ^(١)

١٠- ومن محاسن الأخلاق في الإسلام؛ الواقعية.

ومعنى ذلك أنها تراعى حالة الإنسان «البشرية»، فلا تريده ملاكاً مطهراً جُبل على الطاعة، ولكن عند الخطأ فتُحت له أبواب التوبة: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ

(١) منهج الحياة الإسلامية (ص: ٣٩).

الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ [الزمر: ٥٣]

ولما كان ذلك كانت عناية الإسلام موجهة بالدرجة الأولى لتزكية النفس وتهذيبها؛ بتنمية فطرة الخير لغرس فضائل الأخلاق فيها وتهذيب طبائع النفس حتى يتهيأ المناخ النفسي الصالح لتفجير منابع الخير، فالإسلام لا يستثنى مجالاً من مجالات الحياة من تطبيق مبادئه الأخلاقية المطلقة الشاملة؛ فيجعل السلطة العليا للأخلاق، ويؤكد أن المعايير الأخلاقية يجب أن تنظم شئون الحياة بدلاً من تحكم الشهوات والأنانية والمصالح الضيقة.^(١)

١١- ومن محاسن الأخلاق؛ أن هدفها تحقيق السعادة في الحياة الفردية والجماعية.

ذلك أن الحياة الأخلاقية هي الحياة الخيرة البعيدة عن الشرور بجميع أنواعها وصورها، فكلما انتشرت هذه الحياة؛ انتشر الخير والأمن والأمان الفردي والاجتماعي، وتنتشر أيضاً الثقة المتبادلة والألفة والمحبة بين الناس، وكلما غابت هذه الحياة انتشرت الشرور وزادت العداوة والبغضاء، والنفور والتناحر والتكالب من أجل المناصب، ومن أجل المادة والشهوات، والشرور أصلاً سبب التعاسة والشقاء في حياة الفرد والجماعة؛ ولذا قال أحد الأخلاقيين الغربيين: إن الحياة من غير قيم - وإن كانت حلوة على الشفاه - فإنها مرة على القلوب والنفوس، ولهذا أيضاً عندما يتكلم بعض علماء النفس عن عذاب الوجدان، يقولون: إنها لظى جحيم يعض قلوبنا ليلاً ونهاراً، ولهذا يرجع بعض علماء النفس الأمراض النفسية إلى عذاب الوجدان، ويقول: إن كل مرض نفسي يبدو وراءه نقص خلقي.^(٢)

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن الميداني (٥/١)، إنما بعث لأتمم مكارم الأخلاق (ص: ٣٦).

(٢) علم الأخلاق الإسلامية (ص: ١٠).

١٢- والأخلاق في الإسلام وسيلة لنجاح الإنسان في الحياة.

ذلك أن الإنسان الشرير والغاش والمعتدي على أعراض الناس وأموالهم أو على أنفسهم، أو الذي يؤذي الآخرين؛ لا يكون محبوباً أولاً بين الناس، ولا يثقون به، ولا يتعاملون معه، ثم إن الغشاش لا بد من أن ينكشف غشه وخداعه في يوم من الأيام إن عاجلاً أو آجلاً، وعندما يعلم أمره يعاقب أو يبعد عن وظيفته، وإن كان تاجراً لا يتعامل الناس معه؛ وهذا يؤدي إلى فشله.

والطالب إذا غش فإنه لا بد من أن ينكشف أمره إما في أيام الامتحانات، أو بعد أن يتولى الوظيفة؛ لأن الغشاش يستخدم غشه ونيته السيئة أينما كان وسوف ينكشف أمره، ولهذا قال الشاعر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة . . . وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ثم إن الطالب الذي يغش في الامتحان سوف يعتمد على الغش، وهذا يؤدي إلى ضعف تكوينه العلمي، ويظهر ذلك بعد التخرج، وبعد ما يتولى وظيفته.

١٣- والأخلاق في الإسلام؛ وسيلة مهمة للنهوض بالأمة.

ذلك أن سقوط الأمم والحضارات كثيراً ما ترجع أسبابها إلى الانهيار الأخلاقي فيها، والأخلاقيات الهدامة كثيرة منها: الظلم، ونقض العهود، والتناحر من أجل السلطة، والعدوانية، والتخريب، أما إذا انتشرت الروح الأخلاقية؛ كالتضحية في خدمة الأمة، وروح الإخاء والتعاون، وتحقيق المساواة، والعدالة الشاملة، وتنفيذ العهود؛ سوف تؤدي إلى التقدم، ونجد أفراد الأمة يخترعون ويدعون ويتفاخرون بتقدم أمتهم، ثم إن التقدم يكون نتيجة سيادة الأمن والاستقرار في المجتمع، ولا يتحقق هذا وأمثاله إلا بانتشار الأخلاق والروح الخيرة والتعاون المثمر والقيام بالواجبات والأعمال والصناعات كما ينبغي ويجب.^(١)

(١) علم الأخلاق الإسلامية (ص: ١٠).

قال ابن القيم مبيناً فساد الأمم عند فساد الأخلاق وانتشار الفواحش: ومن آثار الذنوب والمعاصي: أنها تُحدث في الأرض أنواعاً من الفساد في المياه، والهواء، والزروع، والثمار، والمساكن.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قال مجاهد: إذا ولّى الظالم سعى بالظلم والفساد، فيحبس الله بذلك القطر، فيهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد. ثم قرأ الآية، ثم قال: أما والله ما هو بحرُكم هذا، ولكن كلُّ قرية على ماءٍ جارٍ فهو بحر.

ومن تأثير معاصي الله في الأرض: ما يحل بها من الخسف، والزلازل، ومَحَقِّ بركتها، وقد مر رسول الله ﷺ على ديار ثمود، فمنعهم من دخول ديارهم، ومن شرب مياههم، ومن الاستقاء من آبارهم، حتى أمر أن يُعَلَفَ العجینُ الذي عُجِنَ بمائهم للنواضح، لتأثير شؤم المعصية في الماء.

وكذلك شؤم تأثير الذنوب في نقص الثمار وما تُرمى به من الآفات. ^(١)

١٤ - ومن محاسن الأخلاق: تحقيقها لما فيه سعادة البشرية.

فأخلاق الإسلام كشريعته وعقيدته؛ جاءت ليحصل بها السعادة في الدنيا والآخرة، وتحقيق كافة كمالات الإنسان، ذلك لأن جميع ما في الإسلام من عقائد وعبادات ومعاملات تتكفل بتحقيق كل مصالح العباد بقسميها الدنيوي والأخروي، فالمسلم المتمسك بأحكام الدين في معاملاته مع الناس من حيث إنها أوامر إلهية بالائتمار بها، ينال جزاء ذلك في الدنيا بالوصول إلى منفعة، وفي الآخرة بلوغ مرضاة الله وجناته. ^(٢)

(١) الداء والدواء (ص: ١٥٧).

(٢) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١ / ٩٠).

فهي تنعكس على سلوك الفرد قولاً وعملاً، كما ينعكس أثر الالتزام بها على الجماعة أيضاً، بل ويمكن أن يمتد أثرها إلى العلاقات الدولية في حالتي السلم والحرب، فأما تأثيرها على الفرد:

١- أنها تهییء للأفراد اختيارات معينة عن طريق الأوامر والنواهي والإلزامات التكليفية، تحدد السلوك الصادر عنهم، وبمعنى آخر؛ تحدد أشكال السلوك، وبالتالي تلعب الدور الهام في تشكيل الشخصية الفردية السعيدة في الحياة الدنيا. وفي الحياة الآخرة عن طريق تحديد أهدافها في إطار معياري صحيح.

٢- أنها تعطي الفرد إمكانية تحقيق ما هو مطلوب منه في إطار الرسالة الإسلامية، وتمنحه القدرة على التكيف والتوافق الإيجابيين، وتحقيق الرضا عن النفس بإرضاء الله تعالى عن طريق التجاوب مع الجماعة في مبادئها وعقائدها وأخلاقها الصحيحة.

٣- أنها تحقق للفرد الإحساس بالأمان، إذ هو يستعين بها على مواجهة ضعفه وضعف نفسه، ومواجهة التحديات والعقبات التي تواجهه في حياته.

٤- أنها تعطي الفرد فرصة ودفعة نحو تحسين وعيه، ومعتقداته، وسلوكياته، لتتضح الرؤية أمامه، وبالتالي تساعد على فهم العالم حوله، وتوسع مدلولات الإطار الفكري لفهم حياته وعلاقاته.

٥- أنها تعطي الفرد فرصة للتعبير عن الذات، مؤكداً ذاته في إطار العبودية الصحيحة لله، وعن فهم عميق لها وإمكانياتها.

٦- أنها تعمل على إصلاح الفرد نفسياً، وتوجهه نحو الخير والإحسان الواجب، وكافة مكارم الأخلاق التي تضمن حياة نظيفة في الدنيا، وجزاءً أوفى في الآخرة.

٧- أنها تعمل على ضبط الفرد لشهواته، ومطامعه، فلا تغلب على فكره

ووجدانه، لأنها تربط سلوكه وتصرفاته بمعايير وأحكام أهمها إرضاء الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وبالتالي يتصرف في ضوئها وعلى هديها.

٨- أنها تبعد الإنسان عن النقص البشري الذي يجعل الحياة جحيماً لا يطاق، وذلك من جراء صفات من أبرزها الجبن والخوف، والاستهتار واللامبالاة إلى غير ذلك من صفات يجب أن يتجنبها الإنسان.

٩- تسمو بالإنسان وترفعه فوق الماديات المحسوسة؛ حتى لا يرتبط بها ارتباطاً كلياً، فتغلب عليه حيوانيته، وإلى سماء الإنسانية الرفيعة بكل ما فيها من جمال وقيم ومبادئ سامية لا تتحقق إلا بالتمسك بالأخلاق الإسلامية ومنهج الإسلام في الحياة.

وعلى المستوى الاجتماعي:

١- تحفظ على المجتمع تماسكه، فتحدد له أهداف حياته، ومثله العليا، ومبادئه الثابتة المستقرة التي تحفظ له هذا التماسك والثبات اللازمين لممارسة حياة اجتماعية سليمة ومتواصلة.

٢- تساعد المجتمع على مواجهة التغيرات التي تحدث فيه، بتحديد الاختيارات الصحيحة والسليمة التي تُسهل على الناس حياتهم، وتحفظ على المجتمع استقراره وكيانه في إطار موحد.

٣- تربط أجزاء ثقافة المجتمع ببعضها البعض حتى تبدو متناسقة، كما أنها تعمل على إعطاء النظم الاجتماعية أساساً إيمانياً وعقلياً يصبح عقيدة في ذهن أعضاء المجتمع المتممين والمتفاعلين بهذه الثقافة.

٤- تقي المجتمع من الأنانية المفرطة، والنزعات والأهواء والشهوات الطائشة؛ التي تضر به وبأفراده ونظمه، فهي تحمل الأفراد على التفكير في أعمالهم على أنها محاولات للوصول إلى أهداف هي غايات في حد ذاتها، وليس على أنها مجرد أعمال لإشباع الرغبات والشهوات.

وعلى مستوى العلاقات الدولية:

إن وظيفة القيم الأخلاقية - كما حددها القرآن الكريم وكما جاءت بها السنة المطهرة- قد تتجاوز في أحيان كثيرة الفرد والمجتمع إلى إطار أرحب وأوسع، ألا وهو مجال العلاقات الدولية في وقتي السلم والحرب على السواء، ويتضح ذلك من تأمل ما يلي:

أولاً: في حالة السلم:

- ١- الاهتمام بالسلام العام، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].
- ٢- مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].
- ٣- عدم إكراه أحد على الدخول في الدين، يقول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ويقول سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢].
- ٤- عدم إثارة الأحقاد أو الكراهية، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨].
- ٥- ترك الاستبداد والإفساد في الأرض، يقول **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].
- ٦- الحفاظ على أمن المحايدين، يقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ اعْتَرَفُواكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].
- ٧- حسن الجوار وإقامة العلاقات الدولية على أساس من العدالة والبر، يقول سبحانه: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ... الْآيَةَ﴾ [المتحنة: ٨].

ثانياً: في حالة الحرب أو الخصومة:

يتجلى دور القيم الإسلامية في هذه الحالة في النقاط الآتية:

١- ترك المبادرة بالشر أو العدوان، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ... الآية﴾ [المائدة: ٢].

٢- النهي عن القتال في الأشهر الحرم أو الأماكن المحرمة، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: ١٩١].

وهذه القواعد الأخلاقية المتعلقة بتحريم القتال في أزمان معينة وأماكن معينة؛ لا تزال تشكل أساساً متيناً في العلاقات الدولية، إذ يجب على الأطراف المتحاربة تجنب القتال في أوقات الهدنة المتفق عليها سلفاً من الأطراف؛ قياساً على حرمة القتال في الأشهر الحرم التي كانت بمثابة هدنة أقرها العرب قبل الإسلام في هذه الأشهر، ثم أقرهم الإسلام على ذلك، كما أنه يجب تجنب دور العبادات والتعليم وما أشبهها من ويلات الحروب وآثارها المدمرة.

٣- عدم التعرض للمدنيين وقاتل المقاتلة وحدهم؛ يقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

٤- الوفاء بالمعاهدات المبرمة بين أطراف النزاع، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

٥- الوفاء بجميع الالتزامات قبل الطرف الآخر حتى ولو كانت غير موالية؛ يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩١: ٩٢].

٦- وأخيراً يدعو القرآن الكريم المحاربين من المسلمين إلى التحلي بالصبر، كما يدعوهم إلى الوحدة والثبات وعدم الخوف من ملاقات الأعداء مهما كثروا؛

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ويقول جل من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥ - ٤٦].^(١)

١٥- ومن محاسن الأخلاق: أن الخلق الحسن من أعظم الأساليب التي تجذب الناس إلى الإسلام، والهداية، والاستقامة.

ولهذا من تتبّع سيرة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجد أنه كان يلازم الخلق الحسن في سائر أحواله وخاصة في دعوته إلى الله تعالى، فأقبل الناس ودخلوا في دين الله أفواجًا بفضل الله تعالى ثم بفضل حسن خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكم دخل في الإسلام بسبب خلقه العظيم.

فهذا يُسلم ويقول: واللّه ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه كلها إليّ.^(٢)

وذاك يقول: «اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا».^(٣)

تأثر بعفو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يتركه على تحجيره رحمة الله التي وسعت كل شيء.

والآخر يقول: «فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه».^(٤)

وهذا يهرول قائلاً: «يا قومي أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة».^(٥)

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/ ٨٨) بتصرف يسير.

(٢) البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤).

(٣) البخاري (٦٠١٠).

(٤) مسلم (٥٣٧).

(٥) مسلم (٢٣١٢).

وهذا يقول: «والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ». (١)

١٦ - الخلق الحسن هو أمنية كل مسلم وكل داعية مخلص.

لأنه بذلك ينجو ويفوز وينجح في جميع أموره الخاصة والعامة؛ ولهذه الأهمية كان ﷺ يدعو ربه أن يهديه للخلق الحسن، فكان ﷺ يقول في استفتاحه لصلاة الليل: «واهدي لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت..» (٢) وكان يقول: «اللهم كما أحسنت خلقي فحسن خلقي». (٣)

١٧ - الخلق الحسن يُحبُّ المسلم إلى الناس جميعاً حتى مع أعدائه، ويتمكن بذلك من إرضاء الناس على اختلاف طبقاتهم، وكل من جالس له أو خالطه أحبه.

وبهذا يسهل على الداعية إدراك مطالبه السامية بإذن الله تعالى؛ لأن الدعاة إلى الله عزَّ وجلَّ لا يَسْعُونَ الناس بأموالهم، ولكن ببسط الوجه وحسن الخلق. فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط وجهه وحسن خلقه» (٤)

١٨ - من لم يتخلَّق بالخلق الحسن من المسلمين ينفِّر الناس من دعوته، ولا يستفيدون من علمه وخبرته؛ لأن من طبائع الناس؛ أنهم لا يقبلون ممن يستطيل عليهم أو يبدو منه احتقارهم، واستصغارهم، ولو كان ما يقوله حقاً.

قال عزَّ وجلَّ للنبي الكريم ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾. [سورة آل عمران: ١٥٩].

(١) مسلم (٢٣١٣).

(٢) مسلم (٧٧١).

(٣) أخرجه أحمد (٨٠٣)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٧٤).

(٤) أخرجه أحمد (٣٨٢٣)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١١٥/١).

وقال **عَزَّجَلَّ**: ﴿وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. [الشعراء: ٢١٥].
 وقال **عَزَّجَلَّ** ممتناً على عباده: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ
 مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. [التوبة: ١٢٨].
 وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو
 عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الآية. [آل عمران، الآية: ١٦٤].
 وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]
 وقال **عَزَّجَلَّ**: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.
 [الفتح: ٢٩].

ولا شك أنه يتعين على كل داعية أن يتخذ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قدوة وإماماً لقوله
 تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
 وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾. [الأحزاب: ٢١].

١٩- صلاح الأمة وهدايتها والنهوض بها لا يكون سليماً نقيّاً إلا بالأخذ من المنبع الصافي، والبعد عن الأفكار الهدامة المنحرفة.

والتزام المسلمين بالخلق الحسن ودعوة الناس إليه هو من هذا المنبع،
 وتطبيق ذلك على أنفسهم قبل الدعوة إليه.

قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ
 أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ - ٣].

ولهذا أمر الله بالعلم قبل العمل، وبالعمل قبل الدعوة إليه، فقال تعالى:
 ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].
 وقال: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر]، فقدّم العمل قبل الدعوة إلى الحق.

٢٠- الخلق الحسن يجعل المسلم مستنير القلب، ويفتح مداركه، فيتبصر به مواطن الحق، ويهتدي به إلى الوسائل والأساليب الصحيحة في دعوة الناس الملائمة للظروف والأحوال، والأشخاص.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

٢١- الخلق الحسن من أسباب النجاة من النار.

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار، أو بمن تحرم عليه النار؟ على كل قريب هين سهل»^(١).

٢٢- صاحب الخلق الحسن خير أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»^(٢).



(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٨)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٩٣٨).

(٢) أخرجه الترمذي عن عائشة (٣٨٩٥)، وابن ماجه (١٩٧٧)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥١٣/١).

الباب العاشر:

محاسن الإسلام من خلال الحقوق التي دعا إليها.

خلق الله الإنسان وكرمه بالعقل واللسان، وجعله خليفة في الأرض، وأسجد له ملائكته الكرام، ولعن الله إبليس الذي عصى أمر ربه ورفض السجود لهذا المخلوق الجديد «الإنسان». قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] مما يدل على تكريم المولى سبحانه لهذا الأدمي وعنايته به.

ولما كان هذا هو حال الإنسان بالنسبة لربنا، فقد أوجب عليه واجبات وتكاليف: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وفي نفس الوقت أوجب له الخالق الرحيم حقوقاً محفوظة تضمن للتكاليف أن تنفذ، وتضمن للخير أن يستقر في المجتمعات والنفوس، ولا يتحول البشر إلى وحوش متصارعة في غابة الدنيا.

وحقوق الإنسان نزلت بها الشرائع السماوية، وآخرها ومنتهاها كان مع الإسلام «الدين الخاتم»، ومنها ما كان من نتاج قرائح البشر الذين اجتهدوا بفضل من الله في هذا المجال. ^(١)

والحقوق في الإسلام منح إلهية تتسم بالكمال والشمول والعموم غير قابلة للإلغاء. فهي: مجموعة القواعد والنصوص التشريعية التي تنظم -على سبيل الإلزام-

(١) حقوق الإنسان في الإسلام، لجمل الليل (ص: ٣).

علائق الناس من حيث الأشخاص والأموال. ^(١)

وهي مبادئ وقوانين عامة اتفقت عليها الشرائع والقوانين الدولية فيما يتعلق باحترام الإنسان في مجال عقيدته، وحريته، وثقافته، وفي مجال حقوق المرأة والطفل، والقضايا السياسية، وحرية التفكير... وهي حقوق كفلتها الشريعة الإسلامية وجميع الأديان والقوانين الدولية. ^(٢)

مصدر الحق في الشرع الإسلامي هو إرادة الشرع.

فالحقوق في الإسلام منح إلهية تستند إلى المصادر التي تستنبط منها الأحكام الشرعية، فلا يوجد حق شرعي من غير دليل يدل عليه، فمنشأ الحق هو الله تعالى؛ إذ لا حاكم غيره، ولا تشريع سوى ما شرعه. وليس الحق في الإسلام طبيعياً مصدره الطبيعة أو العقل البشري، إلا أنه منعاً مما قد يتخوف منه القانونيون من جعل مصدر الحقوق إلهياً وبالتالي إطلاق الحرية في ممارسة الحق، منعاً من هذا الخطر، قرر الإسلام سلفاً تقييد الأفراد في استعمال حقوقهم بمراعاة مصلحة الغير وعدم الإضرار بمصلحة الجماعة، فليس الحق مطلقاً وإنما هو مقيد بما يفيد المجتمع ويمنع الضرر عن الآخرين، والحق في الشريعة يستلزم واجبين:

- واجب عام على الناس باحترام حق الشخص وعدم التعرض له.
- وواجب خاص على صاحب الحق بأن يستعمل حقه بحيث لا يضر بالآخرين. ^(٣)

من محاسن التشريع الإسلامي: وضع الأسس التي تقوم عليها نظرية حقوق الإنسان في الإسلام ومنها:

١ - إنسانية الإنسان وكرامته أولاً.

(١) الإسلام وحقوق الإنسان، د/ القطب محمد (ص: ٣٥).

(٢) جريدة الرياض ١٣/١٠/٢٠٠٣ م.

(٣) الفقه الإسلامي وأدلته للزحيلي (٤/ ٢٨٤٠).

الوضع الطبيعي والسوي هو أن تكون العناية بالإنسان - من حيث هو إنسان - أسبق وأكثر من العناية بحقوق الإنسان، لأن هذه الحقوق إنما أضيفت للإنسان واستحقها لكونه إنساناً، وليس لأنه كائن من الكائنات ومخلوق من المخلوقات، وإلا لوجب أن نتحدث بنفس المنطق وببنفس الدرجة عن حقوق الحيوان، وحقوق الحيتان، وحقوق الشجر والحجر.

فالعناية بالإنسان قبل حقوق الإنسان هي التي تسمح لنا أولاً بتحديد سبب هذا الامتياز، وثانياً تجعلنا نصون سبب هذا الامتياز ونحافظ عليه، وربما نحسنه ونرفقه، وتجعلنا ثالثاً نوجه حقوق الإنسان بما يتلاءم ولا يتعارض مع هذا الامتياز الذي هو سبب وجود حقوق الإنسان، حتى لا نكون كمن يتمسك بالربح ويضيع رأس المال، بل نجعل الربح يعزز رأس المال وينميه.

فماذا استحق الإنسان هذه الحقوق؟ وبماذا استحق كل هذه الحركة وهذه المعركة من أجل تلك الحقوق؟ لا شك أن هناك خصوصية وتفضيلاً وامتيازاً لهذا الإنسان.

قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي لِسْمَوَاتٍ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، وكما في قوله أيضاً: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وفي قصة خلق آدم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** تصريح بما خص الله تعالى به جنس الإنسان؛ من أسباب التمييز والتكريم والتفضيل، نقرأ ذلك في أمثال هذه الآيات: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]

- فهذا الإنسان جعله الله خليفة في الأرض، وهو تشريف وتمكين لا نعلم مخلوقاً آخر حظي به.

- والله تعالى علّم آدم الأسماء كلها، والأسماء هي مفاتيح العلم والتعلم.

وهو سبحانه علمه ما لم يكن يعلم، ومن ذلك أنه علمه البيان، والبيان ليس مجرد النطق والكلام، بل البيان قبل ذلك فكر ونظم للأفكار، ثم بيانها.

- والله عَزَّوَجَلَّ خلق هذا الإنسان في أحسن تقويم وأكمل هيئة.

- والأهم من هذا كله، وسر هذا كله، هو أنه سبحانه نفخ فيه من روحه. وهذه الميزة في الحقيقة تمثل نوعاً من التشريف والتكريم لا يكاد يدركه عقل أو يستوعبه فكر، ولذلك جاء في الآية الأخرى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولقد جاء الإسلام ليؤكد كرامة الإنسان، ويضمن حقه واحترامه، عبر قوانين وتشريعات كثيرة، تناولت حماية حياته، وماله، وعرضه، وحرية الفكرية، ومشاركته في الحياة العامة، ولم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة من حيث الكرامة، والحقوق العامة، إلا في الوظائف والمسؤوليات التي تحكمها الطبائع الجسدية والنفسية لكل منهما، حتى تستقيم الأسرة والمجتمع.

وقد بنيت هذه التشريعات والضمانات على أسس عقائدية ثابتة جعلت كرامة الإنسان جزءاً لا يتجزأ من الإيمان نفسه. ^(١)

٢ - رحمة الله ببنِي الإنسان.

والله تعالى يؤكد في كثير من آيات القرآن أن ما أنعم به على عباده إنما هو صادر عن رحمته الواسعة، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

ويقرر الله تعالى في كتابه أن هذه الرسالة بما تتضمنه من شريعة عادلة وتعاليم سامية رحمة للناس جميعاً، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

(١) حقوق الإنسان والقضايا الكبرى (ص: ٧).

فالرحمة أصل انبنى عليه التشريع، ولا ريب أن التشريع الذي يبنى على الرحمة يشتمل على المصلحة للإنسان، ويضمن الكرامة للإنسان؛ ومن هنا أكد العلماء من خلال الاستقراء التام لبنود الشريعة أنها راعت المصالح الضرورية والحاجية والتحسينية، فالضرورة هي حفظ الدين والنفس والعرض والنسل والمال، والحاجية هي رفع الحرج بتشريع الرخص التي ترفع الوجوب عند تعذر القيام به، وتبيح المحظور عند الاضطرار إليه، والتحسينات التي تجمل حياة الناس بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات والآداب، وفي هذا أعظم الضمان لحقوق الإنسان.^(١)

ولهذا الأصل أثر آخر عملي يصب في مجال حقوق الإنسان، وهو أن المسلم مطالب في نصوص الشرع بأن يتخلق بالرحمة؛ تأثراً بالرحمة التي تفيض في دين الله، وتشع من كتاب الله، فلا بد من التراحم بين الناس، قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(٢)، وقال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ»^(٣).

وهذه التربية الأصلية على الرحمة هي أعظم ضمان لحفظ حقوق الإنسان؛ لأنها تربى الضمير البشري للناس جميعاً حكماً ومحكومين على التراحم والرعاية للخلق.

٣ - وحدانية الرب سبحانه.

الناس جميعاً - على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأوطانهم وقومياتهم - ليس لهم إلا رب واحد، هو الله **عَزَّ وَجَلَّ** خالق هذا الكون المتفرد عليه بالملك والسلطان،

(١) انظر: الموافقات للشاطبي (٨/٢).

(٢) أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)؛ وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤١٣٢).

(٣) أبو داود (٤٩٤٢)، والترمذي (١٩٢٣)؛ وقال: حديث حسن، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (١٥٦٨).

قال الله **عَزَّوَجَلَّ** مخاطبًا الناس جميعًا: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] وهم جميعًا يرجعون إلى أب واحد، هو آدم **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] وعلى هذا: فكل الناس سواسية لا فرق بين إنسان وآخر إلا بما يقدم من إيمان وعمل صالح نافع، قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في حجة الوداع: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمُ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمُ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ» ^(١) وهذا الذي قرره القرآن وأكدته السنة وطبقته أمة الإسلام في أزهى عصورها، وتعاملت مع أمم الأرض على أساسه؛ يعتبر أصلًا عظيمًا للإخاء الإنساني وقاعدة كبرى لنظرية حقوق الإنسان.

٤ - العدل المطلق في الإسلام.

والعدل في القرآن يدور حول محورين؛ **الأول**: العدل الإلهي في معاملة الإنسان، فمن مظاهر هذا العدل أن الله تعالى لا يظلم أحدًا يوم القيامة ولو مثقال ذرة، وقد بين الله هذا في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] ومن مظاهر العدل الإلهي؛ أن الله لا يؤاخذ العباد إلا بعد قيام الحجة الرسالية عليهم، برغم قيام البراهين الكونية، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ومنها: أن الله تعالى لا يحمل نفسًا وزر نفس أخرى، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

المحور الثاني: أن الله **عَزَّوَجَلَّ** شرع العدل وجعل الشرع ميزانًا يضبط التعامل بالعدل، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧].
فقد شرع الله العدل في الحكم فقال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]- أي: الله يوصيكم إن حكمتم بين الناس أن تحكموا

(١) أخرجه أحمد (٢٢٨٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٦٣).

بالعدل، وشرع العدل في القول والحكم على الناس وإبداء الرأي في الأشخاص فقال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وشرع العدل في العشرة بين الزوجين، فبين أن لكل واحد منهما على الآخر مثل ما عليه تجاهه، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وشرع العدل في المعاملة المالية؛ فحرم أكل الأموال بالباطل فقال: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] وفي الجملة فإن الله عز وجل لا يظلم، ولا يحب لعباده أن يظلموا، ولذلك قال في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي: إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»^(١)

والظلم هو مكن الخضر على حقوق الإنسان، والعدل هو منبر الرعية لحقوق الإنسان.^(٢)

ومما يبين أهمية محاسن الشريعة في إعطاء الحقوق للإنسان أن نقارن بين مفهوم «حقوق الإنسان» في الإسلام، وفي الوثائق والقوانين الدولية، ضمن النقاط الآتية.

١- أن الشريعة الإسلامية سبقت كافة المواثيق والإعلانات والاتفاقات والقوانين الدولية؛ في تناول وتأسيس «حقوق الإنسان» منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، وإن ما جاء به «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» ونحوه من المواثيق، ما هو إلا ترديد لبعض ما تضمنته الشريعة الإسلامية.

٢- أن حقوق الإنسان في الإسلام، مصدرها الوحي الرباني، المتمثل في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فهي مبرأة من كل عيب أو نقص أو جهل أو هوى، قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، أما مصدر «حقوق الإنسان» في القوانين والمواثيق الدولية؛

(١) مسلم (٤٦٨١).

(٢) ميثاق حقوق الإنسان في الإسلام (ص: ٨).

فهو الفكر البشري الذي لا بد أن يتأثر بطبيعة البشر من الهوى والضعف والعجز والقصور والجهل والخطأ، قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وقال تعالى في وصف الإنسان: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال النبي ﷺ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون». ^(١)

٣- أن حقوق الإنسان في الإسلام، حقوق أصيلة ثابتة أبدية، لا تقبل حذفاً ولا تعديلاً ولا تغييراً ولا نسخاً ولا تعطيلاً، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

أما في القانون الدولي فهي تخضع لأهواء البشر وعقولهم، وتقبل التغيير والتبديل بما تمليه تلك الأهواء والعقول، التي تفسد ولا تصلح، قال تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

٤- أن حقوق الإنسان في الإسلام، ملزمة وواجبة شرعاً، لأنها جزء من دين المسلم، لا يمكنه ولا يحق له أن يتنازل عنها أو يفرط فيها، وإلا لحقه الإثم، وتعرض للجزاء والعقاب، وللسلطة العامة في الإسلام حق الإجبار على أداء هذه «الحقوق» باعتبارها فريضة من الله تعالى، بينما الحال في القوانين الدولية أن تلك الحقوق مجرد توصيات وأحكام أدبية، يُنادى بها ويُعلن عنها ويُحث عليها، وتعتبر حقاً شخصياً لا يمكن الإجبار عليه إذا تنازل عنه صاحبه.

٥- أن حقوق الإنسان في الإسلام، شاملة لجميع أنواع الحقوق التي يحتاجها البشر في حياتهم، ولجميع أصناف الناس، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. أما «الإعلان العالمي» فيظهر عليه النقص والخلل الكبير كما هي طبيعة البشر. ^(٢)

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٣٤٢٨)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٣٤١).

(٢) حقوق الإنسان في السلم والحرب (٢/٢٦).

٦- أن حقوق الإنسان في الإسلام، قد أحيطت بضمانات لحمايتها من الانتهاك، واعتمد المنهج الإسلامي لتحقيق هذه الحماية على أمرين أساسيين هما:

أ- إقامة الحدود الشرعية، التي من أهم مقاصدها: المحافظة على حقوق الأفراد، وحفظ الضرورات الخمس لهم: الدين، النفس، المال، العرض، العقل.

ب- تحقيق العدالة المطلقة التي أوجبها الله ورسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]

قال ابن عطية في تفسيرها: والعدل هو فعل كل مفروض من عقائد وشرائع وسير مع الناس في أداء الأمانات وترك الظلم والإنصاف وإعطاء الحق.

وقال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لَا قُدُّسَتْ أُمَّةٌ لَا يَأْخُذُ الضَّعِيفُ فِيهَا حَقَّهُ غَيْرَ مُتَمَتِّعٍ»^(١).

أما في القوانين الدولية، فيظهر جلياً عدم تحديد أية ضمانات تحمي هذه الحقوق من الانتهاك، وكل ما فيه التحذير من التحايل على نصوصه أو إساءة تأويلها دون تحديد جزاء للمخالفة^(٢).

٧- وإضافة إلى ذلك فإن حقوق الإنسان في الإسلام، يقترن أداؤها بجزاء أخروي، إضافة إلى الجزاء الدنيوي، وكذا يترتب على إهمالها والتقصير فيها عقاب دنيوي وأخروي، بل إن الأصل في الجزاء في الشريعة الإسلامية هو الجزاء الأخروي، ويترتب على هذا؛ أن الفرد المسلم يخضع لأحكامها وواجباتها خضوعاً اختيارياً في السر والعلن، رغبة فيما عند الله وخوفاً من عقابه، حتى لو استطاع أن يفلت من عقاب الدنيا.^(٣)

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٤٢٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٥٥).

(٢) حقوق الإنسان في السلم والحرب (٢/ ٢٧).

(٣) ميثاق حقوق الإنسان في الإسلام (ص: ٣٢)، حقوق الإنسان للحقيل (ص: ٨٧)، حقوق الإنسان في السلم والحرب (٢/ ٢٤).

من محاسن وجوانب رعاية حقوق الإنسان في الكتاب والسنة.

من حكمة الإسلام أن وضع الأسس الثابتة، وبنى القواعد المتينة، حتى يسلم البناء الاجتماعي من التصدّع بصلاح أفراده، ولقد كانت الفترة المكية زمن البعثة، والتي تواصلت زهاء ثلاث عشرة سنة، قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، موجهة توجيهاً كلياً إلى التربية العقدية والتأصيل الإيماني، والتهذيب النفسي والعقلي والأخلاقي، وفق أسلوب من التدرج يراعي الخصائص التي تتطلبها كل مرحلة من مراحل الدعوة إلى الدين الجديد، ثم تلت هذه الفترة الهامة، مرحلة التشريع للمجتمع الجديد الناشئ وفق ضوابط أخلاقية وسلوكية، ميزتها الشمولية لكل جوانب الحياة الفردية والجماعية، وقاعدتها المساواة بين كل الناس دون التفرقة بينهم لدواعٍ جنسية أو عرقية أو لغوية، وميزانها العدل في ترتيب الحقوق والواجبات على حسب ما تحتمله الطاقة البشرية من غير إسراف ولا تقصير^(١).

ومن محاسن هذه الحقوق:

١ - حق الإنسان في أن يعرف ربه.

إن الإنسان فطر على معرفة الله وتوحيده ومحبته وعبادته، وأي محاولة لصدم هذه الفطرة هي بمثابة سلب الإنسان عن ذاته وعن جوهره، وممارسة للإرهاب على الروح التي لا راحة لها ولا طمأنينة، ولا سعادة لها ولا رضا، ولا سكينه لها ولا قرار إلا بدورانها في فلك العبودية لباريها.

وإن الإنسان خلق لغاية هي عبادة الله وطاعته، وكل محاولة لتعطيل هذه الغاية تعتبر عدواناً سافراً يسلب الإنسان هويته، ويعطله عن أعظم وظيفة خلق لها ويحرمه لذة العبادة وحلاوة الطاعة، ويعرضه للعذاب والشقاء.

لذلك - ومن أجل حماية أعظم حق للإنسان - شرع الله تعالى الجهاد في

(١) الإسلام وحقوق الإنسان في ضوء المتغيرات العالمية (ص: ١٠)، حقوق وواجبات شرعها الله للعباد (١/١)، حقيقة حقوق الإنسان (ص: ١).

سبيله، ولم يشرع الجهاد إلا لهذه الغاية، لم يشرع للقتل في ذاته ولا للتوسع، ولا لاستعمار البلاد، ولا لركوب ظهور العباد، وإنما شرع لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] أي: قاتلوا الذين يصدون عن سبيل الله؛ حتى لا يفتنوا الناس ويحولوا بينهم وبين حقهم في عبادة ربهم، وحتى يكون خضوع البشرية لله لا لهؤلاء الذي يمارسون الفتنة. (١)

٢ - حق الحياة.

حق الحياة يعتبر أعظم حق من حقوق الإنسان بعد حقه في معرفة ربه وعبادته، والأصل الذي يقرره القرآن، وتؤكد السنة ويطبق عليه علماء الأمة؛ أن حق الحياة ثابت لكل إنسان من حيث الأصل، وأن زوال هذا الحق لسبب من الأسباب ليس هو الأصل، وإنما هو استثناء من الأصل،

وقد اعتبر القرآن الكريم أن من قتل نفساً لا تستحق القتل كأنه قتل الناس جميعاً؛ لأنه انتهك حرمة الإنسان، واستباح إهدار حقه في الحياة، وذلك في قول الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وذكر القرآن الكريم قصة هابيل وقابيل ابني آدم، وعقَّب على فعل قابيل مرة بأنه صار من النادمين: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١] ومرة بأنه صار من الخاسرين: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠].

وتوعد القرآن الكريم من قتل مؤمناً متعمداً بالعذاب في جهنم، عذاباً طويلاً، وبالغضب واللعنة والعذاب العظيم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ

(١) ميثاق حقوق الإنسان في الإسلام (ص: ١٠).

جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ [النساء: ٩٣]
 أما غير المسلمين من أهل العهد أو أهل الذمة، فقد تولى النبي ﷺ بيان
 حكم قاتل أحد منهم، فقال: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا
 تَوَجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(١).

٣ - حق الحرية.

الناس جميعا يولدون أحرارًا، والرق طارئ على الحياة البشرية، وقد جاء
 الإسلام فوجد الرق نظامًا سائدًا في الأرض كلها، مستقرًا استقرار الجبال على ظهر
 البسيطة؛ فوضع خطة للقضاء عليه تدريجيًا، وكانت هذه الخطة في غاية الإحكام
 وكتب لها نجاح كبير، وقد أخذ بحر الرق يضيق وينحسر شيئًا فشيئًا حتى كاد أن
 يتول إلى الزوال والفناء في إطار الأمة الإسلامية، قبل أن يأتي إعلان الأمم المتحدة
 بتحريم الرق، ولولا ما جاء به الإسلام من أحكام في هذه المسألة لما استطاعت
 الأمم المتحدة أن تحرمه، لأنها لن تملك ساعتها القدرة على تغيير أوضاع فرضت
 نفسها على واقع البشرية، والدليل على ذلك أننا نتحداها أن تستجمع قواها وتستظهر
 بسائر المنظمات الدولية ثم تجهز على «حق الفيتو» الذي يعطي للدول العظمى
 صلاحية مطلقة في إهدار ما أجمعت عليه أمم الأرض.^(٢)

٤ - حق الإنسان في الأمن.

الأمن حق من حقوق الإنسان؛ لأنه لا قرار للإنسان ولا سعادة ولا هناء
 له إلا بالأمن، ولا قدرة له على ممارسة مهامه في الحياة من عبادة لله وعمارة
 للأرض بمنهج الله وسعي على الرزق والمعاش وتربية للأولاد وغير ذلك إلا
 بتوفر الأمن، أما الخوف والقلق والتوجس الذي تسببه الأنظمة البعيدة عن

(١) رواه البخاري (٢٩٤٧). وانظر: ميثاق حقوق الإنسان في الإسلام (ص: ١١)، الإسلام وحقوق
 الإنسان في ضوء المتغيرات العالمية (ص: ٣٨).

(٢) ميثاق حقوق الإنسان في الإسلام (ص: ١٢).

شرع الله فهي معوقات ومنغصات، بل وفي كثير من الأحيان مهلكات.

والقرآن الكريم تضمن حدًا وعقوبة توقع على الذين يمارسون الإرهاب داخل المجتمع، فقال: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣].

فهذه الآية الكريمة تقرر عقوبة هؤلاء الذين يحاربون الله ورسوله بترويع الآمنين وزعزعة الأمن الاجتماعي ويفسدون في الأرض بالقتل والسطو وغير ذلك، وعقوبتهم أن من قتل يقتل، ومن سرق تقطع يده، ومن روع الناس دون أن يثبت عليه سرقة أو قتل ينفى.

ولا يكتفي الإسلام بتقرير العقوبة الحكيمة القضائية، وإنما يحرك تجاهه الضمائر، حتى يكون ضمير الإنسان حاكمًا عليه إذا ما تمكن من الإفلات من المحكمة ومن يد القضاء، فأصدر التوجيهات التي تخاطب الوجدان، منها «وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ»^(١)

ومن التوجيهات القرآنية التي تغرس في نفوس المسلمين تأمين غير المسلمين قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٧] أي: إن استأمنك أحد من المشركين الذين أمرت بقتالهم فأمنه حتى يسمع كلام الله وتتلوه عليه ثم رده على مأمنه إن هو أبى الإسلام، وأرجعه إلى حيث يأمن منك وممن في طاعتك ويلحق بداره في الشرك؛ ذلك لأنهم لا يعلمون ما لهم لو آمنوا وما عليهم لو كفروا.^(٢)

ولو قارن الإنسان ذلك، بما مارسه موقعو الإعلان العالمي لحقوق الإنسان؛ من أوريبيين، وأمريكان، وروس، ويابان، وقد أفنوا نحو سبعين مليونًا من البشر،

(١) الترمذي (٢٥٧١)، والنسائي (٤٩٣٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧١٠).

(٢) ميثاق حقوق الإنسان في الإسلام (ص: ١٣).

في حروبهم العالمية، ثم ظلوا يفتنون الأبرياء في كل مكان؛ في فيتنام، وأفغانستان، والبوسنة، والعراق، وفلسطين، وباكستان، لأدرك أن ذلك الإعلان، مجرد دعوى زائفة، وذر للرماد في العيون، لا ترعاه ذمة، ولا تحفظه ضمانات.

ولو قارن الإنسان ذلك، بما مارسه موقعو الإعلان، من نهب للثروات، واستغلال للشعوب الضعيفة، لأدرك أن المبادئ التي لا تنطلق من دين، واعتقاد، لا تعدو أن تكون ستاراً لتمير السرقات، ولبوس مسوح الضأن، في قلوب الذئاب. إنه لا غنى للبشرية عن دين الإسلام، الذي يحمي الدماء، والأموال. ألا ما أحوج القانونيين، والمشرعين، إلى مراجعة هذه النصوص ليعلموا أن الإسلام دين الحق، والعدل، والرحمة. ^(١)

٥ - حق صيانة العرض.

من حق كل إنسان أن يحيا كريماً مصون العرض مهاب الجنب، لا يوطأ عرضه ولا يستباح حماه، وأيما عدوان على عرض إنسان أو كرامته أو شرفه أو سمعته يعد انتهاكاً لكرامته، وتضييعاً لحق من حقوقه المحترمة.

ومن هنا حرم القرآن الكريم الزنا؛ لأنه يمزق الأعراض، ويدنس الشرف، ويجلب على المجتمع المفسد والشرور؛ بسبب الاعتداء على العفاف وتدنيس الفضيلة؛ فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

كما حرم القرآن الكريم قذف العفيفات واتهامهن كذباً -بالزنا- وتوعدهم بالعنة والعذاب العظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

وحرّم القرآن كل ما يعد عدواناً على عرض الإنسان وشرفه وكرامته، ومن

(١) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (خطبة حجة الوداع) (٦/١).

هذه المحرمات: السخرية، واللمز، والغيبة، والتجسس، وسوء الظن، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١ - ١٢]. (١)

٦ - حق الملك.

تأرجحت البشرية في ظل الحضارة المعاصرة بين نظامين اقتصاديين؛ الرأسمالية الليبرالية، والشيوعية الاشتراكية، الأولى: تبالغ في إطلاق اليد للملكية الفردية بشكل حول المجتمع الغربي إلى ما يشبه عالم الأسماك؛ يأكل القوي فيها ما هو دونه، والثانية: تبالغ في إلغاء حق الفرد في التملك بشكل حول الأفراد في المجتمع الشرقي إلى دمي متحركة في قبضة مستبد كبير هو الذي يملك كل شيء ألا وهو الدولة.

بينما الإسلام نظام وسط، وهذه هي طبيعته في كل الأمور، فالوسطية والاعتدال صبغة هذا الدين العظيم، الذي لا يقبل الغلو أو التطرف في أي اتجاه، فالإسلام يعترف -ابتداء- بالملكية الفردية، ويرتب عليها تحريم أكل أموال الناس بالباطل، وذلك في آيات وأحاديث كثيرة، كما يترتب عليها مشروعية البيع والشراء والمشاركات والمضاربات، وسائر أنواع التصرفات والاستثمارات المشروعة. ونصوص القرآن والسنة في هذا المجال لا تكاد تحصى، كما رتب عليها قانون الإرث الذي ينقل الملكية إلى الأقارب بعد وفاة المالك.

وليس في القرآن والسنة ما يدل مطلقاً على إلغاء الملكيات ولا مصادرة

(١) ميثاق حقوق الإنسان في الإسلام (ص: ١٤).

الأمالك، ولا حتى التدخل من قبل الدولة في شئون الناس المالية، اللهم إلا بما عليهم فيها من حقوق.

بل إن الإسلام قد وسع أسباب الملك بوسائل متعددة، منها: الحافز الاقتصادي الذي يأتي في صورة تمليك مشروع من الدولة لأفراد قاموا بإعمار الخراب، مثل قول النبي ﷺ «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ»^(١) أي تصير ملكا له.

والملكية الفردية هي الأصل، وحمايتها وصيانتها هو الأصل، غير أن هناك قيوداً لا تقلل من قيمة الملكية الفردية مطلقاً، ولكنها تخفف من أثارها المدمرة، وتكبح جماح الرأسمالية التي إن ترك لها الحبل على الغارب فسوف تدمر الأخلاق، وتأتي على الأخضر واليابس من القيم الاجتماعية، وتخل كذلك بالاقتصاد العام.

وإن اعتراف الإسلام بالملكية الفردية لا يعني إلغاء الملكية الجماعية، فهناك أشياء يجب أن تكون مملوكة للمجتمع كله وللأمة وللدولة؛ لكي تساعد على رعاية المصالح العامة، منها- على سبيل المثال- الحمى وهي أرض ملك للدولة الإسلامية مخصصة لإبل الصدقة وغيرها مما هو من اختصاص بيت المال.

إن الملكية الفردية في نظر الإسلام هي ملكية الاستخلاف، ولكن هذا الاستخلاف لا يغير من حقيقة الملكية، لأن هذا ليس استخلافاً من الدولة أو مؤسساتها، أو أي أحد من الناس أو أي جهة من الجهات، وإنما هو استخلاف من الله، قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الله هو المالك الحقيقي لهذا الكون وما فيه، وأن ملكية الإنسان لأي شيء في هذا الكون إنما هي ملكية بتحويل من مالك هذا الكون.^(٢)

(١) أبو داود (٣٠٧٣)، والترمذي (١٣٧٨)، وقال: حسن غريب. وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٦٣٨).

(٢) ميثاق حقوق الإنسان في الإسلام (ص: ١٦).

٧ - الحقوق الاقتصادية.

الإسلام ليس دين (رهبانية)، كالنصرانية، يصرف الناس عن مقتضى فطرتهم، وضرورات حياتهم، كما أنه ليس مذهباً مادياً، يقيم نظام الدنيا على حسابات عنصرية، كاليهودية، أو تجارية محضة، كما النظام الاقتصادي الحديث.

فإن نظرتة الاقتصادية تميل إلى تأكيد حرية الإنسان في العمل والكسب، واحترام مبادراته الخاصة وإرادته في الاكتشاف والابتكار، والإسلام من هذه الناحية يختلف اختلافاً بيناً عن النظريات الشمولية التي تسحق إرادة الإنسان، وتجعله جزءاً جامداً في آلة الدولة، مما يعطل كل مزاياه ومواهبه، وينحدر به إلى مستوى الحديد البارد.

وهكذا يعطيه الإسلام الحق في اكتساب المال، وتكوين الثروة، وامتلاك المزارع والمصانع، حتى تنشط الأسواق، وتزدهر التجارة والصناعة، ومع أن الإسلام يضمن هذه الحريات الواسعة، إلا أنه يضع لها حدوداً تحافظ على خيرها، وبركاتها، وتحميها من أن تكون أداة للفساد، والترف، والاستغلال، فترى الشريعة الإسلامية تحرم الإسراف، والتبذير، والاحتكار، والربا، وترسم حدود التنافس الشريف والتعامل النظيف، وتحدد حق الفقراء في المال من زكاة وصدقات، حتى تتحقق العدالة والأمن الاجتماعي، فلا تقوم طبقة مترفة بطرة على حساب أغلبية الناس، وفي ذلك يعطي القرآن الكريم يقول عن المال: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧] ^(١)

٨ - الحقوق الاجتماعية.

وتتمثل هذه الحقوق الاجتماعية، ببيان الحقوق الزوجية؛ إذ الأسرة نواة

(١) حقوق الإنسان والقضايا الكبرى (ص: ١٧).

المجتمع، ولبنته الأولى، فإن كانت آمنة مستقرة وادعة؛ صار المجتمع كذلك، وإن طغى عليها الشقاق، والظلم، وسوء العشرة؛ استحال المجتمع إلى عش دبابير، يلسع بعضهم بعضًا.

جاء في سياق خطبه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ! فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَأَسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ. وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوْنَهُ. فَإِنْ فَعَلَنَ ذَلِكَ، فَأَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ. وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»^(١).

إن هذه الجمل المحكمة، تتضمن توزيع الحقوق والواجبات على طرفي الحياة الزوجية، وتستند في الالتزام بها على أفضل الضمانات وأعظمها وهي التقوى، فاتقوا الله في النساء. والتذكير العميق بحقيقة الوشيعة الزوجية، وسر رباطها: «فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَأَسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ». إن هذه الكلمات لتزرع الحرج الواعي في ضمائر الأزواج، الذين يجدون في أنفسهم نوع قدرة، وسلطة، على النساء الضعيفات، وتحملهم على الوفاء بالواجبات، كما أنها لا تبخسهم حقوقهم:

فالزوجة مأمورة بحفظ غيبة زوجها، وطاعته، كما وصفها الله بقوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، فيدخل في ذلك أن تحفظ بيت بعلها أن يغشاه من لا يحب؛ من رجل، أو امرأة، فللزوج حق الطاعة بالمعروف، لما علل الله به بقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

إن نظام الأسرة في الإسلام مبني بشكل واضح على قوامة الزوج على أهل بيته، وتحمله المسؤولية التامة على من تحت يده، وذلك يمنحه بطبيعة الحال، حق الطاعة على زوجته بالمعروف، ولا يمكن أن يقود السفينة ربانان، وإلا أفضى إلى

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

غرقها. والزوجة في النظام الأسري المعاصر متحررة متمردة، غير خاضعة لتوجيه زوجها؛ فيكفل لها القانون أن تصاحب من تشاء، وتخلو بمن تشاء، وتستضيف من تشاء، وتعمل حيث تشاء، دون الرجوع إلى الزوج، والحصول على إذنه. وقد أفرزت هذه الممارسات شراً عظيماً، وخطرًا مستطيراً، لم يعد خافياً على ذي عينين. وليس من حق الزوج في النظام الأسري المعاصر، أن يمارس أي لون من ألوان التأديب، لأن القانون يحميها ويدينه، فعليه أن يغمض على قذى، ويصبر على مضض.

والزوج في شريعة الله ملزم بالنفقة على أهل بيته، وأخصهم الزوجة: «وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ». حتى إن نفقة الوالدين، والأولاد، تسقط باستغنائهم، ولا تسقط نفقة الزوجة بحال! ولو كانت من أغنى الناس، بل قد أذن النبي ﷺ للزوجة التي تعاني من بخل زوجها وتقتيره، أن تأخذ كفايتها، وكفاية ولدها من ماله دون علمه بالمعروف.

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن هند بنت عتبة قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي، وَوَلَدِي، إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ. فَقَالَ: «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكَ بِالْمَعْرُوفِ»^(١).

وكثيراً ما تلجأ الزوجة في المجتمعات الغربية، ومن تأثر بها، إلى ابتذال نفسها بالعمل، بغرض تحصيل الرزق، وتتعرض لصنوف الأذى الحسي، والمعنوي، والتحرش الجنسي، بسبب الحاجة للكسب في حين تضمن الشريعة للمرأة المسلمة نفقاتها، وتحملها أباهاً وزوجها، لتبقى درة مصونة، تزاوّل ما خلقت له، ولا تلقي بنفسها في مواطن الابتذال، والابتزاز.^(٢)

(١) البخاري (٢٠٩٧، ٥٠٤٩)، مسلم (١٧١٤).

(٢) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (٥/٣)، الإسلام وحقوق الإنسان في ضوء المتغيرات العالمية (ص: ٣٩).

٩ - حقوق العمال:

يعطي الإسلام أهمية كبرى للعمل، ويعتبره الميدان الرئيسي لكي يمارس المسلم فيه إيمانه، حتى يتسم العمل بالصلاح والتقوى، ويصبح أداة لإسعاد صاحبه والناس من حوله، وكثيراً لا يذكر الإيمان إلا مقروناً بالعمل الصالح ورديفاً له، ومن هذه القاعدة يأتي تكريم العامل وتقديره، باعتباره الأداة التي تمارس هذا العمل الصالح النبيل، وفي ذلك يقول الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٥]، ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ»^(١).

فحق العمل هو حق كل مواطن في أن يجد فرصة عمل تناسبه من حيث مؤهلاته وإمكانياته، وأن يمارس هذا العمل بلا معوقات أو مضايقات، والإسلام يوفر الضمانات التي تحقق هذا الحق، وذلك بالإجراءات الآتية:

أ- الحث على العمل والسعي واعتباره واجباً قبل أن يكون حقاً قال تعالى:

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] وقال: ﴿وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠] ففي الآية الأولى: أمر الله عباده إذا ما أدوا العبادة أن ينتشروا في الأرض للعمل وطلب الرزق، وفي الثانية: أمر الله الناس جميعاً أن يدوسوا أكناف الأرض ويطأوا أكتافها؛ سعيًا على الرزق، وفي الثالثة: ذكر الله أن من عباده الصالحين من يضرب في الأرض ويسافر فيها سفرًا طويلاً لابتغاء الرزق والمعاش؛ لذلك رفع عنهم وجوب قيام الليل.

(١) صحيح البخاري (٢٠٧٢).

ب- احترام التخصصات: ويتجلى هذا الأمر في مثل هذه الإشارة القرآنية قال تعالى:

على لسان يوسف **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] فيوسف **عَلَيْهِ السَّلَامُ** رفض اقتراح الملك - أن يكون من رجاله وأصفيائه- وعرض عليه أن يوظفه بمقتضى مؤهلاته، وهي: الأمانة والعلم بالاقتصاد. والقصص القرآني كما هو معروف جاء لتعليم الأمة.

ج- عدم التسليم للبطالة: فالإسلام لا يقر البطالة بحال، حتى إنه إذا ضاقت سبل الحياة ولم يجد المرء عملاً مناسباً لسبب من الأسباب الطبيعية التي لا دخل للدول بها، أو لظروف عامة تمر بها الأمة فإن عليه أن يبحث عن أي عمل حتى ولو كان الاحتطاب؛ فهذا رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يقول «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكْفِيَ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»^(١)

د- أن في الإسلام قاعدة فقهية كبرى، تعطي مساحة واسعة للانطلاق، وهي قاعدة: «الأصل في الأشياء والمعاملات والأعمال الإباحة» وعليه، فإن التحريم لأي نشاط أو عمل أو معاملة استثناء من الأصل، وهو دائماً لا يأتي إلا للحفاظ على مصلحة أو لدفع مفسدة؛ وعليه، فإن اتجاه الدولة الإسلامية المطبقة لشرع الله والمراعية لهذه القواعد الشرعية هو التخفيف من القيود على الاستثمار بقدر الإمكان، وألا تكون القيود إلا بقدر حماية الحقوق والواجبات.

هذا عن حق العمل، أما حقوق العمال: فهي حق كل عامل في تقاضي الأجر الذي يكافئ عمله ويتناسب معه، وحقه في ألا يكلف من الأعمال ما لا يطيق، بالإضافة على حقوق أخرى تصدر وتعود إلى هذين الحقين، وسواء كان العامل يعمل لدى الدولة أو يعمل لدى فرد من رعايا الدولة، فإن الدولة مسئولة عن هذه الحقوق جميعاً، والقرآن يقرر ويضمن هذه الحقوق، وذلك

(١) رواه البخاري (١٣٨٥).

بالأوامر الإجمالية التي تخاطب المسلمين حكماً ومحكومين، وذلك مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] وقوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وذكر منهم: «وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَىٰ مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ» ^(١).

١٠ - حقوق الأقليات.

كانت الشريعة الإسلامية أول من ضمن حقوقاً واضحة للأقليات الدينية والعرقية في المجتمع المسلم.

وجاء في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].

وقال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ^(٢).

وقد كتب المبشر الإنجليزي توماس أرنولد الذي عمل في الهند: «إننا لم نسمع بمحاولات منظمة لإرغام أحد على اعتناق الإسلام، أو عن أعمال مدبرة لسحق الدين المسيحي، ولو أن الخلفاء المسلمين قد حرصوا على تبني إحدى هذه الوسائل، فقد كان بوسعهم التغطية على المسيحية بنفس السهولة التي صادفها الملك فرديناد وإيزابيلا، في حملتهما ضد الإسلام في إسبانيا، أو سياسة لويس الرابع عشر ضد البروتستانت في فرنسا. لقد كانت الكنائس الشرقية معزولة تماماً عن الدولة المسيحية، وكانت تعتبر -في ذلك الحين- مذاهب منحرفة لدرجة أن أحداً لن يهَبَّ لنجدتها؛ ولذلك فإن مجرد بقاء المسيحية الشرقية في دار الإسلام يعتبر دليلاً قوياً على موقف التسامح الإسلامي.

(١) رواه البخاري (٢٠٨٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٥٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٤٥).

وقد حكمت هذه النظرة العادلة قادة المسلمين -ولا تزال- في تعاملهم مع أهل الكتاب؛ فقد أعطى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عهداً إلى نصارى بيت المقدس يحمي كنائسهم وصلبانهم وحقوقهم، وتتمتع الأقليات الدينية حتى يومنا هذا بحقوق متساوية في المواطنة؛ وفاء لتلك العهود النبوية. ^(١)

١١ - حق التنقل والهجرة والسعي في الأرض.

الذي يطالع القرآن والسنة، وينظر في الشريعة ويراجع أقوال الفقهاء يعود بحقيقة لا يجد لها معارضاً ولو طال البحث، وهي أن الأرض أرض الله وأن الإنسان خليفة في أرض الله، وأنه لا حجر على عباد الله أن يسبحوا في أرض الله. هذا هو الأصل، وما يخرج عن هذا الأصل في بعض الأحوال القليلة فهو استثناء، ولا يخلو أي نظام من هذا الاستثناء سواء كان نظاماً حضارياً أو غير حضاري، ويعتبر نظام الإسلام هو أقلها جميعاً من حيث وجود هذه الأمور الاستثنائية.

والتنقل والهجرة قد يكون للتجارة وطلب الرزق واستثمار الأموال، وفي هذا يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠] وفي هذه الآية رفع عن المسلمين فريضة قيام الليل وجعله مستحباً مندوباً فقط؛ لأن الناس منهم المريض ومنهم المجاهد، ومنهم الذي يضرب في الأرض طالباً الرزق ساعياً إلى استثمار أمواله، ولفظ الضرب لفظ يفيد السفر البعيد، والتنقل الكثير.

وقد تكون الهجرة لطلب الأمن «كاللجوء السياسي» وفي هذا يقول الله عَزَّجَلَّ في شأن المسلمين: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] أي: لماذا إذ ضيق عليكم الكفار لم تهاجروا في أرض الله الواسعة؟ ويقول في شأن غير المسلمين: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]-أي: إن استأمنك أحد المشركين المحاربين لك؛

(١) حقوق الإنسان والقضايا الكبرى (ص: ١٣).

فأمنه حتى يسمع كلام الله ثم رده إلى داره حيث يكون في مأمن منك؛ لأنهم قوم لا يعلمون ما الإيمان وما الكفر، وقد كانت الأنظمة المستبدة في أوروبا قبل الثورة الفرنسية تمنع الناس هذا الحق، بينما كانت الدولة الإسلامية - حتى في عهود الضعف - لا تستطيع أن تمس هذا الحق الذي ثبته القرآن في التربة الإسلامية بهذه الأحكام الخالدة. ^(١)

(١) ميثاق حقوق الإنسان في الإسلام (ص: ١٨).

الباب الحادي عشر:

محاسن الإسلام في تعامله مع المخالفين

خلق الله تعالى بني آدم وجعلهم في بداية وجودهم أمة واحدة على التوحيد الخالص، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩]، ولو شاء الله تعالى أن يجمعهم بعد تفرقهم واختلافهم لفعل، ولكن جعله اختباراً لهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨].

والخلاف لغة: تَخَالَفَ القوم اِخْتَلَفُوا؛ إذا ذهب كل واحد إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر، وهو ضدُّ الاتفاق. ^(١)

ولما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يفضي إلى التنازع استعير ذلك للمنازعة والمجادلة، قال الله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم: ٣٧]. ^(٢)

وليس كل تعارض بين قولين يعتبر اختلافًا حقيقيًا بينهما، فإن الاختلاف إما أن يكون اختلافًا في العبارة، أو اختلاف تنوع، أو اختلاف تضاد. وهذا الأخير هو الاختلاف الحقيقي. ^(٣)

إن التعدد في المخلوقات وتنوعها سنة الله في الكون وناموسه الثابت، فلكل شيء في هذا الخلق طبيعته وخصائصه وصفاته التي تقارب غيره أحيانًا، وتتنافر

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للفيومي (ص: ٩٥).

(٢) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص: ٢٩٤).

(٣) رفع الملام عن الأئمة الأعلام (ص: ١٧).

عنها في أحيان أخرى، وهكذا فطبيعة الوجود في الكون أساسها التنوع والتعدد. والإنسانية خلقها الله وفق هذه السنة الكونية، فاختلف البشر إلى أجناس مختلفة وطبائع شتى، وكلّ من تجاهل وتجاوز أو رفض هذه السُّنة الماضية لله في خلقه، فقد ناقض الفطرة وأنكر المحسوس.

وقد جاء في القرآن الكريم ذكر بعض صور الاختلاف بين البشر، كاختلاف الألوان واللغات، وهما فرع عن اختلاف الأجناس والقوميات: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

وقد أكدت الآيات أن اختلاف البشر في شرائعهم هو أيضاً واقع بمشيئة الله تعالى ومرتبطة بحكمته، يقول الله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨].

قال ابن كثير: هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد. ^(١)

فالإسلام يعترف بوجود الاختلاف وعدم إمكانية جمع الناس على دين واحد، ويطلب من الدعاة ورثة الأنبياء القيام بواجب البلاغ في الدنيا واستفراغ الوسع في الإرشاد والنصح للعالمين، ثم الله يتولى - بحكمه وعدله - يوم القيامة حساب المعاندين وجزاء المؤمنين. ^(٢)

وأصل الخلاف على نوعين:

النوع الأول: اختلاف تنوع: كالاختلاف في صفة الأذان والإقامة والاستفتاح وصلاة الخوف وتكبيرات العيد، ونحو ذلك وهذا النوع من الاختلاف يأتي على وجوه منها:

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٦٧).

(٢) الحوار مع أتباع الأديان - مشروعيته وأدابه (ص: ١٧).

أن يكون القولان أو الفعلان مشروعين كالقراءات، ومن ذلك ما تقدم من اختلاف الأنواع، ومنها ما يكون الاختلاف القولي في اللفظ دون المعنى، ومنها ما يكون كل واحد من الأقوال غير الآخر لكن لا تنافي بينهما وهما قولان صحيحان، ومنها ما يكون في طريقتين مشروعتين لكن كل واحد قد سلك واحدة منهما وهذا النوع من الاختلاف ليس مذموماً لكن إن اقترن به البغي والظلم مع الجهل صار مذموماً.

النوع الثاني: اختلاف تضاد: وهو أن يتنافى القول من كل وجه وهو يكون في الأصول والفروع، وهذا لا يكون إلا على قول جمهور العلماء من أن المصيب في الكل واحد وهو الراجح.

وقد جاءت السنة بدم اختلاف التضاد كما في حديث عبد الله بن رباح الأنصاري، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إنما هلك من كان قبلكم من الأمم باختلافهم في الكتاب»^(١).

ومن محاسن الشريعة أنها جاءت بوضع القواعد والأسس لضبط أي اختلاف يقع بين المسلمين ومع غيرهم بما يحقق مصالح العباد في الدارين، وقد تضمنت هذه الأسس جملة من الفضائل وفيما يلي إطلالة على أظهرها:

أولاً: من محاسن الإسلام: وضع آلية لتضييق الخلاف وتقليله.

إن نظام الإسلام يسعى لائتلاف الصف المسلم، وتوحد العمل الإسلامي، واجتماع كلمة المسلمين ضد خصومهم من أعداء الملة والأمة، وفي سبيل ذلك لا بد من أمور وهي:

١ - استحضار أن الأصول والغايات والطريق والمقاصد واحدة.

إن النظر إلى الكليات دون الجزئيات، وإلى الغايات والمقاصد وتعظيمها،

(١) مسلم (٢)، وانظر: الاختلاف في أصول الدين أسبابه وأحكامه (ص: ١٠).

وقدرها القدر الصحيح، عاصمٌ بإذن الله من الفرقة، حتى ولو وقع الخلاف.

ولذلك يقول ابن القيم: اختلاف الصحابة لم يضر؛ لأن الأصل الذي بنوا عليه واحد، وهو كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والقصد واحد، وهو طاعة الله ورسوله، والطريق واحد، وهو النظر في أدلة القرآن والسنة وتقديمها على كل رأي وقياس وذوق وسياسة. ^(١)

٢- الخروج من الخلاف احتياطاً.

إن قاعدة الخروج من الخلاف جُعِلَتْ سداً لباب الفرقة وتمهيداً للاتلاف، ومثال ذلك: إذا كان الخلاف بين التحريم والجواز، فالاجتناب أفضل خروجاً من الخلاف، وإذا كان بين الاستحباب وعدمه فالخروج من الخلاف بالفعل، ومن أمثلة ذلك ما جاء في كراهية المالكية للبسملة في الصلاة «وكان المازري المالكي يبسمل سرّاً في الفرض، فيقول: مذهب مالك من لم يبسمل في الصلاة لا تبطل صلاته، ومذهب الشافعي من لم يبسمل في الصلاة بطلت صلاته. وصلاة متفق عليها خير من صلاة قال أحدهما بطلانها.

٣- تجنب أسباب الخلاف.

بعض الخلاف المثار وخاصة بين الطلاب أكثر مما هو بين الشيوخ، وذلك لبعدهم عن تحديد مسائل الخلاف بدقة؛ لأن فائدة تحديد الخلاف أنه يضيق الخلاف في حدود ضيقة، وقد يؤدي تحديد الخلاف إلى اتفاق ومثال ذلك:

(أ) تحديد المصطلحات والمفاهيم أولاً قبل الخلاف.

(ب) تحديد التعريف بالمسألة أولاً قبل الخلاف في حكمها.

كما أنه علينا ألا نختلف حول المثال كثيراً قبل الحديث عن القاعدة، لأن الاتفاق حول القاعدة يضيق ويهون الاختلاف حول المثال. وكذلك الاختلاف حول الشخص قبل الفكرة مشكلة؛ إذ إنه إذا تم الاتفاق حول الفكرة والمبدأ

(١) فقه الاتلاف، إعداد محمود محمد الخزندار ص ٢٩.

فالأشخاص أمرهم هين.

٤- الاختصار على الشريعة المباركة ومصادرها الصحيحة.

وذلك بلا شك يضيق الخلاف والفرقة، ويؤدي إلى الوحدة والائتلاف، لأن وحدة المصادر أقوى، كما أن رجوع الجميع إلى الشريعة يعصمهم، حيث يقول تعالى: ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، كما أن الأخذ بمقاصد الشريعة أيضًا يضيق الخلاف. ^(١)

ثانياً: بيان محاسن الإسلام في تعامله مع المخالفين من المسلمين.

لقد وضع الإسلام آداباً وضوابط في التعامل مع المخالفين، هذه الآداب من المحاسن التي جاء بها الإسلام، وسوف نذكر أهمها في النقاط التالية:

١- بين الله سبحانه للأمة ماذا نصنع إذا اختلفنا، وأي سبيل نسلك حتى لا نحرف ويخرج بنا الاختلاف عن الجادة.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

ففي هذه الآية إشارة إلى أن التنازع بين المؤمنين المتصفين بالطاعة لله وللرسول ولأولي الأمر؛ لا مفر من وقوعه ولا ضرر إذا اتفق المتنازعون على الحكم الذي يحتكمون إليه ولا يخرجون عن سلطانه. ^(٢)

٢- إحسان الظن بالعلماء المخالفين وأن لا يعتقد أنهم تعمدوا ترك الحق

الذي بان له - وقد يكون هو المخطيء -، وعليه فلا يعتقد هلكتهم في خلافهم

(١) فقه الائتلاف الطريق إلى الوفاق الشيخ محمد سيد حاج، من موسوعة البحوث والمقالات العلمية (١٧/١).

(٢) سبع مسائل في علم الخلاف، أبو مجاهد عبد العزيز بن عبد الفتاح المدني، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة السادسة - العدد الثاني.

له، بل يلتمس لهم العذر في ذلك^(١)

فعن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدْ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدْ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ »^(٢).

قال ابن تيمية: وكثير من مجتهدى السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة ولم يعلموا أنه بدعة، إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة، وإما لآيات فهموا منها ما لم يرد منها، وإما لرأي رأوه وفي المسألة نصوص لم تبلغهم^(٣).

وإذا اتقى الرجل ربه ما استطاع دخل في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وفي الصحيح أن الله قال: «قَدْ فَعَلْتُ»^(٤).

٣- أن لا يؤدي الخلاف إلى جفوة وفتنة بين المختلفين^(٥).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كُنَّا نُسَافِرُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يَعْيبِ الصَّائِمَ عَلَى الْمُفْطِرِ، وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ^(٦).

قال ابن تيمية: كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين^(٧).

(١) الخلاصة في أصول الحوار وأدب الاختلاف، علي بن نايف الشحود (٢/ ١٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٥٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٩١).

(٤) أخرجه مسلم (٣٤٥).

(٥) الخلاصة في أصول الحوار وأدب الاختلاف، علي بن نايف الشحود (٢/ ١٥١).

(٦) أخرجه البخاري (١٩٤٧).

(٧) مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٧٢).

٤- التحري والتبين والتثبت من الخبر^(١).

وقد أمرنا الله تعالى بضرورة التبين والتثبت من الأخبار لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَن أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤].

ولقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

عن حفص بن عاصم، قال: قال رسول الله ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ».^(٢)

٥- إن التزام الأدب وحسن الخلق عمومًا، والتواضع على وجه الخصوص؛ له دور كبير في إقناع الطرف الآخر، وقبوله للحق وإذعانه للصواب.

فكل من يرى من محاوره توقيرًا وتواضعًا، ويلمس خلقًا كريمًا، ويسمع كلامًا طيبًا، فإنه لا يملك إلا أن يحترم محاوره، ويفتح قلبه لاستماع رأيه^(٣).

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»^(٤).

(١) الخلاف أسبابه وآدابه، عائض القرني، موقع وزارة الأوقاف السعودية (ص: ٧).

(٢) أخرجه مسلم (٧).

(٣) الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، يحيى بن محمد زمزمي (ص: ١٦١).

(٤) أخرجه مسلم (٧٦٧٥).

٦- وينبغي أن يكون الجدل مع المخالفين بالتي هي أحسن^(١).

فقد قال الله في جدال أهل الكتاب ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقال في حق غيرهم ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

قال الإمام القرطبي^(٢): وهذا كله حض على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليناً ووجهه منبسطاً طلقاً مع البر والفاجر، والسني والمبتدع، من غير مدهانة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه؛ لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه، وقال طلحة بن عمر: قلت لعطاء: إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل في حدة فأقول لهم بعض القول الغليظ.

فقال: لا تفعل! يقول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفي؟.

٧- أن لا ينكر على المجتهد في اجتهاده وعمله بهذا الاجتهاد.

ولا يمنع هذا من إقامة الحجة عليه أو المحاورة معه للخروج من الخلاف والوصول إلى الحق، بل هو الأولى، إذ مازال السلف يرد بعضهم على بعض في مسائل الفقه والفروع من المعتقد، وهذا من النصيحة للمسلمين.

وقد نقل عن كثير من السلف عدم الإنكار في مسائل الخلاف إذا كان للاجتهاد فيها مساغ^(٣).

قال ابن تيمية: مسائل الاجتهاد من عمل فيها بقول بعض العلماء؛ لم ينكر

(١) الخلاصة في أصول الحوار وأدب الاختلاف، على بن نايف الشحود (١٥٣/٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦/٢).

(٣) الخلاصة في أصول الحوار وأدب الاختلاف، على بن نايف الشحود (١٥١/٢).

عليه ولم يهجر، ومن عمل بأحد القولين لم ينكر عليه^(١).

وقال ابن مفلح: ولا إنكار فيما يسوغ فيه خلاف من الفروع على من اجتهد فيه أو قلد مجتهداً فيه^(٢).

٨- المعتبر في الخلاف والغاية هو الوصول للحق؛ فلا بد من التجرد في طلب الحق، والحذر من التعصب والهوى، وإظهار الغلبة والمجادلة بالباطل^(٣).

قال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

قال أبو حامد الغزالي: أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه^(٤).

٩- الاتفاق على أصل يرجع إليه، والمرجعية العليا عند كل مسلم هي: الكتاب والسنة، والضوابط المنهجية في فهم الكتاب والسنة.

وقد أمر الله بالرد إليهما فقال سبحانه: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]^(٥).

١٠- العدل والإنصاف، ومن تمام الإنصاف قبول الحق من الخصم، والتفريق بين الفكرة وقائلها، وأن يبدي المحاور إعجابه بالأفكار الصحيحة والأدلة الجيدة.

ومن نماذج الإنصاف ما ذكره الله سبحانه في وصف أهل الكتاب: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾

(١) مجموع الفتاوى (٢٠٧/٢٠).

(٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح (٢١٢/١).

(٣) آداب الحوار وقواعد الاختلاف، عمر بن عبد الله كامل، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي حول موقف الإسلام من الإرهاب، ٢٠ إبريل ٢٠٠٤م جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (ص: ٥).

(٤) إحياء علوم الدين (١/ ٤٤).

(٥) آداب الحوار وقواعد الاختلاف، عمر بن عبد الله كامل (ص: ٥).

[آل عمران: ١١٣] ^(١).

١١- يجب على المحاور أن يكون حليماً صبوراً، لا يغضب لأتفه سبب، ولا ينفر لأدنى أمر، ولا يستفز بأصغر كلمة.

فقد أمر سبحانه نبيه بأخذ العفو وإعذار الناس وترك الإغلاظ عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].
والصفح والعفو أبلغ من كظم الغيظ ورد الغضب؛ لأن العفو ترك المؤاخذه، وطهارة القلب، والسماحة عن المسيء، ومغفرة خطيئته.

وأعظم من ذلك وأكبر هو دفع السيئة بالحسنة، ومقابلة فحش الكلام بلينه، والشدة بالرفق، ورد الكلمة الجارحة بالكلمة الطيبة العذبة، والسخرية والاحتقار بالتوقير والاحترام، وهذه منزلة لا يصل إليها إلا من صبر وكان ذا حظ عظيم: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥] ^(٢).

١٢- إن المحاور المسلم المخلص الصادق يحرص على ظهور الحق، ويشفق على خصمه الذي يناظره من الضلال، ويخاف عليه من الإعراض والمكابرة والتولي عن الحق.

فالرحمة والشفقة أدب مهم جداً في الحوار؛ لأن المحاور يسعى لهداية الآخرين واستقامتهم، فلذلك يتعد عن كل معاني القسوة والغلظة والفظاظة والشدة، فلا يكون الحوار فرصة للكيد والانتقام، أو وسيلة لتنفيذ الأحقاد، وطريقة لإظهار الغل والحسد، ونشر العداوة والبغضاء.

(١) الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، يحيى بن محمد زمزمي (ص: ١٤١)، وآداب الحوار وقواعد الاختلاف، عمر بن عبد الله كامل (ص: ٩).

(٢) الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، يحيى بن محمد زمزمي (ص: ١٨٢)، وآداب الحوار وقواعد الاختلاف، عمر بن عبد الله كامل (ص: ١١).

والرحمة جسر بين المحاور والطرف الآخر، ومفتاح لقلبه وعقله، وكلما اتضحت معالم الرحمة على المحاور كلما انشرح صدر الخصم، واقترب من محاوره، وأذعن له واقتنع بكلامه، يقول سبحانه مخاطباً نبيه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].
ولذلك كان الأنبياء في حوارهم مع أقوامهم يصرحون بالخوف والحرص والشفقة عليهم.

ومن نماذج ذلك؛ تصريح مؤمن آل فرعون لقومه بالرحمة والشفقة والخوف عليهم في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَاوُدَ قَوْمِ نُوحَ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٠ - ٣٢] ^(١).

١٣- إن المحاور المسلم يستمد قوته من قوة الدين، وعظمة الإيمان.

فلا يجوز أن يؤدي الحوار بالمسلم إلى الذلة والمهانة، والعزة الإيمانية ليست عناداً يستكبر على الحق، وليست طغياناً وبغيّاً، وإنما هي خضوع لله وخشوع، وخشية وتقوى، ومراقبة لله سبحانه ^(٢)، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

ثالثاً: ومن محاسن الإسلام؛ تعامله مع المخالفين من غير المسلمين بالحق والعدل.

فالإسلام دين الله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولقد حدد ضوابط وقواعد وأحكام في تعامل أهل الإسلام مع غيرهم ممن لم يؤمنوا ويقروا بشريعته سواء كانوا أهل الذمة، أو مستأمنين، أو معاهدين، أو حربيين.

(١) الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، يحيى بن محمد زمزمي (ص: ٢٠٢)، وآداب الحوار وقواعد الاختلاف، عمر بن عبد الله كامل (ص: ١٢).

(٢) المصدر السابق. (ص: ١٢١)، المصدر السابق. (ص: ١٤).

وهذه الضوابط من محاسن الإسلام ومفاخره، وسوف نذكر أهمها في النقاط التالية:

١- أول ما يتعامل به المسلم مع الكافر الدعوة إلى الله تعالى؛ لأجل مصلحتهم وهدايتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥] ^(١).

٢- لله تعالى حِكمٌ في إبقاء أهل الكتابين بين أظهرنا، فإنهم مع كفرهم شاهدون بأصل النبوات والتوحيد واليوم الآخر والجنة والنار، وفي كتبهم من البشارات بالنبى ﷺ وذكر نعوته وصفاته وصفات أمته ما هو من آيات نبوته وبراهين رسالته، وما يشهد بصدق الأول والآخر.

وهذه الحكمة تختص بأهل الكتاب دون عبدة الأوثان، فبقاؤهم من أقوى الحجج على منكر النبوات والمعاد والتوحيد، وقد قال تعالى لمنكري ذلك: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، ذكر هذا عقب قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، يعني: سلوا أهل الكتاب هل أرسلنا قبل محمد رجالاً يوحى إليهم، أم كان محمد بدعاً من الرسل لم يتقدمه رسول؛ حتى يكون إرساله أمراً منكراً لم يطرق العالم رسول قبله؟ ^(٢).

٣- لا يتعين في دفع الجزية من أهل الذمة ذهب ولا فضة، بل يجوز أخذها مما تيسر من أموالهم من ثياب وسلاح يعملونه، وحديد ونحاس ومواش وحبوب وعروض وغير ذلك.

وقد دل على ذلك سنة رسول الله ﷺ وعمل خلفائه الراشدين ^(٣).

(١) أحكام التعامل مع غير المسلمين، صالح بن فوزان الفوزان (ص: ١٣).

(٢) أحكام أهل الذمة لابن القيم (٩٦/١).

(٣) المصدر السابق. (١٢٩/١).

عن معاذ بن جبل قال: بَعَثَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْيَمَنِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَخُذَ مِنْ كُلِّ ثَلَاثِينَ بَقْرَةً تَبِيعًا أَوْ تَبِيعَةً وَمِنْ كُلِّ أَرْبَعِينَ مُسِنَّةً وَمِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا أَوْ عِدْلَهُ مَعَاْفِرٌ^(١).

يعني الجزية، أراد بالحالم: من بلغ الحلم وجرى عليه حكم الرجال، سواء احتلم أو لم يحتلم^(٢).

٤- لا يحل تكليف أهل الذمة ما لا يقدرُونَ عليه، ولا تعذيبهم لأداء الجزية ولا حبسهم وضربهم^(٣).

عن هشام بن حكيم بن حزام، أنه مَرَّ بِالشَّامِ عَلَى أَنَاسٍ، وَقَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ، وَصُبَّ عَلَى رُءُوسِهِمُ الزَّيْتُ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قِيلَ: يُعَذَّبُونَ فِي الْخُرَاجِ. فَقَالَ: أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذَّبُونَ فِي الدُّنْيَا»^(٤).

وفي رواية عند الإمام أحمد: قَالَ: وَأَمِيرُ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ عَلَى فَلَسْطِينَ قَالَ: فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَحَدَّثَهُ، فَخَلَّى سَبِيلَهُمْ^(٥).

٥- من محاسن الإسلام في تعامله مع المخالفين من غير المسلمين: مشروعية عيادة أهل الكتاب^(٦).

عن أنس رضي الله عنه قال: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمَ». فَتَنَظَرَ

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٦)، وقال: هذا حديث حسن. وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٠٨).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (١/٤٣٤).

(٣) أحكام أهل الذمة، لابن القيم (١/١٣٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦١٣).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٥٦٥).

(٦) أحكام أهل الذمة، لابن القيم (١/٤٢٧).

إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطْعَ أَبَا الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

٦- تهنئة أهل الذمة بزوجة أو ولد أو قدوم غائب أو عافية أو سلامة من مكروه ونحو ذلك.

والكلام فيها كالكلام في التعزية والعيادة ولا فرق بينهما، ولكن ليحذر الوقوع فيما يقع فيه الجهال من الألفاظ التي تدل على رضاه بدينه، كما يقول أحدهم: متعك الله بدينك، أو يقول له: أعزك الله أو أكرمك إلا أن يقول: أكرمك الله بالإسلام وأعزك به ونحو ذلك، فهذا في التهنة بالأمور المشتركة^(٢).

٧- من محاسن الإسلام في تعامله مع المخالفين من غير المسلمين.

أنه أباح ذبائح أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٥]، ولم يختلف السلف أن المراد بذلك الذبائح^(٣).

٨- جواز معاملتهم، ورهنهم السلاح وعلى الرهن في الحضر، واستئجارهم، والبيع والشراء منهم^(٤).

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشْتَرَى مِنْ يَهُودِيٍّ طَعَامًا إِلَى أَجَلٍ وَرَهْنَهُ دِرْعَهُ^(٥).

٩- العدل مع المستأمنين وعدم التعدي عليهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم،

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٦).

(٢) أحكام أهل الذمة، لابن القيم (٤٤١ / ١).

(٣) أحكام أهل الذمة، لابن القيم (٥٠٢ / ١).

(٤) أحكام أهل الذمة، لابن القيم (٥٥١ / ١).

(٥) أخرجه البخاري (٢٥٠٩).

بل ولا يجوز ترويعهم وإخافتهم، ويعاملون بالعدل والقسط^(١).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(٢).

١٠- إن من سماحة هذا الدين أنه أذن لغير أهله من أهل الذمة والمعاهدين والمستأمنين أن يعيشوا في أرضه؛ مع بقائهم على دينهم وعدم إكراههم على الإسلام.

ولم يخل عصر من العصور من وجود غير المسلمين داخل المجتمع المسلم، يعيشون بين المسلمين، وينعمون بالأمن على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ولا يعني بقاؤهم داخل المجتمع المسلم بأي وجه من الوجوه الرضا بما هم عليه من الكفر بالله، فإن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر، وإنما أذن الشارع لهم بالبقاء لحكم عديدة منها:

أن يخالطوا المسلمين، ويتأملوا في محاسن الإسلام وشرائعه وينظروا فيها، فيجدوها مؤسسة على ما تحتمله العقول وتقبله، فيدعوهم ذلك إلى الإسلام، ويرغبهم فيه، فيدخلوا فيه، وهذا أحب إلى الله من قتلهم^(٣).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِيَلًا قَبْلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ»، فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ تَقْتُلَنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَنْعَمَ تَنْعَمَ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ

(١) إرهاب المستأمنين وموقف الإسلام منه، بدر بن ناصر البدر، موقع وزارة الأوقاف السعودية (ص: ٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٦).

(٣) إرهاب المستأمنين وموقف الإسلام منه، بدر بن ناصر البدر (ص: ٣٠).

فَسَلِّ مِنْهُ مَا شِئْتَ. حَتَّى كَانَ الْغَدُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ».

قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ إِنْ تَنْعَمَ تَنْعِمَ عَلَيَّ شَاكِرٌ. فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ» فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ. فَقَالَ «أَطْلُقُوا ثُمَامَةَ». فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاعْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ، وَإِنْ خَيْلَكَ أَخَذْتَنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: صَبَوْتُ، قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةٌ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ (١).

١١- الإحسان إلى المحتاج من أهل الكتاب والمستأمنين غير الحربين بالصدقة والصلة (٢)، خاصة إذا كانوا ذوي قربي

قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ، صِلِي أُمَّكَ» (٣).

(١) أخرجه البخاري (٤٣٧٢).

(٢) إرهاب المستأمنين وموقف الإسلام منه، بدر بن ناصر البدر (ص: ٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٢٠).

١٢ - شرع رد السلام على أهل الذمة، ويقتصر فيه على قول: «عليكم»^(١).

عن عائشة قالت: اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ». قَالَتْ: أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا. قَالَ «قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ»^(٢).

١٣ - من محاسن الإسلام أن الكافر إذا كان كفره قاصراً على نفسه، لا يدعو إلى الكفر، ولا يدعو إلى الشرك.

فهذا يترك، كالشيخ الكبير الهرم، والصبي الصغير، والمرأة، والرهبان في صوامعهم، فهؤلاء اختاروا لأنفسهم الكفر، ولا ينشرون الكفر في الأرض، ولا يدعون إلى الكفر، فهؤلاء لا يتعرض لهم؛ لأنهم لا يخشى منهم نشر الكفر والضلال، وإنما شرهم قاصر على أنفسهم، ونحن لا نملك هدايتهم^(٣). قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

١٤ - قتال الكفار الحريين ليس طمعاً في أموالهم أو في بلادهم، أو طمعاً في سفك الدماء.

بل الجهاد في الإسلام لأغراض شريفة وحكم بالغة؛ منها: كف شرهم عن الإسلام والمسلمين، فهو ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو مقصود لمصالح عظيمة^(٤)، قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

(١) أحكام أهل الذمة، لابن القيم (١/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (٥٧٨٤).

(٣) أحكام التعامل مع غير المسلمين، صالح بن فوزان الفوزان (ص: ١٦).

(٤) أحكام التعامل مع غير المسلمين، صالح بن فوزان الفوزان (ص: ١٧).

١٥- أوجب الله الدية والكفارة في قتل الكافر إذا كان معاهداً.

فمن قتل كافراً معاهداً خطأ كمن قتل مؤمناً خطأ عليه الدية والكفارة؛ وذلك لأجل العهد الذي بيننا وبينهم^(١)، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢].

١٦- إذا كان الوالدان كافرين فإن على الولد أن يبرهما بالمعروف؛ لكن لا يتبعهما على دين الكفر، ولا يسقط برهما بسبب كفرهما^(٢).

قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَالَهُ فِي غَامٍ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾^(٣) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤، ١٥].

١٧- لو حصلت خصومة بين كافر ومسلم عند القاضي في بلاد المسلمين، فالقاضي لا يحيف مع المسلم إذا كان الحق مع الكافر، فإنه يحكم له على المسلم^(٤).

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

١٨- لا جزية على صبي ولا امرأة ولا مجنون، هذا مذهب الأئمة الأربعة وأتباعهم^(٥).

قال ابن المنذر: ولا أعلم عن غيرهم خلافهم^(٥).

(١) أحكام التعامل مع غير المسلمين، صالح بن فوزان الفوزان (١٩ ص: ١٩).

(٢) أحكام التعامل مع غير المسلمين، صالح بن فوزان الفوزان (ص: ٢٠).

(٣) أحكام التعامل مع غير المسلمين، صالح بن فوزان الفوزان (ص: ٢١).

(٤) أحكام أهل الذمة، لابن القيم (١/ ١٤٩).

(٥) الإجماع، لابن المنذر (ص: ٧٧).

١٩- جعل الله تعالى الإحسان إلى أسرى الحرب من صفات الأبرار^(١).

قاله -جلّ وعلا- قال في مدح الأبرار: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

٢٠- من محاسن الإسلام؛ أن غير المسلمين من أهل الذمة أو المستأمنين الذميين يعيشون في بلاد المسلمين لهم الحق في مزاوله عبادتهم.

لكن فيما بينهم سرّاً، ولا يظهرون ذلك بين الناس، وإنما يعملونه في بيوتهم والأمكنة الخاصة بهم.^(٢)

٢١- من محاسن الإسلام في تعامله مع المخالفين: أنه عند محاربة الكفار الحربيين راعى حقوق الإنسان في قتالهم، فلا يمثل بهم ولا يقتل الأطفال ولا النساء.

عَنْ بُرَيْدِ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْ صَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَلَا تَغْلُوا وَلَا تَغْدُرُوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ فَأَيُّهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلِّهِمُ الْجَزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ»^(٣).

(١) أحكام التعامل مع غير المسلمين، صالح بن فوزان الفوزان (ص: ٢٣).

(٢) أحكام التعامل مع غير المسلمين، صالح بن فوزان الفوزان (ص: ٢٤).

(٣) أخرجه مسلم (٤٦١٩).

الباب الثاني عشر:

بيان محاسن الإسلام في كتابات غير المسلمين

وقف كثير من المستشرقين وعلماء الغرب موقف العداء من الإسلام وشريعته منذ العصور الوسطى، فلم يدّخروا وسعاً في تشويه صورة الإسلام، ولو كان بالكذب أو إثارة الشبهات حوله بعيدين عن الموضوعية في الطرح والنقد، ومع ذلك فلم يخل بعض ما كتبوه من عبارة ثناء هنا أو هناك على بعض محاسن الإسلام محاولة منهم لإظهار الموضوعية في النقد، وليس من المستغرب أن يقف كثير من عقلائهم بعد مضي هذا العصر على محاسن الإسلام وأن يبدو إعجابهم به، وأن ينبروا مدافعين عنه رادين كيد المتعصبين والكارهين والكاذبين، وإنك لو قلبتَ ناظريك في كثير من كتابات المنصفين، بل وغير المنصفين لوجدت مظاهر لهذه الموضوعية في الطرح، وإن بقي أصحابها على معتقداتهم، وفي هذا الباب نسوق بعض شهادات علماء الغرب ومؤرخيهم وأدبائهم غير مدعين أننا قصدنا الاستيعاب، وإنما هي نماذج لهذه الشهادات:

١ جورج برنارد شو^(١).

كتب جورج برنارد شو مقالاً بعنوان: الإسلام الحقيقي سنة: ١٩٣٦ م وصف فيه النبي ﷺ ورسالته وما يعتقده، فقال: قرأت حياة رسول الإسلام جيداً مرات ومرات لم أجد فيها إلا الخلق كما يجب أن يكون.

وأصبحت أضع محمداً في مصاف -بل على قمم المصاف- من الرجال

(١) جورج برنارد شو: كاتب مسرحي وأديب إيرلندي، بريطاني، ولد عام: ١٨٥٦ م توفي بكندا سنة: ١٩٥٠ م، وهو من أكثر مفكري الحضارة الغربية صراحة ووضوحاً، حصل على جائزة نوبل للأدب سنة: ١٩٢٥ م، كان أحد مفكري الاشتراكية الفابية.

الذين يجب أن يتبعوا.

ولما قرأت دين محمد أحسست أنه دين عظيم.

وأعتقد أن هذا الدين العظيم سيسود العالم ذات يوم قريب مقبل إذا ما وجد الفرصة لانتشاره ليتعرف العالم عليه بلا تعصب.

وأتمنى أن يتعرف العالم على الإسلام بلا تعصب، فالتعصب يعمي العقول والقلوب والأبصار عن الحقيقة.

والإسلام هو الحقيقة التي جاء بها محمد ليجمع العالم على الحب والسلام والخير والعدل^(١).

ورد على الصورة التي رسمها الكهنة لتشويه صورة الإسلام في عقول غير المسلمين فقال: ولقد قرأت ما كتبه كهنة العصور الوسطى فوجدتهم قد أظهروا الإسلام بشكل لا يمت للحقيقة بصلة، استنتجت أنهم خائفون على مناصبهم. وحينما عرفت الحقيقة في الإسلام أدركت أن محمداً رسول الإسلام؛ إنما جاء برسالة لا شبيه لها، وما كان يريد من وراء ذلك منصباً أو جاهاً^(٢).

وتنبأ بدخول الإسلام لأوروبا حتى يغلب عليها، فقال: أرجو أن تفهموا نبوءتي فالإسلام قادم ليصبح العالم به في حب وسلام.

فقد دخل وما يزال يدخل الإسلام كثرة هائلة من بني قومي، ومن الأقوام الأخرى حتى يمكن أن يقال: إن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ^(٣).

(١) الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء (ص: ١٣ - ١٤).

(٢) الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء (ص: ١٤).

(٣) الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء (ص: ١٥).

٢ توماس كارليل^(١).

يقول توماس كارليل في كتابه: الأبطال ردًا على تكذيب بعض علماء الغرب للدين الإسلامي: لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب، وأن محمدًا خداع مزور، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة.

فإن الرسالة التي أداها الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا لنحو مائتي مليون من الناس

أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفاتئة الحصر والإحصار أكذوبة وخدعة؟!

أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدًا ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول فما الناس إلا بله ومجانين^(٢).

ويقول كارليل في كتاب الأبطال: لم ينتشر دين محمد بسيف كما يقول الكارهون ذلك.

فالحق ينشر نفسه بلا سيف، بدليل أن الإسلام جاء على الملل الكاذبة، والنحل الباطلة فابتلعها، وحق له أن يبتلعها، لأنه حقيقة، والحقيقة دائماً تجد طريقها إلى القلوب والعقول التي آمنت به وصدقت، فما كان من كل الموجودات

(١) توماس كارليل: كاتب ومؤرخ ومصلح اجتماعي إنجليزي، ولد عام: ١٧٩٥م، وتوفي سنة: ١٨٨١م، من أشهر أعماله كتاب: الأبطال وعبادة البطولة في التاريخ، صدر سنة: ١٨٤١م، أفرد في هذا الكتاب فصلاً كاملاً عن النبي ﷺ تكلم فيه عن نواحي العظمة في حياته، ورد كثيراً من الافتراءات عنه وعن رسالته.

وقد ترجم هذا الفصل إلى العربية تحت عنوان الأبطال: د. علي أدهم، والأديب محمد السباعي.

(٢) الأبطال لتوماس كارليل، ترجمة: محمد السباعي (ص: ٥٤).

الباطلة إلا الاختراق.

ولا شك أن القرآن ذلك الأسلوب الذي لم يستطع أبلغ بلغاء عصر محمد، أن يأتي بمثله، أنزله الله عليه؛ ليكون شريعة الوجود، إلى يوم البعث، ولأن محمداً رسول الله كان صادق الفؤاد، فقد استقبل منه المسلمون، وغير المسلمين القرآن الكريم بإيمان قوي، حيث إن محمداً كان يقوله لهم عن إيمان به، فكان يدخل قلوبهم وعقولهم، ولذا كان المسلمون يشتدون إيماناً بالإسلام، وكان غير المسلمين يدخلون في دين الله أفواجاً فلا يوجد أصدق من حديث صادق، يخرج من قلب صادق؛ ليستقر بكل الصدق في عقول وقلوب المستقبليين له ^(١).

٣ السير ولیم مویر ^(٢).

قال في كتابه: سيرة النبي والتاريخ الإسلامي: ولقد صنع محمد أمة من قوم كانوا من قسوة القلب والبداوة بحيث يصعب التأثير فيهم، فأصبحوا كما أراد الإسلام ونبي الإسلام، وراحوا يملؤون العالم بعد ذلك علماً ونوراً، بعد أن كانوا من الجهالة الجاهلية، بحيث لم يسمع بهم أحد، فأصبحوا بمحمد والإسلام قوة راسخة، سيكون لها المستقبل الوافر لو تضافرت وعملت بكتاب الله، الذي أنزله الله على محمد، ليعث به قومًا يديرون العالم بشريعته ذات يوم، لو تمسكوا به وعرفوا قيمته ^(٣).

(١) الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء (ص: ٢١).

(٢) كاتب ومفكر اسكتلندي ولد عام: ١٨١٩م، وتوفي سنة: ١٩٠٥ م.

درس الحقوق في جامعتي: ادنبرة، جلاسجو، بدأت دراسته عن الإسلام في الهند سنة: ١٨٣٧م وله من العمر: ٢٧ سنة، تولى منصب رئيس جامعة أدنبره، من أهم كتبه كتاب: سيرة النبي والتاريخ الإسلامي، في أربعة أجزاء، لهذه الدراسة أكثر من طبعة فأول طبعة لها سنة: ١٨٥٦م، ثم طبعت سنة: ١٨٦١م، وطبعت سنة: ١٨٩٥م. وتعتبر هذه الدراسة مرجعاً معتمداً في الجامعات الإنجليزية، والهندية، لما تتميز به من شمول، ودقة معلومات عن المصادر الإسلامية. ومن أبحاثه أيضاً: حوليات الخلافة، مصادر الإسلام، دولة المماليك في مصر.

(٣) ينظر: الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء (ص: ٢٣).

٤ - السير هاملتون جيب^(١).

يقول في كتابه (ها هو الإسلام): الإسلام دينٌ جاء ليقدّم للأذهان الصورة الحقيقية للإنسان، وكيفية تعامله مع أخيه الإنسان.

الإسلام جاء ليكمل الرسالات جميعاً، فلم نجده أنكر على الأديان التي سبقتها: كتبها، ولا تعاليمها، ولا أنبياءها.

والإسلام مجسد في خلق النبي الأعظم، الأكمل، محمد بن عبد الله الذي رباه الخالق، الذي أنزل عليه الرسالة الخاتمة.

ولا شك أن الإسلام هو محمد، ولا شك أيضاً أن محمداً هو الإسلام.

وأظن، بل أعتقد وأرى رؤي العين والقلب والعقل؛ أن الإسلام في طريقه ليحتل مكانته اللائقة في هذا العالم، وأرجو أن أحيأ لأرى هذا اليوم.

وقال أيضاً: لم أجد في الإسلام عنصرية واضحة أو مستترة.

الحكم بالإسلام: ضرورة لإنقاذ العالم من شر من يحكمون.

أنصف الإسلام وتفوق على نفسه باحترامه الأديان الأخرى.

لم أجد ديناً يحترم الإنسان سوى الإسلام.

(١) أستاذ اللغة العربية في جامعات: لندن، وأكسفورد، هارفرد، التقى بكبار الأدباء العرب وقرأ لهم، وتناقش معهم في رحلاته إلى الدول العربية.

ولد في الإسكندرية سنة: ١٨٩٥م، درس اللغة العربية في أدنبرة، وأتقنها، وكان يتحدث بها كأحد أبنائها، مات سنة: ١٩٧١م، قدم العديد من الدراسات والأبحاث عن الإسلام وتعتبر كتبه من أهم المراجع الإنجليزية، وله إنتاج عن الإسلام غزير فمن كتبه: «ها هو الإسلام» الذي قدمه عام: ١٩٣٢م، «الآثار الإسلامية» ١٩٤٤م، و«الاتجاهات الحديثة والغرب» وترجم إلى العربية ١٩٦٣م، «وكيان التفكير الديني الإسلامي» ١٩٦١م، «والحكومة والإسلام في صدر العصر الجاهلي الأول» ١٩٦٢م، «ودائرة المعارف الإسلامية الموجزة» ١٩٦٣م، «والثقافة الإسلامية والخلافة في الإسلام»، «وتفسير التاريخ الإسلامي»، «وأثر الثقافة الإسلامية في أوروبا»، «والدين والسياسة في النصرانية والإسلام» ١٩٦٥م، «وتراث الإسلام» في جزأين ١٩٧٠م.

حقيقة استطاع نبي الإسلام بأخلاقه العظيمة أن يرسى بالإسلام قواعد الإنسانية.

جعل الإسلام الجزيرة العربية قاعدة راسخة إلى الأبد.

الإسلام شمس لن تغيب، وإن غُيِّتْ.

حقيقة الإسلام نابعة من القرآن الكريم الذي ما ترك شيئاً في الدنيا إلا ولمسه وقدمه وقدم له، وأعطى أيضاً مفاتيح المستقبل لأصحاب العقول.

احترم الإسلام عقلي، إذن هو جدير بالاحترام والتقدير^(١).

٥- السير ريتشارد بيرتون^(٢).

يقول في كتابه: الحج إلى مكة والمدينة:

لم أسمع بعبادة يقف فيها الكل أمام الله في خشوع بهذا الزي الموحد المتفق عليه.

مناسك موحدة، كل شيء موحد، ولم أعجب؟! فعبادة الواحد ضرورة لأن يوحدوا كل شيء فيهم، حتى ما يرددونه، وهذه سمة انفرد بها الإسلام، وتميز على غيره من الأديان.

فالتوحيد قوة، واعتراف الموحد بالقوة إيمان مطلق.

(١) ينظر: الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء (ص: ٢٦).

(٢) مستشرق وكاتب ومفكر بريطاني، ولد في هرتفوردشير سنة: ١٨٢٠م، درس اللغة العربية بجامعة أوكسفورد، درس الهندوستانية في لندن، التحق بالجيش البريطاني في الهند، واستكمل دراسته للغة على يد أساتذة اللغة العربية مسلمين من الهند، توفي سنة: ١٩٠٥م.

له دراسات كثيرة عن الإسلام والمنطقة العربية خاصة الجزيرة العربية، زار مصر سنة: ١٨٥٣م وأحبها، وزار مدينة السويس وأسلم وخرج للحج من السويس في هذا العام، ثم عاد منه وكتب كتاباً بعنوان: «الحج إلى مكة والمدينة»، في جزأين يعتبره الغربيون من أهم المراجع المعرفة بالحج، وبمكة والمدينة.

عين قنصلاً لبلاده في البرازيل بعد اكتشافه بحيرة تنجانيقا سنة: ١٨٥٨م.

وعين قنصلاً في تريستا سنة: ١٨٧١م، واستقر بها ومات فيها عن عمر يناهز ٦٩ سنة.

والعجب أن يتحول أجداد هؤلاء المؤمنين، من صلابة القلب والعقل إلى السهولة والتسامح والحب والعلم والمعرفة، وذلك بفضل الرسول الكريم الذي كان مقنعاً لدرجة أن البعض اتهمه مما هو بريء منه.

فرسالته القرآنية معجزة بكل المقاييس حتى إن بلغاء العرب آنذاك فشلوا فشلاً ذريعاً في تقليده كما فشلنا نحن في ترجمته، حيث إن به قوة وأسراراً لا يمكن للقلب غير المؤمن الوصول إليها، إلا بقوة الإيمان التي لا تأتي إلا نتيجة للتوحيد المطلق^(١).

٦- إدوارد هنري بالمر^(٢).

قال: كان وسيظل الإسلام نوراً يسطع على البشرية ما دام هناك أناس يؤمنون به، ويحفظون كتابه، ويسرون على تعاليم رسوله.

ويقول: سيأتي يوم يصبح فيه الإسلام دين العالم، فهذا هو الدين الذي لم

(١) ينظر: الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء (ص: ٢٨).

(٢) مستشرق إنجليزي مؤلف ومترجم وكاتب، من عملاء الاستعمار، ولد في كمبريدج سنة: ١٨٤٠م، درس اليونانية واللاتينية، ودرس أصول العربية والفارسية والأوردية، عين أستاذاً للغة العربية في جامعة كمبريدج ١٨٧١م جاء في هيئة لاستكشاف فلسطين وهدفها استكشاف سيناء ومسيرة بني إسرائيل، وتألفت هذه البعثة من: سير هنري جيمس والكابتن تشارلز ولسون، وبالمر، وكان عمل بالمر الحصول على أسماء الأماكن من البدو وعني بتسجيل عادات البدو وأعرافهم. له العديد من المؤلفات منها: «فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية» في مكتبة الثالوث، وكتاب بالاشتراك مع وولتر بيزنت بعنوان: «أورشليم مدينة هيرود وصلاح الدين». وكان له رحلات استكشافية مشبوهة في سيناء اكتشفها البدو فقتلوه سنة: ١٨٨٢م في الجنوب الغربي من سيناء في وادي سدر، وألقوه في واد سحيق، وبعد احتلال مصر سنة: ١٨٨٢م استطاع السير تشارلز وارن الحصول على رفات بالمر ورفاقه، ودفنت في كاتدرائية سانت بول بلندن في كنيسة القديس: بولس.

ينظر: الكتاب الأزرق برقم: (٣٤٩٤ ص ١٥٩) الذي أصدرته الحكومة البريطانية سنة: ١٨٨٣م. وموسوعة المستشرقين، للدكتور: عبد الرحمن بديوي، ومعجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة: ٢٠٠٢م (١/ ٣٢٢).

يترك كتابه الكريم شاردة ولا واردة إلا جاء بها.

ويقول: لست أدري كيف يغيب عن ذهن الإنسان أن بالعالم دين هو الإسلام، وأن كتابه هو القرآن، وأن نبيه هو خاتم الأنبياء محمدًا ^(١).

٧- توماس واكر أرنولد ^(٢).

يقول في كتاب الدعوة: وإن الذي دفع المسلمين إلى أن يحملوا رسالة الإسلام معهم إلى شعوب البلاد التي دخلوها، وجعلهم ينشدون لدينهم بحق مكانًا ما نسميه أديان الرسالة لهي حماسة من ذلك النوع من أجل صدق عقيدتهم.

وليس موضوع هذا الكتاب إلا صورة من تاريخ ظهور هذه الحماسة في تبليغ الدعوة ودوافعها وألوان نشاطها.

وإن انتشار مائتي مليون في العالم في الوقت الحاضر ^(٣)، لهو الشاهد على ما كان لهذه الحماسة من أثر خلال الثلاثة عشر قرنًا التي تلت ظهور الإسلام ^(٤).

ويقول: الإسلام دين عالمي، وفي القرآن آيات كثيرة توجه الأنظار إلى منشأ الشعور القومي، وتحث أهل بلاد العرب على إدراك ما منحوه من فضل بنزول الوحي الإلهي بلغتهم، وعلى لسان واحد منهم، ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

(١) ينظر: الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء (ص: ٣٢).

(٢) مستشرق وكاتب ومفكر إنجليزي، ولد في سنة: ١٨٦٤م، درس في كمبريدج وعمل أستاذًا في جامعة عليكرة بالهند، ثم في جامعة لاهور، وحاضر في الجامعة المصرية عن التاريخ الإسلامي سنة: ١٩٣٠م، تقلد كرسي الأستاذية بقسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن، إلى أن أصبح عميدًا لهذه المدرسة.

مات سنة: ١٩٣٠م عن عمر: ٦٦ سنة، ومن مؤلفاته: «الدعوة إلى الإسلام»، بحث في «تاريخ نشر العقيدة الإسلامية»، «الفنون الإسلامية»، «دراسة مقارنة بين الهندوكية والإسلام في الهند».

(٣) هذا في وقت تأليف هذا الكتاب، أما عدد المسلمين الآن فقد قارب ٢ مليار مسلم، فهم يشكلون ربع سكان العالم تقريبًا في سنة: ٢٠٢٠م - ١٤٤١ هـ.

(٤) الدعوة إلى الإسلام، لتوماس أرنولد (ص: ٢٥).

[الزخرف: ٣].

ثم يقول: ولم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب، بل إن للعالم أجمع نصيب فيها.

ولما لم يكن هناك غير إله واحد، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة^(١).

ويقول: وعندما خربت جموع المغول بغداد ١٢٥٨ م، وأغرقوا في الدماء مجد الدولة العباسية.

وطرد فرديناند ملك قشتالة، وليون المسلمين من قرطبة ١٢٣٦ م، ودفعت غرناطة آخر معاقل الإسلام في إسبانيا الجزية للملك المسيحي؛ كان الإسلام قد استقرت دعائمه وتوطدت أركانه في جزيرة سومطرة، وكان على أهبة أن يحرز تقدمًا ناجحًا في الجزائر الواقعة في بلاد الملايو.

وفي هذه اللحظات التي تطرق فيها الضعف السياسي إلى قوة الإسلام؛ نرى أنه قد حقق بعض غزواته الروحية الرائعة، فهناك حالتان تاريخيتان كبيرتان وطبيعتان فيهما الكفار من المتبريرين بأقدامهم أعناق أتباع الرسول: أولئك هم الأتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر، والمغول في القرن الثالث عشر، وفي كلتا هاتين الحالتين نرى الفاتحين يعتنقون ديانة المغلوبين^(٢).

(١) الدعوة إلى الإسلام، لتوماس أرنولد (ص: ٤٨).

(٢) الدعوة إلى الإسلام، لتوماس أرنولد (ص: ٢٦).

٨- رينولد ألين نيكولسن.^(١)

خصص نيكولسن فصلاً في كتابه الكبير «الأدب العربي» بعنوان: محمد والقرآن، ومما جاء فيه: إنه لم يكد محمد يظهر حتى زالت الغشاوة الكثيفة ورفع ذلك الستار السميك عن ذلك العصر الذي تقدمه، ثم نجد أنفسنا وقد وقفنا فجأة على حقائق تقاليد تاريخية صحيحة ثابتة، ولكي نفهم أسباب ذلك التغير المفاجيء لابد من ذكر المصادر الرئيسة التي نستمد منها ما نأخذه من معلومات عن حياة النبي وتعاليمه.

فالقرآن هو ولا شك أول المصادر، وهو السجل الإنساني الكامل البنيان الذي نستمد منه جميع أطوار شخصية محمد، وعن العلاقات بينه في حياته الخاصة وبين حياته العامة، وهكذا نجد بين أيدينا هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإنه لكتاب عزيز، أي: فريد في بابه نستخرج منه مادة من الحقائق لا نزاع فيها، كما نعرف منه الأصول والتطورات التي مر بها الإسلام في أول عهده، وإنها لميزة لهذا الدين لا نجدها لغيره من الأديان الأخرى؛ كالבודהية والمسيحية واليهودية وغيرها.^(٢)

ويقول: القرآن الكريم دستور إلهي فعلاً فهو يقنن الحياة بعيداً عن حياة الغاب، إلى حياة التحضر الكامل، واستمعوا إلى القرآن واعملوا به، تجدوه يخطط للحياة بأسلوب راقٍ، وتناول حضاري قلما تجده في الكتب التي سبقت،

(١) كاتب ومستشرق ومفكر إنجليزي تخصص في التصوف والأدب الفارسي، ولد سنة: ١٨٦٨م، وتوفي سنة: ١٩٤٥م عن عمر ٧٧ سنة. تخرج من ترينتي كمبريدج، تقلد مناصب كثيرة منها: تقلده لمنصب أستاذ كرسي اللغة العربية بجامعة كمبريدج، ومن مؤلفاته: «سيرة غير معروفة للنبي محمد»، «والتصوف الإسلامي»، «وتاريخ العرب الأدبي» ١٩٠٧م، «وقصائد مختارة من ديوان شمس تبريز»، وكتاب: في «التصوف الإسلامي وتاريخه» وقد ترجمه إلى العربية: أبو العلا عفيفي.

(٢) مقال: محمد والقرآن في رأي المستشرق افنجليزي نيكلسون - مجلة الأزهر مج ٣٢ - ربيع الأول وربيع الثاني ١٣٨٠ هـ ص: ٣٥٢-٣٥٦.

لذا استحق القرآن أن يكرم؛ لأنه بالفعل الكتاب الإلهي الذي يجب على البشر جميعاً العمل به لأنه جاء لخيرهم^(١).

ويقول: لم يحظ دين من الأديان بمثل ما حظي به الإسلام من الأعداء والأصدقاء، ولكل منهما طريق بكل تأكيد يقدم الإسلام على الساحة التي يجب أن يتواجد عليها.

فالعالم يجب أن يعرف الإسلام حتى وإن كان ذلك عن طريق أعدائه، فذلك مكسب كبير، وفرصة للدعاة الغيورين على الإسلام، ليقوموا بأداء واجبهم تجاه هذا الدين الذي جاء ليس للعرب فحسب، بل للعالم أجمع^(٢).

٩- جان جاك رسو^(٣).

قال في كتابه العقد الاجتماعي: رسالة محمد قوية، أعطته قوة، راح ينشر بها

(١) ينظر: الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء (ص: ٣٧).

(٢) ينظر: الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء (ص: ٣٧).

(٣) كاتب وأديب وفيلسوف وعالم نبات، وموسيقي فرنسي ولد في سويسرا في جنيف سنة: ١٧١٢م، وأقام في باريس بعد العاشرة من عمره، وعاش متنقلاً في أيامه الأخيرة حتى مات سنة: ١٧٧٨م نتيجة نزيف دماغي. يعد رسو من أهم كتاب عصر التنوير، وهي فترة في تاريخ أوروبا تمتد من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر، وقد ساعدت فلسفة العقد الاجتماعي له في قيام الثورة الفرنسية.

من مؤلفاته: كتاب «العقد الاجتماعي» وهو من أهم الكتب في الفكر السياسي والاجتماعي في أوروبا، وله كتاب اسمه: «عقيدة قس من جبال السافو» ترجمه: عبد الله العروي إلى العربية تحت اسم: دين الفطرة

وكتب كتاب إميل أو في التربية سنة: ١٧٦٢م في خمسة أجزاء، وقد أغضب بكتابه هذا طوائف البروتستانت والكاثوليك لأنه رفض فيه القول بالخطيئة الأصلية، وصدر في حقه أمر توقيف حتى هرب إلى سويسرا.

والجزء الرابع من هذا الكتاب اسمه: دين الفطرة كتبه سنة: ١٧٦٢م، وقد طبعه مستقلاً ومنفصلاً عن كتابه: إميل قبل أن يضمه إليه. وله كتاب «الاعترافات» كتبه ١٧٦٩م وقد نشر بعد موته وهو من كتب السيرة الذاتية.

الرسالة فوجدت صدى غير عادي.

وكلما أراد محمد أن يجعل بني قومه في قوته كان يتلو عليهم القرآن، فيجعلهم يطلبون منه أن يأمرهم بما أراد الله، لنشر الإسلام في ربوع الأرض، وكانوا بالقرآن ينتصرون ويفتحون الممالك، ولو أن محمدًا عاش مدة أطول مما عاش لأصبح الإسلام ورسوله سادة العالم ^(١).

١٠ - فولتير فرانكو ماريا أدويت ^(٢).

يقول في كتاب القاموس الفلسفي: أقولها لكم مرة أخرى أيها الجهلة الحمقى، الذين أقنعهم جهلة آخرون: إن الدين المحمدي سهواني، إن هذا ليس صحيحًا، لقد خدعوكم في هذه المسألة كما في مسائل متعددة أخرى.

أيها القساوسة والأخبار لو فرض عليكم أن تمتنعوا عن الطعام والشراب من الرابعة صباحًا إلى العاشرة مساء من شهر يوليو، عندنا يصادف الصيام هذا الشهر، ولو منع عنكم القمار بكل أنواعه، ولو حرمت عليكم الخمر، ولو كتب عليكم الحج في الصحراء المحرقة، ولو أمرتم بإخراج اثنين ونصف من دخلكم للفقراء، ولو اقتصرتم على أربع زوجات، أنتم الذين ألغتم التمتع بثمانية عشرة

(١) ينظر: الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء (ص: ٤٦).

(٢) فيلسوف ومفكر وروائي وكاتب مسرحي فرنسي، تميز نشاطه الفكري بالعداء الشديد للدين والمناداة بالحياة العلمانية المدنية ورفض هيمنة الكنيسة على الحياة.

ألف مسرحية باسم: «التعصب» أو باسم: «النبي» سنة: ١٧٣٦م من خمسة فصول، وعرضت سنة: ١٧٤٢م تهاجم الإسلام، وتصور الرسول على أنه سفاك للدماء غادر لا خلق له.

لكن يقول المؤرخ الفرنسي بيير ميليز: إن فولتير لم يكن يريد الإسلام ولكن المسيحية، وكان الهدف إدانة اضطهاد الكنيسة الكاثوليكية وجرائمها المرتكبة باسم المسيح عن طريق الإسقاط النفسي، وقد صرح فولتير بهذا في مقال كتبه سنة: ١٧٤٢م، وقد غير فولتير موقفه هذا وألف كتابًا سنة: ١٧٥١م بعنوان: «أخلاق الأمم وروحها» دافع فيه عن النبي ﷺ باعتباره مفكرًا سياسيًا عميق الفكر ومؤسس دين عقلاني حكيم. وألف كتابًا بعنوان: «بحث في العادات» سنة: ١٧٦٥م، مدح في الإسلام وأشاد بمحمد ﷺ، والقرآن.

امرأة، هل يمكن بكل صدق أن تقولوا عن هذا الدين إنه سهواني؟!

ويقول في مقال كتبه سنة: ١٧٧٢م عن الإسلام: إن دينه حكيم ومستقيم وعفيف وإنساني.

حكيم لأنه لم يقع في ربط الإله بأي فكرة غيبية، ولأنه لا يحوي ألغازاً، ومستقيم لأنه يحرم القمار والخمر والكحول ويأمر بالصلاة خمس مرات في اليوم، وعفيف لأنه يحدد الزوجات بحد أقصى هو أربعة وقبله كان لا حد له كما يشهد على ذلك بلاط أمراء الشرق، ودينه إنساني لأنه يأمر بالزكاة قبل الحج إلى مكة نفسها، وأضف لذلك صفة الصدق والتحمل للآخر.

وقال في الدين والشريعة: السنن التي أتى بها محمد كانت كلها ما عدا تعدد الزوجات قاهرة للنفس، ومهذبة لها.

فجمال تلك الشريعة، وبساطة قواعدها الأصلية جذبا للدين المحمدي أمماً كثيرة أسلمت.

إنه دين يستحق الإعجاب والإجلال والتقدير، ذلك لأنه جعل زنوج أواسط أفريقيا يشعرون بآدميتهم، وجعل سكان جزر البحر الهندي يعرفون أن هناك قوة غير التي اعتادوا عليها.

وهذه الديانة الإسلام: أي الاستسلام لإرادة الخالق.

ليس صحيحاً أن الإسلام استولى قهراً وبالسيف على أكثر من نصف الكرة الأرضية، هذه شائعات تحاول أن تقلل من قيمة الإسلام ورسوله.

لكن أكبر سلاح استخدمه المسلمون لبث الدعوة؛ هو اتصافهم بالخلق العالية، وليقرأ كل من يريد أن يعرف ذلك، وليعرف كل شيء عن الإسلام وغزواته وفتوحاته ليتأكد بنفسه، ويعرف أيضاً ما أراده مؤرخو كراهية الإسلام لم يكره ولن يكره ديناً سبقه.

والدليل على أن الإسلام لم ينتشر بسيف؛ أن كثيرين اعتنقوا الإسلام وهم بعيدون عن بلاده وغزواته وفتوحاته، فكيف إذن وصلهم بالسيف الذي يدعيه مؤرخونا وخطباؤنا.

نريد أن نمحو هذه الأخطاء التي ارتكز عليها الكارهون للإسلام وللتاريخ. فالذين يكذبون على التاريخ لا يستحقون أدنى احترام، ومما لا شك فيه أن الإسلام له كتاب ما حُرِّفَ لأنه ليس في قدرة بشر أن يأتي بحرف فيه، فالذي جاء بالوحي لا يمكن لإنسان أن يقلده ^(١).

١١- إميل درمنغم ^(٢).

قال في كتابه الشخصية المحمدية السيرة والمسيرة عن حجة الوداع: خرج النبي من المدينة إلى مكة حاجًّا في السنة العاشرة من الهجرة، وخرج معه تسعون ألف حاج جاؤوا من جميع أنحاء جزيرة العرب، وتجلت بهذه الرحلة الباهرة ما وصلت إليه من العظمة والسؤدد رسالة ذلك النبي الذي نهكه اضطهاد عشر سنين وحروب عشر سنين أخرى بلا انقطاع، وهو النبي الذي جعل من مختلف القبائل المتقاتلة على الدوام أمة واحدة.

ورافق النبي في تلك الرحلة نساؤه التسع في هودج، وكانت ألوف الجمال مزينة برايات وقلائد من الزهور تسير مع الموكب ليضحى بها.

فلما بلغ النبي ذا الحليفة بات ومن معه فيها وطاف بنسائه التسع، ثم طيبته عائشة صباحًا بعد الغسل، ثم أحرم فبدا مكشوف الرأس والذراعين والساقين

(١) ينظر: الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء (ص: ٤٨).

(٢) مستشرق فرنسي ولد سنة: ١٨٩٢م، ومات سنة: ١٩٧١م كان أمين أرشيف بالوغراف، ورئيس أرشيف الوفد العام في الجزائر من سنة: ١٩٤٢م إلى سنة: ١٩٦٢م، له كتاب عن النبي ﷺ بعنوان: «الشخصية المحمدية السيرة والمسيرة»، ترجمه إلى العربية: عادل زعيتر، الطبعة الثانية منه سنة: ١٩٤٩م.

عاطلاً من عباءة ومن قميص ومن سروال، مشدود الوسط بقطعة من نسيج، ثم ركب ناقته ونادى ملبياً:

ليك اللهم ليك، ليك لا شريك لك ليك، إن الحمد والنعمة والشكر لك ليك، لا شريك لك ليك.

فردد المسلمون ذلك وانطلقوا مع النبي إلى البيت الحرام وهم يلبون، وكان لمحمد أن ينظر لحوادث هذه السنة الأخيرة، وأن يتمثل ما أتمه من الأعمال.

ومحمد الذي خلق للقيادة لم يطالب معاصريه بغير ما يفرض عليهم من الطاعة لرجل يبلغهم رسالات الله، فمحمد يكون بذلك واسطة بين رب العالمين والناس أجمعين، وكان رؤساء القبائل المتخاصمة يقولون: إن محمداً يتغي حكم العرب، وكان أبو سفيان يقول متحسراً: ذهب زمن النبوة وجاء زمن القوة.

لكن النبي كان ينهى عن عده ملكاً، وهو وإن انتحل بعض مظاهر الملك؛ كان ذا زهد وتقشف أيضاً، فيقول رداً لخطأ الناس: لست بملك، وإنما أنا ابن امرأة من قريش.

أجل نال النبي السلطان والثراء والمجد، وكان عنده ذهب وخيل وجمال ونساء وأولاد وكل ما في هذه الحياة الدنيا من الزينة، ولكنه لم يغتر بشيء من هذا كله فكان يفضل إسلام رجل على أعظم الغنائم ^(١).

والعرب لو تركت حبالهم على غواربهم؛ ما قاموا بغير التخريب لا ريب، لكنهم جلبوا معهم الإسلام والمروءة حين قبضوا على زمام المدينيات القديمة التي كانت تنحل فازدهرت بفضلهم ^(٢).

وقال معللاً انتصار العرب بالإسلام: كتب الفوز للعرب لأنهم كانوا أهلاً

(١) الشخصية المحمدية السيرة والمسيرة، لأميل درمنغم، ترجمة عادل زعير (ص: ٣٢٩).

(٢) الشخصية المحمدية السيرة والمسيرة، لأميل درمنغم، ترجمة عادل زعير (ص: ٣٣٦).

للفوز، وتم النصر للإسلام؛ لأنه عنوان رسالة كان الشرق كثير الاحتياج إليها. واحتمل المسلمون ضروب العذاب قبل الهجرة ولم يستطيعوا لها ردًا، فلما كانت الهجرة، وكان ما أبدوه من المقاومة، وكان لهم من النصر ما علمت؛ اتخذوا التسامح الواسع دستورًا لهم.

أجل لم يبق للمشركون مقام في دار الإسلام، ولكنه أصبح لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فيها حق الحماية وحرية العبادة وما إليها وصاروا من المجتمع إذا ما أعطوا الجزية، وما أكثر ما في القرآن والحديث من الأمر بالتسامح، وهنا نذكر أن عمر بن الخطاب لما دخل القدس فاتحًا أمر بألا يمس النصارى بسوء، وبأن تترك لهم كنائسهم، وشمل البطرك بكل رعاية، ورفض الصلاة في الكنيسة خوفًا من أن يتخذ المسلمون ذلك ذريعة لتحويلها إلى مسجد.

وهنا نقول: ما أعظم الفرق بين دخول المسلمين القدس فاتحين، ودخول الصليبيين الذين ضربوا رقاب المسلمين فسار فرسانهم في نهر من الدماء التي كانت من الغزارة ما بلغت ركبهم ولجم خيولهم، وعقدوا النية على قتل المسلمين الذين تفلتوا من المذبحة الأولى^(١).

١٢ - كليمان هيار^(٢).

قال كليمان هيار في دعوة الرسول إلى الإسلام: ولو أن المسلمين، اتخذوا رسولهم قدوة في نشر الدعوة لأصبح العالم مسلمًا.

(١) الشخصية المحمدية السيرة والمسيرة، لأميل درمنغم، ترجمة عادل زعير (ص: ٣٣٧).

(٢) كليمان هيار. بحاث فرنسي ولد في باريس سنة: ١٨٥٢م، ومات سنة: ١٩٢٧م، تخرج من مدرسة اللغات الشرقية، ثم مدرسة الدراسات العليا، عمل أستاذًا للغة العربية في باريس، ومترجمًا في القنصلية الفرنسية في دمشق، أجاد اللغة العربية قراءة وكتابة حتى أصبح عضوًا بالمجمع العربي في دمشق.

من مؤلفاته: «تاريخ بغداد الحديث»، و«تاريخ آداب اللغة العربية»، و«تاريخ العرب»، وترجم كتاب: «الخلقة» للبلخي.

لكن المسلمين انصرفوا مرة ثانية عن الإسلام، وهذه مؤامرة عليهم لم يدركوها في حينها، وأتمنى أن يدركوها ذات يوم.

ولو أدركوا أن العثرات والعقبات الموضوعة في طريق الإسلام ما هي إلا استعمار، لعادوا إلى سيرة نبيهم فيتخذونه ويتخذونها حياتهم؛ ليظل الإسلام. وأعتقد أن الإسلام قادم بكل الحب الذي يعتنق به الأوروبيون، سيصبح المسلمون القادمون إلى دين الله من أوروبا دعاة حقيقيين للإسلام.

سيأتي اليوم الذي يصبح فيه الإسلام هو المحرك الحقيقي لهذا العالم، فقط على المسلمين ودعاتهم تعريف العالم به بشيء واحد فقط بالسلوك. فالسلوك الإسلامي هو الذي نشر الإسلام في ربوع الأرض.

الحج فرصة إسلامية يجب استغلالها لتدارس أحوال المسلمين، والوقوف على المهدئات المميتة للدعوة الإسلامية^(١).

١٣ غوستاف لوبون^(٢).

قال غوستاف لوبون: القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرءآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم.

فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام من النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم؛ فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من ساداتهم

(١) ينظر: الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء (ص: ٥٨).

(٢) غوستاف لوبون: طبيب ومؤرخ فرنسي، وهو أحد أشهر فلاسفة الغرب، ولد في مقاطعة نوجيه لوروترو بفرنسا، ولد سنة: ١٨٤١م ومات سنة: ١٩٣١م في ولاية مارنيه لأكوكيه، عمل في أوروبا وآسيا وشمال إفريقيا، كتب في علم الآثار والانثروبولوجيا، وعني بالحضارة الشرقية. من أشهر مؤلفاته: حضارة العرب، وحضارة الهند، وباريس ١٨٨٤، والحضارة المصرية، وحضارة العرب في الأندلس، وسر تقدم الأمم، وروح الاجتماع، وتطور المواد، وسيكولوجية الجماهير، والجماهير في العقل الجمعي.

السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل.
وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عرب
الأندلس فضّل هؤلاء القتل والطرده عن آخرهم على ترك الإسلام.
ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها.

وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول،
وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل، ما زاد
معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها ^(١)، ويزيد عدد مسلمي الهند يوماً
فيوماً مع أن الإنكليز الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر ^(٢)، يجهزون البعثات
التبشيرية ويرسلونها تباعاً إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى ^(٣).

وقال: فقد أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقريّة السياسيّة ما ندر
وجوده في دعاة الديانات الجديدة؛ أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسراً؛ فعاملوا
كما رأينا أهل سورية، ومصر، وإسبانية، وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين
لهم قوانينهم ومعتقداتهم غير فاضحين عليهم سوى جزية زهيدة في الغالب إذا ما
قيست بما كانوا يدفعونه سابقاً في مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحق أن الأمم لم تعرف

(١) هذا في وقت كتابة كتاب: حضارة العرب سنة: ١٨٨٤م، وكان هذا في شبه القارة الهندية
التي كانت تضم: الهند، وباكستان، وبنجلاديش، ونيبال، وبوتان، وسيريلانكا، وميانمار.
أما الآن فعدد المسلمين في الهند وحدها حسب الإحصاءات الرسمية يبلغ: ٢٥٥ مليون مسلم،
وحسب تقديرات المؤسسات والجمعيات الإسلامية يبلغ ما بين: ٤٠٠ - ٥٠٠ مليون مسلم، ويبلغ
عدد المسلمين في باكستان: ١٩٠ مليون مسلم، وفي بنجلاديش: ١٤٥ مليون مسلم، هذا عدا دول
شبه القارة الهندية الأخرى، هذا بحسب إحصائية سنة: ٢٠١٩م.

(٢) في وقت تأليف الكتاب سنة: ١٨٨٤م، وقد احتلت بريطانيا شبه القارة الهندية: الهند،
وباكستان، وبنجلاديش، ونيبال، وبوتان، وسيريلانكا. . . منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى
منتصف القرن العشرين، فقد بدأ سنة: ١٨٥٨م، وانتهى سنة: ١٩٤٧م، وكان أول الاحتلال دخول
بريطانيا للهند على هيئة شركات تجارية لنقل البضائع، وذلك قبل احتلالها بعقود طويلة.

(٣) حضارة العرب، لغوستاف لبون، ترجمة عادل زعيتر (ص: ١٣٤ - ١٣٥).

فاتحين متسامحين مثل العرب ولا دينًا مثل دينهم.

وما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم؛ كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم، ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات، وبقيت قائمة حتى بعد توارى سلطان العرب عن مسرح العالم. ^(١)

وقال غوستاف لوبون -مبينًا محاسن تشريع الإسلام في حق المرأة-: والإسلام قد رفع حال المرأة الاجتماعي وشأنها رفعا عظيما بدلا من خفضها، خلافا للمزاعم المكررة على غير هدى، والقرآن قد منح المرأة حقوقا إرثية أحسن مما في أكثر قوانيننا الأوروبية، كما أثبت ذلك حينما بحثت في حقوق الإرث عند العرب. أجل أباح القرآن الطلاق كما أباحت قوانين أوربة التي قالت به، ولكنه اشترط أن يكون: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٤١]

وأحسن طريق لإدراك تأثير الإسلام في أحوال النساء في الشرق هو أن نبحث في حالهن قبل القرآن وبعده ^(٢).

ثم قال: والإسلام إذن لا النصرانية هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه، وذلك خلافا للاعتقاد الشائع.

وإذا نظرت إلى سنيورات نصارى الدور الأول من القرون الوسطى رأيتهن لم يحملوا شيئا من الحرمة للنساء، وإذا تصفحت كتب تاريخ ذلك الزمن وجدت ما يزيل كل شك في هذا الأمر، وعلمت أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظا نحو النساء قبل أن يتعلم النصارى من العرب أمر معاملتهن بالحسنى، ومن ذلك ما جاء في تاريخ غاران لولو هيران عن معاملة النساء في عصر شارلمان، وعن معاملة شارلمان نفسه لهن، كما يأتي: انقض القيصر شارلمان على أخته في أثناء جدال،

(١) حضارة العرب، لغوستاف لبون، ترجمة عادل زعيتير (ص: ٦٣٠ - ٦٣١).

(٢) حضارة العرب، لغوستاف لبون، ترجمة عادل زعيتير (ص: ٤١٤ - ٤١٥).

وأخذ بشعرها وضربها ضرباً مبرحاً، وكسر بقفازه الحديدي ثلاثاً من أسنانها. فلو حدث مثل هذا الجدل مع سائق عربية -في الوقت الحاضر- لبدا هذا السائق أرق منه لا ريب^(١).

ثم قال: وهنا نستطيع أن نكرر إذن قولنا: إن الإسلام الذي رفع المرأة كثيراً بعيد من خفضها، ولم نكن أول من دافع عن هذا الرأي فقد سبقنا إلى مثله: كوسان دوبرسفال، ثم مسيو بارتلمي.

ولم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة، بل نضيف إلى هذا؛ أنه أول دين فعل ذلك، ويسهل إثبات هذا بياننا أن جميع الأديان والأمم التي جاءت قبل العرب أساءت إلى المرأة وهذا ما أوضحناه في كتابنا الأخير^(٢).

١٤ - لويس سيديو^(٣).

قال في خلاصة تاريخ العرب في وصف خلق النبي ﷺ ومقاصده: كان أمياً، أرجح الناس عقلاً، وأفضلهم رأياً، دائم البشر، مطيل الصمت، لين الجانب، سهل الخلق، يكثر الذكر ويقل اللغو، يستوي عنده في الحق القريب

(١) حضارة العرب، لغوستاف لبون، ترجمة عادل زعيتير (ص: ٤١٦).

(٢) حضارة العرب، لغوستاف لبون، ترجمة: عادل زعيتير (ص: ٤١٨).

(٣) لويس بيير أوجين سيديو مستشرق ومؤرخ فرنسي ولد بباريس سنة: ١٨٠٨ م، هو الابن الثاني لجان جاك أمانويل سيديو، تعلم على يد والده اللغات الشرقية، اهتم بعلم الفلك عند العرب، ومات سنة: ١٨٧٥ م.

من أشهر مؤلفاته كتاب: Histoire des ARABES ألفه باللغة الفرنسية، وترجمه إلى اللغة العربية: محمد أحمد عبد الرازق، بإشراف: علي مبارك باشا، وسماه: «خلاصة تاريخ العرب»، والكتاب: عبارة عن سبع مقالات، المقالة الأولى: في جغرافية جزيرة العرب، المقالة الثاني: في الكلام على النبي وما تضمنه القرآن، المقالة الثالثة: في الأمة العربية الفاتحة، المقالة الرابعة: في قوة شوكة العرب وانحطاطها بالمشرق، المقالة الخامسة: في رفعة وانحطاط سلطنة العرب، المقالة السادسة: في وصف التمدن العربي في الزمان الأول، المقالة السابعة: في أحوال العرب في هذا الزمان.

والبعيد والقوي والضعيف، يحب المساكين، ولا يحقر فقيراً لفقره، ولا يهاب ملكاً لملكه، يؤلف أصحابه ولا ينافرهم، ويصابر من جالسه أو قاومه أو صافحه، ولا يحيد عنه حتى يكون الرجل هو المنصرف، يتفقد أصحابه، يجلس على الأرض، ويخصف النعل، ويرقع الثوب... (١)

وقال في موضع آخر: وأما أخلاقه وأفعاله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فكانت غاية في الكمال منها: عفوهُ عن ألد أعدائه بعد فتح مكة، وحلمه في الأخذ بحقوق الحرب من القبائل، وأسفه من القضاء على بعض، وعدم استعانتِه بما له من عظيم السطوة والسلطة على إجابة داعي القسوة.

ولذا كان يحاول بالحث العود بمن خرج عن الحد من أصحابه إلى حدود الاعتدال، ومنها: إباؤه إشارة عمر عليه بقتل الأسرى بعد واقعة بدر، وصفحه عمن قتل عمه حمزة، وقوله: اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد، حين أخذ بثأر قريبه من بني جذيمة.

ومما يدل على جرأته؛ قتاله بعزم وقوة في غزوة بدر (٢) بعد أن شج وجهه، وكسرت رباعيته، وخوضه عباب الحرب قبل الصحابة في واقعة حنين، وحضه لهم على القتال حتى كانت الغلبة لهم.

وأما زهده **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فلا يختلف فيه اثنان؛ فإنه لم يتحول عن شطف العيش مع ما طالت يده من الأموال والخيرات، رأى الملوك ولم يتخذ أبهتهم مع ما بلغ من السلطان الذي لا يبارى والشوكة التي لا ترام.

وكان نافذ الأمر والنهي، بشوشاً حسن المعاملة مع الرفيع والوضيع حليماً

(١) خلاصة تاريخ العرب، للويس سيديو (ص: ٥٢). ترجمة: محمد أحمد عبد الرازق، صححه لغة: عبد الرحمن السيد الشرقاوي، مراجعة: على مبارك، الناشر: مؤسسة هنداوي سي أي سي- المملكة المتحدة.

(٢) خلاصة تاريخ العرب، للويس سيديو، ترجمة: محمد أحمد عبد الرازق (ص: ٦٨).

لاسيما عند السؤال^(١).

وقد ذكر بعض محاسن التشريع الإسلامي في العبادات، قال: في أن ما كتب من الفرائض لا يخلو عن حكمة؛ منها الوضوء؛ فإن أصول تدبير الصحة تستدعيه، وفيه فوائد لا يحيط بها إلا ذو دراية بقانون الصحة، وهو فرضُ بنص قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ إلى ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]^(٢).

وقد ذكر بعض محاسن الإسلام في تحريم بعض المحرمات، وضرب مثلاً بتحريم الخمر والقمار، قال: في حكمة تحريم بعض المحرمات كالخمر، فإن تحريمها لضررها:

أما البدني؛ فلأنها: ترعى الأحشاء، وتنخر العظام، وتفتت الكبد، وتحرق الجوف.
وأما المالي: فلأن من البين أن المنكب عليها لا ينتهي عنها ولو أصبح خالي الوطاب لا يملك مضغة، فإذا يموت أهله وبنوه في مسغبة، لو أن لهم ما أنفقه في سبيل الهوى ليلة لكفاهم شهراً.

وكذلك الميسر: فإنه لا ينقص عن الخمر في الضرر المالي.

وهما محرمان بنص قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]^(٣).

وقال في وصف القرآن: هو كتاب مجيد واجب التعظيم، لا يمسه إلا المطهرون، أبان ما لله على عباده، وما لهم عليه من الحقوق، ضرب فيه من كل مثل وما فرط فيه من شيء، جمع فأوعى: فضائل، ورذائل، وحقائق، وطاعات، ومعاصي.

نزل على رسول الله منجماً حسب الوقائع: فكان رابطة بين قبائل العرب،

(١) خلاصة تاريخ العرب، للويس سيديو، ترجمة: محمد أحمد عبد الرازق (ص: ٦٧ - ٦٨).

(٢) خلاصة تاريخ العرب، للويس سيديو، ترجمة: محمد أحمد عبد الرازق (ص: ٦٩).

(٣) خلاصة تاريخ العرب، للويس سيديو، ترجمة: محمد أحمد عبد الرازق (ص: ٦٩).

مؤسسًا للوحدة الدينية ^(١).

ثم سرد بعض ما ورد في القرآن من أخبار، وأحكام، وآداب ثم قال: ما قصدنا بإيراد ما سلف إلا أن يكون لهذه الشريعة دليل على؛ قدس غايتها، وحرمة مذهبها، ورفعة حكمتها، وموافقتها لما أنزل من قبل على الرسل الكرام، فبذلك يهتدي البصير إلى فضل القرآن المجيد، إذ جمع فأوعى ما أوتيته النبيون قبل من البينات ^(٢).

وقد ذكر بعض ما ورد في القرآن من النهي عن الرذائل التي اعتادتها الجاهلية، ورد على من رمى الإسلام بالوحشية من كتّاب الغرب، قال: مما يدل على عمى بصائر هؤلاء وصمم آذانهم عن الحق، وزلل أقدامهم عن سبيل الصدق والرشد؛ ما في القرآن من الآيات الناسخة لما ألفتة العرب من القبائح، كالأخذ بالثأر والتظاهر بالعدوان مثل ما كان ولا يزال شائعًا في أوروبا من التبارز والتفاخر، وكقتل البنات درءًا للعار، أو حذرًا من الفقر.

فمما يدل على نسخ الأول؛ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤] إلى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] إلى آخر سورة النحل.

وعلى نسخ الثاني؛ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَشِيرٌ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١] ^(٣).

(١) خلاصة تاريخ العرب، للويس سيديو، ترجمة: محمد أحمد عبد الرازق (ص: ٦٣).

(٢) خلاصة تاريخ العرب، للويس سيديو، ترجمة: محمد أحمد عبد الرازق (ص: ٦٧).

(٣) خلاصة تاريخ العرب، للويس سيديو، ترجمة: محمد أحمد عبد الرازق (ص: ٦٧).

١٥ مايكل هارت^(١).

قال مايكل هارت في وصف القرآن الكريم وأثره وحفظه من التحريف: والقرآن الكريم نزل على الرسول ﷺ كاملاً، وسجلت آياته وهو ما يزال حيّاً، وكان تسجيلاً في منتهى الدقة، فلم يتغير منه حرف واحد.

وليس في المسيحية شيء مثل ذلك، فلا يوجد كتاب واحد محكم دقيق لتعاليم المسيحية يشبه القرآن الكريم، وكان أثر القرآن الكريم على الناس بالغ العمق^(٢).

قال مايكل هارت في وصف أثر النبي ﷺ الديني والديني على العالم: كان أثر محمد ﷺ على الإسلام أكثر وأعمق من الأثر الذي تركه عيسى عليه السلام على الديانة المسيحية.

فعلى المستوى الديني كان أثر محمد ﷺ قوياً في تاريخ البشرية، وكذلك كان عيسى عليه السلام.

وكان الرسول ﷺ على خلاف عيسى عليه السلام؛ رجلاً دنيوياً؛ فكان زوجاً

(١) مايكل هارت. عالم فيزيائي فلكي يهودي الأصل أمريكي، ولد سنة: ١٩٣٢م، اشتغل في مركز الأبحاث في المركز القومي لأبحاث طبقات الجو، حصل على الدكتوراه في الفلك من جامعة برينستون سنة: ١٩٧٢م، عرف نفسه بأنه انفصالي عرقي مناصر للبيض، واقترح سنة: ١٩٩٦م تقسيم الولايات المتحدة إلى أربع دول: دولة للبيض، ودولة للسود، ودولة للهسبان السمر، ودولة للأعراق المختلطة.

من مؤلفاته: كتاب: «المائة تقويم لأعظم الناس أثراً في التاريخ»، كتبه سنة: ١٩٧٨م في ستمائة صفحة، اختار فيه مائة شخصية هي أعظم الشخصيات تأثيراً في التاريخ الإنساني، وقد عد النبي ﷺ أعظم شخصية مؤثرة في الجانب الإنساني وفي المرتبة الثانية الفيزيائي نيوتن، وفي المرتبة الثالثة: نبي الله عيسى، بينما جعل نبي الله موسى في المرتبة السادسة عشر، وقد ذكر سبب جعله النبي ﷺ في المرتبة الأولى بقوله: فهذا الامتزاج بين الدين والدنيا هو الذي جعلني أومن بأن محمداً ﷺ هو أعظم الشخصيات أثراً في تاريخ الإنسانية كلها. ينظر: الخالدون مائة (ص: ١٩).

(٢) الخالدون مائة أعظمهم محمد، لمايكل هارت، ترجمة: أنيس منصور (ص: ١٧).

وأباً، وكان يحارب ويصاب في الحروب ويمرض.. ثم مات.

ولما كان الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قوة جبارة، فيمكن أن يقال أيضاً إنه أعظم زعيم سياسي عرفه التاريخ^(١).

وقال في ذكر سبب تقديم ترتيب النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في المرتبة الأولى على رأس قائمة المائة الأعظم أثراً في التاريخ البشرية: ربما بدا شيئاً غريباً حقاً أن يكون الرسول محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في رأس هذه القائمة رغم أن عدد المسيحيين ضعف عدد المسلمين.

وربما بدا غريباً أن يكون الرسول **عَلَيْهِ السَّلَام** هو رقم واحد في هذه القائمة بينما عيسى هو رقم: ٣، وموسى رقم: ١٦.

ولكن لذلك أسباب: من بينها أن الرسول محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قد كان دوره أخطر وأعظم في نشر الإسلام وتدعيمه وإرساء قواعد شريعته أكثر مما كان لعيسى **عَلَيْهِ السَّلَام** في الديانة المسيحية، وعلى الرغم من أن عيسى **عَلَيْهِ السَّلَام** هو المسؤول عن مبادئ الأخلاق المسيحية، غير أن القديس بولس هو الذي أرسى أصول الشريعة المسيحية، وهو أيضاً المسؤول عن كتابة الكثير مما جاء في كتاب العهد الجديد.

أما الرسول محمد فهو المسؤول الأول والأوحد عن إرساء قواعد الإسلام، وأصول الشريعة والسلوك الاجتماعي والأخلاقي، وأصول المعاملات بين الناس في حياتهم الدينية والدنيوية.

كما أن القرآن الكريم قد نزل عليه وحده، وفي القرآن وجد المسلمون كل ما يحتاجون إليه في دنياهم وآخرتهم^(٢).

(١) الخالدون مائة أعظمهم محمد، لمايكل هارت، ترجمة: أنيس منصور (ص: ١٧ - ١٨).

(٢) المصدر السابق. (ص: ١٧).

المصادر

- ❁ أبحاث حول الحدود في الإسلام. المؤلف: جمعة على الخولي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ربيع الآخر - رمضان ١٤٠١هـ.
- ❁ الأبطال. لتوماس كارليل، عربيه: محمد السباعي، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى لصاحبها: مصطفى محمد، الطبعة الثالثة ١٩٣٠م.
- ❁ الإتقان في علوم القرآن. المؤلف: السيوطي، المحقق: مركز الدراسات القرآنية، دار النشر: مجمع الملك فهد، السعودية، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: ٧.
- ❁ الإجماع. المؤلف: ابن المنذر، المحقق: فؤاد عبد المنعم أحمد، الناشر: دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ١.
- ❁ أحكام التعامل مع غير المسلمين. المؤلف: صالح بن فوزان الفوزان، الناشر: دار كنوز إشبيليا للنشر، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- ❁ الأحكام السلطانية. المؤلف: أبو يعلى الفراء، صححه: محمد حامد الفقهي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ١.
- ❁ الأحكام السلطانية. المؤلف: أبو الحسن الماوردي، الناشر: دار الحديث - القاهرة، عدد الأجزاء: ١.
- ❁ أحكام أهل الذمة. المؤلف: ابن قيم الجوزية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، سنة

النشر: ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

✽ الإحكام في أصول الأحكام. المؤلف: ابن حزم الظاهري، المحقق: الشيخ

أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، عدد الأجزاء: ٨.

✽ الأحوال الشخصية في الشريعة الإسلامية والقوانين التي تحكمها في

مصر. المؤلف: محمد علي محجوب، الناشر: المعهد العالي للدراسات

الإسلامية، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: ١.

✽ إحياء علوم الدين. المؤلف: أبو حامد الغزالي، الناشر: دار المعرفة -

بيروت، عدد الأجزاء: ٤.

✽ أخبار القضاة. المؤلف: محمد بن خلف الضبي الملقب بوكيع، المحقق:

عبد العزيز مصطفى المراغي، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى مصر،

الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م، عدد الأجزاء: ٣.

✽ الاختلاف في أصول الدين أسبابه وأحكامه. المؤلف:

إبراهيم بن محمد بن عبد الله البريكان، الطبعة الأولى، سنة النشر:

١٤٢٢ هـ، عدد الأجزاء: ١.

✽ اختيارات المرداوي الفقهية في القضاء. المؤلف: صالح الجلعود، الناشر:

جامعة محمد بن سعود الإسلامية، سنة النشر: ١٤٢٣ هـ.

✽ الأخلاق الإسلامية وأسسها. المؤلف: عبد الرحمن حبنكة الميداني،

الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة الخامسة، سنة النشر: ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

✽ الأخلاق الإسلامية والمحاسبة. المؤلف: د. محمد عبد الحليم عمر،

الناشر: مركز صالح عبد الله كامل للاقتصاد الإسلامي، القاهرة، سنة

النشر: ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ الأخلاق الإسلامية وأهميتها للحياة الإنسانية. المؤلف: أحمد الخاني،

الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٣٣ هـ، ٢٠١٢ م.

✽ آداب الحوار وقواعد الاختلاف. المؤلف: عمر بن عبد الله كامل، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي حول موقف الإسلام من الإرهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سنة النشر: ٢٠ إبريل ٢٠٠٤ م

✽ الآداب الشرعية والمنح المرعية. المؤلف: ابن مفلح الحنبلي، المحقق: شعيب الأرنؤوط وعمر القيام، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة النشر: ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ٣.

✽ أدب الحوار وآفاقه في السنة المطهرة. المؤلف: عبد السلام حمدان اللوح، بحث مقدم إلى مؤتمر الإرشاد والوعظ السنوي بوزارة الأوقاف والشؤون الدينية بفلسطين، سنة النشر: ١٣٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

✽ أدب القاضي. المؤلف: ابن أبي الدم، تحقيق: محي هلال السرحان، الناشر: وزارة الأوقاف - العراق، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد. المؤلف: صالح بن فوزان، الناشر: دار ابن الجوزي، الطبعة الرابعة، سنة النشر: ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ الإرشاد إلى معرفة الأحكام. المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ أركان الإيمان. المؤلف: علي بن نايف الشحود، الطبعة الرابعة، سنة النشر: ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ إرهاب المستأمنين وموقف الإسلام منه. المؤلف: بدر بن ناصر البدر،

الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، سنة النشر: ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ إرواء الغليل. المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، إشراف: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، عدد الأجزاء: ٩.

✽ الاستذكار. المؤلف: ابن عبد البر، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: دار قتيبة - دمشق، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، عدد الأجزاء: ٢٧.

✽ أسرار الصلاة. المؤلف: ابن القيم الجوزية، تحقيق: عدنان بن صفاخان، مجمع الفقه الإسلامي بجددة، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: ١.

✽ أسرار ترتيب القرآن. المؤلف: السيوطي، الناشر: دار الاعتصام، القاهرة، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، عدد الأجزاء: ١.

✽ الأسرة في مقاصد الشريعة قراءة في قضايا الزواج والطلاق في أمريكا. المؤلف: زينب طه العلواني، الناشر: المعهد العالي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٣٢ هـ - ٢٠١٢ م.

✽ أسس الحكم في الشريعة الإسلامية. المؤلف: صالح بن غانم السدلان، الناشر: دار بلنسية.

✽ الأسس والمبادئ الإسلامية للعلاقات الدولية. المؤلف: د. علي القره داغي، بحث مقدم للدورة السادسة عشر للمجلس، جمادى الآخرة، سنة النشر: ١٤٢٧ هـ - يوليو ٢٠٠٦ م.

✽ الأسفار المقدسة. المؤلف: علي عبد الواحد وافي، الناشر: مكتبة نهضة مصر بالفجالة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤، عدد الأجزاء: ١.

❁ الإسلام أصوله ومبادئه. محمد بن عبد الله السحيم، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف السعودية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢١هـ، عدد الأجزاء: ١.

❁ الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه. المؤلف: عبد القادر عودة، الناشر: الاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية، الطبعة الخامسة، سنة النشر: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، عدد الأجزاء: ١.

❁ الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم. المؤلف: الندوة العالمية للشباب، الناشر: المؤتمر الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي، سنة النشر: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، عدد الأجزاء: ٢.

❁ الإسلام وأوضاعنا السياسية. المؤلف: عبد القادر عودة، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، سنة النشر: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، عدد الأجزاء: ١.

❁ الإسلام وحقوق الإنسان. المؤلف: محمد قطب، الناشر: دار الفكر العربي، سنة النشر: ١٩٨٤م، عدد الأجزاء: ١.

❁ الإسلام وحقوق الإنسان في ضوء المتغيرات العالمية. المؤلف: محمد كمال الدين بن محمد العزيز جعيط، الناشر: مجلة مجمع الفقه الإسلامي، عدد الأجزاء: ١.

❁ الإسلام ورسوله ﷺ في فكر هؤلاء. المؤلف: أحمد حامد، الناشر: دار الشعب، القاهرة، سنة النشر: ١٩٩١م، عدد الأجزاء: ١.

❁ الإسلام وضرورات الحياة. المؤلف: د/ عبد الله قادري الأهدل، الناشر: دار المجتمع، السعودية، الطبعة الثالثة، سنة النشر: ١٤٢٢هـ، عدد الأجزاء: ١.

❁ الأشباه والنظائر. المؤلف: ابن نجيم المصري، تحقيق: زكريا عميرات،

الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ١.

✽ الأشباه والنظائر. المؤلف: جلال الدين السيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، عدد الأجزاء: ١.

✽ الإشراف على مذاهب العلماء. المؤلف: ابن المنذر، المحقق: صغير أحمد، الناشر: مكتبة مكة الثقافية، الإمارات، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ١٠.

✽ أصول الدعوة. المؤلف: عبد الكريم زيدان، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة التاسعة، سنة النشر: ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ١.

✽ أصول الدعوة وطرقها. المؤلف: أعضاء لجنة مناهج جامعة المدينة العالمية، الناشر: جامعة المدينة العالمية.

✽ أصول العقائد الدينية. المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، سنة النشر: ربيع الأول ١٤٢٤هـ.

✽ أصول نظام الحكم في الإسلام مع بيان التطبيق في المملكة العربية السعودية. المؤلف: فؤاد عبد المنعم أحمد، بحث منشور على موقع الألوكة.

✽ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. المؤلف: محمد الأمين الشنقيطي، الناشر: دار الفكر بيروت - لبنان، سنة النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

✽ أضواء على الثقافة الإسلامية. المؤلف: نادية شريف العمري، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة التاسعة، سنة النشر: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ١.

✽ الاعتصام. المؤلف: الشاطبي الغرناطي، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي،

الناشر: دار ابن عفان، السعودية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ إعلام الموقعين عن رب العالمين. المؤلف: ابن القيم الجوزية، تحقيق: مشهور آل سلمان، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٣ هـ، عدد الأجزاء: ٧.

✽ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان «خطبة حجة الوداع». المؤلف: أحمد بن عبد الرحمن القاضي، الناشر: موقع العقيدة والحياة، على الشبكة العنكبوتية.

✽ - الأعياد وأثرها على المسلمين. المؤلف: سليمان السحيمي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السعودية، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

✽ إغاثة اللفان من مصاديد الشيطان. المؤلف: ابن القيم الجوزية، المحقق: محمد حامد الفقهي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، عدد الأجزاء: ٢.

✽ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم. المؤلف: ابن تيمية، المحقق: ناصر العقل، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة السابعة، سنة النشر: ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ الإقناع في مسائل الإجماع. المؤلف: ابن القطان الفاسي، المحقق: حسن فوزي، الناشر: الفاروق الحديثة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة. المؤلف: عبد الله الدميحي، رسالة ماجستير من جامعة أم القرى بمكة، كلية الشريعة والدراسات

الإسلامية، سنة النشر: ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

✽ أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء. المؤلف: قاسم الرومي، المحقق: يحيى مراد، الناشر: الكتب العلمية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ - الأوسط من السنن والإجماع والاختلاف. المؤلف: ابن المنذر النيسابوري، راجعه وعلق عليه: أحمد بن سليمان أيوب، الناشر: دار الفلاح، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، عدد الأجزاء: ١٥.

✽ الإيمان بالقضاء والقدر. المؤلف: محمد بن إبراهيم الحمد، الناشر: دار ابن خزيمة، الرياض، الطبعة الرابعة، سنة النشر: ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ - البحر المحيط في أصول الفقه. المؤلف: بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد تامر، الناشر: دار الكتب العلمية، سنة النشر: ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ٤.

✽ بداية المجتهد. المؤلف: ابن رشد الحفيد، الناشر: مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الرابعة، سنة النشر: ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

✽ بدائع السلك في طبائع الملك. المؤلف: شمس الدين الغرناطي ابن الأزرق، المحقق: علي سامي النشار، الناشر: وزارة الإعلام العراق، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: ١.

✽ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع. المؤلف: أبو بكر الكاساني، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، عدد الأجزاء: ٧.

✽ بدائع الفوائد. المؤلف: ابن قيم الجوزية، المحقق: علي بن محمد

العمران، دار النشر: دار عالم الفوائد، عدد الأجزاء: ٥.

✽ البدر المنير. المؤلف: ابن الملقن، المحقق: أحمد بن سليمان أيوب،
وياسر بن كمال وغيرهم، الناشر: الهجرة للنشر والتوزيع السعودية،
الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ٩.

✽ البرهان في تناسب سور القرآن. المؤلف: أحمد الغرناطي، تحقيق: محمد
شعباني، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، سنة النشر:
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، عدد الأجزاء: ١.

✽ البرهان في علوم القرآن. المؤلف: الزركشي، الناشر: دار المعرفة - بيروت،
سنة النشر: ١٣٩١هـ، عدد الأجزاء: ٤.

✽ البرهان والدليل على كفر من حكم بغير التنزيل. المؤلف: أحمد بن ناصر،
الناشر: دار مطابع الشهري، الرياض، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٣٩٣هـ،
عدد الأجزاء: ١.

✽ بهجة قلوب الأبرار وقرّة عيون الأخيار. المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر
السعدي، المحقق: عبد الكريم بن رسمي، دار النشر: الرشد للنشر
والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، عدد الأجزاء: ١.

✽ بيان أركان الإيمان. المؤلف: عبد الله بن صالح القصير، الناشر: الشاذلي
للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، عدد
الأجزاء: ١.

✽ بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام. المؤلف: ابن القطان الفاسي،
المحقق: د. الحسين آيت سعيد، الناشر: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى،
سنة النشر: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، عدد الأجزاء: ٦.

✽ ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب .. المعروف بتاريخ ابن خلدون.

المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، الناشر: دار احياء التراث العربي بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة.

❁ تاريخ القضاء في الإسلام. المؤلف: محمود بن محمد بن عرنوس، الناشر: المطبعة المصرية الأهلية الحديثة، سنة النشر: ١٩٣٤م، عدد الأجزاء: ١.

❁ تأصيل علم العقيدة. المؤلف: عبد الرحيم بن صمايل السلمي، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

❁ تأويل مشكل القرآن. المؤلف: ابن قتيبة الدينوري، المحقق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

❁ التبر المسبوك في نصيحة الملوك. المؤلف: أبو حامد الغزالي، تحقيق: أحمد شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، عدد الأجزاء: ١.

❁ تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام. المؤلف: إبراهيم بن علي ابن فرحون، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، عدد الأجزاء: ٢.

❁ تجريد التوحيد من درن الشرك وشبه التنديد. المؤلف: فيصل بن قزار الجاسم.

❁ التحرير والتنوير. المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

❁ تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي. المؤلف: محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، عدد الأجزاء: ١٠.

❁ تحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر ابن الحاجب. المؤلف: أبو الفداء ابن كثير، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ١.

❁ تحكيم الشريعة وصلته بأصل الدين. المؤلف: صلاح الصاوي، الناشر: مركز الإعلام الدولي، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ١.

❁ التسوية بين الخصوم في مجلس القضاء. المؤلف: أسماء أحمد العويس، الناشر: الدراسات الإسلامية والعربية دبي، سنة النشر: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

❁ تطبيق الشريعة وأثرها على الأمم. المؤلف: عبد الله بن سعود الهويمل، الناشر: دار ابن الأثير، عدد الأجزاء: ١.

❁ التطبيق المعاصر للزكاة. المؤلف: حسين حسين شحاتة، الناشر: مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

❁ تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد. المؤلف: الصنعاني، المحقق: عبد المحسن البدر، الناشر: مطبعة سفير، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٤هـ، عدد الأجزاء: ١.

❁ تعرف على الإسلام. المؤلف: منقذ بن محمود السقار، الناشر: رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة، عدد الأجزاء: ١.

❁ التعريف بالإسلام. المؤلف: مركز قطر للتعريف بالإسلام، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بقطر.

❁ تعريف عام بدين الإسلام. المؤلف: علي بن مصطفى الطنطاوي، الناشر: المنارة للنشر والتوزيع، السعودية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، عدد الأجزاء: ١.

❁ التعريفات. المؤلف: علي الجرجاني، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت،

لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، عدد الأجزاء: ١.

✽ التعريفات الفقهية. المؤلف: محمد عميم الإحسان البركتي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ١.

✽ تعظيم قدر الصلاة. المؤلف: محمد بن نصر المروزي، المحقق: د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، الناشر: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٠٦هـ، عدد الأجزاء: ٢.

✽ تفسير ابن عطية، «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، المؤلف: ابن عطية الأندلسي، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٢هـ.

✽ تفسير القرآن العظيم. المؤلف: ابن كثير، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ٨.

✽ تفسير أبي حيان. المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر، بيروت، سنة النشر: ١٤٢٠هـ.

✽ تفسير الرازي، «مفاتيح الغيب». المؤلف: فخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، سنة النشر: ١٤٢٠هـ.

✽ تفسير السعدي، «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان». المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ١.

✽ تفسير الطبري، «جامع البيان في تأويل القرآن»، المؤلف: أبو جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ٢٤.

✽ تفسير القرطبي، «الجامع لأحكام القرآن»، المؤلف: القرطبي، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م، عدد الأجزاء: ٢٠.

✽ تفسير الماوردي. المؤلف: الماوردي، المحقق: السيد بن عبد المقصود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، عدد الأجزاء: ٦.

✽ تفسير المنار. المؤلف: محمد رشيد رضا، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م، عدد الأجزاء: ١٢.

✽ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. المؤلف: وهبة الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤١٨ هـ، عدد الأجزاء: ٣٠.

✽ تفسير مقاتل بن سليمان. المؤلف: مقاتل بن سليمان، تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، عدد الأجزاء: ٣.

✽ تقويم التطبيقات المعاصرة للزكاة إيجابيات سلبيات. المؤلف: محمد الزحيلي، الناشر: جامعة الشارقة، الإمارات، سنة النشر: ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م، عدد الأجزاء: ٤.

✽ تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق. المؤلف: شمس الدين ابن عبد الهادي، تحقيق: سامي بن محمد بن جاد الله، وعبد العزيز بن ناصر الخباني، دار النشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، سنة النشر:

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، عدد الأجزاء: ٥.

❁ توضيح الأحكام من بلوغ المرام. المؤلف: عبد الله بن عبد الرحمن البسام، الناشر: مكتبة الأسد، مكة المكرمة، الطبعة الخامسة، سنة النشر: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ٧.

❁ توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار. المؤلف: محمد بن إسماعيل الصنعاني، الناشر: المكتبة السلفية، المدينة المنورة، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، عدد الأجزاء: ٢.

❁ التوضيح لشرح الجامع الصحيح. المؤلف: ابن الملقن، المحقق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، عدد الأجزاء: ٣٦.

❁ توضيح مقاصد العقيدة الواسطية. المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر البراك، إعداد: عبد الرحمن بن صالح السديس، الناشر: دار التدمرية، الطبعة الثالثة، سنة النشر: ١٤٣٢هـ، عدد الأجزاء: ١.

❁ تيسير العلام شرح عمدة الأحكام. المؤلف: عبد الله بن عبد الرحمن البسام، حققه: محمد صبحي بن حسن حلاق، الناشر: مكتبة الصحابة، الإمارات، مكتبة التابعين، القاهرة، الطبعة العاشرة، سنة النشر: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م، عدد الأجزاء: ١.

❁ تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن. المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٢هـ، عدد الأجزاء: ١.

❁ الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية. المؤلف: د/ عابد بن محمد

السفياني، الناشر: مكتبة المنارة، مكة المكرمة، السعودية، الطبعة الأولى،
سنة النشر: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عدد الأجزاء: ١.

❁ جامع الأصول. المؤلف: ابن الأثير الجزري، تحقيق: عبد القادر
الأنطاوي، الناشر: مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان،
الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: ١٢.

❁ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم. المؤلف:
ابن رجب الحنبلي، المحقق: شعيب الأنطاوي، وإبراهيم باجس، الناشر:
مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة السابعة، سنة النشر: ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م،
عدد الأجزاء: ٢.

❁ جمع القرآن في مراحل التاريخ من العصر النبوي إلى العصر الحديث.
المؤلف: محمد شرعي أبو زيد، رسالة ماجستير في التفسير وعلوم
القرآن، كلية الشريعة بجامعة الكويت، سنة ١٤١٩ هـ.

❁ الجهاد بين المقاصد والوسائل. المؤلف: ناهض إسماعيل فرحات، وبسام
حسن العف، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الحادي والعشرون، العدد
الثاني، يونيو ٢٠١٧ م.

❁ الجهاد في سبيل الله مقاصد وآثار. المؤلف: وصفي عاشور أبو زيد،
إصدار شبكة الألوكة.

❁ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي. المؤلف: ابن قيم الجوزية،
الناشر: دار المعرفة، المغرب، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٨ هـ -
١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ١.

❁ الجوهر النفيس في سياسة الرئيس. المؤلف: محمد بن منصور بن
الحداد، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الأولى، سنة النشر:

١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ١.

❁ حاشية ابن القيم على سنن أبي داود. المؤلف: ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤١٥هـ، عدد الأجزاء: ١٤.

❁ حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع. المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٣٩٧هـ، عدد الأجزاء: ٧.

❁ الحسبة. المؤلف: ابن تيمية، حققه وعلق عليه: علي بن نايف الشحود، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ١.

❁ حسن الخلق وأهميته لطالب العلم. المؤلف: محمد الصالح بن عثيمين، الناشر: موقع الآجري على الشبكة العنكبوتية.

❁ حضارة العرب. المؤلف: غوستاف لبون، سنة: ١٨٨٤م، ترجمه: عادل زعيتر، الناشر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، سنة النشر: ٢٠١٣م.

❁ حقوق الإنسان. المؤلف: محمد الغزالي، الناشر: دار نهضة مصر، الطبعة الأولى.

❁ حقوق الإنسان في الإسلام. المؤلف: جمل الليل، عدد الأجزاء: ١.

❁ حقوق الإنسان في السلم والحرب. المؤلف: يحيى بن محمد حسن زمزمي، بحث مقدّم إلى مؤتمر «حقوق الإنسان في السلم والحرب» الذي تنظمه جمعية الهلال الأحمر السعودي، خلال الفترة من ١٨ - ١٩ شعبان ١٤٢٤هـ، في الرياض، بالمملكة العربية السعودية.

❁ حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة. المؤلف: أحمد الريسوني، ومحمد الزحيلي، ومحمد عثمان شبير، الناشر: سلسلة كتاب الأمة، العدد ٨٧، محرم سنة ١٤٢٣هـ، السنة الثانية والعشرون.

❁ حقوق الإنسان والقضايا الكبرى. المؤلف: كامل إسماعيل الشريف،

الناشر: مجلة مجمع الفقه الإسلامي، عدد الأجزاء: ١.

❁ حقوق الإنسان في الإسلام والرد على الشبهات المثارة حولها. المؤلف:

سليمان الحقييل، الناشر: مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، سنة النشر:

٢٠٠٠، الطبعة الثالثة، عدد الأجزاء: ١.

❁ حقوق وواجبات شرعها الله للعباد. المؤلف: عبد المنعم مصطفى حليمة،

الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

❁ حقيقة الصيام. المؤلف: ابن تيمية، تحقيق: الألباني، الناشر: المكتب

الإسلامي، ١٤٠٠ هـ، الطبعة الخامسة، عدد الأجزاء: ١.

❁ حقيقة حقوق الإنسان. المؤلف: عوض محمد بانجار، الناشر: المكتبة

الشاملة الذهبية.

❁ الحكم والتحاكم في خطاب الوحي. المؤلف: عبد العزيز مصطفى كامل،

الناشر: دار طيبة، السعودية، سنة النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، عدد الأجزاء: ١.

❁ حكمة الجهاد في الإسلام. المؤلف: أحمد محمد الشرقاوي، الناشر: موقع

صيد الفوائد على الشبكة.

❁ الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة. المؤلف: يحيى بن محمد

زمزمي، دار التربية والتراث، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، سنة النشر:

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

❁ الحوار مع أتباع الأديان، مشروعيته وآدابه. المؤلف: منقذ السقار، الناشر:

رابطة العالم الإسلامي، عدد الأجزاء: ١.

❁ الخالدون مائة أعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم. المؤلف: مايكل

هارت، ترجمه: أنيس منصور، الناشر: الزهراء لإعلام العربي، سنة النشر:

١٩٧٨م، عدد الأجزاء: ١.

✽ الخراج. المؤلف: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، وسعد حسن محمد، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث، عدد الأجزاء: ١.

✽ خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. المؤلف: سيد قطب، دار الشروق، عدد الأجزاء: ١.

✽ خلاصة تاريخ العرب. المؤلف: لويس سيديو، ترجمه: محمد أحمد عبد الرازق، الناشر: مؤسسة هنداوني سي آي سي - المملكة المتحدة.

✽ الخلاصة في أصول الحوار وأدب الاختلاف. المؤلف: علي بن نايف الشحود.

✽ الخلاف أسبابه وآدابه. المؤلف: عائض القرني، الناشر: موقع وزارة الأوقاف السعودية.

✽ دراسات في الثقافة الإسلامية. المؤلف: صالح هندي، الناشر: جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، الطبعة الخامسة، سنة النشر: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، عدد الأجزاء: ١.

✽ دراسات في الفكر الإسلامي. المؤلف: أبو اليزيد أبو زيد العجمي، الناشر: دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

✽ دراسات في علوم القرآن. المؤلف: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان، الطبعة الثانية عشر، سنة النشر: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ١.

✽ دراسة لاسمي الله؛ الرازق، الرزاق. المؤلف: أحمد بن عثمان المزيد، الناشر: دار الوطن للنشر، عدد الأجزاء: ١.

❁ الدرة الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء. المؤلف: محمود بن

إسماعيل، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض.

❁ الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي. المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر

السعدي، الناشر: الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، بالرياض، الطبعة

الخامسة، سنة النشر: ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، عدد الأجزاء: ١.

❁ الدرر السنية في الأجوبة النجدية، المؤلف: علماء نجد الأعلام، المحقق:

عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة السادسة، سنة النشر: ١٤١٧هـ -

١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ١٦.

❁ دستور الأخلاق في القرآن. المؤلف: محمد بن عبد الله دراز، الناشر:

مؤسسة الرسالة، الطبعة العاشرة، سنة النشر: ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، عدد

الأجزاء: ١.

❁ دفاع عن الإسلام. المؤلف: لورا فاغليري، ترجمه: منير البعلبكي، الناشر:

دار العلم للملايين، عدد الأجزاء: ١.

❁ دلالة الأسماء الحسنى على التنزيه. المؤلف: د. عيسى بن عبد الله

السَّعدي، الناشر: جامعة أم القرى، عدد الأجزاء: ١.

❁ الذخيرة. المؤلف: أبو العباس القرافي، المحقق: محمد حجي، وسعيد

أعراب، ومحمد بو خبزة، الناشر: الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة

الأولى، سنة النشر: ١٩٩٤م، عدد الأجزاء: ١٤.

❁ ذخيرة العقبى في شرح المجتبى. المؤلف: محمد بن علي بن آدم الإتيوب

ي، الناشر: دار المعراج الدولية للنشر، دار آل بروم للنشر والتوزيع، الطبعة

الأولى، عدد الأجزاء: ٤٢.

❁ رد المختار على الدر المختار. المؤلف: ابن عابدين، الناشر: دار عالم

- الكتب، بيروت، سنة النشر: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ١٤.
- ✽ الرسالة. المؤلف: محمد بن إدريس الشافعي، المحقق: أحمد محمد شاكر، دار النشر: دار التراث.
- ✽ رسالة الشرك ومظاهره. المؤلف: مبارك بن محمد الميلي الجزائري، تحقيق: أبي عبد الرحمن محمود، الناشر: دار الراجعية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ١.
- ✽ رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار. المؤلف: ابن تيمية، المحقق: محمد عزيز شمس، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، السعودية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٤هـ.
- ✽ رسائل الشيخ الحمد في العقيدة. المؤلف: محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد، الناشر: دار ابن خزيمة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٨هـ.
- ✽ رفع الحرج في الشريعة الإسلامية. المؤلف: يعقوب عبد الوهاب، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الرابعة، سنة النشر: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ✽ رفع الملام عن الأئمة الأعلام. المؤلف: ابن تيمية، المحقق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.
- ✽ ركائز الإيمان. المؤلف: محمد بن قطب بن إبراهيم، تحقيق وتخريج: علي بن نايف الشحود، دار المعمور، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- ✽ روح الدين الإسلامي. المؤلف: عفيف عبد الفتاح طبارة، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، سنة النشر: ٢٠٠٦، عدد الأجزاء: ١.
- ✽ الروح. المؤلف: ابن قيم الجوزية، تعليق: إبراهيم رمضان، الناشر: دار الفكر العربي، بيروت، سنة النشر: ١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ١.

❁ روضة القضاة وطريق النجاة. المؤلف: أبو القاسم الرحبيّ ابن السّمناني، المحقق: د. صلاح الدين الناهي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ودار الفرقان، عمان، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، عدد الأجزاء: ٤.

❁ الرياض الناضرة. المؤلف: عبد الرحمن السعدي، الناشر: دار المنهاج، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، عدد الأجزاء: ٢.

❁ زاد المعاد في هدي خير العباد. المؤلف: ابن قيم الجوزية، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة السابعة والعشرون، سنة النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، عدد الأجزاء: ٥.

❁ الزكاة في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة. المؤلف: سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الناشر: مركز الدعوة والإرشاد بالقصب، الطبعة الثالثة، سنة النشر: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، عدد الأجزاء: ١.

❁ زهرة التفاسير. المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى أبو زهرة، دار النشر: دار الفكر العربي، عدد الأجزاء: ١٠.

❁ سبع مسائل في علم الخلاف. المؤلف: عبد العزيز بن عبد الفتاح القاريء المدني، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة السنة السادسة، العدد الثاني، سنة النشر: ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

❁ سبيل الرشاد في توحيد الربوبية والإيمان بالقضاء والقدر. المؤلف: أكرم غانم إسماعيل تكاي، الناشر: موقع الألوكة، سنة النشر: ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، عدد الأجزاء: ١.

❁ ستون فائدة في العقيدة. المؤلف: عوض بن علي بن عبد الله، الناشر: دار ابن خزيمة، عدد الأجزاء: ١.

❁ سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: ٦.

❁ سنن ابن ماجه. الناشر: دار التأصيل، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م، عدد الأجزاء: ٤.

❁ سنن أبي داود. المحقق: عادل محمد، وعماد عباس، الناشر: دار التأصيل، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

❁ السنن الكبير. المؤلف: أحمد بن الحسين البيهقي، المحقق: مركز هجر للبحوث والدراسات، الناشر: دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، عدد الأجزاء: ٢١.

❁ سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى الترمذي، الناشر: دار التأصيل، عدد الأجزاء: ٥.

❁ سنن الدارقطني. حقه: شعيب الأرناؤوط وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ٥.

❁ سنن النسائي. المؤلف: أحمد بن شعيب النسائي، المحقق: مركز البحوث بدار التأصيل، الناشر: دار التأصيل، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، عدد الأجزاء: ٩.

❁ السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. المؤلف: ابن تيمية، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، السعودية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٨هـ، عدد الأجزاء: ١.

❁ السياسة الشرعية في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية. المؤلف: عبد

الوهاب خلاف، الناشر: دار القلم، سنة النشر: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عدد الأجزاء: ١.

❁ السيرة النبوية لابن هشام. الناشر: شركة الحلبي، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م، عدد الأجزاء: ٢.

❁ شرح التوضيح على التلويح. المؤلف: سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، الناشر: مكتبة صبيح بمصر، عدد الأجزاء: ٢.

❁ شرح الزركشي. المؤلف: شمس الدين محمد بن عبد الله الزركشي، الناشر: دار العيكان، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، عدد الأجزاء: ٧.

❁ شرح العقيدة الطحاوية. المؤلف: ابن أبي العز الحنفي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة العاشرة، سنة النشر: ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ٢.

❁ الشرح الكبير. المؤلف: أبو الفرج ابن قدامة، الناشر: دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، أشرف على طباعته: محمد رشيد رضا.

❁ شرح الكوكب المنير. المؤلف: تقي الدين ابن النجار الحنبلي، المحقق: محمد الزحيلي، ونزيه حماد، الناشر: مكتبة العيكان، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ٤.

❁ الشرح الممتع على زاد المستقنع. المؤلف: محمد بن صالح العثيمين، دار النشر: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٢ هـ، و١٤٢٨ هـ، عدد الأجزاء: ١٥.

❁ شرح النووي على مسلم. المؤلف: أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، سنة النشر:

١٣٩٢هـ، عدد الأجزاء: ١٨.

✽ شرح ثلاثة الأصول. المؤلف: محمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا للنشر، الطبعة الرابعة، سنة النشر: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ١.

✽ شرح حدود ابن عرفة. المؤلف: أبو عبد الله الرصاع التونسي، الناشر: المكتبة العلمية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٣٥٠هـ، عدد الأجزاء: ١.

✽ شرح صحيح البخاري. المؤلف: ابن بطال، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد، السعودية، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ١٠.

✽ شرح علل الترمذي. المؤلف: ابن رجب الحنبلي، المحقق: همام عبد الرحيم، الناشر: مكتبة المنار الأردن، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

✽ شرف أصحاب الحديث. المؤلف: الخطيب البغدادي، المحقق: د. محمد سعيد خطي أوغلي، الناشر: دار إحياء السنة النبوية، أنقرة، عدد الأجزاء: ١.

✽ الشرك في القديم والحديث. المؤلف: أبو بكر محمد زكريا، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ شعب الإيمان. المؤلف: أبو بكر البيهقي، المحقق: عبد العلي حامد، الناشر: مكتبة الرشد بالرياض، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، عدد المجلدات: ١٤.

✽ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل. المؤلف: ابن قيم الجوزية، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، سنة النشر: ١٣٩٨هـ -

١٩٧٨م، عدد الأجزاء: ١.

✽ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. المؤلف: الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور، الناشر: دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الرابعة، سنة النشر: ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ٦.

✽ صحيح ابن حبان. تحقيق: مركز البحوث بدار التأصيل، الناشر: دار التأصيل، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م، عدد الأجزاء: ٨.

✽ صحيح ابن خزيمة. تحقيق: مركز البحوث بدار التأصيل، الناشر: دار التأصيل، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م.

✽ صحيح أبي داود. المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م، عدد الأجزاء: ٧.

✽ صحيح البخاري. المؤلف: محمد بن إسماعيل البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٢ هـ، عدد الأجزاء: ٩.

✽ صحيح الترغيب والترهيب. المؤلف: الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ٣.

✽ صحيح الجامع الصغير وزياداته. المؤلف: الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، عدد الأجزاء: ٢.

✽ صحيح مسلم. المؤلف: مسلم بن الحجاج، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، عدد الأجزاء: ٥.

❁ صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة. المؤلف: علوي السَّقَّاف،
الناشر: الدرر السنية، دار الهجرة، الطبعة الثالثة، سنة النشر: ١٤٢٦هـ -
٢٠٠٦م، عدد الأجزاء: ١.

❁ الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة. المؤلف: ابن قيم
الجوزية، المحقق: علي بن محمد الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة
الأولى، سنة النشر: ١٤٠٨هـ، عدد الأجزاء: ٤.

❁ صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال. المؤلف:
حسين بن محمد المهدي، الناشر: سُجل هذا الكتاب بوزارة الثقافة،
بدار الكتاب، سنة النشر: ٢٠٠٩م.

❁ الضرورة الشرعية. المؤلف: وهبة الزحيلي، الناشر: مؤسسة الرسالة،
بيروت، سنة النشر: ١٩٨٥م.

❁ الطبقات الكبرى. المؤلف: محمد بن سعد، المحقق: علي محمد عمر،
الناشر: مكتبة الخانجي - القاهرة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢١هـ -
٢٠٠١م، عدد المجلدات: ١١.

❁ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية. المؤلف: ابن قيم الجوزية، المحقق:
نايف بن أحمد الحمد، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة، الطبعة الأولى،
سنة النشر: ١٤٢٨هـ، عدد الأجزاء: ٢.

❁ طريق الهجرتين وباب السعادتين. المؤلف: ابن قيم الجوزية، الناشر:
دار السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٣٩٤هـ، عدد
الأجزاء: ١.

❁ الطريق إلى الجنة. المؤلف: عبد الله بن أحمد العلاف الغامدي، الناشر:
دار الطرفين.

✽ الطوبى في توحيد أسماء الله الحسنى. المؤلف: أكرم غانم إسماعيل
تكاى، الطبعة: ربيع الآخر، سنة النشر: ١٤٣٦هـ.

✽ ضلال الجنة في تخريج السنة. المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني،
الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م،
عدد الأجزاء: ٢.

✽ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين. المؤلف: ابن قيم الجوزية، تحقيق:
زكريا علي يوسف، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، عدد الأجزاء: ١.
✽ العبودية. المؤلف: ابن تيمية، المحقق: محمد زهير الشاويش، الناشر:
المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السابعة، سنة النشر: ١٤٢٦هـ -
٢٠٠٥م، عدد الأجزاء: ١.

✽ العزيز شرح الوجيز. المؤلف: الرافعي القزويني، الناشر: دار الكتب العلمية،
بيروت، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، عدد الأجزاء: ١٣.

✽ عظمة القرآن الكريم. المؤلف: محمود بن أحمد بن صالح الدوسري، الناشر:
دار ابن الجوزي، السعودية، ١٤٢٦هـ، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: ١.

✽ العفو عند الأصوليين والفقهاء. المؤلف: يوسف صلاح الدين طالب،
الناشر: دار النوادر، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

✽ العقائد الإسلامية. المؤلف: ابن باديس، دار النشر: مكتبة الشركة الجزائرية
مرازقه بو داود وشركاؤهما، الجزائر، الطبعة الثانية، عدد الأجزاء: ١.

✽ العقائد الإسلامية. المؤلف: سيد سابق، الناشر: دار الكتاب العربي،
بيروت، عدد الأجزاء: ١.

✽ العقل عند الأصوليين. المؤلف: د. علي بن سعد الضويحي، الناشر:
جامعة أم القرى، السعودية، سنة النشر: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

❁ عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، المؤلف: محمد أحمد محمد عبد القادر، الناشر: مكتبة دار الزمان، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، عدد الأجزاء: ١.

❁ عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك. المؤلف: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، عدد الأجزاء: ١.

❁ عقيدة أهل السنة والجماعة. المؤلف: محمد صالح العثيمين، الناشر: الجامعة الإسلامية المدينة المنورة، الطبعة الرابعة، سنة النشر: ١٤٢٢هـ، عدد الأجزاء: ١.

❁ علم الأخلاق الإسلامية. المؤلف: مقداد يالجن محمد علي، الناشر: دار عالم الكتب للطباعة والنشر - الرياض، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ١.

❁ علم المقاصد الشرعية. المؤلف: نور الدين بن مختار الخادمي، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ١.

❁ عمدة الأحكام. المؤلف: عبد الغني المقدسي، تحقيق: محمود الأرناؤوط، الناشر: دار الثقافة العربية، دمشق، بيروت، مؤسسة قرطبة، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، عدد الأجزاء: ١.

❁ عوامل انحسار القضاء الشرعي في بعض المجتمعات الإسلامية في العصر الحاضر. المؤلف: د. عبد الحق حميش، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، سنة النشر: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

❁ عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن. المؤلف: علي عبد العال

الطهطاوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ١.

✽ العين. المؤلف: الخليل بن أحمد الفراهيدي، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال، عدد الأجزاء: ٨.

✽ غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب. المؤلف: شمس الدين السفاريني، الناشر: مؤسسة قرطبة، مصر، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ الغرر النقية على الدرر البهية. المؤلف: فيصل آل مبارك، عني به: محمد آل مبارك، الناشر: دار كنوز إشبيليا، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، عدد الأجزاء: ١.

✽ غياث الأمم في التياث الظلم. المؤلف: أبو المعالي الجويني، المحقق: عبد العظيم الديب، الناشر: مكتبة إمام الحرمين، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٠١هـ، عدد الأجزاء: ١.

✽ الفتاوى الكبرى. المؤلف: ابن تيمية. الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ٦.

✽ فتاوى اللجنة الدائمة. المؤلف: اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، الناشر: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، عدد الأجزاء: ٢٦.

✽ فتح الباري لابن حجر. قام بإخراجه وصححه: محب الدين الخطيب، تعليقات: عبد العزيز بن باز، الناشر: دار المعرفة، بيروت، سنة النشر: ١٣٧٩هـ، عدد الأجزاء: ١٣.

✽ فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام

المستنبطة من القرآن. تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: دار ابن الجوزي.

❁ فتح الغفار الجامع لأحكام سنة نبينا المختار. المؤلف: الحسن بن أحمد الصنعاني، المحقق: مجموعة بإشراف الشيخ علي العمران، الناشر: دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٧هـ، عدد الأجزاء: ٤.

❁ فتح المغيث بشرح الفية الحديث. المؤلف: شمس الدين السخاوي، المحقق: علي حسين علي، الناشر: مكتبة السنة، مصر، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ٤.

❁ فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام. المؤلف: محمد بن صالح العثيمين، الناشر: المكتبة الإسلامية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، عدد الأجزاء: ٦.

❁ الفروع. المؤلف: ابن مفلح الحنبلي، ومعه تصحيح الفروع. المؤلف: علاء الدين المرداوي، المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ١١.

❁ الفروق. المؤلف: القرافي، تحقيق: خليل المنصور، الناشر: الكتب العلمية، بيروت، سنة النشر: ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ٤.

❁ الفصل في الملل والأهواء والنحل. المؤلف: ابن حزم الظاهري، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، عدد الأجزاء: ٥.

❁ فضائل القرآن الكريم. المؤلف: عبد السلام جار الله، الناشر: دار التدمرية، السعودية، سنة النشر: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، عدد الأجزاء: ١.

❁ فضائل القرآن. ابن كثير، الناشر: مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى، سنة

النشر: ١٤١٦هـ، عدد الأجزاء: ١.

✽ فضل الجهاد والمجاهدين. المؤلف: عبد العزيز بن باز، تحت إشراف: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الإدارة العامة للطبع والترجمة، الرياض، المملكة العربية السعودية.

✽ الفقه الإسلامي وأدلته. المؤلف: وهبة الزحيلي، الناشر: دار الفكر، سورية، دمشق، الطبعة الرابعة، عدد الأجزاء: ١٠.

✽ فقه الائتلاف الطريق إلى الوفاق. المؤلف: محمد سيد حاج، الناشر: مركز الوفاق الإنمائي للدراسات والبحوث والتدريب، سنة النشر: ٢٠١٤م.

✽ فقه الائتلاف. المؤلف: محمود محمد الخزندار، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ١.

✽ فقه الزكاة. المؤلف: يوسف القرضاوي، الناشر: دار الرسالة العالمية، بيروت، سنة النشر: ٢٠١٥م، عدد الأجزاء: ١.

✽ الفوائد السنية على العقيدة الواسطية. المؤلف: عبد الله بن صالح القصير، الناشر: شبكة الألوكة، سنة النشر: ٢٠٠٩م، عدد الأجزاء: ١.

✽ الفوائد. المؤلف: ابن القيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، عدد الأجزاء: ١.

✽ فيض القدير. المؤلف: زين الدين المناوي، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٣٥٦هـ، عدد الأجزاء: ٦.

✽ قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة. المؤلف: ابن تيمية، المحقق: ربيع بن هادي المدخلي، الناشر: مكتبة الفرقان، عجمان، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ١.

✽ قاعدة في المحبة. المؤلف: ابن تيمية، المحقق: محمد رشاد سالم،

- الناشر: مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، مصر، عدد الأجزاء: ١.
- ❁ القاموس المحيط. المؤلف: الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، سنة النشر: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، عدد الأجزاء: ١.
- ❁ القرآن شريعة المجتمع. المؤلف: عارف خليل محمد، الناشر: جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، الكويت، سنة النشر: ١٩٨٤م،
- ❁ القضاء في مكة المكرمة قديماً وحديثاً. المؤلف: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، عدد الأجزاء: ١.
- ❁ قواعد الأحكام في مصالح الأنام. المؤلف: العز بن عبد السلام، راجعه: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: الكليات الأزهرية، القاهرة، سنة النشر: ١٤١٤هـ - ١٩٩١م، الأجزاء: ٢.
- ❁ القواعد الحسان لتفسير القرآن. المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ١.
- ❁ القوانين الفقهية. المؤلف ابن جزي، تحقيق: ماجد الحموي، الناشر: دار ابن حزم، سنة النشر: ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، عدد الأجزاء: ١.
- ❁ القول السديد شرح كتاب التوحيد. المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٢١هـ، عدد الأجزاء: ١.
- ❁ القول السديد في مقاصد التوحيد. المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: صبري سلامة شاهين، الناشر: دار القبس، سنة النشر:

١٩٨٦م، عدد الأجزاء: ١.

✽ القول السديد في وجوب الاهتمام بالتوحيد. المؤلف: إسلام محمود درباله.

✽ كتاب السنة، المؤلف: ابن أبي عاصم، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ كشف الأستار عن زوائد البزار. المؤلف: نور الدين الهيثمي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م، عدد الأجزاء: ٤.

✽ كشف الأسرار شرح أصول البزدوي. المؤلف: علاء الدين البخاري، المحقق: عبد الله محمود عمر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

✽ لسان العرب. المؤلف: ابن منظور، دار النشر: دار المعارف، البلد: القاهرة، عدد الأجزاء: ٦.

✽ لطائف المعارف. المؤلف: ابن رجب الحنبلي، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ١.

✽ مباحث في العقيدة. المؤلف: عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار، الناشر: الجامعة الإسلامية، السعودية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ١.

✽ مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة. المؤلف: ناصر العقل، الناشر: دار الوطن للنشر، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٢هـ.

✽ مباحث في علوم القرآن. المؤلف: مناع القطان، الناشر: مكتبة المعارف، الطبعة الثالثة، سنة النشر: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ١.

❁ المبسوط. المؤلف: محمد بن الحسن الشيباني، المحقق: أبو الوفا الأفغاني، الناشر: إدارة القرآن والعلوم الإسلامية - كراتشي، عدد الأجزاء: ٥.

❁ المبسوط. المؤلف: السرخسي، تحقيق: خليل محي الدين الميس، الناشر: دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

❁ المجتمع المتكافل في الإسلام. المؤلف: عبد العزيز الخياط، الناشر: دار السلام مصر، سنة النشر: ١٩٨٦م، عدد الأجزاء: ١.

❁ مجلة البحوث الإسلامية، المؤلف: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، عدد الأجزاء: ٩٥.

❁ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. المؤلف: نور الدين الهيثمي، المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، سنة النشر: ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، عدد الأجزاء: ١٠.

❁ المجموع شرح المذهب. المؤلف: محيي الدين النووي، الناشر: دار الفكر.

❁ محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام. المؤلف: أحمد بن سليمان أيوب، الناشر: دار إيلاف الدولية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، عدد الأجزاء: ١٢.

❁ محاسن الدين الإسلامي. المؤلف: محمد الأمين الشنقيطي، جمع وتحقيق: ساعد غازي.

❁ محاسن الشريعة في فروع الشافعية. المؤلف: القفال الكبير، تحقيق: محمد علي سمك، الناشر: دار الكتب العلمية، سنة النشر: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، عدد الأجزاء: ١.

❁ محاسن الشريعة ومساويء القوانين الوضعية. المؤلف: عطية بن محمد

سالم، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد الأول، السنة السادسة، سنة النشر: ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ المختصر المفيد في عقائد أئمة التوحيد. المؤلف: أبو يوسف مدحت آل فراج، الناشر: مؤسسة الريان، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. المؤلف: ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد المعتصم بالله، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة النشر: ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية. المؤلف: عثمان ضميرية، تقديم: عبد الله بن عبد الكريم العبادي، الناشر: مكتبة السوادبي، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ المدخل لدراسة القرآن الكريم. المؤلف: محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، الناشر: مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ مراتب الإجماع. ابن حزم الظاهري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، عدد الأجزاء: ١.

✽ المسامرة في شرح المسامرة في علم الكلام. المؤلف: أبو المعالي المقدسي، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٣١٧ هـ.

✽ المستدرك على الصحيحين. المؤلف: أبو عبد الله الحاكم، الناشر: دار التأصيل، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤، عدد الأجزاء: ٨.

✽ مسند أحمد. المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الناشر: مؤسسة

الرسالة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ٥٠.

✽ مسند الطيالسي. المؤلف: أبو داود الطيالسي، المحقق: محمد بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث بدار هجر، الناشر: دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ٤.

✽ مسند أبي يعلى. المؤلف: أبو يعلى الموصلي، المحقق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، عدد الأجزاء: ١٣.

✽ مشكاة المصابيح. المؤلف: محمد بن عبد الله التبريزي، المحقق: الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة النشر: ١٩٨٥م، عدد الأجزاء: ٣.

✽ مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه. المؤلف: شهاب الدين البوصيري، المحقق: محمد الكشناوي، الناشر: دار العربية - بيروت، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٠٣هـ، عدد الأجزاء: ٤.

✽ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. المؤلف: أبو العباس الفيومي الحموي، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت، عدد الأجزاء: ٢.

✽ مصنف ابن أبي شيبة. المؤلف: أبو بكر ابن أبي شيبة، المحقق: محمد عوامة، الناشر: دار القبلة، جدة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، عدد المجلدات: ٢٦.

✽ مصنف عبد الرزاق. المؤلف: عبد الرزاق الصنعاني، المحقق: مركز البحوث بدار التأصيل، الناشر: دار التأصيل، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، عدد الأجزاء: ١٠.

✽ المطالب العالية. المؤلف: ابن حجر العسقلاني، الناشر: دار العاصمة،

- الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٩٩٨م، ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ١٩.
- ✽ معارج القبول بشرح سلم الوصول. المؤلف: حافظ الحكمي، المحقق: عمر بن محمود، الناشر: دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م، عدد الأجزاء: ٣.
- ✽ معالم القصة في القرآن الكريم. المؤلف: محمد خير العدوي، الناشر: دار الفرقان للنشر، الطبعة الأولى، سنة النشر: ٢٠١٣م، عدد الأجزاء: ١.
- ✽ المعاملات المالية أصالة ومعاصرة. المؤلف: أبو عمر الديان، الناشر: مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٣٢ هـ، عدد الأجزاء: ٢٠.
- ✽ المعاملات والمقاصد. المؤلف: عبد الله بن بيّه، بحث مقدم للدورة الثامنة عشر للمجلس، باريس، جمادى الآخرة، سنة النشر: رجب ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.
- ✽ معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات. المؤلف: محمد بن خليفة، الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ١.
- ✽ معجم اللغة العربية المعاصرة. المؤلف: أحمد مختار عبد الحميد، بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م، عدد الأجزاء: ٤.
- ✽ معجم لغة الفقهاء. المؤلف: محمد رواس قلعجي، حامد صادق قنيبي، الناشر: دار النفائس، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.
- ✽ المعلم بفوائد مسلم. المؤلف: أبو عبد الله المازري، المحقق: محمد الشاذلي، الناشر: الدار التونسية، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٩٨٨م، عدد

الأجزاء: ٣.

❁ معيد النعم ومبيد النقم. المؤلف: تاج الدين للسبكي. الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م، عدد الأجزاء: ١.

❁ معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام. المؤلف: علاء الدين الطرابلسي الحنفي، الناشر: دار الفكر، عدد الأجزاء: ١.

❁ المغني. المؤلف: ابن قدامة المقدسي، تحقيق: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، د/ عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: عالم الكتب، الرياض، الطبعة الثالثة، سنة النشر: ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

❁ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة. المؤلف: ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، عدد الأجزاء: ٢.

❁ المفردات في غريب القرآن. المؤلف: الراغب الأصفهاني، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٢ هـ.

❁ المفيد في مهمات التوحيد. المؤلف: د/ عبد القادر بن محمد عطا، الناشر: دار الإعلام، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٢ هـ - ١٤٢٣ هـ، عدد الأجزاء: ١.

❁ مقاصد الحج في الإسلام. المؤلف: سالم جمال الهنداوي، إصدار شبكة الألوكة.

❁ مقاصد الحج في القرآن الكريم. المؤلف: عادل بن علي الشدي، مجلة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد ٤٤، ذو القعدة ١٤٢٩ هـ.

❁ مقاصد الحج. المؤلف: أحمد بن عبد الرحمن القاضي، مجلة البيان، العدد: ٢٣٨، ذو القعدة ١٤٢٧هـ.

❁ مقاصد الشريعة الإسلامية من عقوبة الجلد مقابلة بالمواثيق الدولية والقوانين الوضعية. المؤلف: محمد عبد الرحيم علي الدهوان، بحث مقدم لجامعة نايف العربية للعلوم الأمنية.

❁ مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية. المؤلف: محمد سعد بن أحمد بن مسعود، الناشر: دار الهجرة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ١.

❁ مقاصد الشريعة الإسلامية. المؤلف: الطاهر بن عاشور، المحقق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الناشر: وزارة الأوقاف بقطر، عام النشر: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ٣.

❁ مقاصد الشريعة الجزئية في فقه العبادات. المؤلف: جميل يوسف زريوا، مجلة البحوث الإسلامية، السنة الثانية، العدد السادس، جمادى الأولى، سنة النشر: ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.

❁ مقاصد الشريعة عند ابن تيمية. المؤلف: يوسف بن أحمد محمد البدوي، الناشر: دار النفائس، الطبعة الأولى، سنة النشر: ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ١.

❁ مقاصد الشريعة في أحكام البيوع. المؤلف: زهر الدين عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ٢٠٠٩م.

❁ المقاصد العامة للشريعة الإسلامية. المؤلف: د/ يوسف حامد العالم، الناشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سنة النشر: ١٩٩١م، عدد الأجزاء: ١.

❁ مقاصد القضاء في الإسلام. المؤلف: د/ حاتم محمد بوسمة، الناشر: إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، قطر، سنة النشر: ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، عدد الأجزاء: ٢.

❁ مقاييس اللغة. المؤلف: أحمد بن فارس، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، عدد الأجزاء: ٦.

❁ مقدمة ابن خلدون. المؤلف: عبد الرحمن بن خلدون، الناشر: المطبعة المشرفية، مصر.

❁ مقرر التوحيد. المؤلف: عبد العزيز العبد اللطيف، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٧هـ، عدد الأجزاء: ١.

❁ مكارم الأخلاق لمن أراد الخلاق. المؤلف: أنور بن أهل الله، الناشر: مكتبة نور الخيرية، عدد الأجزاء: ١.

❁ الملخص الفقهي. المؤلف: صالح الفوزان، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٣هـ، عدد الأجزاء: ٢.

❁ من قواعد النظام السياسي في الإسلام طاعة أولي الأمر. المؤلف: عبد الله بن عبد العزيز الطريقي، الناشر: شبكة الألوكة.

❁ من محاسن الدين الإسلامي. المؤلف: عبد العزيز بن عبد المحسن سلمان، الناشر: مطابع دار طيبة، سنة النشر: ٢٠٠٥م، عدد الأجزاء: ١.

❁ من مزايا التشريع الإسلامي. محمد بن ناصر السحبياني، مجلة الجامعة الإسلامية، بالمدينة النبوية، عدد (٦١)، سنة النشر: محرم ١٤٠٤هـ.

❁ مناهل العرفان في علوم القرآن. المؤلف: محمد عبد العظيم الزرقاني، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ المنشور في القواعد الفقهية. المؤلف: أبو عبد الله الزركشي، الناشر: وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، عدد الأجزاء: ٣.

✽ منهج السنة النبوية. المؤلف: ابن تيمية، المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، عدد المجلدات: ٩.

✽ المنهج الأخلاقي وحقوق الإنسان في القرآن الكريم. المؤلف: يحيى بن محمد حسن زمزمي، الناشر: الشاملة الذهبية.

✽ منهج التشريع الإسلامي وحكمته. المؤلف: محمد الأمين الشنقيطي، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٦هـ، عدد الأجزاء: ١.

✽ منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين. المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: دار الوطن، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، عدد الأجزاء: ١.

✽ المهذب في فقه السياسة الشرعية. المؤلف: علي بن نايف الشحود، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

✽ مهمات حول الجهاد. المؤلف: عبد الله بن سعد بن محمد، الرياض، سنة النشر: ١٤٢٤م، عدد الأجزاء: ١.

✽ موارد الظمان لدروس الزمان. المؤلف: عبد العزيز بن عبد المحسن السلطان، الطبعة الثلاثون، سنة النشر: ١٤٢٤هـ، عدد الأجزاء: ٦.

✽ الموافقات. المؤلف: الشاطبي الغرناطي، المحقق: مشهور آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، عدد

الأجزاء: ٧.

❁ موسوعة الأخلاق. المؤلف: خالد بن جمعة بن عثمان الخراز، الناشر: مكتبة أهل الأثر، الكويت، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، عدد الأجزاء: ١.

❁ الموسوعة الفقهية الكويتية. صادر عن: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت، سنة النشر: من ١٤٠٤ - ١٤٢٧ هـ، عدد الأجزاء: ٤٥.

❁ موسوعة المستشرقين. المؤلف: د/ عبد الرحمن بديوي، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، سنة النشر: ١٩٩٣م، الطبعة الثالثة، عدد الأجزاء: ١.

❁ ميثاق حقوق الإنسان في الإسلام. المؤلف: د/ عطية عدلان، الناشر: الشاملة الذهبية.

❁ نبذة في العقيدة الإسلامية، المؤلف: محمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثقة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، عدد الأجزاء: ١.

❁ النبذة الكافية في أحكام أصول الدين. المؤلف: ابن حزم الظاهري، المحقق: محمد أحمد عبد العزيز، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٠٥هـ، عدد الأجزاء: ١.

❁ نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم. طبع بإشراف: صالح بن عبد الله بن حميد، الناشر: دار الوسيلة، جدة، الطبعة الرابعة، عدد الأجزاء: ١٢.

❁ النظام القضائي الإسلامي. المؤلف: أحمد محمد مليجي، الناشر: مكتبة وهبة للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٩٨٤م، عدد الأجزاء: ١.

❁ النهاية في غريب الحديث والأثر. المؤلف: أبو السعادات ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة

- العلمية، بيروت، سنة النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، عدد الأجزاء: ٥.
- ❁ نور التوحيد وظلمات الشرك في ضوء الكتاب والسنة. المؤلف: سعيد بن وهف القحطاني، الناشر: مطبعة سفير، الرياض، عدد الأجزاء: ١.
- ❁ النور الوضاء في بيان أحكام القضاء. المؤلف: أحمد بن محمد الشعفي، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ❁ نيل الأوطار. المؤلف: محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمد صبحي حلاق، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٧هـ، عدد الأجزاء: ١٥.
- ❁ الوابل الصيب من الكلم الطيب. المؤلف: ابن قيم الجوزية، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث - القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة النشر: ١٩٩٩م.
- ❁ الواضح في علوم القرآن. المؤلف: مصطفى البغا، محيي الدين ديب، الناشر: الكلم الطيب، العلوم الإنسانية دمشق، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ١.
- ❁ الوجيز في أسماء الله الحسنى. المؤلف: محمد الكوس، الناشر: جمعية إحياء التراث الإسلامي، الطبعة الرابعة، سنة النشر: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، عدد الأجزاء: ١.
- ❁ الوسطية في القرآن الكريم. المؤلف: علي محمد الصلابي، الناشر: مكتبة الصحابة، الشارقة، الإمارات، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ١.
- ❁ الوسطية في ضوء القرآن الكريم. المؤلف: ناصر بن سليمان العمر، الناشر: وزارة الأوقاف السعودية، عدد الأجزاء: ١.

✽ اليسر في بيان توحيد العلم والخبر والإيمان بالقضاء والقدر. المؤلف:

أكرم غانم إسماعيل، الناشر: شبكة الألوكة، عدد الأجزاء: ١.

✽ اليسر والسماحة في الإسلام. المؤلف: فالح الصغير، الناشر: الكتاب

منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية، عدد الأجزاء: ١.



الفهرس

تمهيد ٥

❁ الباب الأول: محاسن الإسلام عمومًا.

محاسن الإسلام عمومًا ٨

١ - أنه ليس دينًا فقط بل هو دين ودولة. ١٥

٢ - مراعاتها لمقاصد المكلفين ومصالحهم. ١٦

٣ - اعتبار المقاصد الثلاث التي بها صلاح معيشة الإنسان. ١٧

٤ - التيسير والترخيص ورفع الحرج عن المكلفين. ٣٣

٥ - رفع الحرج في حال الضرورة: ٣٤

٦ - الحكم بالشورى ٣٥

٧ - الحكم بالعدل ٣٧

٨ - المساواة بين البشر في التعامل ونبد العصبية الجاهلية ٤١

٩ - أنه الدين الذي ارتضاه الله للعباد ٤٤

١٠ - أنه دين الفطرة. ٤٧

١١ - كمالها ودوامها فهي لا نقص فيها ولا خلل ٤٩

١٢ - الثبات والشمول ٥٠

١٣ - أنه دين التسامح ومن ذلك ٥٣

١٤ - شريعة عالمية لا تحد بزمن ولا مكان ٥٦

١٥ - المثالية الواقعية ٥٦

- ١٦- دعوته إلى تعلم العلم ٥٨
- ١٧- أن الله جعله الصبغة التي ينبغي الاصطبغ بها. ٥٩
- ١٨- أن أحكامه لا تتجزؤ. ٦٠
- ❁ الباب الثاني: محاسن العقيدة.
- محاسن العقيدة الإسلامية ٦٢
- ١- أن الله قد ارتضاها لنا وأمرنا باتباعها: ٦٣
- ٢- أنها توقيفية من عند الله. ٦٤
- ٣- ربانية المصدر والغاية. ٦٥
- ٤- الوضوح والسهولة. ٦٦
- ٥- فطرية العقيدة الإسلامية. ٦٧
- ٦- أنها امتداد لعقيدة سائر الأنبياء والمرسلين ٦٨
- ٧- الغيبية ٦٩
- ٨- العموم والشمول. ٦٩
- ٩- التكامل ٧٠
- ١٠- الوسطية ٧٢
- ١١- أنها عقيدة ثابتة ودائمة ٧٤
- ١٢- تأثيرها الكبير في سلوك الفرد. ٧٤
- ١٣- ومن محاسن وآثار العقيدة في سلوك المجتمع ٧٨
- ١٤- إفراد الإله الحق وحده بالعبادة، ونفي كل شريك له ٨٠

❁ الباب الثالث: محاسن الإيمان بالله.

- أولاً: محاسنه في توحيد الألوهية، القصد والطلب..... ١٠٢
- ١- حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً..... ١٠٣
- ٢- أن يعلم أن الله تعالى أثبت له حقاً لا يشركه فيه مخلوق..... ١٠٣
- ٣- سبب للأمن والسعادة في الدنيا والآخرة..... ١٠٤
- ٤- دخول الجنان والنجاة من النيران..... ١٠٤
- ٥- به تُنال شفاعة الرسول ﷺ..... ١٠٥
- ٦- الاستخلاف في الأرض والتمكين والعزة..... ١٠٥
- ٧- الهداية لكل خير..... ١٠٦
- ٨- الإيمان بالله سبب لدفاع الله عن أهله..... ١٠٧
- ٩- غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه إنما يكمن في الإيمان به..... ١٠٧
- ١٠- غاية صلاح العبد في عبادة الله وحده فهي أسمى غايات الإنسان..... ١٠٨
- محاسنه في توحيد الربوبية..... ١٠٩**
- ١- توحيد الربوبية أعظم دليل على توحيد الإلهية..... ١٠٩
- ٢- أنه يغرس في النفوس تنزيه الخالق عن الظلم..... ١١٠
- ٣- تنشئة النفس على العزة والكرامة..... ١١١
- ٤- اليقين بأن النفع والضرر والعطاء والمنع بيد الله وحده..... ١١٢
- ٥- استلزام توحيد الربوبية لتوحيد الألوهية..... ١١٢
- ١- كون الأسماء والصفات مقتضية لآثارها من العبودية..... ١١٣

- ٢- أنها أصل التوحيد، وأساس بناء الدين..... ١١٤
- ٣- العلم بأسماء الله وصفاته هو الطريق إلى معرفة الله تعالى ١١٥
- ٤- حصول كمال التوحيد للعبد ١١٦
- ٥- التنوع في دعاء الله بكل أسمائه..... ١١٧
- ٦- تزكية النفوس وإقامتها على منهج العبودية للواحد الأحد..... ١١٨
- ٧- الكف عن المعاصي ١١٨
- ٨- تهذيب النفس وكفها عن الحسد والاعتراض..... ١١٨
- ٩- زيادة الإيمان ١١٩
- ١٠- الطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته ١١٩
- ١- العلم بعظمة الله تعالى، وقوته، وسلطانه..... ١٢١
- ٢- شكر الله تعالى على عنايته بعباده..... ١٢١
- ٣- محبة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله تعالى على الوجه الأكمل، واستغفارهم للمؤمنين..... ١٢١
- ٤- الاقتداء بالملائكة فيما يقومون به من طاعة لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ١٢١
- ٥- الأثر العظيم في حياة الإنسان..... ١٢١
- ٦- أن الإيمان بهم من الإيمان بالغيب، الذي هو أصل أصول الإيمان بالله تعالى وما جاء عنه سبحانه..... ١٢٢
- ٧- الثقة بسند الرسالة..... ١٢٢
- ٨- معرفة علاقتهم بالإنسان وقربهم منه في أحوال كثيرة والحفظ الدائم..... ١٢٢
- ٩- ملازمة الاستقامة والحذر من مقارفة المعاصي حذرًا من أن يكتبوا علينا إثمًا،

- أَوْ يَشْهَدُوا عَلَيْنَا بِمَعْصِيَةٍ..... ١٢٢
- ١٠- الطمأنينة في المواطن التي يحضرونها..... ١٢٢
- ١١- تطهير عقيدة المسلم من شوائب الشرك وأدرانته..... ١٢٢
- ١٢- أن يعلم المسلم أن الملائكة لا ينفعون ولا يضررون..... ١٢٢
- ١٣- الإيمان بقدرته التامة **جَلَّ وَعَلَا** على إحياء الموتى..... ١٢٣
- ١٤- الانتباه إلى أن هذه الحياة فانية لا تدوم..... ١٢٣
- ١٥- عمل الحساب للآخرة..... ١٢٣
- محاسن وثمرات الإيمان بالكتب..... ١٢٥**
- ١- العلم بعناية الله تعالى وكمال رحمته..... ١٢٥
- ٢- العلم بحكمة الله تعالى في شرعه..... ١٢٥
- ٣- شكر نعمة الله تعالى في إنزال الكتب..... ١٢٦
- ٤- عبادة الله على بصيرة والتحرر من التخبط الفكري والعقدي..... ١٢٦
- ٥- العيش مع القرآن، والتعبد بتلاوته وحفظه..... ١٢٦
- ٦- سلامة القصد والعمل..... ١٢٦
- محاسن وثمرات الإيمان بالرسل..... ١٢٨**
- ١- العلم برحمة الله تعالى وعنايته بعباده..... ١٢٨
- ٢- شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى..... ١٢٨
- ٣- محبة الرسل **عَلَيْهِمُ السَّلَامُ** وتعظيمهم، والثناء عليهم بما يليق بهم..... ١٢٨
- ٤- هداية البشرية إلى معرفة الخالق وتوحيده..... ١٢٨

- ٥- أن المنهج الصالح لا يمكن أن يأتي إلا من مصدر واحد هو الله تعالى..... ١٢٩
- ٦- تربية أتباعهم..... ١٣٠
- ٧- تعريف الناس بالقيم الحقيقية التي من أجلها خُلِقُوا؛ ومنها: ١٣١
- ١- الرغبة في فعل الطاعة، والحرص عليها رجاء لثواب ذلك اليوم..... ١٣٣
- ٢- الرهبة عند فعل المعصية، والرضى بها خوفاً من عقاب ذلك اليوم، وملازمة التوبة النصوح..... ١٣٣
- ٣- تسلية المؤمن عما يفوته من الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها..... ١٣٣
- ٤- إن معرفة ذلك اليوم حقيقة المعرفة يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء..... ١٣٣
- ٥- معرفة فضل الله وعدله في المجازاة في الأعمال الصالحة والسيئة..... ١٣٤
- ٦- الإيمان باليوم الآخر والجزاء فيه أصل صلاح القلب، وأصل الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، اللذين هما أساس الخيرات..... ١٣٤
- ٧- الإيمان باليوم الآخر مفتاح سعادة الإنسان..... ١٣٤
- ٨- والإيمان بالآخرة ضابط لكل أعمال الإنسان ورقب على كل تصرفاته..... ١٣٤
- ٩- سلامة التفكير وانضباط الموازين وسمو الأخلاق..... ١٣٤
- ١٠- معرفة حقيقة الحياة الدنيا وأنها متاع الغرور، وأنها جسر للآخرة التي فيها الحياة الحقيقية..... ١٣٥
- ١١- الإخلاص لله والمتابعة للرسول ﷺ..... ١٣٥
- ١٢- الحذر من الدنيا والزهد فيها والصبر على شوائدها وطمأنينة القلب..... ١٣٦
- ١٣- اجتناب الظلم بشئى صورته..... ١٣٦
- ١٤- حصول الأمن والاستقرار والألفة بين الناس بالحكم بشريعة الله..... ١٣٧

محاسن وثمرات الإيمان بالقضاء والقدر..... ١٣٨

- ١- هداية القلب..... ١٣٨
- ٢- طمأنينة القلب وارتياحه، وعدم القلق في هذه الحياة..... ١٣٨
- ٣- الخلاص من الشرك، وصحة إيمان الشخص بتكامل أركانه..... ١٣٩
- ٤- الثبات عند مواجهة الأزمات..... ١٣٩
- ٥- تحويل المحن إلى منح، والمصائب إلى أجر..... ١٣٩
- ٦- الاعتماد على الله تعالى، ودفع الإنسان إلى العمل والإنتاج والقوة والشهامة..... ١٤٠
- ٧- تحرير العقل من الخرافات والأباطيل..... ١٤٠
- ٨- الفرح بكل ما يجريه الله عليه..... ١٤١
- ٩- علو الهمة وكبر النفس..... ١٤١
- ١٠- الإيمان بالقدر أقوى حافز للعمل..... ١٤١

❁ الباب الرابع: محاسن باب الإمامة والولاية.

- محاسن الإسلام في باب الإمامة والولاية..... ١٤٢
- ١- أنه أوجب نصبها ولم يترك أمر الأمة سدى..... ١٤٥
- ٢- الترهيب من مسئوليتها حتى يحافظ الولاة على الأمانة..... ١٤٧
- ٣- وضع الشروط التي ينبغي توافرها في الإمام..... ١٤٨
- ٤- اختيار الأنفع والأصلح للأمة..... ١٥٠
- ٥- معرفة مقاصد ومهام الإمام ومسئوليته..... ١٥١
- ٦- تعريف الإمام ما يلزمه من أمور الأمة..... ١٥٢

- ٧- أمر الولاية بالعدل ورفع الظلم. ١٥٥
- ٨ - الأمر باجتماع الكلمة وعدم الفرقة ١٥٦
- ٩ - توجيه الإمام للقيام بعمارة الأرض ١٥٦
- ١٠ - نهى الإمام عن الاحتجاب عن الرعية ١٥٧
- ١١ - أمر الولاية بالنصح للمسلمين ١٥٨
- ١٢ - الأمر بطاعة الإمام في المعروف ١٥٩
- ١٣ - النهي عن نكث البيعة ١٦٣
- ١٤ - تحريم الخروج على الإمام المسلم ١٦٤
- ١٥ - النصيحة لولاية الأمر بالحكمة ١٦٥

❁ الباب الخامس: محاسن القرآن الكريم.

- ١٦٨ محاسن الإسلام في كتابه القويم القرآن الكريم
- ١- القرآن هو رسالة الله إلى الإنسانية ١٧٠
- ٢- معرفة أنه نزل من عند الله وحده؛ فهو حق محض ١٧٥
- ٣- معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل ١٧٦
- ٤- تمييز الناسخ من المنسوخ ١٧٦
- ٥- نزوله على سبعة أحرف لتتسع دائرة تلاوته وفقهه ١٧٧
- ٦- أنه جُمع في عهد النبوة، ودُوّن كاملاً في عهد الصحابة ١٧٩
- ٧- ترتيب آيات القرآن وسوره ١٨٢
- ٨- تواتر نقل القرآن الكريم ١٨٤

- ٩- أن الله خصه بالحفظ في الصدور ويسره بخلاف غيره من الكتب ١٨٥
- ١٠- اتصال سنده إلى رسول الله ﷺ، بل إلى رب العزة سبحانه. ١٨٧
- ١١- أنه لا يمسّه إلا المطهرون. ١٨٧
- ١٢- الأمر بكتابه ورسمه. ١٨٩
- ١٣- أن فيه البيان لكل شيء. ١٩٠
- ١٤- أنه حافظ على نسيج الأمة ووحدة لغتها. ١٩١
- ١٥- أنه لا يعلو عن أفهام العامة ولا يقصر عن مطالب الخاصة. ١٩٢
- ١٦- أنه كتاب الهداية الكبرى للبشرية. ١٩٣
- ١٧- أنه حارب التقليد بلا بصيرة، ودعا إلى النظر، والتأمل في الكون. ١٩٥
- ١٨- أنه فتح الباب للعلوم التجريبية. ١٩٦
- ١٩- أنه حارب العنصرية الجاهلية. ١٩٧
- ٢٠- القرآن أنه كوّن أمة مثالية. ١٩٨
- ٢١- أنه يحض على الانتفاع بالكون. ١٩٩
- ٢٢- عالميته. ٢٠٠
- ٢٣- إعجازه. ٢٠٣
- ٢٤- محاسن التشريع فيه. ٢١٢
- ٢٥- عظمة قصص القرآن. ٢١٩
- ٢٦- تضمنه لكل مقاصد المكلفين. ٢٢٣
- ٢٧- ما امتاز به على غيره من الكتب السابقة. ٢٢٩

٢٨ - الدعوة إلى الوسطية ٢٣٣

❁ الباب السادس: محاسن حفظ السنة.

حفظ الله السنة كما حفظ القرآن..... ٢٣٨

قيد الله للأمة من يذبون الكذب والضعيف عن السنة بوضعهم قواعد الإسناد..... ٢٤٢

ومن محاسن الشريعة تدوين السنة في مصنفات وانتقاء الصحيح منها..... ٢٤٦

❁ الباب السابع: محاسن الإسلام في التشريع الإسلامي..... ٥٤٨

المطلب الأول: محاسن الشريعة في الطهارة..... ٢٥١

المطلب الثاني: محاسن الصلاة..... ٢٥٧

المطلب الثالث: محاسن الزكاة..... ٢٦٨

المطلب الرابع: محاسن الصيام..... ٢٨٠

المطلب الخامس: محاسن الحج..... ٢٨٨

المطلب السادس: محاسن المعاملات..... ٣٠٦

المطلب السابع: محاسن الجهاد..... ٣٢٥

المطلب الثامن: محاسن الإسام في أحكام الأسرة..... ٣٣٨

المطلب التاسع: في إقامة الحدود وأحكام الديات..... ٣٦٣

❁ الباب الثامن: محاسن الإسلام في القضاء..... ٣٧٣

❁ الباب التاسع: محاسن الإسلام في الأخلاق..... ٣٩٢

❁ الباب العاشر: محاسن الحقوق التي دعا إليها الإسلام..... ٤١٦

❁ الباب الحادي عشر: محاسن الإسلام في تعامله مع المخالفين..... ٤٤٠

❁ الباب الثاني عشر: محاسن الإسلام في كتابات غير المسلمين.....٤٥٩

المصادر.....٤٨٤

الفهرس.....٥٢٨

